

مَطَالِعُ الْبُذُرِ فِي مَنَازِلِ السَّرُورِ

تأليف
الشيخ الأديب والفاضل الأريب
علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة

١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت ٥٩٢٢٦٢٠٠ - ٥٩٢٨٤١١ / فاكس ٥٩٣٦٢٧٠

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

E-mail: alsakafa_alDinaya@hotmail.com

٩٩/٩٧٥٨	رقم الإيداع
977-5250-48-X	الترقيم الدولي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب السادس والعشرون

في الحمام وما غزى معناه

الحمام بالتشديد واحد الحمامات المبنية وهو مذكر، قال ابن الخباز في شرح الالفية نادرة عن بعض الكتاب كتب يوما هذه الحمام فقليل له الحمام مذكر فقال أردت حمام النساء وهذا ظريف، وحكى فيه التأنيث أيضا وأنشد.

* وإذا دخلت سمعت فيها رنة *

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الحمام من النعيم الذي أحدثوه، وروى عن أبي الدرداء وأبي ذر أنهما قالوا: نعم البيت الحمام يطهر البدن ويذكر بالنار، وقال أبو هريرة يرفعه نعم البيت الحمام يدخله المسلم يسأل الله الجنة ويستعيز به من النار، وأول من دخل الحمام ووصفت له النورة سليمان بن داود عليهما السلام، فلما وجد حرها قال أواه من عذاب النار، قال الغزالي في الاحياء ومن جهة الطب قيل ان الحناء بعد النورة أمان من الجذام وقيل ان النوره في كل شهر تطفى الحرارة وتنقى اللون وتزيد في الجماع، وقيل بولة في الحمام قائما أنفع من شربة دواء وغسل القدمين بالماء البارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس، وذكر السمعاني في كتاب الحمام باسناده الى الفضل بن الفضل الكندي قال ذكر في قوله تعالى ﴿وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ﴾ ^(١) انها الحمام وقت الضحى، وبسنده الى يونس بن عبد الاجل أنبأنا وهب قال سمعت مالكا يقول من أدخل رجلا الحمام وجب غذاؤه شاء أو أبى وروى عن مجاهد عن علي أنه كان يغتسل من مس الابط والحجامة، وعن جابر مرفوعا نهى أن يغسل البدن بشيء يؤكل، وبسنده قال الحرث بن كلدة أربعة أشياء تهزم البدن: الغشيان على البطنة ودخول الحمام على الامتلاء وأكل القديد ومجامعة العجوز، وبسنده الى محمد بن عبد الحكيم قال سمعت الشافعي يقول رأيت في الطب عجبا لمن

(١) الآية: ٢٧ من سورة الدخان.

يدخل الحمام قبل ان يأكل ثم يؤخر الاكل بعدما يخرج كيف يموت وعجبت لمن احتجم ثم بادر الاكل كيف لا يموت وذكر بعض الحكماء ان غسل الوجه بالماء البارد عقيب الخروج من الحمام يبقى طراوته مع كبر السن، قال الشيخ هبة الله أبو المكارم بن جميع الاسرائيلى الطبيب فى كتاب الارشاد.

الفصل: الخمسون فى الاستحمام ومنافع الحمام ومضاره وكيفية استعماله منافع الحمام كثيرة وذلك لموافقتها لسائر الامزجة من الحارة والباردة والرطبة واليابسة اذا استعملت على ما ينبغى وقد أشار جالينوس الى ذلك بقوله ان الحمام نافع فى الشتاء والصيف ولمن مزاجه حار أو بارد أو رطب أو يابس وقال أيضا: ان الحمام علاج البدن من الضدين ان أخذه حار المزاج عدله بترطيه وان أخذه بارد المزاج أدفاه بحرارته وهى توسع المسام وتستفرغ الفضول وتحلل الرياح وتدر البول وتحبس الطبيعة وتنظف الوسخ والعرق وتذهب الحكمة والجرب والاعياء وتلين بشرة البدن وتجوّد الهضم وتنشط الاعضاء المتشنجة وينضج الزلات والزكام وينفع من حميات يوم ومن الدق والربع والبلغمية بعد نضجها وينفع من وجع الجنب والصدر وينضج الربو ويسمن المهزول ويهزل السمين ويرقق الدم والفضول الغليظة اللزجة بحرارته ويرطب الابدان اليابسة الخشنة برطوبته وقد قال جالينوس ان الحمام يحلل الكيموس اللذاع ويفيد البدن والاعضاء الاصلية نداوة ورطوبة صافية كل ذلك اذا استعمل على القانون الطبى ولها أيضا مضار وهى أنها تسهل انصباب الفضول الى الاعضاء الضعيفة وترخى الجسد وتضعف الحرارة الغريزية والاعضاء العصبية وتسقط الشهوة وتضعف الباءة، قال وأفضل الحمام ما كان قديم البناء كثير الاضواء مرتفع السقوف واسع البيوت عذب الماء طيب الرائحة وكانت حرارته بقدر مزاج الداخل اليه وكان وقوده بما ليس له كيفية ردة وقد أحسن الذى قال: خير الحمام ما قدم بناؤه واتسع فناؤه وعذب ماؤه وقدرّ الاثنان وقوده بحسب مزاج من أراد وروده، وقد قسم الحمام الى ثلاث بيوت كل بيت أسخن من الذى قبله لثلا يكون الانتقال من البرد الى الحرّ أو من الحر الى البرد فجأة: فالبيت الاول مبرد مرطب والثانى مسخن مرطب والثالث مسخن مجفف وكذلك ينبغى أن يكون الانتقال فى بيوتها على تدريج، قال بخثيشوع اياك أن تدخل الحمام أو تخرج بغتة بل البث فى كل بيت هنيئة واغسل رأسك بالسدر والطخه بقليل ملح وادخل الحمام كل جمعة مرة فانك تأمن انتشار الشعر واستعمل المشط فانه

يقوى البصر ويحدث أريحة وزهوا واخرج الى المسلخ متدرجا ثم صب عليك ثوبا نظيفا طيب الرائحة وتجنب النساء يوما وليلة، وقال ابن جميع فأما أصحاب الامزجة الحارة فينبغى ان يقعدوا فى البيت الاول قليلا وفى الثانى دون الاول وفى الثالث دون الثانى وأصحاب البلغم والسوداء بالضد فان قصد بالحمام الترطيب أطيل المقام فى الحوض ويكثر من رش الماء على أرض الحمام ليكثر البخار فيترطب الهواء وليتمرخ بالدهن ليزيد فى الترطيب ويكون الخروج من الحمام قبل أن تلحقه منه مشقة مثل ضعف أو غشيان أو غشى أو شذر أو دوار أو سكتة أو صرع أو ما شابهها مثل هذه الاعراض الرديئة فان كان القصد بالحمام التجفيف أطيل المقام فى البيت الحار ويقتصر على هوائه دون مائه ولا استعمال الماء البارد عقيب الحار منافع عظيمة وقال جالينوس: الاغتسال بالماء البارد عقيب الحار يقوى الاعضاء حتى القوى الجوهرية التى فى الاعضاء لكن ينبغى ان لا يكون استعمال الماء البارد عقيب الحار بغتة بل بتدريج يستعمل الماء أولا ممزوجا بالبارد ثم ينتقل بعده الى البارد ومن قصد تسمين بدنه فيدخل الحمام بعد تناوله الطعام ومن قصد تهزيله يدخل الحمام على خلو المعدة ويطل اللبث فيه ومن قصد حفظ صحته فيدخل الحمام عند آخر الهضم بحيث أنه اذا خرج منها يكون محتاجا الى الغذاء ويجب أن يجتنب الجماع فى الحمام والنوم والقصد والحجامة فان فى ذلك خطرا بينا وكذلك ينبغى أن يجتنب فى الحمام وبعده استعمال الاشياء الباردة بالفعل لان المسام حينئذ تكون مفتوحة فلا يلبث يندفع البرد الى جوهر الاعضاء الرئيسية فيفسد قواها وكذلك ينبغى اجتناب استعمال الاشياء الحارة الشديدة الحرارة بالفعل أيضا وخصوصا الماء فان ذلك يورث السل والدق وأما الدلك فى الحمام فان الضعيف منه يحلل ويوسع المسام ويذوب الاخلاط والقوى يصلب الاعضاء ويحلل الرطوبات والمعتدل يجلب الدم الى ظاهر الجلد وأما التمريخ بالدهن بغير ذلك فيسد المسام ويمنع ما يتحلل وبعد الماء الحار يحفظ الحرارة من التحلل ويسخن ويرطب وبعد الماء يبرد ويرطب، وقال مهذب الدين بن هبل فى كتاب المختار: خير الحمام ما كان قديم البناء فان الحمام قريب العهد بالبناء تكون حيطانه ندية فتكون أراييح صهاريج مضرّة، قال بعض الشراح لهذا الفصل الحمام الجديد البناء يتحلل من حيطانه رطوبات ممتزجة بجوهر الكلس والجص والقار ويتبخر بحرارة الحمام فيضر استنشاقها بالروح والنفس لانها كيميّات رديئة خانقة يستصحب النفس ويهجم

به على القلب فيغير قوام صحته بسبب رداءة الهواء الواصل به بهذه کیفیات الرديئة الجوهر فأما اذا عتقت الحمام قبل تحليل الابخرة الرديئة منها ومن حيطانها فيؤمن الضرر الحاصل منها ومن الواجب أيضا أن يكون الفناء متسعا لان أبخرة الحمام رديئة وكثيرة ومحتبسة لانها تتحلل من أبخرة أبدان الناس ومن أنفاسهم ومن مجارى الحمام النافذة الى فضاء الحمام فيكثر ويتراكم ويختلط بهواء الحمام فيزيده رداءة الى رداءته المكتسبة بحرارة الحمام فاذا استنشقه الانسان أضر بحرارته الغريزية وأنها سبب خروجه لها عن الاعتدال فى كমে وكيفيته أما كমে فهو كثرة الابخرة المخالطة له وأما كيفيته فرداءات الابخرة مع سخونة هواء الحمام فاذا كانت الحمام واسعة الفضاء تعلقت الابخرة باعالى الحمام وتبددت وتفرقت فتلطف الهواء المستنشق فيها فيكون أقل ضرراً من الحمام الصغير ويجب أيضا أن تكون الحمام عالية البناء فان ذلك معين على تقليل ضرر أبخرتها المستنشقة قال: وأما عذوبة مائها فلا تحتاج الى تعليل لظهوره لان المياه اذا كانت عذبة طيبة ليس فيها شيء من کیفیات الغريبة عدلت غالب الامزجة وصححتها فان كانت كيفية غريبة مثل أن تكون مالحة أو كبريتية أو نحاسية أو حديدية أو لها مرور على معادن رديئة الجوهر أو على منابت أشجار خبيثة أو على مطابخ وأجام مبنية كثيرة الحيوانات الرديئة كأنواع الدود والضفادع والحيات وما أشبه ذلك أخرجت المزاج عن اعتداله الى حكم هذه کیفیات الرديئة قال الشارح ومنافع الحمام كثيرة وأعظمها منفعة هو أنها اذا كانت معتدلة الهواء والماء فانها تفتح مسام البدن فيسهل بذلك خروج الفضل منه ويكسبه رطوبة عذبة يصير بها البدن الى نشاط وقوة وتفریح، وقال الرئيس أبو على الحسين بن سينا رحمه الله فى كتاب سماه حفظ الصحة لم يذكر فيه سوى أحكام الاسباب الستة الضرورية لا غير وينبغى ان يكون للحمام ثلاثة بيوت بيت معتدل وهو الذى لا يحس فيه بحر ولا برد وبيت يحس فيه بحرارة معتدلة وبيت يحس فيه بحرارة زائدة عن الثانية بشرط أن يكون النفس فيه مستقيما غير متواتر فالبيت الاول لا يضر كبير مضرة والثانى والثالث فلا يمكث فيهما الا بقدر ما يتحلل من الرطوبة ما من شأنه أن يتحلل فان طال المكث بها أكثر من المقدار المعتدل وخصوصا ان اقترن معه حركات قوية فانه يوقع فى الدق لاشتداد سخونة القلب أو الاستسقاء لتحلل الحار الغريزى فيسرد مزاج الاحشاء قال وينبغى أن يجتنب الحمام على الامتلاء من الطعام فانه يولد سدا فى الكبد والعروق لانجذاب المواد الغذائية غير

منهضمة الى ظاهر البدن فيكون ذلك سببا لحدوث أنواع الحميات العفينة والاسهال الكائن بأدوار ويجتنب فيه الاشياء الباردة مثل الفقاع والماء البارد لان فيه خطرا عظيما جدا لان الشيء البارد السيل اذا حصل فى المعدة هجم دفعة على الكبد والقلب فبردهما وأنهك حرارتهما الغريزية وأضعف الاحشاء وهىأها للاستسقاء ويجتنب فيه الجماع أيضا فانه يسقط القوة ويوقع فى أمراض خطيرة واعلم ان الحمام الحار جدا يسيل الاخلاط الباردة الى أعماق الاعضاء فيحدث اما سددا واما اوراما ويصعدها الى الدماغ ويحدث اما صداعا شديدا أو برساما، والحمام البارد يحرك المادة التى تحركت بالعرق حركة ناقصة فتتجذب المواد الى جهة سطح البدن فربما أحدثت شبيها بالورم والحكة وربما أحدث الزكام والمغص، ورش الماء البارد أو بله بعد الحمام فانه ينعش القوة المسترخية من الكرب ومن لهيب الحميات وعند المغشى وخصوصا بماء الورد والخل وربما صحح الشهوة وآثارها ونصر أصحاب النوازل والصداع وأما سكب الماء البارد على الرجلين فأحكامه أحكام ما تقدم فى الرش على الوجه والحمام النافع على سبيل الاجمال وهو الحمام المعتدل فى حره ويرده الطيب الرائحة العذب الماء التى أضواؤه كثيرة مشرقة وفناؤه واسع وفيه تصاوير بديعة الصنعة بينة الحسن مثل عاشق ومعشوق ومثل رياض وبساتين وطرد خيل ووحوش فان فى تصوير مثل هذه تقوية قوية بليغة لجميع قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسانية وقال الحكيم بدر الدين بن مظفر قاضى بعلبك فى كتاب مفرح النفس قد أجمع الأطباء والحكماء والألباء قاطبة على أن النظر إلى الصور الجميلة البديعة الجمال يفرح النفس وينشطها ويزيل عنها الافكار والوساوس السوداء ويقوى القلب قوة لا مزيد عليها بسبب ازالة الافكار الرديئة عنه ثم قالوا فان تعذر حصول النظر الى الصور الجميلة فليكن النظر الى صور جميلة متقنة الصنعة مصورة فى الكتب أو فى الهياكل أو فى القصور الشريفة وهذا المعنى قد ذكره الحكيم محمد بن زكريا الرازى رحمه الله وبالع فى ملازمة فعله لمن يجد فى نفسه أفكارا رديئة ووساوس فاسدة غير موافقة للنظام الطبيعى وقال فان الصور الجميلة اذا جمعت الى صورتها حسن الاصباغ المألوفة من الاصفر والاحمر والاخضر والابيض مع ضبط نسبة المقادير فى أشكالها فانها تشفى الاخلاط السوداء وتزيل الهموم الملازمة لنفس الانسان وتزيل الكدورة عن الارواح لان النفس تلتطف وتشرق بالنظر الى مثل هذه الصور فيستحلل ما فيها من الكدورة قال وتفكر فى الحكماء المتقدمين الذين

استنبطوا الحمام فى مدد من السنين كيف علموا بدقة فكرهم وصائب عقلهم ان الحمام اذا دخله الانسان يتحلل من قواه شىء كثير فأفيضت حكمتهم أن استخرجوا بعقولهم ما يجبر ذلك سريعا فرسموا فى الحمام صورا بديعة الصنعة بأصباغ حسنة مفرحة وقسموا ذلك الى ثلاثة أقسام ولم يجعلوه قسما واحدا لانهم علموا أن أرواح البدن ثلاثة أصناف: حيوانية ونفسانية وطبيعية فجعلوا كل قسم من التصوير سببا لتقوية قوة من القوى المذكورة والزيادة فيها وصوروا للقوة الحيوانية القتال والحرب وطرده الخيل واقتناص الوحوش وصوروا للقوة النفسانية العشق والتفكر فى العاشق والمعشوق وتصوير معاتبه بينهما أو معانقة وما أشبه ذلك وصوروا للقوة الطبيعية البساتين وصور الاشجار البهية المنظر مع كثرة تصوير الازهار والالوان المشوقة فهذه التصاوير وأمثالها هى جزء من أجزاء الحمام الفاضل ولو سألت المصور المصير عن خصوصية أن الحمام لم لا يصور المصورون فيها الا هذه الاقسام الثلاثة لما علم لها تعليلا لكن بذكر هذه الصفات الثلاثة لا تعلل وسبب ذلك تقادم السنين على تعليل مبادئ الاشياء فما خلوا شيئا سدا ولا يجعل شىء هدرا، وقال الحسن المتطبب ورأيت ببغداد فى دار الملك شرف الدين هرون بن الوزير صاحب شمس الدين محمد بن محمد الجوينى حماما متقن الصنعة حسن البناء كثير الاضواء قد احتفت به الانهار والاشجار فأدخلنى اليه سائسه وذلك بشفاعه صاحب بهاء الدين على بن الفجر عيسى المنشى الاربلى وكان سائس هذه الحمام خادما حبشيا كبير السن والقدر ففرجنى فى مياثه وشبابيكه وأنايبه المتخذة بعضها من الفضة المطلية بالذهب وغير مطلية وبعضها على هيئة طائر اذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والمياه تخرج من سائر الانابيب الى الاحواض ومن الاحواض ترمى جميعها الى بركة حسنة الاتقان ثم منها يخرج الى البستان ثم فرجنى فى خلوة نحو عشر خلوات كل خلوة صنعتها أحسن من أختها ثم انتهى بى الى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد ففتحه ودخل بى الى دهليز طويل كله مرخم بالرخام الابيض السادج وفى صدر الدهليز خلوة مربعة تسع بالتقريب نحو أربعة أنفس اذا كانوا قعودا وتسع اثنين اذا كانا جالسين أو نائمين ورأيت من العجيب فى هذه الخلوة أن حيطانها الاربعة مصقولة صقالا لا فرق بينه وبين صقال المرأة يرى الانسان سائر بشرته فى أى حائط شاء منها ورأيت أعضائها مصورة بفصوص حمراء وخضراء ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر وبعضه أحمر فاما الاخضر

فقل انه حجارة تأتى من الروم والمذهب فهو زجاج ملبس بالذهب صوراً فى غاية الحسن والجمال وهم على هياث مختلفة فى نومهم وهم بين فاعل ومفعول به اذا نظر اليهم الانسان تتحرك شهوته قال الخادم هذا صنعوه هكذا المخدومي حتى اذا نظر الى ما يفعله هؤلاء بعضهم مع بعض من المجامعة والتقبيل ووضع أيدي بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعاً فيبادر الى مجامعة من يحب قال وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التى رأيت هى مخصوصة بهذا الفعل اذا أراد الملك هرون أن يجتمع بأحد من مماليكه أو خدمه الحسان أو جواريه أو نسائه فى الحمام ما يجتمع به الا فى هذه الخلوة فانه لما يرى كل محاسن الصور الجميلة مصورة فى الحائط ومجسمة بين يديه يرى كل واحد منهما صاحبه على هذه الصفة ورأيت فى صدر الخلوة حوضاً رخاماً مضلعاً وعليه عركب فى صدره أنبوب من ذهب يفتح ويغلق بلولب يدار وفوقه أنبوب آخر مثله برسم الماء الحار وفوقه أنبوب آخر برسم الماء البارد والأنبوب الاول برسم الماء الفاتر وعن يمين الحوض ويساره عمودان صغيران منحوتان من البلور يوضع عليهما مباحر الند والعود ورأيتها خلوة شديدة الاضاءة مفرحة بديعة قد أنفق عليها أموال كثيرة وسألت الخادم عن هذه الحيطان المشرقة المضيفة من أى شىء صنعت فقال ما أعلم فما رأيت فى عمري ولا سمعت بأحسن من هذه الخلوة ولا أحسن من هذه الحمام مع أننى ما أحسن أصفها كما رأيتها فانه لم تتكرر رؤيتى لها ولا اتفق لى الظفر بصناعتها ومباشرتها وفى الذى ذكرت كفاية. انتهى كلام الحكيم بدر الدين حسن بن زفر الاربلى ومن خطه نقلت هذه الفوائد:

وقال بعضهم فيه ملغزا:

ومنزّل أقوام اذا ما تقابلوا	تشابه فيه وغده ورئيسه
تنفس كبرى اذ تنفس كربه	ويعظم أنسى اذ يقل أنيسه
اذا ما أعرت الجوّ طرفاً تكاثرت	على من به أقماره وشموسه

وقال العفيف التلمسانى:

مررنا بحمام كأننا نحجه	وقد عقدت منا المآزر نحرم
فلما حللنا منه صدرا كأنما	غدت فيه نيران الصبابة تضرم
بكت منه أجفان الاناييب بيننا	كأننا له اللوام وهو المتيم

وقال محاسن الشواء الحلبي:

شدوا المآزر فوق كشبان النقا
وتجرّدوا فرأيت بان معاطف
ويدوا فأطلع كل وجه منهم
وتضوّع الحمام مسكا عندما
من كل أهيف حل عقدة بنده

وقال جمال الدين يوسف الصوفى فى مליح تركى دخل الحمام ويخ ماء ورد:

ولم أنسه لما تعرّى ثيابه
ولما أفاض الماء فوق قوامه
رأيت هلالا تحته غصن فضة
أنا بما ورد ذكى فببخه
فقلت أظى الترك قد فاح مسكه

دخل ابن بقى الحمام وفيه الطليطلى الاعمى فقال له ابن بقى أجز:

حمامنا كزمان القيط محترم
فأجازه بقوله:

ضدان نعم جسم المرء بينهما
وقال ابن رشيق:

ولم أدخل الحمام ساعة بينهم
ولكن لتجرى عبرتى مطمئنة
أخذه صدر الدين بن الوكيل فقال:

ولم أدخل الحمام من أجل لذة
ولكننى لم يكفى فيض مقلتي

وأشدنى من لفظه لنفسه الشيخ الورع الزاهد الثقة شمس الدين محمد بن سمنديار

الذهبي مضمنا:

لم أبغ بالحمام طيب تنعم
نبيكيت فيه أسى بجسمى كله
أفنى البكاء دموع عيني أجمعا
حتى كأن لكل عرق مدمعا

وأنشدنى سيدى ومولائى القاضى صدر الدين بن الآدمى فسخ الله فى أجله:
 ان حمامنا التى نحن فيها أى مـاء بها وأية نار
 قد نزلنا بها على ابن معين وروينا عنه صحيح البخارى
 كتب الشيخ صلاح الدين الصفدى فى حواشى المقامات عند ذكر ابن سكرة وذكر
 كافاته هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمى من ولد على بن المهدي قال
 دخلت يوما إلى حمام وخرجت وقد سرق مداسى فعدت إلى دارى حافيا وأنا أقول:
 اليك أذم حمام ابن موسى وان فاق المنا طببا وحرأ
 تكاثرت اللصوص عليه حتى ليحفى من يطيف به ويعرى
 ولم أفقد به ثوبا ولكن دخلت محمدا وخرجت بشرا
 نادوة: اتفق ان اثنين سبحا فى نهر فلما خرجا صفع أحدهما صاحبه فقال له بعض
 الحاضرين ابن فلوس الحمام فقال أنزلتها فى القرعة.
 وقال النصير الحمامى:

لى منزل معروفه ينهل جودا كالسحب
 أقبل ذا العذر به وأكرم الجار الجنب
 ووعده السراج الوراق وتأخر فقال:

وكدرت حمامى بغيبتك التى تكدر من لذتها صفو مشربى
 فما كان صدر الحوش مشرحا به ولا كان قلب الماء فيه بطيب
 وقال:

ومذ لزم الحمام صرت فتى لطف يدارى من لا يداريه
 أعرف حر الاشيا وباردها وأخذ الماء من مجاريه
 وقال يستدعى:

من رأى عندى أن تواصل خلوة لها كبد حرا وفيض عيون
 تراعى نجوما فيك من نار قلبها وتبكي بدمع فائض كحزين
 غدا قلبها صبا عليك وانت ان تأخرت أضحى فى حياض منون

وقال صدر الدين بن عبد الحق الحنفى رحمه الله تعالى:

وجنة لا تنطفئ ناراها ندخلها وهى لنا مقصيه
 نعيمنا فيها بلا طاعة عذابنا فيها بلا معصيه

وقال أيضا:

تقطع أكبادنا بالظما
وان يستغيثوا يغاثوا بما

جهنم حمامكم نارها
وفيهما عصاة لهم ضجة

وقال شهاب الدين بن فضل الله:

دحج اليها حفاة عراه
كتاب الطهارة باب المياه

وحمامنا كعبه للوفو
يكرر صوت أنابيبيه

وقال الشهاب محمود مضمنا:

يا مالكي لتسر خلا مشفقا
شدوا المآزر فوق كثران النقا

قل لى عن الحمام كيف دخلته
أدخلته وأولئك الاقوام قد

وقال محيى الدين بن تميم مضمنا:

أعطافه ولجسمه لالا
سال النضار بها وقام الماء

لو كنت فى الحمام والحناء على
لرأيت ما يسببك منه بقامة

وقال مضمنا:

من فوق أبيض كالهلال المسفر
قد أثقلته حمولة من عنبر

عاينت فى الحمام أسود واثبا
فكأنما هو زورق من فضة

وقال جمال الدين بن نباتة مضمنا:

روادف غيد ما سناها بغائب
بياض العطايا فى سواد المطالب

تأملت فى الحمام تحت مآزر
كأنى من هذى وهاذيك ناظر

وقال آخر فى تعجيل الخروج منها:

قبل ان يأخذ منك
حدّث الحمام عنك

خذ من الحمام واخرج
حدّثن عنه والا

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فى المفاضلة بين حمامات مصر وحمامات الشام:

تسمى لى كلمتين
فأنت دون القلتين

أحواض حمامات شام
لا تذكرى أحواض مصر

وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلى معاكسا للشيخ جمال الدين:

ولا تتكبرى عندى بمين
وأطهر وهى دون القلتين

إليك حياض حمامات مصر
حياض الشام احلى منك ماء

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

ولم أنسه كالغصن يطره الحيا
ويلثم بالمنديل أبيض سادجا
وله:

دعاني صديق لحمامه
فشر مزيد وماء قليل
وقال زين الدين بن الوردى:

وما أشبه الحمام بالموت لامرء
يجرد من أهل ومال وملبس
وقال ابن وزير يشبه الماء على الرخام:
لله يوم بحمام نعمت به
كأنه فوق شقات الرخام ضحى
فقال ابن الوردى يهجو:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له
أقام بجهد أياما قريحته
وقال المعمار أيضا:

فى صاحب الحمام ابرى قال لى
لا يشتفى ابر عليه طهارة
قال ابن وزير مثل قول الآخر:

كأننا والماء من حولنا
وقال إبراهيم المعمار فى المجون:

عابت ابرى إذ جاء ملتثما
بل قال لى حين نكته قسما
كيف وفيه طهارتى وبه
وقال شيخ الشيوخ بحماه:

وقيم كلمت جسمى أنامله
ان أمسك اليد منى كاد يخلعها
فليس يمسك امساكا بمعرفة

على اثر حمام ويعطفه الصبا
فصار بضوء الخد أحمر مذهبا

فأوقعنى فى العذاب الاليم
فبئس الصديق وبئس الحميم

يذكر لكن أين من يتذكر
ويصحبه من كل ذلك مئزر

والماء من حوضه ما بيننا جارى
ماء يسيل على أثواب قصار

فكاد يحرقه من فرط اذكاء
وفسر الماء بعد الجهد بالماء

أيلوم فى حبنى له وملاى
الا بقلب الماء فى الحمام

قوم جلوس حولهم ماء

من عقله بالخرا فما اكثرثا
ما جزت حمام قعره عبثا
أقلب مائى وأرفع الحدثا

من غير السنة تكليم خرصان
أو سرح الشعر أنكانى وأبكانى
ولا يسرح تسريحا باحسان

وأُنشدني الجنب المخدومي بن مكناس للشيخ بدر الدين بن الصاحب:
 وقسيم قسيم في حسن صنعته حاز الجمال على لطف من الترف
 لو يخدم البدر أنقى البدر من كلف لكنه لم يزل ما بى من الكلف
 وقال شهاب الدين بن العطار في بلان يدعى موسى:

هياً بالان موسى خلوة تحيي النفوسا
 قلت ما أصنع فيها قال تستعمل موسى

وعلى ذكر موسى ذكرت واقعة لطيفة اتفقت لركن الدين الوهراني وهي أنه لما قدم إلى القاهرة المعزية مدح الأمير عز الدين موسك بن حكو الهدباني خال صلاح الدين يوسف بن أيوب فأمر له بشيء لم يرضه فحضر مجلسه يوماً وفيه حفل كثير من الناس فقالوا يا مولانا احتجت إلى أن أحلق رأسي هذه الساعة وأنه الأمر إلى بعض الجمدارية أن يحضر الساعة ليحلقه لي بحضرتك فكاد الأمير أن يأذن له في ذلك ثم فهم مقصده فقال لبعض مماليكه أعطه مائة دينار وقل له خذ هذه واحلق رأسك في الحمام فأخذها ومضى شاكرًا فقال له بعض الحاضرين يا مولانا ما معنى هذه الحركة فقال أنه أراد إذا حلقه يقول يا مهتار موسك ردىء فيشتما في وجوهنا.

ولا بأس بإيراد نبذة مما قيل في المشط إذا كان من لوازم الحمام وقال شرف الدين بن الحلوى وقد طلب منه ثلاث أبيات تكتب على مشط برسم سلطان حلب الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي:

حللت من الملك العزيز براحة غدا لثمها عندي أجل الفرائض
 وأصبحت مفتر الشايبا لانتي حللت بكف بحرها غير غائض
 وقبلت سامي خده بعد كفه فلم أخل في الحالين من لثم عارض

وللشيخ بهاء الدين الموصلي ولد الشيخ عز الدين ملغزا فيه من أبيات

ظننتم تصحيف مقلوبه يخ ففى وليس الظن بالكاذب

قلت: ورد على من سيدنا ومولانا أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومي المالكي الشهير بابن الدماميني رحمه الله كتاب من مكة المعظمة المشرفة بتاريخ تاسع عشر المحرم سنة احدى وثمان مائة وفيه أنه اجتمع بمكة بالقاضي شهاب الدين بن حجر رحمه الله

ووجد صحبتته شخصا يقال له ابن المرجاني وذكر القاضي شهاب الدين ان المشار إليه كان رفيقا له من اليمن إلى مكة المشرفة وأنشدنا له:

يا اماما سألته حل لغز شاطط عن مزار أهل الذكاء
اهمل الثلث باعثناء وقلب تره جاء قائب الشعمراء
وذكر لي القاضي بدر الدين في مشرفته أنه من الالغاز الصعبة فينبغي أن تقع الفكرة في حله.

قلت: اشتغلت الفكرة في حله فاذا هو لغز في مشط فتأمله ولقد أجاب قائله.
قال السراج الوراق ملغزا:

وبيضاء قد عانقتها وضممتها ولا قبح في جهري بهذا واسراري
على أنه لا عار فيها محقق وما سلمت والله قط من العاري
وقال بعض المتأخرين:

الارب حمام بدا لي حميمه فظاهره مساء وباطنه نار
كاخوان هذا العصر من تلق منهم فللوّ اعلان وللحق اسرار

وكتب القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر يستدعى إلى حمام هل لك أطل الله بقاءك في المشاركة في جمع بين ماء ونار وأنواء وأنوار وزهر وأزهار قد زال فيه الاحتشام فكل عار ولا عار نجم سمائه لا يعتريه أقول وناجم رخامه لا يعتريه ذبول تتنافس العناصر على بلوغ مآريه فأرسل البحر ماء جسده من زبده لتقيل أخمصه اذ قصرت همته عن تقبيل يده ولم ير الشراب له في هذه الخدمة مدخلا فتطفل وجاء وما علم أن التسريح لمن جاء متطفلا وأعلمت النار ضلها الماء فدخل وهو حر الانفاس وغلت من أجله فلاجل ذلك داخله من صوب تشاكله الوسواس ورأى الهواء أنه قصر عن مطاولة هذه النار فأمسك متهيئا ينظر من وراء زجاجة إلى تلك الدار ثم إن الاشجار رأت أن لا شائبة لها في هذه الخطوة ولا مাহمة في تلك الخلوة فارسلت من الأمشاط أكفا أحست بما يدعو اليه الفرق ومرّت في سواد العذار الفاحم كما يمر البرق وذلك بيد قيم قيم بحقوق الخدمة عارف بما يعامل به أهل النعيم أهل النعمة خفيف اليد مع الأمانة موصوف بالمهابة عند أهل تلك المهانة لطف أخلاقا حتى كأنها أعنان بين جحظة والرمان وحسن صنعة فلا يمسك يدا الا بمعروف ولا يسرح تسريحا الا باحسان أبدا يرى مع طهارته وهو ذو صلف ويشاهد مزيلا لكل أذى حتى

لو خدم البدر لأزال ما بوجهه من الكلف بيده موسى كأنها صباح تنسخ ظلاماً أو نسيم ينفض عن الزهر كما ما إذا أخذ صابونة أفهم من يخدمه ما يمر على جسده أنه بحر عجاج وأنه يبدو منه زيد الاعكان التى هى أحسن من الأمواج فهلم إلى هذه اللذة ولا تعد الحمام دعوة أهل الحراف فربما كانت هذه بين تلك الدعوات فذة.

وكتب فى محضر قيم حمام الصوفية يقول العبد الفقير إلى الله تعالى فلان أن أبا الحجاج يوسف ما زال لاهل الصلاح حميماً وله جودة ذهن يستحق بها أن يدعى قيما كم له عند كل جسد من صباح من جسيم وكم أقبل مستعملوه ﴿تعرف فى وجوهم نضرة النعيم﴾^(١) كم تجرد مع شيخ صالح فى خلوة وكم قال ولى الله يا بشرى لأنه يوسف حين أدلى فى حوضه دلوه كم خدم من الصلحاء والعلماء انسانا وكم ادخر بيركتهم لدنيا وأخرى فحصل من كل منهم شفيعين عريانا ومؤتزرا كم حرمة خدمة له عند أكابر الناس وكم له يد عند جسد ومنة على رأس كم شكرته أبشار البشر وكم حك رجل رجل صالح فحقق أن السعادة لتلحظ الحجر قد ميز بخدمة الفضلاء أهله وقبيله وشكر على ما يعاب به غيره من طول الفتيلة تتمتع الاجساد من تنظفه لحمامه بظل ممدود وماء مسكوب ويكاد كثرة ما يخرج من المياه أن يكون كالمرح أنبوا على أبواب كم رأس أنشدت موساه:

ولو أن لى فى كل منبت شعرة لسانا يث الشوق كنت مقصرا
وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى ابن معبد وكان متولى دمشق يشكو من حمام سرق فيها شاشه يقبل الأرض مستجيرا بهذا البيت الذى لا يذل جاره مستغنيا بكرمه الذى ملأت الاقطار أخباره فما عبر المملوك فى عمره أحر من هذه الحمام ولا نكس فى رأسه العلية مثل هذه الأيام فياللعواطف العربية وياللمراحم النفوس الايبة فوالله لقد خف رأس المملوك من الجهتين عقله وشاشه ولقد تعوض من تاج عمته العربية مخدة فراشه ولقد أخذت منه هذه الحمام المتلفة ولقد نشفته بالمناشف فبش الحمام والمنشفة وهذا وقت اغاثة الملهوف والرغبة فى اسداء المعروف لا قطع الله عن أرواح المضطرين ترويح هباته ولا عطل من منته المتظمة أجياد عفاته بمنه وكرمه * وكتب الشيخ برهان الدين القبراطى وقد استدعى إلى الحمام:

قد أجبنا وأنت أيضا فصحت بتلافيك سالف وسلاف
ويساق نسي العقول بساق وقوام وفق العناق خلاف

يقبل الأرض وينهى أن المملوك ما خرج عن الاهتمام لدخول الحمام فإنه متشوق لما لمولانا تشوق إليه وموجه وجه فكرته عليه وكيف يمكن الوقوع فى الخلاف والميل إلى الاخلاف:

وحمامكم كعبة للوفود تحج إليها حفاة عراه
يكرر صوت أنايبها كتاب الطهارة باب المياه

فلا عدت التنبيه من مولانا على هذا المنهاج ولا فقدت آداب ألفاظه الممدوحة التى ما لها منهاج ولا حرمت عند الحمام هذا النصير ولا عاقنى عند ارادة التخليق بمطالها تقصير ولا زلت أمحو بها أية ليل الشعر وأخلع بها بعد ثياب البدن ثياب الوضر وأتعم بها حسنا لها من جامها فى كل ناحية من وجهها قمر ولا يخفى أن الرأس تروى الآن عن الاشعث بن أبى الشعثاء أخباره والجسد كأنما كانت على أب وزير المعتصم أظماره فالأولى أن يلتقى ويعتاض عنها بما هو أبقى ومولانا أجل ساع فى إسداء المعروف وأفعال بر أعيذها بالاسماء الحسنى ما اشتملت عليه من الحروف لا زال بحر احسانه الطهور سالما من الخوض وخزائن فضائل الجملة محروسة الجنب بجاه صاحب الحوض.

فصل: فيما ورد فى ذمها قال الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بش البيت الحمام تكشف فيه العورات وترتفع فيه الأصوات ولا يقرأ فيه آية من كتاب الله، ودخل بعض الامراء مع الرقاشى الحمام فقال ذمه فقال يهتك الاسرار ويؤلف الاقدار ويذهب الوقار، فقال امدحه فقال يذهب القشافة ويعقب النظافة ويفش التخمة ويطيب النغمة.

قل ويكره الحمام بين العشائين وقريب من المغرب قال الزمخشري ويكره أن يعطى الرجل امرأته أجره الحمام لأنه يكون معينا لها على المكروه وقال أيضا الحزم ترك الحمام اذ لا يخلو من عورة مكشوفة ولا سيما من تحت السرة إلى العانة.

ومن آدابه أنه إذا دخله رفع رجله اليسرى عند الدخول وقال **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** أعوذ بالله من الرجس والنجس والخبيث المخبث من الشيطان الرجيم وذكر السمعاني فى كتاب الحمام عن مجاهد عن على أنه كان يغتسل من مس الابط والحجامة وماء الحمام، ويسنده إلى فرقد السبخى أنه قال ما دخل نبي حماما قط ولا أكل ثوما ولا بصلا ولا كراثا.

الوصف قال بعضهم:

وحمام سوء وخيم الهواء قليل المياه كثير الزحام
فما للقيام به من قعود ولا للعود به من قيام
حنياته عطفات القسى وقطراته صائبات السهام

وقال شعرا:

كانها صدر وقد أخرجوه
وماؤها كالمهل يشوى الوجوه

حمامنا من ضيقها تشتكى
فهي لظى نزاعة للشوا

وقال ابن شرف القروانى:

تن والظلمة والضيق
ألوطها والعرق الريق

كأنما حمامكم فقحة الند
كأننى فى وسطها فيشة

وقال ابن رشيق:

فصادف التشبيه تحقيق

وأنت أيضا أعور أصلع

الباب السابع والعشرون

فى النار والطباخ والقدر

النار مؤنثة من ذوات الواو لأن تصغيرها نوية والجمع نور وانوار ونيران انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها وليس فى الأرض شجرة إلا وتقدح منها النار إلا العناب، وهى على أنواع عند العرب نار القرى وهى أعظم النيران ونار السلامة توقد للمسافر إذا قدم سالما غانما، ونار الزائر والمسافر وذلك أنهم إذا لم يحبوا الزائر والمسافر أن يرجع أوقدوا خلفه نارا وقالوا أبعد الله وأسحقه ونار الحرب يوقدونها على مكان عال لمن بعد عنهم ونار الصيد يوقدونها للظباء فتغشى أبصارهم ونار الاسد كانوا يوقدونها إذا خافوه لأنه إذا رآها حدق إليها وتأملها ولم يستطع الهجوم على ما حولها ونار الحلف لا يعقدون إلا عليها يطرحون فيها الملح والكبريت فإذا استشاطت قالوا هذه النار قد تهددتك ونار الغدر كانوا إذا غدر الرجل بجاره أوقدوا له نارا بمنى أيام الحج وقالوا هذه غدره فلان ونار الفداء كانت ملوكهم إذا سبوا قبيلة وطلب منهم الفداء كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا لثلا يفتضحن ونار الوسم التى يسمون بها الابل لتعرف ابل الملوك فترد الماء أولا ونار الحرتين كانت ببلاد عبس تسطع من الحمرة بالليل فبعث الله خالد بن سنان وهو أول نبي بعث من ولد إسماعيل وقد قدمت ابنته على النبي ﷺ فبسط لها رداءه وقال بنت نبي ضيعه قومه فحفر لتلك النار بئرا فأدخلها فيها والناس ينظرون ثم اقتحم فيها حتى غيها وخرج منها، وقد بالغ مهيار الديلمي فى وصف نار القرى:

ضربوا بمدرجة الطريق خيامهم	يتقارعون على قرى الضيفان
ويكاد موقدهم يجود بنفسه	حب القرى حطبا على النيران
وقال أبو طاهر البغدادى:	
خطرت فكاد الورق يسجج فوقها	ان الحمام لمغرم بالبان
من معشر نشروا على هام الربا	للطارقين ذوائب النيران
وقال صردر:	
قوم إذا حى الضيوف جفانهم	ردت عليهم ألسن النيران

وقال ابن سنا الملك:

لنيرانه فى الحى أى تحرق على الضيف ان أبطأ وأى تلهب

وأين هؤلاء القوم الكرام من الذين يقول فيهم الاخطل:

قوم إذا استنجح الاضياف كلبهم قالوا لامهم بولى على النار

فتحبس البول شحا أن تجود به فما تبول لهم إلا بمقدار

لا يخفى ما فى هذا البيت الأول من المعائب وقد ولع الادباء بحلها وما فيها من

المعاني وقال مجير الدين بن تميم:

وكأنما النار التى قد أوقدت ما بيننا ولهيبها يتضرم

سوداء أحرق قلبها ولسانها بشفاة للحاضرين تكلم

وقال آخر:

انظر إلى النار وهى مضرمة وجمرها بالرماد مستور

شبه دم من فواخت ذبحت وفوقه ريشهن مشور

وقال آخر:

كانون يطفى برده كانوننا ما بين سادات كرام حذق

بأراقم حمر البطون ظهورها سود ينضض باللسان الأزرق

وقال ظافر الحداد:

تأمل ففى الكانون أعجب منظر إذا سرحت فى فحمة جمرة النار

كما ميل الزق المروق ساكب فذب احمرار الخمر فى قلل القار

وقال آخر:

كان كانوننا سماء والجمر فى وسطه نجوم

ونحن جن بجانبيه والشعر الطائر الرجوم

وقال آخر:

كانما دخاننا اذ بدا لعين من ينظره من قريب

ذوائب من غادة سرحت وقد بدا فيها بياض المشيب

وقال آخر:

كانما النار فى تلهبها والفحم من فوقها يلظيها

زنجبية شبكت أصابعها من فوق نارنجة تغطيها

وقال آخر:

كأن نضيد الفحم فوق شراره
يذكر أيام السحاب التى جرت
فأنبت منها الآبنوس بنفسجا
وقال الشيخ صفى الدين الحلى:

البحترى منذ ما فارقتموه غدا
لو شئتم أنه يضحى أبا لهب
وقال ظافر الحداد:

كأن سواد الفحم من فوق جمره
غداثر خود فرقتهما وقد غدت
فلما تنامى صبغه خلت أنه
إلى أن حكى بعد الخمود رماده
كتب النصير الحمامى ملفزا إلى السراج الوراق:

وما اسم ثلاثى به النفع والضرر
وليس له وجه وليس له قفا
يمد لسانا يختشى الرمح بأسه
يموت إذا ما قمت تسقيه قاصدا
أيا سامع الابيات دونك حلها
ومن التغزلات اللطيفة بذكر النار قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ:

قد أودعوا القلب لما ودّعوا حرقا
راودته يستعير الصبر بعدهم
قال علاء الدين الوداعى:

يا مودعا بوداعه فى مهجتي
أبكيت طرفى بعد ادمعه دما
قال صفى الدين الحلى:

لا غرو أن يصلى الفؤاد ببعدهم
قلبي إذا غبتم يصور شخصكم
نارا تؤججها يد التذكار
ففيه وكل مصور فى النار

وأنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه:

يا مقلة الحب مهلا فـقـد أخذت بـشـارك
وأنت يا وجتـيـهـه لا تحسـر قـسـيـنى بـنـارك

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة مع منقل أهده ونهى أنه تهجم ونقل منقلا لطيف الصنعة جليلا إذا تأمل نفعه إذا هبت الشرر فى ليل فحمه ولعبت يد الرياح بأزاهر ضمره فكأنه معدن ياقوت أحمر أو نبت جلنار بزهر يروق البصائر والابصار والا يكن فيه على الحقيقة جلنار ففيه جلنار طالما جدت معاشرته ولذت فى الليالى الشتوية مسامرته وأطلع من أفقه نجوما سعيدة القران وتلا على الريح والثلج ويرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران^(١) والرأى أعلا فى قبول اهدائه والله يجعل ما فى قلبه فى قلوب أعدائه، قرأت فى كتاب روضة الجليس ونزهة الانيس تأليف الفاضل بدر الدين حسن بن زفر المتطبب الاريلى حكى عن سليمان بن محمد المهدي الصقلى قال كان بسوسة افريقية رجل نبه شاعر وكان يهوى غلاما جميلا من غلمانها وقد اشتد كلفه به وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيرا فبينما هو ذات ليلة منفرد بشرب الخمر وحده غلب عليه السكر وذكر معشوقه وأجرى بخاطره ما كان يفعله به من التجنى فقام من حينه فأخذ قيس نار وجعله عند باب الغلام ليحرق عليه داره فلما دارت النار بالباب بادر باطفائها وقبضوا عليه واعتقلوه فلما أصبحوا نهضوا به إلى القاضى وأعملوه بفعله فقال له القاضى لاي شيء أحرقت باب هذا الغلام فأنشأ يقول:

لما تمادى على بعبادى وأضرم النار فى فؤادى
ولم أجـد من هواه بدا ولا معينا على السهاد
حملت نفسى على وقوفى ببابه حملة الجـواد
قطار من بعض نار قلبى أقل فى الوصف من رقـادى
فأحرق الباب دون علمى ولم يكن ذاك من مـرادى

قال فاستظرف القاضى واقعته وشعره ورجمه وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فى وصف حصار بالنار فما كان إلا ريشما ابتسمت لهم النار عن الموت العابس وعاملتهم من اعجال وقودها باليابس وجاءت بما ينضج ملابس الجلود وجلود الملابس وعاجلتهم من منفعة الغوث قبل العطب وأصلتهم نارا تبت بها

أيدى الابراج حمالة الحطب وإذا بأبدان البدنات القائمة قد قعدت والابراج لتلاوة الحرب قد سجدت فهناك هجمها المسلمون هجوم الليث الكرار وقطعت السنة السيوف المجادلة حجج رقاب الكفار وقال القاضى الفاضل فى مثله فولجت النار موالج تضيق عنها الفكر ويعجز عنها الابر وخولف المثل فى أن السعادة لتلحظ الحجر وأغنى ضوء نهارها سؤال كل امعة أن تسأل هذا وذاك ما الخبر إلى أن بدا ضوء الصباح وكأنه منها امتار وانشق الشرق فكأنه من عصفرها صبغ الازار إلى أن سرى ذا النقوب إلى المقاتل ودب سكرها بين المفاصل وغدت الجدران قائمة والبلا سار فى أعقابها متجلدة والنار تحت ثيابها وقال أيضا وقد أحمته إلى أن أحرقتة وصرح الشرك وقد خاضته إلى أن أغرقته وأن الخندق بركة والبرج لها فوارة وأن الله أعد للعدو نارا فى الآخرة وأحرقهم فى الدنيا بشراره وأن العدو تحصن من البرج بكثيب بنفسج أحرقه الله بجلنار وقال سيدى تقى الدين بن حجة فى حريق دمشق هذا وكم مؤمن قوم خرج من دياره حذر الموت وهو يقول النجاة وطلب الفرار وكلما دعاه قومه لمساعدتهم على الحريق ناداهم وقد عدم الاصطبار ﴿ويا قوم ما لى ادعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار﴾^(١) وقال ابن سناء الملك:

يا فالق الصبح من لآلاء غرته وجاعل الليل من أصداعه سكنا

لا غرو ان أحرقت نار الهوى كبدى فالنار حقا على من يعبد الوثنا

القول على الطباخ وينبغى أن يكون عند الرئيس والملك طباخ حاذق إذا لم يشته طعاما صنع له ما يشتهيه وقيل كل طعام أعيد إلى القدر فهو فاسد وكل غناء خرج من تحت السبال فهو بارد قال بعضهم كنت جالسا عند بعض ولاية الطوف وقد جاءه الغلمان برجلين فقال لاحدهما من أبوك فقال:

أنا ابن السذى لا ينزل الدهر قدره وان نزلت يوما فسوف تعود

ترى الناس أفواجا إلى باب داره فهم قيام حولها وقعود

فقال ما كان أبو هذا إلا كريما ثم قال للآخر من أبوك فقال:

أنا ابن من ذلت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها

خاضعة أذعنت لطاعته يأخذ من مالها ومن دمها

فقال الوالى ما كان أبو هذا إلا شجاعا وأطلقهما فلما انصرفا قلت للوالى أما الأول

فكان أبوه يبيع بالقلى المصلوقة وأما الثانى فكان أبوه حجاما فقال الوالى:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا
يغنيك مضمونه عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا
ليس الفتى من يقول كان أبى

قلت: وأنشدنى سيدنا ومولانا القاضى شهاب الدين بن حجر رحمه الله للشيخ بدر
الدين بن الصاحب فى مליح يطوف بالقول:

أنا ابن الذى فى الليل تسطع ناره
يدور بأقداح العوافى على الورى
قال محمد بن العفيف فى مليح طباخ:

رب طبـاخ مـليـح
مالكى أصـبـح لكن
وقال الصفدى:

كافى بطباخ تملك مهجتي
وكأنما أنا منصب قدامه
وقال المعمار

كافى بطباخ تنوع حسنه
لكن مخافى من جفاه وكم غدت
وقال أيضا مواليا:

هويت طباخًا بالصبحه أخدميه
ولو أطارف نواعم بيض زبيده

وقال بعضهم ما على الشيخ المسن أضر من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء
لأنه يكثر من الطعام فيسقم ومن النكاح فيهرم وقال إبراهيم المعمار:

وطباخ بمنصبه افتخار
أياديه على الإخوان مسدت
وكم آمنوا به من خوف جوع
سيعطى الامن فى يوم المخاف

دخل ابن الفضل الشاعر يوما على الوزير ابن هبيرة وكان عنده نقيب الاشراف وكان
مبجلا وكان ذلك فى يوم شديد الحر من شهر رمضان فقال له الوزير أين كنت فقال فى

مطبخ سيدى النقيب فقال له ويحك أيش عملت فى شهر رمضان فى المطبخ فقال كسرت
الحر فيه يا مولانا فتبسم وخجل النقيب الفرزدق:

وقد علم الجيران أن قدورنا ضوامن للأرزاق والريح رفرف
ترى حولهن المعتقين كأنهم على صنم فى الجاهلية عكف
وقال أمية بن أبى الصلت:

وكانهن بمسا سجن للضيف مترعة زواجر
وكانهن بمسا سجن وما حمين به ضرائر
وقال الفرزدق يهجو:

لو أن قدرا بكت من طول ما حبست على الجفون بكت قدر ابن عمار
ما مسها دسم مذ نض مدمعها ولا رأت بعد نار القين من نار

obeikandi.com

الباب الثامه والعشرون

فى الاسماك واللحوم والجزور

كتب الوزير المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس إلى الشيخ بدر الدين البشتكى رحمه الله وقد كانوا بمجلس أنس بشاطئ الروضة فى أيام وفاء النيل السعيد فاتفق أن الشيخ بدر الدين صاد حوتا عظيما بالصنارة يداعبه بلغنى رفع الله قدرك على السماك وأعلى محللك وأسماك وأجرى بسعدك وأمرك فى نهر السماء وبحور الأرض الافلاك ولا زالت هم نظمك البدرية ونثرك تعلو على النثرة وفتكات عزماتك الماركية تسمو إلى صيد نسر السماء من وكره وحوتها من المجرة ولا برحت تصرف حروف المحاسن فتخدمك من كل محجر عين ومن كل جانب نون ولا فتئت تجمع شمل المعالى إلى أن يفترق الفرقدان ويلتقى الضب والنون ويغدو سهيل فى السماء مصادف الثريا ويصبو الحوت للسرطان أن مولانا مع جماله خلافا للمعز أقلق السابح فى لجه وراع كل حوت حتى حوت الأرض فى تخومه وحوت السماء فى برجه وجاور ذوات البحر فكان لها بنس الجار يطعمه الذى أقامه عليهم فى الحيلة مقام بنجه وأنه شد وسطه للصيد وكان من الحزم وأرسل آلة صيده إلى الاسود والاحمر من أمم البحار فعادت عود أولى العزم فعد بعد ذلك مولانا للصيد بالمرصاد واطاعته حروف النص فكلما تلا لسان البحر نونا تلا لسان العزم صاد (مفرد).

وهى السعادة فى السماء فلو تشا لطعنت منها رامحا بالاعزل

فمن ذلك صيد الحوت الذى قدم من أقصى النيل فيا له من سفر بعيد وفارق وطنه وورد مع التيار السريع فى البحر المديد فأوى إلى الشط طالبا غداه اذ لقي من سفره هذا نصبا وركن إلى البر فليته لو عقل «فاتخذ سبيله فى البحر سربا»^(١) ولم يعلم أن سيدنا وضع الحبل وجعله لصيده معنى وصورة سببا فاخرمته يد المنية باعوجاج الصنارة التى نصبها لدواب البحر فحالا للقهو والضعيفة التى تعامل أقوياء الاسماك فى أعظم البحور السائلة بالنهر كأن هذا المسكين من صالح الاسماك الذى أفنى الايام سبحا طويلا فساح

(١) الآية: ٦١ من سورة الكهف.

وأتى يقبل جدارا حل فيه قدم مولانا وبركته مجازاة فجازاه التمساح أو كأنه لجأ إلى البر هربا من عوارض الامواج وآمن بمجاورته فأخذ من مأمنه وخاب أمله من لاج فسيح بعد بحار الامن من بحار المنون فى لجج وقالت له الحيتان إذا أعماك القضاء عن رشذك حدث عن البحر ولا حرج وكان ظنه أن عومه فى الشط ينجيه فكان حتفه فى ذلك العوم وعلى الجملة فقد آن أجله ولو آوى إلى جبل لقليل لا عاصم اليوم فأنت به حوتا يلوح بياضه بين هضباب الموج كالبدور من سحجف الغمام وتبدو عليه مهابة تشعر أنه من نسل حوت يونس عليه السلام فأعيد هذا الحوت بالنون وصائده الكاتب الاديب بالقلم وما يسطرون فلقد ظفر بما لا ظفر به الحواريون فى شباكهم المشبكة ووقع له ما لو وقع لابن صياد لتناول عجبا وانتفخ حتى ملأ الشبكة وحصل به للجماعة من السرور ما يحصل بوفاء النيل وشاهدوا من جزله العظيمة كل خير جزيل ومنحوا من سنه وعظمه بالجواهر النقى وانياب الفيل وأرخصوه للقرى بعد أن أمسى فى القدور يغلى وقلوه فطاب مأكلا وان كان مما لا يقلى ونوعوه محلى وحامضا فالمحلى جعلوه نقلا على الكتوس حين تجلى وفازوا على رأى ابن حزم وان لم يكن من أصحاب رأى بالمحلى والمجلى والحامض فقطعوا عند أكله بالذوق أن ذلك الحوت مر لا محالة وقال آخرون بل هو هالة لتناسب البدور والهالة وحملوا به الموائد وحكموا لصائده بالتقدم على الضفدع الاديب فى مصائد الشوارد وقدموه على ما عندهم من طرى وبائت وأكلوه من ساعته كيلا يندموا على فائت قائلين لا تؤخروه فللتأخير آفات ولا تبيتوه فكلما بات فات وبادروا طراوته لعلمهم أنه أطيب ما يؤكل من السمك البورى الطرى واستطابوه ضرورة ولا خلاف أن صائد الحوت أكثر تلذذا بأكله من المشتري هذا وأما الاسماك بذلك الشاطى فقد نادى مناديهم بالرحيل وقال أديهم للبنية مصحفا يا بنية ليس المقام هنا جميل فكم فرخ حوّل وكر أمه من هناك وشال وكم عصبه من السمك صرخت قاقا وقطعت الجبال وكم طائفة من رشادها فرت إلى البرور الخالية من العباد وكم طائفة تخلفت ووقعت فى الشباك فقيل ضلت عن سبيل الرشاد وكم طائفة أسرع إلى رءوس الجبال الحزكة وكذبت العروضيين فى قولهم لم أر على ظهر جبل سمكة وكم سمكة قالت لفراخها اهجرأ ماءكم ومأواكم كما هجرت مأواى واخلوها هذه الديار وان أعشبت وابتغوا صائب الراى ومنهم من عمد إلى عمق البحر نجاة وسارت به سفينة عزمه فى موج كالجبال وكان سبب النجاة وتواصوا لما رأوا طغيان الماء أن لا يأووا

إلى البرور وتحققوا أنه الطوفان لما فار على أخيه المصاب التنور وكم قاتل الحمد لله الذى قطع عنا أثر هذا النون العظيم وأزال عينه وقائلة سبحانه من أراح ضعفاء السمك من هذا الجبار وفرق بينهم وبينه فشكرا إذا غدا مولانا شيخ البر والبحر وأضحى فى نسكه ابن السمك وفى صدق حديثه أبا ذر وأمسى ضرع البلاغة مسخرا له فإن جمع لغيره أو أبادر أحياه الله بدرا يشرق فى سماء المعالى وتحلى أجياد الفصاحة من بحور نظمه ونشره بالجواهر والآلى وجمل به السماء كما جمل به الأرض ولا جعله كأدباء أهل هذا الزمان الذين هم كالأسماك يأكل بعضهم بالغية لحم بعض بمنه وكرمه والسمك بارد رطب يولد البلغم وينفع المحرورين ويضر بالمشايخ ودفع مضرته بالافواه الحارة والصعر والملح وصغاره بالخل نافع لأصحاب الامزجة الحارة ومن به يرقان وكبدته حار والمالح منه حار يابس يولد السوداء ويضر بالمحرورين

فصل فى اللحوم: عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ سيد طعام أهل الدنيا والآخرة اللحم، وفى حديث آخر سيد الآدمى فى الدنيا والآخرة اللحم وسيد الشراب فى الدنيا والآخرة الماء، وقال ﷺ اللحم يطيب النفس ويفرح القلب ويحسن الوجه ويشد العصب، وكان محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رضي الله عنه عبلا رخص الانامل يكاد الماء يجرى بين جلده ولحمه فقال له أبو حنيفة ما غذاؤك قال ما أريد على الخبز واللحم شيئا قال هذه الشحمة منهما تنعقد، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء، وقالت الاطباء أحمد اللحمان ما خصى من الضأن وكان فتيا ولا خير فيما أسن ولحم الضأن نافع من المرة السوداء إلا أن الممرودين الذين يصرعون إذا أكلوه اشتد بهم ذلك ولحم المعز يورث الهم ويفسد ويحرك السوداء ويحدث التسيان ويحيل الاولاد، ولحم الدجاج الهرم أضر اللحمان وأغلظها وقال أبو حاتم قال خالد بن يزيد أطيّب الابل لحوما الورق وأطيّب البقر لحوما الصفّر وأطيّب الشياه لحوما الحمر وأطيّب الدجاج لحوما السرد وأطيّب الفراخ لحوما البيض، وقال عبد الله بن جعفر سمعت رسول الله ﷺ يقول أطيّب اللحم لحم الظهر، وعنه ﷺ أنه قال من سره أن يقل غيظه فليأكل لحم الدراج، ولما حضرت الوفاة للحارث بن كلدة قيل له أوصنا بما نتفع به بعدك فقال لا تتزوجوا من النساء إلا الشباب ولا تأكلوا من اللحم إلا الفتى ولا من الفواكه إلا ما نضج ولا يتداوين أحدكم بدواء ما احتمل بدنه الدواء وإذا تغذيتم فناموا قليلا وإذا تعشيتم فامشوا خطوات، وقال نجيثشوع للمأمون

أوصيك يا أمير المؤمنين أربعة أشياء: لا تأكل طعاما بين نبذين ولا تجماع على شبع إلى أن يخلو جوفك من الرياح والنجو ولا تأكل من لحم البقر فوالله إنى أمر به فى الطريق فأعطى عيني وعين برذونى من شدة مضرتة.

نادوة: قرأت فى كتاب ملح الكنايات ولمح التعريض والاشارات تأليف جمال الدين يوسف بن مرتفع بن الفقيه فتح الدين مجلد الكتب المعروف بنقائى ووجد الشريف محاسن عريف سوق الكتبيين فى دكانه يتغذى فدعاه للاكل فقال من أى شىء تأكل فقال شىء من لحم جمل صغير رأيت فاشتيت أن آكل منه فجلس وأكل معه فنظر إليهما الضياء موسى الناسخ فقال يا محاسن احذر أن يراك المحتسب فيؤذيك قال على م قال لأنك تحشى النقائى بلحم الجمل فاستحسن ذلك منه، وفى الحديث من داوم على اللحم أربعين يوما قسى قلبه ومن تركه أربعين يوما ساء خلقه.

فصل: كتب الوزير فخر الدين عبد الرحمن بن مكناس سامحه الله تعالى إلى فتح الدين صدقة بن سعيد الكاتب بديوان الخاص وكان المذكور أسود ينحرف من ذكر العبيد والسواد يقبل اليد الكريمة السديدة الفتحية لا زال فتحها رشيدا وفعلها سديدا وسعدها جديدا وقولها مفيدا ومطلعها صبيحا ومفلح مقاصدها نجيجا واقبال سرورها مستمرا ورافق العز عليها مسبطرا كثر الله عبيدها وألحق مقترها بسعيدتها ويصف ولاءه الذى تشهد به ذاته الكريمة بل السواد الاعظم واخلاصه الذى صفا وده إلى أن عاد كفرة البدر فى الليل الادهم ويبدى ما يجده إلى مولانا فى نفسه من الميل ويذكر محبته التى لا تتغير ما ولج الليل فى النهار والنهار فى الليل وينهى أنه يسط عذر مولانا فى تأخير أبقار الاضحية بهذا العيد جعله الله عليك أبرك الاعياد ويتشكر من انعامه بكل كبش ينزل فى سواد وينظر فى سواد ويمشى فى سواد وكيف لا ومولانا انسان عين الزمان والمفدا بسويداء القلوب من طوارق الحدثان فأبقاه الله يجزر فى ميادين الكرم الذيل ويستتر بحلمه سقطات الجهال ستر الليل وعلم المملوك أن المقر الاشرف المالك قد اقتدى فى اضحية المملوك خاصة برأى الامام مالك إذ يرى الاضحية بالغنم أفضل وأن القربى بذبحها أكمل وأن الله جعل الابقار لحرث الاراضى ذات الطول والعرض وأنه خصها من اضحية المملوك بكل ذلول تشير الأرض فإذا عوتب على ذلك قال نعم أحلينا بأضحيته فى هذا العيد وقابلناه عن محبته لنا من الحرمان بما لا عنه مزيد وقطعنا مرتبه من الديوان إذ كان عندنا المخلص ﴿وما ريك

بظلام للعبيد^(١) ثم تأخذه العزة لأنفه المناصب ويتذكر عن المطلوب وذل الطالب فيقول قد منعنا ما سقنا من هدى انعامه إليه وان هو إلا عبد أنعمنا عليه فلو كان الامر لمولانا مستبدا به لبدل البقر بكرائم الخيل وأوضح من فخر الانعام الخيط الابيض من الخيط الاسود ومحا من ظلمة المنع آية الليل وساق أيده الله ما شاء من البقر إلينا وأنعم علينا غير معتذر ولا متعنت يقول ﴿إن البقر تشابه علينا﴾^(٢) على أن مولانا إذا لاحظ أنعم لك صفراء فاقع لونها لكن من الذهب العين وإذا نأى نعق بفراق البقر غراب البين وإذا شاء أتحنف من ضياء انعامه بكل در نفيس وإذا أتى بقلع من بحر الظلمات في الريح المريس فطالما أمست شآبيب انعامه مسكويه وحر كات فضله محبوبه والسنة الخواص قائلة الحمد لله الذي كف عنا النوب بأكف النوبة والمملوك ما يرح كثير المحبة لمولانا من حين شمله بجزيل الاحسان هاجر مسموع الطير بجملته كرها للقاتل منها ما دق قفا السودان، وقال الشيخ زين الدين بن الوردي مضمنا:

بتنا ضيونا لغادة قصدت ذبح خروف قد طاب واعتدلا
حلت رباط الخروف منشدة أما ترى الشمس حلت الحملا

وممن ولع بذكر الجزارة والجزور الاديب الفاضل أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار فمن ذلك قوله:

إنى لمن معشر سفك الدما لهم دأب وسل عنهم إن رمت تصديقى
تضىء بالدم اشراقا عراصهم فكل أيامهم أيام تشريق

وقوله:

حسن التأنى مما يعين على رزق الفتى والخطوب تختلف
والعبد مذ كان فى جزارته يعلم من أين يؤكل الكتف

أهدى بعضهم إلى صديق له كبشا فى يوم أضحية وكتب معه رقعة يصف سمنه فأجاب المهدي إليه وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق ولفظ موتق وعبارة مضبئة ومعان غريبة وتصرف بين نجد أمضى من القدر وهزل أرق من نسيم السحر وتنقلت فى وجوه الخطاب الجامع للصواب إلا أن الفعل قصر عنه القول لا بل ذكرت جملا جعلته بصفتك

(١) الآية: ٤٦ من سورة فصلت.

(٢) الآية: ٧٠ من سورة البقرة.

جملا واتساع فى البلاغة يعجز عنها عبد الحميد فى كتابته وسحبان فى خطابه وكان المعيدى يسمع به لا أن يراه وحضر فرأيت كبشا متقادماً الميلاد من نتاج قوم عاد قد أفتته الدهور وتعاقبت عليه العصور وظننته أحد الزوجين الذى جعلهما نوح فى سفينته ليحفظ بهما جنس الغنم لذريته صغر من الكبر ولطف من القدم فبانته زماته وتقاصرت قامته وعادنا حلا ضئلا باليا هزيلا بادي السقام عارى العظام جامعا للمعائب مشتملا على المثالب يعجب العاقل من حلول الحياة فيه لأنه عظم مخلد وصوف ملبد لا يوجد فوق عظامه سلب ولا تقع اليد منه إلا على خشب لو مر به الكلب لاستجافه أو اطرح للذئب عند الخوى لعافه قد طال فقده الكلاء وبعد عهده بالامتلاء لم ير الغشاء الا نائما ولا الشعير إلا حالما وقد تحيرت بين إن اقتنيت فىكون فيه عنا الدهر أو أذبحه فىكون جيفة على وجه النهر فملت إلى استبقائه لما تعرفه من محبتي التوقير ورغبتي فى التمييز وجمعي للولد وادخاري للعدد فلم أجد فيه مستمتعا للبقاء ولا مرفقا للعناء لأنه ليس بانثى فيحمل ولا يثنى فينسل ولا بصحيح فيرعى ولا سليم فيبقى فملت إلى الثانى من رأيك وعملت على الأخرى من قولك فقلت أذبحه ليكون وظيفة للعيال وأقيميه رطبا مقام قديد الغزال فأنشدنى وقد أضمرت النار وحدت الشفار وشمر الجزار:

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فى من سمنه وربما

ثم قال وما الفائدة لك فى ذبحى وأنا لم يبق فى النفس خافت ومقلة أنسانها باهت لست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمى ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الايام قد مزقت أدمى ولا صوفى يصلح للغزل لأن الحوادث قد خصت وبرى وإن أردتنى للوقود فكف بمر أفتى من نارى ولن تفى حرارة جمرى بريح قتارى ولم يبق إلا أن تطالبنى بدحل أو بينى وبينك دم رجل فوجدته صادقا فى مقالته ناصحا فى مشورته ولم أعلم من أى حالة أعجب أم من مماطلته للدهر من أجل البقاء أم من صبره على الضر والبلاء أم من قدرتك عليه مع اعواز مثله أم من تأهيلك الصديق مع ما به خساسة قدره.

الباب التاسع والعشرون

فيما تحتاج إليه الأطعمة من البقول في السفرة

القول على القبرع ويسمى الدباء قال ابن جزلة في المنهاج أجوده الرطب الأخضر الحلو وهو بارد رطب في الثانية وقال رومس إنه حار رطب ويتولد منه غذاء شبيه بما يصحبه فإن أكل بالخردل ولد خلطا حريفا وإن أكل بالملح ولد خلطا ملحا ومسلوقه يغذو غذاء يسيرا وينحدر سريعا وهو جيد للصفراء وبين وعصارته تسكن وجع الأذان مع دهن ورد وينفع من أورام الدماغ وسويقه ينفع من السعال ووجع الصدر من حره وهو لقطع العطش جيد ويلين البطن وإذا دفن في الخمر وشرب مع السكر نفع من الحميات وهو يفسد في المعدة لمخالطة خلط رديء ويضر بأصحاب السوداء والبلغم. انتهى. رافع الاندلسي.

وقرع تبدى للعيون كأنه خراطيم أفيال لطخن بزنجار الباذنجان: قال ابن القيس في الموجز قيل بارد وقيل حار يابس في الثانية وهو أصح يولد السوداء والسدد والسرطان والجرب السوداء والبواسير والصلابة والجذام ويفسد اللون ويصفّر ويثر الفم انتهى كلامه.

الوصف: قال ابن المعتز فيه:

وابذنج بستان أنيق رأيته على طبق تحكيه مقلّة راق
قلوب ظبا أفردت من كبودها على كل قلب منه مخلب عاشق
وقال ابن رشيق القيرواني

وإذا صنعت غداءنا فاجعله غير منبذج
إياك هامسة أسود عريان أضلع كسوسج

وقال صاحب كتاب ملح الممالحة وكان شيخنا الاسدي يعجبه الباذنجان ويقول في تفضيله إن الناس يأكلونه ثمانية أشهر من السنة وهم أصحابا ولو أكلوا الرمان ثمانية أشهر قلعوا وقيل لرجل ما تقول في الباذنجان فقال أنوف الزنج وأذنان المحاجم وبطون

العقارب ويزر الرقوم فليل إنه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لو حشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح وقال صاحب المنهاج أجوده الحلو الأوساط والعتيق ردىء والحديث أسلم ولا يبين ضرره كثيرا إلا أنه غذاء مألوف وهو حار يابس فى الثانية وفيه غلظ والمر منه حار يابس بلا خلاف والحديث أقل حرارة وأردؤه ما أكل مشويا وهو ينفع من عرق الدم لشدة رفته وليس له نسبة إلى إطلاق ولا عقل إليه إن طبخ فى دهن أطلق وإن طبخ فى خل أو سماق عقل وهو يحدث وجع الخواصر والمعدة والعتيق يبشر الفم ويولد السوداء والسدد ويسود البشرة ويولد البواسير وينبغى أن ينقع فى الماء والملح ويسكن فيه ثم يعمل بالدمس الكثير والخل والكراويا .

القلقاس: قال ابن جزلة فى المنهاج حار رطب فى الأولى وقيل إنه معتدل الحرارة رطب فى الثانية يزيد فى الباءة انتهى . وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى رسالة السجع الجليل فيما جرى من النيل عند ذكر الجزيرة الوسطى وقد أخلق ديباج روضها لانف وترك قلقاسها بمدى وجزره على شفى جرف .

بعينى رأيت الماء فيها وقد جرى على رأسه من شامق فتكسرا
غيره:

طالما تضرع بأصابعه إلى ربه
ولطم برءوسه الحيطان مما جرى على قلبه

وتمثل بقول الأول:

وإن سألك يوم البـيـس عن قلبى وما قاسى
فقل قاسى وقل قاسى وقلقاسى وقل قاسى

لم يفد تحصينه من ورقه بالدرق والستائر ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه فصح أن
الماء سلطان جائر:

يا ويح قلقاس بمصر يقول لى لما اغتدى فى غيطه غرقانا
النيل مثل دم لفرط زيادة فلذا برأسى يلطم الحيطاننا

السلجم: وبالشين أيضا قال ابن جزلة وهو اللقت وهو برى وبستانى وهو حار فى الدرجة الثانية رطب فى الدرجة الأولى يغذى كثيرا ويولد منيا يدر البول ولا يسهل ويشهى الطعام إذا سلق دفعتين وطيب بالخل والخردل وماؤه ينفع من الحصر وفيه غلظ ونفخ وان عرض منه ذلك فليتناول بعده أحد الجوارشانات .

الجزر: فى المنهاج أجوده الاحمر الشتوى وغذاؤه أقل من السلجم وهو حار فى آخر الدرجة الثانية رطب فى الأولى يحرك الباءة ويسهل ويلطف ويدر البول وهو عسر الهضم منفخ يولد ماء رديئا وينبغى أن يكثر انضاجه ويصلح بالمرى والخل والخردل وقال بعضهم:

انظر إلى الجـزـر الذى يحكى لنا لهب الحـريق
كـمـدية من سندس فيها نصاب من عقيق

الاسفاناخ: قال ابن جزلة أجوده فى المنهاج الممطور وهو رطب بارد فى آخر الدرجة الأولى وقيل معتدل من الحرارة والبرودة فهو ملين ينفع السعال والصدر وفيه قوة التحليل وهو سريع الانحدار عن المعدة يلين الطبع وينفع من أوجاع الظهر الدموية وهو يسىء الهضم ويضر أصحاب الامزجة الباردة.

السلق: قال ابن جزلة هو صنفان أسود لشدة خضرته وأقل لونا منه وأجوده العذب الطعم وهو حار يابس فى الدرجة الأولى وقيل هو مركب القوة وقيل رطب فى الأولى فيه بورقه ملطفة وتحليل وتفتيح وفى الاسود قبض وينفع من داء الثعلب والكلف والخزرة والثآليل إذا طلى بمائه ويقتل القمل وتطلى به القوبا مع العسل ويفتح سدد الكبد والطحال والاسود منه يعقل وخصوصا مع العدس والصنف الآخر المهرا ويحقن بمائه لاجراج الثقل وهو ينفع من القولنج مع المرى والتوابل وهو يمغص ويولد النفخ وهو ردىء الكيموس قليل الغذاء يحرق الدم ويصلحه الخل والخردل وأصله ردىء المعدة انتهى.

وقال ابن زهر فى خواصه عن هرمس ورق السلق وورق العاقر قرحا من كل واحد دائق إذا جعل فى طعام باسم انسان وأطعم عمل فيه روحانية المحبة عملا عجيبا وقال ابن زهروان رض السلق وعاقر قرحا وذر فى مجرى ماء الحمام برد وسكن حره وقال أيضا وإن رض ورقه بدم الحمام ودفن فى إناء رصاص أربعين يوما تولد منه دود أخضر طوال فإذا طبخت بماء السلق وطللى به رأس الأقرع أثبت فيه الشعر وإن شدخت الدودة التى تكون فى السلق ودفنت فى برج حمام أو علقت عليه لم يقرب البرج شىء من الحيوان الضارى انتهى.

فصل البصل: فى المنهاج فيه مع الحرافة المقطعة مرارة وقبض وما كان منه أطول فهو أحرف والاحمر أحرف من الابيض وأجوده الابيض الريان وهو حار يابس فى الثالثة وهو ملطف يقطع ويجذب الدم إلى خارج البدن ويزيد فى الباءة وينفع من تغير المياه ويفتح

الشهوة ويلين الطبيعة وإذا قطر ماؤه فى الاذن ينفع من الطنين وهو يجلو البصر وينفع من ابتداء الماء والبياض اكتحالا بعصارته ويهيج خروج الشعر وإذا دق وعجن بعسل ووضع على الظفر الغليظ والقواىى والبهق قلع ذلك ويطلّى به داء الثعلب وينفع من عضّة الكلب الكلب^(١) سقيا بشراب ومن نهش الحيات وهو يصدع للرأس والاكثر منه يشيب ويضر بالعقل ويكثر اللعاب ويفتح أفواه البواسير ويصلحه الخل واللبن الحامض أو مع الهندباء، وقال نصر بن سيار يوما وحوله بنون له هؤلاء بنو البصل لأنه كان يأكل كثيرا منه فيحتاج وقال ابن وكيع يحكى لعينيك احمرار قشره إذا رآه ناظر غلا ثلا حمرا على جسم بيض رطاب من جسم الروم.

الثوم: كذا ذكره صاحب المنهاج بالشاء المثلثة منه بستانى ومنه برى ومنه كراثى والكراثى مركب القوة من الثوم والكراث وهو حار يابس فى الدرجة الرابعة وقيل فى الثالثة وهو أقوى حرارة ويسا من البصل وهو يحل النفخ وينفع من تغيير المياه وطبخ الجبلى منه إذا شرب قتل القمل ورماده يطلّى به البهق مع العسل وكذا الثعلب والجرب والقواىى ويصفى الخلق مطبوخا ويخرج العلق من الحلق وإذا حشى فى طبخ ورقه وساقه أدر الحيض والبول وأخرج المشيمة وأكله يخرج الديدان ويطلق الطبع وهو نافع من لسع الهوام ونهش الحيات وعضّة الكلب الكلب سقيا بشراب وينفع السعال من برد ويصفى الخلق وهو مقرح للجلد مصدع مضعف للبصر جالب يثور العين وإذا طبخ قلت حرارته وحرارته وتصلحه الحوامض والادمان واللحوم السمان والثوم دواء لمن أصابه وجع السعى فى بطنه وإذا شوى ووضع على الضرس المأكول سكنه، وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أمرنا النبى ﷺ بأكل الثوم وقال لولا أن الملك ينزل على لأكنته.

وقال بعض الشعراء فيه:

يا حبذا ثومة فى كف ضاهية بدیعة الحسن تسبى كل من نظرا
أبصرتها وهى من عجب تقلبها كصرة من ديبقى حوت دررا

الكزبرة: ويقال كسبرة منها رطبة ومنها يابسة وقوتها مركبة والغالب فيها أرضية وأجودها البستانى وهى باردة فى آخر الأولى واليابسة منها فى الثانية وأبقراط يقول فيها حرارة وبرودة وعند جالينوس إنها تميل إلى التسخين وفيها قبض وتخدير وهى تزيل روائح

البصل والثوم إذا مضغت رطبة أو يابسة وعصارتها مع اللبن تسكن كل ضربان شديد وتنفع من الأورام الحارة مع الخل والاسفيداج ودهن الورد ومعه العسل للبشرى والنار الفارسي وينفع من الجمرة ومن الدوار عن بخار المرار والبلغم وخاصيته أن يمنع البخار من الرأس وكذلك يجعل في الطعام ورطبه ينفع الرعاف ودرور يابسه والمضمضة بعصارته رطبة تنفع من القلاع وهو ينفع الخفقان عن حرارة ودرهمان منها مع لسان الجمل ينفع نفث الدم وهو يمنع من القيء والجشاء الحامض بعد الطعام والاكثار منه يخلط الذهن ويظلم البصر ويخفف المنى ويكسر الباءة ويصلحه سكتنجبين السقرجلي.

وأما البقل فما ورد عن النبي ﷺ أنه قال البقل حلية الموائد وفيما رواه مكحول عن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال أحضروا موائدكم البقل فإنها مطردة للشياطين وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال دخلت مع النبي ﷺ إلى حذيفة بن اليمان فتلقانا بنبات يقال له الباذروج فنظر إليه وقال أهلا بك من بقلة ما أطيب ريحك وأحسن منظر فكأنك لمن رياض الجنة ثم نظر إلى الهندباء فقال يا لك من بقلة تهضم الطعام وتحبى الفؤاد وتجلو عن الناظر.

قائدة: منقولة من خط القاضي أمين الدين بن الانفى المالكي رحمه الله تعالى قال ذكر السويدي صاحب التذكرة أن الإمام فخر الدين الرازي ذكر أنه من رأى الهلال أول ليلة وكان موجوع الضرس فقال نذرت لله أن لا أكل الهندباء ولا لحم الفرس سكن وجع ضرسه ذلك الشهر وقال ابن زهر في خواصه قال يوحنا بن ماسويه إن دق أصل الهندباء وضمد به لسعة العقرب سكن الوجع والبرى منه إذا شرب ماؤه مع الشراب نفع من لدغ الافاعي وقال ابن النفيس في الموجز يابسه يابس في الأولى ورطبه رطب في الأولى يفتح سداد الاحشاء والعروق وفيه قبض صالح يقوى المعدة والكبد أما الحارة فشديد الموافقة لها وأما الباردة فللخاصية وتنفع مع الخيار شنبّر لاورام الحلق وتنفع الرمد وبياض العين.

الكرفس: حار يابس يفتح السدد ويدر البول وهو نافع للمعدة ويبطئ بالهضم ولذلك يجب أن يقدم قبله طعاما يختلط به وهو يطيب النكهة ويحتاج إلى أكله من يداخل السلطان ومن كان خدمته السر وقال ابن النفيس في الموجز حار في الأولى يابس في الثانية يحلل النفع ويفتح السدد ويسكن الوجع ويطيب النكهة جدا رديء للمصرع تهيجه في المصروعين وينفع السعال والكبد والطحال والكلية والمشانة وينفع الاستسقاء وعسر البول وتفتت الحصاة وتضر الحبالى الادارة ويهيج الباءة.

النعناع حار يابس وهو نافع من الفواق قال ابن زهر فى الخواص ان جعل من ورق النعنع الثلث ومن ورق النمام السدس ومن حب القرع النصف وجعل فى طعام واحد باسم آخر عمل فيه روحانية المحبة.

الطرخون: فى المنهاج قيل إن عاقر قرحا هو أصل الطرخون وهو جبلى وبستاني وأجوده البستاني وهو حار يابس فى الثانية وفيه قوة مخدرة وقيل إنه بارد وهو مجفف الرطوبات فإذا مضغ نفع من القلاع ويمضغ قبل شرب الادوية الكريهة وهو يقوى المعدة ويحدث وجع الحلق وهو عسر الهضم ويقطع شهوة الباءة ويعطش ويصلحه الكرفس.

الفجل: من كتاب هاضم الطعام وبزره نافع من الفواق إذا أكل بالعسل وإذا شدخ على عقرب ماتت وإن شرب ماء ورقه نفع من اليرقان الحادث من الطحال.

قلت: ومن منافعه ما تجربته وصح أنه إذا مضغ ووضع على العين المحمرة من لطم وكرر ذلك فإنه يزيل الحمرة فى الحال وقال ابن زهر فى خواصه ورق الفجل معصورا يؤخذ ماؤه وشيء من نشادر فيلطح به سلة الحاوى فتموت الحيات كلها وورقه يحد البصر وإن سحق بزره مع كندس متساويين وطفى به البهق الاسود فى الحمام بالماء الحار والخل أذهب وإن أخذ ماؤه وخلط بالخل والطين وطفى على لسعة الزنبور أبراهها وقال جالينوس عصارة الفجل إذا اكتحل بها جلت البياض من العين وإذا خلط ماء الفجل بماء الورد وسخن وقطر فى الأذن أذهب عسر السمع والطين منها وإن دق ورقه وصفى ماؤه وأسعط به صاحب اليرقان رأيت عجبا وقال ارسطاطاليس مما يبيض الشعر مثقال من ورق الملوخيا والفجل ويعجن بمرارة الثور ويضمده به الشعر بالليل ويغسل بالنهار فإنه يصير الأسود أبيض وإن طلى الوجه بماء الفجل أذهب عنه النمش والكلف وإن دخن بورقه فى بيت هربت منه الهوام (قال) النور الاسمردى يهجو:

أيا مطعمما أصحابه إذ دعاهم من الفجل فى أوراقه غير ما يمرى
وحقك ما أكرمتهم مذ لقيتهم بجيش ضراط تحت راياته الخضر

نادرة: كان أبو نواس يوما عند بعض اخوانه فخرجت عليه جارية بيضاء عليها ثياب خضر فلما رآها مسح عينيه وقال خيرا رأيتك إن شاء الله قالت ما رأيت؟ قال: رأيت كأننى راكب أشهب عليه ثياب خضر قالت له إن صدقت رؤياك استدخلت فجلة.

الرشاد قال ابن البيطار إذا شرب بالماء الحار حل القولنج وأخرج الديدان وحب القرع

إن سحق نيثا وسف نفع من البرص وإن لطخ عليه وعلى البهق الأبيض بالخل نفع منهما وإذا خلط بالعسل ولعق منه نفع من السعال المتولد عن اخلاط غليظة وإذا ضمدت به لسعة العقرب نفعها.

زين الدين بن الوردى:

رب خـسـولى بدا من حـيـه وهو ينادى
من يمت فى ورد خـسـلى أهده سـبـل الرشاد

أنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه ملغزا

ما اسم له أحرف ثلاث تصحيفه جمعه بقل
عدتها فى الحساب سبع وإن ترد مثله فكل
إن تجر ما إليه يكثر وإن تزد نقطة يقل
يدوى إذا المساء قل لكن يصح جـسـما إذا يعمل

obeikandi.com

الباب الثلاثون

في الخوان والمائدة وما فيهما من كلام مقبول

كنية الخوان أبو جامع لاجتماع الناس حوله قال الحريري في درة الغواص ويقولون لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة والصحيح أن يقال خوان إلى أن يحضر الطعام عليه يسمى حينئذ مائدة يدل على ذلك أن الحواريين حين سألوا عيسى عليه السلام بأن يستنزل لهم طعاما من السماء قالوا هل يستطيع ربك أن ينزل مائدة من السماء بينوا معنى اسم المائدة بقولهم نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا قال الاصمعي غدت ذات يوم إلى زيارة صديق لي فاستشرت بعض الاخلاء فقال إن كان لفائدة أو عائدة أو لمائدة والا فلا وقد اختلف في تسميتها بذلك ف قيل سميت به لانها تميد بما عليها أى تتحرك مأخوذ من قوله تعالى ﴿وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد بكم﴾^(١) وقيل بل هى من ماد أى أعطى ومنه قول رؤية بن العجاج إلى أمير المؤمنين الممتاد أى المستعطى وكأنها تميد من حوالها مما أحضر عليها وقد أجاز بعضهم أن يقال فيها ميدة واستشهد عليه بقول الراجز:

وميدة كثيرة الألوان تصلح للجيران والاخوان

وقال الكواشى فى تفسير سورة المائدة ولما سأل الحواريون المائدة لعيسى عليه السلام لبس صوفا وبكى وقال ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾^(٢) الآية، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين من فوقها وتحتها وهم ينظرون وهى تهوى منقضة حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة ثم قال ليقيم أحسنكم عملا فليكشف عنها وليذكر اسم الله تعالى فقال له شمعون أنت أولى بذلك منا فقام عيسى عليه السلام وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيرا وكشف المنديل عنها وقال بسم الله خير الرازقين وإذا هو سمكة مشوية ليس عليها فلوس ولا شوك بها يسلم منها الدسم وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد زيتون وعلى الثانى غسل وعلى الثالث

(١) الآية: ٣١ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية: ١١٤ من سورة المائدة.

سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة فقال عيسى ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ولكنه شيء افتعله الله بالقدرة الغالبة كلوا مما سألتكم يمددكم الله ويرزقكم من فضله فقالوا يا روح الله كن أول من أكل منها فقال معاذ الله أن أكل منها ولكن يأكل منها من سألها فخافوا أن يأكلوا منها فدعا لها أهل الفاقة والمرضى وقال كلوا من رزق الله ولكم الهناء ولغيركم البلاء فأكلوا وصدروا وكانوا ألفا وثلاثمائة ما بين رجل وامرأة من فقير ومريض وزمن ومبتلى وإذا السمكة كهيتها حين نزلت ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون إليها حتى توارت وما أكل منها مريض الا عوفى ولا فقير الا استغنى وندم من لم يأكل منها فلبث أربعين صباحا تنزل ضحى فيأكل منها الاغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء حتى إذا فاء الفىء طارت وهم ينظرون فى ظلها وكانت تنزل كناقاة صالح فى الحلب فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتى ورزقى فى الفقراء دون الاغنياء فعظم ذلك على الاغنياء حتى شكى الناس فقال أتريدون المائدة حقا تنزل من السماء فأوحى الله تعالى أنى شرطت أن من كفر بعد نزولها عذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾^(١) الآية، فمسخ منهم ثلثمائة وثلاثة وثلاثين رجلا أصبحوا خنازير فلما رأى الناس ذلك بكوا ورجعوا إلى عيسى فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف بعيسى وعيسى يدعوهم بأسمائهم يشيرون برءوسهم ويبكى ويبكون وهم لا يقدرين على الكلام ثم هلكوا أجمعين وما أظرف قول ابن حجاج:

يا ذاهبا فى داره جائيا بغير لا معنى ولا فائدة

قد جن أضيافك من جوعهم فاقرا عليهم سورة المائدة

قلت: الشيء بالشيء يذكر أنشدنى الشيخ المحدث الرحلة الفاضل المفسن الرحال صلاح الدين خليل الاقنسى نزيل دمشق المحروسة قال أنشدنى الشيخ العارف المحقق المسلك الحكيم برهان الدين إبراهيم الغرى الشهير بابن رفاعة أعاد الله من بركاته من لفظه لنفسه:

لما مرضت أرسلت لى صلة وعنده

لعلمها أنى فتى أهوى النساء والمائدة

جارية وسكرا لاكل والمشاهدة

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

أميل لأغصان القدود صباية وإن هى زادتنى جفا وتباعدة
ويعجبنى بين الانام تطفلى عليها إذا شاهدتهن موائدة

رجع: قال حاتم الطائى لغلامه قدم السينا مائدة تتباعد ما بين أنفاسنا قال هدية بن خالد
حضرت أمير المؤمنين فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما فى الأرض فنظر إلى المأمون
وقال أما شبعت يا شيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين إنما شبعت فى فئائك وفى كنفك ولكن
حدثنى حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أكل من
تحت مائدته أمن من الفقر فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت
حتى جاءنى ومعه منديل فيه ألف دينار فناولنى فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك، وعن
عبد الله بن عباس رضي الله عنه من أكل ما سقط من الخوان رزق أولادا كانوا صباحا وينبغى أن
يصرف عن المائدة السنور والكلب وذو العيون الرديئة من الغلمان ومن يعلم منه الشره أو
يشبعوا قبل احضارهم الطعام قال النبى ﷺ من أكل وذو عينين ينظر إليه ولم يواسه ابتلى
بداء لا دواء له، قال النيفاشى فى سرور النفس حدثنى من حدثه بعض التجار الذين كانوا
يردون إلى خدام القصر فأضافنى فى حجرة له متصلة بالقصر فلما حضرت المائدة كان بين
أيدينا سنانير كثيرة فعندما شاهدوا المائدة وضعت لم يبق عندنا منها واحد ومرّت كلها
خارجة عن المجلس دون طارد يطردها فعجبت من ذلك كل العجب فلما انقضى الطعام
أحببت أن أعرف العلة فى ذلك فسألت الخادم فأخذ بيدي وأدخلنى إلى بيت صغير فيه عدة
أوانى فيها طعام والسنانير مجتمعة عليه تأكله فقال عودناها إذا حضر الطعام أن تطرد إلى هذا
البيت ويعد لها طعام فيه فصارت عادة لها، واتفق فى أمر الكلب وحضوره بالمغرب واقعة
عجيبة وذلك أنه كان بمدينة من بلاد المغرب حمال يحمل فى السوق فأتى من حملة ذات
يوم فاشتري زلاية وهريسة فى صحيفة وصعد بها إلى سطح السوق يأكلها فتبعه كلب
فجلس إزاءه وهو يأكل فجعل كلما شال لقمة إلى فيه يشيعها الكلب ببصره حتى يتلعه
الرجل ثم صار يرفع اللقمة ويومئ بها إلى الكلب على سبيل العبث به فيقرب الكلب منه
فيأكل اللقمة ويزجره فلم يزل دأبه ذلك حتى بقيت لقمة واحدة فروغها فى الدهن وأومئ
بها نحو الكلب ثم ألقاها فى فمه فمضغها وابتلعها والكلب محقق نحوه فلما صارت

اللقة فى حلقومه وثب عليه الكلب فاستل الحلقوم واللقة فاكلهما وخر الرجل ميتا (عبد العزيز بن المهذب):

لله در غلام جناء يخدمنا بسفرة من رفيع القطن فوراء
بدائر أزرق من حول دارتها تحار فيه وفيها مقلة الرائي
كأنها روضة خضراء مزهرة وحولها جدول من أزرق الماء

ومن التحف النفيسة: ما ذكره القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه أصاب عطية بن مرداس العلوى لما ملك الرحبة فى سنة اثنين وخمسين وأربعمائة وحازما كان أذخره أبو الحرث رسلان اليساسيرى من مال وغيره ومما كان وجده ببغداد من الخليفة إلى جعفر عبد الله القائم ومن ذخائر بنى العباس حين خلعه ونهب داره فى سنة خمسين وأربعمائة وجد فيها مائدة فيروزج بحوافى مكالة بالجواهر لا قيمة لها ولا قدرا يعرف مما انتقل إلى بنى العباس من ذخائر الاكاسرة كتب البرهان الغزولى النحوى السكندري سحبة ملاعق أهداها للمصاحب زين الدين بن الزبير:

لما بعدتم وكاد اليأس يقصينا من نيلكم ودنت منا أمانينا
بتنا على سغب الآمال فى ظمأ والشوق ينشرنا طورا ويطنونا
ثم استتبنا تحيات السلام عسى تعود منكم تحيات فتحسينا
وقد بعثنا لكم مملوءة قبلا مثل الايادى التى أعيت أيادينا
مستطعمات طعاما من مطاعمنا وافنكم بلسان الحال تحكيانا
ومما يكتب على سفرة الأكل:

ألا كل هنيئا ولا تحتشم فما الاحتشام فعال الكرم
فما الجود والفضل الا لمن تفضل الينا بنقل القدم

الخبز وما ورد فيه: قال ابن عباس رضي الله عنه أكرموا الخبز قليل وما أكرام الخبز قال لا تنتظروا به الاדם إذا وجدتم الخبز كلوه حتى تؤتوا بغيره قال أبو محمد بن خلاد كان الحسن ابن رجاء يقول السميد طعام الملوك والحوارى طعام الخواص والخشكار طعام العامة والشعير طعام الزهاد وكان حميد لا تخلو مائدته من مائة رغيف سميد فى كل رغيف رطلان وكان خبزه موصوفا ببغداد كأنه المرأة المجلوة بياضا وحسنا وربما يرى فيه شعر اللحية لشدة بياضه قال أحمد بن أبى داود قال لى الواثق يوما ما جمال الموائد فقلت يا أمير

المؤمنين كان يقال جمالها كثرة الخبز عليها فقال أصبت وأحسن فتإذا اختلفت الألوان وكان الخبز كثيرا شهد لصاحبها بالشرف.

قال الاصمعى كان الرشيد يأكل يومين متواليين خبز السميد والثالث الحوارى والرابع الخشكار والخامس والسادس خبز الارز النقى من خبز التنور وكان يقول الارز غذاء صحيح قال بعض الاطباء الخشكار فيه بعض الحرارة وهو أسرع انحدارا من المعدة لأجل النخالة التى فيه لأن فيه جلى للمعى وهو يولد الحكمة وأكله بالادام الدهن يدفع ضرره والخبز الخمير أحمد الخبز وأوقفه وأمرأه والقطير بطيء الانهضام يولد الريح وخبز التنور أغذا وأنفع والخبز المملوك وخبز الطابق ثقيلا ضاران والخبز السميد المعتدل الخبز يخصب الجسم ويجدد السدد وأكله بالاسفندباجات والطباهجات المالحة يصلحه وكان جبريل بن بختيشوع لا يؤثر على الحوارى شيئا ويقول هو الواسطة وروى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم»^(١) قال هو خبز البرّ وماء القراح والظل قال العنبي عن أبيه قال خرج أبو سفيان فى جماعة من قريش وثقيف يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم فلما ساروا قال أبو سفيان إنا لعلّى خطر من قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه فأياكم يذهب بالعرير فإن أصيب فعلينا دمه وإن يغنم فله نصف الريح فقال غيلان بن سلمة الشقفى أنا أمضى فى العير وكان أبيض طويلا جعدا فلما وصل ديار الملك لبس ثوبين أصفرين وشهر نفسه وقعد بالباب حتى أذن له فدخل على الملك وهو جالس فى شبك ذهب فقال له الترجمان يقول لك الملك ما أدخلك بلادى بغير اذننى فقال لست من أهل عداوة الملك ولم أك جاسوسا وإنما حملت تجارة فإن أرادها فهى له قال فبينا هو يكلمه اذ سمع صوتا فخر ساجدا فقال له الترجمان يقول لك الملك ما أسجدك فقال سمعت صوتا مرتفعا حيث لا ترتفع الاصوات فظننته صوت الملك فسجدت قال فشكر الملك ذلك له وأمر له بمربعة توضع تحته فرأى فيها صورة الملك فوضعها على رأسه فقال الحاجب الملك يقول لك إنما بعثناها لك لتجلس عليها فقال قد علمت ولكن رأيتها وعليها صورة الملك فوضعتها على أعظم أعضائى فقال له الملك ما طعامك فى بلادك قال خبز البر قال هذا عقل الخبز ثم اشترى منه التجارة باضعاف ثمنها ورجع فى أمن وسلامة.

(١) الآية: ٨ من سورة التكاثر.

أبو الحسين الجزار فى الخبز:

قسما يلوح الخبز عند خروجه
ورغائف منه تروك وهى فى
من كل مصقول السوالف أحمر الـ
وكأن باضه بكفك درهم،
كالفضة البيضاء لكن يغتدى
وقال ابن الرومى فى الرقاق:

لا أنسى خسانا مررت به
ما بين رؤسها فى كفه كرة
الابمقار ما تنداح دائرة
وله فى الزلاية:

يلقى العجين حيناً من أصابعه
المأمونى فى الكماج:

عندى لالكل اذا مـ
ملتونة بسمنها
مثل البدور الطالعـ
أوجسه التـرك إذا
وقال بعضهم وأجاد:

خبز شعير بغير ادم
ألذ عندى من ألف لون
وقال مجير الدين بن تميم:

وكان أرغفة الخوان وحولها
وجنات غيد صففت وجميعها
بقل تهش إليه نفس الآكل
يبدو بها خط العذار الباقل

نغويبة: ذكرها الحافظ العلامة المؤرخ عماد الدين بن كثير فى تاريخه فى ترجمة

الوليد ابن عبد الملك ورواها الحافظ ابن عساكر باسناد رجاله كلهم ثقات عن عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر عن أبيه قال خرج الوليد بن عبد الملك يوماً من الباب الأصغر فرأى رجلاً عند المأذنة الشرقية يأكل فوقف عليه فإذا هو يأكل خبزاً وتراباً فقال له ما يحملك على هذا

قال القنوع يا أمير المؤمنين فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال إن لك لشأنا فأخبرنى به
والا ضربت الذى فيه عيناك فقال نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلا حمالا فبينما أنا أسير من
مرج الصفر قاصدا الكسوة إذا رزمنى البول فعدلت إلى خربة لا بول فإذا سرب فحفرته فإذا
مال صبيب فملأت منه غرائرى ثم انطلقت أقود برواحلى وإذا بمخللة فيها طعام فألقىته منها
وقلت إني سأتى الكسوة ورجعت لاملأ تلك المخللة فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد فى
الطلب ثم رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجده الطعام فأليت على نفسى ان لا أكل الا
خبزا وترابا قال فهل لك عيال قلت نعم ففرض لهم فى بيت المال قال ابن جابر وبلغنا أن
الرواحل سارت حتى أتت بيت المال فتسلمها خازنه فوضعها فى بيت المال.

obeikandi.com

الباب الحادى والثلاثون

فى الوكيرة والاطعمة المشتهاة

الوكيرة طعام البناء كان الرجل إذا فرغ من بنائه يطعم أصحابه يتبرك بذلك قال النبى ﷺ الوليمة فى أربع فى عرس أو خرس أو اعذار أو توكير، قال الشاعر:

خير طعام تشهد العشيره الخرس والاعذار والوكيره

قال الشيخ محبى الدين النواوى رحمه الله فى شرح مسلم فى كتاب النكاح قال أصحابنا وغيرهم الضيافات ثمانية أنواع الوليمة للعرس والخرس بضم الخاء المعجمة للولادة وقيل فيه الخرس بالصاد المهملة أيضاً والاعذار بكسر الهمزة والعين المهملة والذال المعجمة للختان والوكيرة للبناء والنقبة لقدم المسافر يصنع الطعام وقيل يصنعه غيره والعقيقة يوم سابع الولادة والوضيمة بفتح الواو وكسر الضاد المعجمة الطعام عند المصيبة والأدبة بضم الدال المهملة الطعام المتخذ ضيافة بلا سبب، قال صاحب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ولما تكامل بناء القصر الابلق الذى أنشأه السلطان الملك الناصر لسكنائه بقلعة الجبل المحروسة عمل وليمة عظيمة حضرها الغنى والفقير من كبير وصغير وخلع على الامراء التشاريف على قدر مراتبهم وأنعم عليهم بالبذل من الاموال وكانت عدة الخلع التى خلعت ألفى خلعة وخمسمائة والمال المطلق مائة الف دينار من العين المصرى وذلك سنة أربع عشرة وسبعمائة، وقرأت فى بعض المجاميع الادبية أن الفتح بن أبى حصينة المغربى رحمه الله امتدح نصر بن صالح بحلب فقال له تمن فقال أتمنى أن أكون أميراً فجعله بحلب مع الامراء ويخاطب بالامير وقربه وصار يحضر فى مجلسه فى جملة الامراء ثم وهبه أرضاً بحلب قبلى حمام الواسانى فعمرها داراً وزخرفها وقرنصها وتمم بنائها وكمل زخارفها ونقش على دائر الدرابزين:

دار بنيانها وعشنا بها	فى نعمة من آل مرداس
قوم مسحوا بؤسى ولم يتركوا	على لايلام من باس
قل لبنى الدينى ألا هكذا	فليصنع الناس مع الناس

قال فلما انتهى العمل بالدار عمل دعوة وأحضر نصر بن صالح بن مرداس فلما أكل الطعام رأى الدار وحسنها وحسن بنيانها ونقوشها ورأى الابيات وقرأها قال يا أمير كم خسرت على هذه الدار فقال والله يا مولاي ما للملوك علم بل هذا الرجل ولى عمارتها فلما حضر المعمار قال كم لحقكم غرامة على بناء هذه الدار فقال المعمار غرمتنا ألفى دينار مصرية فأحضر من ساعته ألفى دينار مصرية وثوبا أطلس وعمامة مذهبة وحصانا بطوق ذهب وسرج ذهب ودفع ذلك جميعه إلى الامير أبى الفتح وقال له:

قل لبنى الدنيـا ألا هـكذا فليـصنع الناس مع الناس
قلت: وما أحسن ما ضمن هذا البيت سيدى القاضى شهاب الدين بن حجر يمدح
سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن الدمامينى المالكى رحمهما الله:

نسيت أن أمدح بدر العلى فلم يدع برى وايناس
قل لبنى الدنيـا ألا هـكذا فليـصنع الناس مع الناس

حكى أن ابن البطريق واسمه على حضر عند ابن السراج بن البجلي ناظر دار الضرب والجيش فى بغداد فى وليمة عملها لاجل دار عمرها فلما خرج من عنده اجتمع بالوزير نصير الدين أحمد بن الناقدى فسأله أين كنت قال فى وليمة ابن البجلي فقال الوزير قيل لى إن داره مليحة فقال نعم وقد عملت فيها:

دار السنـراج مليـحه فـيها تصاوير بمكنه
تحكى كـتاب كـليله فمـتى أراها وهى دمنه

الدعوات المشهورة دخول عبد الله بن المأمون بيوران بنت الحسن بن سهل وكانت النفقة فى يوم ملاكها وعرسها، قال ابن عبدوس فى سنة عشرة وما بين ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم وقيل خمسين ألف ألف درهم وكان يعجرى فى كل يوم فى جملة الجرايات على ستة وثلاثين ألف ملاح ووصل المأمون فى قواده وحشمه ووهب لآخيه ألف ألف درهم وكساه وأقطعه فم الصلح وكانت عليه ثمانين ألف دينار فى السنة وبلغت نفقة أبيها فى هذه الوليمة أربعين ألف ألف درهم وبلغت نفقة الحسن بن سهل على قواد المأمون وحملتهم فأوصلهم وخلع على الخاصة خلعا قيمتها سبعون ألف ألف درهم وجلت بوران على المأمون وقد فرش لها حصير من الذهب وجاءت جدة بوران بمكيل من الذهب مرصع بالدر والجوهر فيه در كبار فثر على من حضر من النساء وفيهن أم جعفر وحمدونة بنت الرشيد وغيرهما فلم يمسن منه شيئا فقال المأمون شرفن أم محمد وأكرمها فمدت كل

واحدة يدها وأخذت حبة وبقي سائر الدر يتدحرج على حصير الذهب فقال المأمون قاتل الله ابن هاني كأنه رأى ما نحن فيه حيث قال:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

ونشرت أم الفضل بن سهل جدة مروان عليها يوم دخل بها المأمون ألف درهم في صينية ذهب وأوقد في تلك الليلة على المأمون شمعة عنبر وزنها أربعون مئاة ونثر في ملاكها كل شيء له قدر من الكراع والرقيق والكسي والصياغات والطيب والضياع والعقار والجواهر والدنانير والدراهم وكانت أسماء كل هذا مثبتة في رقاع وتلقى فمن التقط رقعة مضى إلى الخازن الذي لذلك الصنف فأخذه منه وكان للحسن بن سهل أربعون بغلا مرتبة لحمل الحطب تصرف كل يوم عدة دفعات أقامت تنقل سنة كاملة ولم يكفهم حتى قطعوا سعف النخل رطبا وصبوا عليه الدهن والزيت وأوقدوه.

وحكى: القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري في كتابه مسالك الابصار في ممالك الامصار في ترجمة الأمر بأحكام الله أبي على المنصور في المجلد الرابع والعشرين منه أن الأمر بالله بينا هو في موكبه قبلى بركة الحبش اذ تقدمهم فمر برجل على باب بستان له وحوله عبيد وموال له فاستسقاء ماء فسقاه فلما شرب قال يا أمير المؤمنين قد أطمعتنى فى السؤال فإن رأى أن يكرمنى بنزوله لاضيفه فقال ويحك معى الموكب فقال وأولئك يا أمير المؤمنين فنزل فأخرج الرجل مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق فأكهة ومائة جام حلوى ومائة زبدية أشربة سكرية كلها فبهت الأمر وقال أيها الرجل خبرك عجيب فهل علمت بهذا فأعددت له فقال لا والله يا أمير المؤمنين وإنما أنا رجل تاجر من رعيتك لى مائة خطية فلما أكرمنى أمير المؤمنين بنزوله عندى أخذت من كل واحدة شيئا من فرشها وبعض أكلها وشربها ولكل واحدة فى كل يوم طبق فأكهة وطبق طعام وطبق بوارد وجام حلوى وزبدية شراب فسجد الأمر شكرا لله وقال الحمد لله الذى جعل فى رعايانا من يسع حاله هذا ثم أمر له بما فى بيت المال من الدراهم ضرب تلك السنة فكان ثلاثة آلاف ألف وسبعمائة ألف ثم لم يركب حتى أحضرها وأعطاه للرجل وقال استعن بهذه على حالك ومرءوتك ثم ركب وانصرف، ولما زوج الحجاج محمد بن الحجاج قال لأصنعن طعاما لم يسبقنى اليه الأولون ولا يدركه الآخرون فقبل له لو بعثت إلى المدائن فسألت كيف صنع كسرى فتعمل على مثال ذلك فأرسل إلى بعض من أدرك ذلك فقال أخبرنى عن الطعام الذى

صنعه كسرى فقال ما أكثر ما كان يصنعه من الطيبات قال أطيعه قال حين تزوج هند ابنة بهرام كتب إلى عماله فى الآفاق ليقدم على كل رجل منكم ويخلف والى شرطته على بلده فرأى عنده اثنى عشر ألفا فاطعمهم فى ثلاثة أيام كل يوم ألف خوان يقعدون على بسط الديباج المنسوجة بالذهب وكلما أكلوا أتى كل واحد منهم بمثقال مسك فيغسل يده به فلما قاموا بعث بتلك الآتية والبسط فقسمت عليهم فقال الحجاج أفسدت على لعنك الله اذهبوا فاشتروا الجزر فانحروها فى مربعات واسطو وكان قد أمر بالنداء بالحضور فحضرها الناس وذلك فى أشد الحر وكثرة الذباب فاستغنى أهل الدعوة عن المراوح. ولم يجدوا ذبابة واحدة وكان قد عمد إلى المرافق التى فى المجالس فنصب فيها أحجار الثلج وكانت الرياح تفضى إليها من باذهنجات فيخرج نسيمها إلى المجالس والصحون وسئل عن عدم الذباب فقيل إنه اشترى قبل الدعوة من دور الجيران ما يمكن شراؤه واستعار الباقي وطفى حيطانها بعسل قصب السكر فاشتغل الذباب به وانقطع عن داره فلما انقضت أيام الدعوة ردت جميع الدور الى أربابها.

وعلى ذكر الذباب فلا بأس بإيراد نكتة غريبة وموعظة عجيبة وهى أن الحاكم الذى كان خليفة بمصر وادعى أنه من ولد فاطمة عليها السلام وبنى المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح فنسد حاله فى آخر أمره وادعى الألوية وكتب بسم الحاكم الرحمن الرحيم وجمع الناس للإيمان به وبذل لهم نفائس الاموال وان ذلك كان فى فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم والخدام تدفع الذباب ولا يندفع فقرا بعض القراء وكان حسن الصوت ﴿يأيتها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب *﴾ ما قدروا الله حق قدره ﴿(١)﴾ فاضطرب الحاضرون بسماع هذه الآية حتى كأن الله تعالى أنزلها تكذيبا للحاكم فى دعوى الألوية وسقط الحاكم من على سريره خوفا من أن يقتل وولى هاربا وأخذ فى استجلاب ذلك الرجل إلى أن طمنه وسيره فى صورة رسول إلى بعض الجزائر وأمر الربان أن لا يسير به غير ثلاثة أيام ويغرقه فلما غرق رُئى فى المنام فقيل له ما وجدت فقال ما قصر معى الربان أرسى بى على باب الجنة.

رجوع: ومن الهمم الملوكية والنخوة العربية والنفس الادبية ما ذكره الثعالبي فى كتابه

لطائف المعارف عن جميلة بنت ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان أنها حجت سنة ست وستين وثلاثمائة فصار عام حجها مثلاً وتاريخاً وذلك أنها أقامت من المروءة وفرقت الأموال وأظهرت من المحاسن ونشرت من المكارم ما لا يوصف بعضه عن زبيدة وغيرها من حاجات بيت الخلافة والملك ولا عن الخلفاء والملوك والحاجين وهو ما ذكره الثقات أنها سقت جميع أهل الموسم السوق بالسكر الطبرزد والثلج وكانت استصبحت البقول المزروعة في مراكز الخزف على الجمال فضلاً عما سواها وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين من رجالة الحاج ونشرت على الكعبة عشرة آلاف دينار واستصبحت فيها شموع العنبر في مدة إقامتها بمكة وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتي أمة وأغنت المجاورين بالصلوات الجزيلة وخدعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب وكان معها أربعمائة عمارية لا يدرى في أيها هي ومن قصتها أنها لما رجعت إلى بلدها الموصل وضرب الدهر ضرباته فكان من استيلاء عضد الدولة فناخسرو على أموالها وحصونها وممالك أهل بيتها ما كان حتى أفضت بها الحال إلى كل قلة وذل وتكشفت عن فقر مدقع وكان فناخسرو خطبها لنفسه فامتعت من اجابته ترفعا عنه فاحتقدها عليها وحين وقعت في يده تشفى بها وما زال يعسف بها في المطالبة حتى عراها وهتكها ثم ألزمها أحد أمرين إما أن تصحح ما بقتة ووقف عليها من المال وإما أن تختلف إلى دار القحاب فتكتسب فيها ما تؤديه من مال مصادرتها فلما ضاق بها الأمر وأشرفت على الفضيحة انتهزت فرصة من غفلة المتوكلين بها وغرقت نفسها في دجلة رحمها الله تعالى ولا أخذها.

ومن ظريف الاخبار ان زوجة المحسن بن الفرات أرادت اعذار ابنها بعد قتل أبيه فتعذرت عليها النفقة فرأت المحسن في منامها فذكرت له ذلك فقال ان لي وديعة عند فلان الدين عشرة آلاف دينار فانتبهت وأخبرت بالقصة فسألوا الرجل فاعترف بها وحمل المال اليها، اتخذ الحجاج وليمة اجتهد فيها واحتشد ثم قال لزاذان فروخ هل عمل كسرى مثلاً فاستغفاه فأقسم عليه فقال أولم عبد عبد كسرى فأقام على رءوس الناس ألف وصيفة في يد كل واحدة ابريق من ذهب فقال الحجاج أف والله ما تركت فارس لمن بعدها شرفاً.

قلت: ذكرت بقوله أولم ما أنشدني من لفظه لنفسه سيدى المقر المجدى ابن مكانس:

قال خلى لحبيبي صل فنى	فيك قد أضحي مغنى مغرماً
قال هل يولم ان واصلته	قال ان فاز بشغفر أولماً

وأول من ضيف الضيف وأطعم المسكين وقص شاربه وقلم أظفاره واستحدّ واستاك ورأى الشيب وفرق شعره وتمضمض واستنثر واستنجدى بالماء واختن بالقدوم ولبس السراويل وأسس المحجوج أى بنى أساس البيت الحرام خليل الله ونبيه ورسوله أبونا إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام قيل ما خلا مضيفه إلى يومنا هذا من ضيف قط وقيل له ﷺ بما اتخذك الله خليلاً قال بثلاث: ما خیرت بین شیئين الا اخترت الذى لله على غيره وما اهتممت بما تكفل الله لى به ولا تعشيت الا مع ضيف، ما أحسن قول صفوان بن ادريس فيمن اسمه ابراهيم:

اسمى من سن القرى رفقا بمن	يغنى عليك صبابة وغراما
أنا ضيف حبك فاصطنعنى انه	ضيف الهوى يستوجب الاكراما
أفنت جسم الصب شوقا مثل ما	أفنى سميك قبلك الاصناما
يا زهرة سكنت بقلبي غضة	إنى تبوأت الجحيم كماما
حتى كأن الحب قال لاضلعي	يا نار كن بردا له وسلاما

وكان الحسن بن قحطبة مضيفا له مطبخان فى كل مطبخ سبعمائة تنور هكذا نقل عنه الزمخشري ، وحدث عمر بن شيبه قال كان الحجاج يطعم فى كل يوم على ألف مائدة على كل مائدة سمكة مشوية سمينه وجنب مشوى وساقيان يسقى أحدهما اللبن والآخر العسل وكان يطاف به على كرسى فيقول يا أهل الشام مزقوا الخبز الرقيق كيلا يعاد عليكم، وقال الجاحظ كان كسرى ينصب فى كل يوم ألف مائدة على كل مائدة فخذ حمار وحش وبيضة نعامة ومن سائر الاصناف التى توجد فى البر والبحر والسهل والجبل حتى لا تخلو الموائد من سائر الاطعمة.

وكان النبى ﷺ يجيب الوليمة ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو انها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ولا يتأنق فى مأكلا ويعصب على بطنه الحجر من الجوع وآتاه الله مفاتيح كنوز الارض فلم يقبلها واختار الآخرة وأكل الخبز بالخل وقال نعم الادم الخل وأكل لحم الدجاج ولحم الحبارى وكان يأكل ما وجدته ولا يرد ما حضر ولا يتكلف ما لم يحضر ولا يتورع من مطعم حلال إن وجد تمرا دون خبز أكله وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله ولا يأكل متكثا ولا على خوان لم يشبع من خبز بر ثلاثا اتباعا قط حتى لقي الله عز وجل ايشارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا وكان يحب الذراع من الشاة والدباء وأكل خبز الشعير بالتمر والبطيخ بالرطب والقثاء بالرطب والتمر بالزبد وكان

يحب الحلوى والعسل وكان يشرب قاعدا وربما شرب قائما وتنفس ثلاثا مثنيا للإناء ويبدأ بمن عن يمينه إذا سقاه ويشرب لبنا وقال من أطعمه الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيرا منه ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه وإذا رفع الطعام من بين يديه قال الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين وكان يأكل بأصابعه الثلاث ويلعقهن قال بعض الكرماء من ألطاف الله تعالى بالكريم أنه يسامح المسافرين بالفطر فى رمضان فلو لا ذلك لخجل الكريم إذ يمر عليه ضيف فيعتذر من أكل طعامه بالصوم وأين هذا من قول بعض البخلاء وقد سئل ما الفرج بعد الشدة فقال أن تدعو الضيف فيعتذر بالصوم، وكان معن بن زائدة إذا أراد أحد من غلمانه أن يرضى عليه بعد الغضب الشديد بادر إلى شىء من طعامه فوضعه فى فيه بحضوره، ووقفت فى أخبار عمارة الشاعر اليمنى قال كنت هجوت ابن دخان وهو يومئذ صاحب ديوان الدست فشكاني إلى السلطان شاور فأعرض عنه ثم شكاني ثانية فأعرض عنه ثم شكاني ثالثة فالتفت إليه وهو محرج وقال له ما تستحى من أن تشكى إلى رجلا يأكل معى على طعامى فى يوم وليلة قال عمارة فلم أشعر الا وقد حضر ابن دخان إلى دارى ليلا وحمل إلى دابتي إلى آخر السنة، وحكى بعضهم قال كنا عند الشيخ الزاهد الورع أبى العباس بن تاميت نفع الله به فقدم لنا طعاما فأكلنا فقال بعض الجماعة يا سيدى قد أسأنا الادب وأكلنا بغير اذن فقال الشيخ فاذن لا ترفع يدك الا باذن.

نادوة: قبل نزل ضيف على بخيل فى ليلة وكان جائعا فقدم له طعاما فأتى على آخره ولم يغادر منه شيئا فحلف البخيل أن لا يبيت الضيف عنده فقال الضيف يا أخى اصبر على إلى الفجر فقال لا وليال عشر فقال أما سمعت أن الضيافة ثلاث فقال البخيل لا وحق الواحد لا يبيت عندى ثلاثا من يأكل بالخمس ولو كان له فضل من أوتى تسع آيات بينات وحسن من سجد له أحد عشر كوكبا فخرج الضيف وقال كيف جمع زوج الثكلى هذه الافراد على الترتيب، كان لعبد الله بن جذعان جفنة يأكل منها الطعام القائم والراكب فوقع صبي فيها فغرق فمات، وذكر أن عطية بن صالح بن مرداس طبخ فى بعض ولائمه تسعمائة خروف مصرية سوى ما طبخ من اللوان، قال على بن الاعرابى قال الحجاج لرجل يوما وهو على خوانه وكان عليلا ارفق بيدك فأجابه على الفور وأنت يا حجاج فاغضض بصرك فقال له إن هذا الجواب المسكت، اعرابى مما يزيد فى طيب الطعام مؤاكلة الكريم الودود حث رجل رجلا على الأكل من طعامه فقال عليك بتقريب الطعام وعلينا تأديب الأجسام، وقال

على كرم الله وجهه إذا طرقت اخوانك فلا تدخر عنهم ما فى المنزل ولا تكلف ما وراء الباب وإذا طرقت فما حضر وإذا دعوت فلا تذر.

قيل لحكيم أى الأوقات أحمد للاكل قال أما من قدر فإذا اشتهى وأما من لم يقدر فإذا وجد، وقال جعفر بن محمد تبين محبة الرجل لآخيه بجودة أكله فى منزله.

نزل الشافعى بمالك رضي الله عنه فصب بنفسه الماء على يده وقال لا يرعك منى ما رأيت فإن خدمة الضيف فرض ، وكان الشافعى رضي الله عنه نازلا بالزعفرانى يسفد فكان يرقم كل يوم فى رقعة ما يطبخ من الالبوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعى يوما وألحق لونا آخر فعرف ذلك الزعفرانى فأعتق الجارية سرورا بذلك.

نادوة: روى عن أبى العباس المبرد فقال ضاف رجل قوما فكرهوه فقال الرجل لامراته كيف لنا أن يعلم مقدار مقامه عندنا فقالت التى بيننا شرا حتى نتحاكم إليه ففعلا وقالت المرأة بالذى يشارك لك فى غدوك غدا أننا أظلم فقال والذى يشارك لى فى مقامى عندكم شهرا ما أعلم، قيل ويقبح على الكريم أن يغتاظ على غلمانه بحضور ضيوفه وكذلك إذا أبطأ طبأخه بالطعام.

حكى أن بعض قواد طولون حضر سماطه يوما وعليه قباء منزل بفضة فجاء بعض غلمانه عجلا فانكب على القباء من الطعام فما ظن أحد منا أنه يجيبه ففهم تخوف الغلام وانقباض الجماعة فرفع طرفه إلى الغلام وقال يا شيطان قد فهمت غرضك لا شك أنك استحسنست القباء اذهب به فهو لك فسر الغلام وجميع من حضر.

نادوة: قيل لبلان الطفيلى كم عدد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال ثلثمائة وثلاثة عشر رغيفا وكان نقش خاتمه ما لكم لا تأكلون، ونظر طفيلى إلى قوم ذاهبين فلم يشك أنهم يذهبون إلى وليمة فقام وتبعهم وإذا هم شعراء قد قصدوا دار السلطان بمدايح لهم فلما أنشد كل واحد منهم شعره وأخذ جائزته لم يبق إلا الطفيلى وهو جالس ساكت فقبل له انشد أنت فقال لست شاعرا قيل فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾^(١) فضحك السلطان وأمر له بمثل جائزة الشعراء، كان مسلم بن قتيبة لا يجلس لحوايج الناس حتى يشبع من الطيب من الطعام ويروى من بارد الماء ويقول إن الجائع ضيق الصدر فقير النفس والشبعان متسع الصدر غنى النفس، وقال ابن

الاعرابى كان المحسن الضبى فى الشرف من العطاء وكان ذميما فقال له زياد ذات يوم كم عيالك قال تسع بنات قال فأين هن منك قال أنا أحسن منهن وهن آكل منى فضحك وأمر له بأربعة آلاف دينار، وكتب كسرى أنوشروان باللؤلؤ على مائدة من الذهب ليهنه طعام من أكله من حله وجاد على ذوى الحاجة من فضله ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلتك.

نادوة: حكى الهيثم بن عدى قال ماشيت أبأ حنيقة فى نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان مبخلا وتواصينا على أنا نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال أحدنا ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع﴾^(١) وقال آخر ﴿وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام﴾^(٢) وقال آخر ﴿أتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾^(٣) قال فتمطى المريض وقال ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾^(٤) فغمز أبو حنيقة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج.

كان بعض مفاليس الكتاب فى دعوة فلما أخذت الكأس منه قال لهم أنتم عندى غدا- فلما أصبح حدثه غلامه ما بدا منه فسقط فى يده وأخذ يعتف غلامه كيف لم ينبهم على افلاسه وسوء حاله والغلام يعتذر عن ذلك باشفاقه من عريده لو اطلعهم على ذلك اذق القوم الباب فقال لغلامه على بالدواة والقرطاس وكتب إليهم ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى﴾^(٥) فلما قرءوا رقعته عرفوا عذره وتفرقوا عنه.

نادوة أيضا: قيل تغدى رجل مع بعض الرؤساء فقدم إليه جديا فجعل يمعن فيه فقال له الرئيس إنك لتمزقه حتى كأن أباه نطحك فقال له وأنت تشفق عليه حتى كأن أمه قد أرضعتك فخجل وانقطع، عمر بن هبيرة عليكم بمباكرة الغداء فإن فى مباكرته ثلاث خصال يطيب النكهة ويطفى المرة ويعين على المبروءة قيل ما اعانته على المبروءة قال أن لا تتوق النفس إلى طعام غيرك.

(١) الآية: ١٥٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية: ٨ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية: ٦٢ من سورة الكهف.

(٤) الآية: ٩١ من سورة التوبة.

(٥) الآية: ٢٢ من سورة إبراهيم.

فصل: فى الأطعمة المشهورة ومضارها ومنافعها:

السكباچ: حارة معتدلة الرطوبة تنفع الكبد الصفراوية وتولد دما صالحا وتقوى الشهوة وتحبس البطن وهى بلحم البقر نافعة لمن يتحدر إلى معدته مرارة كثيرة وقال بعضهم السكباچ فى البطيخ بمنزلة الفالوذج فى الحلوى وقال الصولى كان بعض الصوفية يقول أول من عمل السكباچ آدم ولذلك استوى فى استطابتها ملوك ولده وسوقتهم وكنيتها أم القرى لأن طعامها من أجل الأطعمة وأم الشىء معظمة وجليلة وأم القرآن الحمد وأم القرى مكة وأم الشىء أجله.

المدققات: حارة رطبة مخصبة للبدن تولد دما معتدلا يحتاج لمن ضاق عليه الاستغراق بالجماع وعرض له من الاحداث النفسانية ما بلبل الهضم عليه كالهم والفزع والغم لأن جوهر اللحم انحل أكثره فى المرق ولهذا الحال يخف على الهضم وهى من أطعمة المخمور صالحة لهم جدا.

الرخية: حارة رطبة تزيد فى الباءة تولد غداء كثيرا وهى مضرة بالصفراء مكروهة لمن يعتاده الغشيان ولأصحاب المعدة الحارة لتعطينها وأكلها مع الحوامض صالح وهو غداء شهى موافق لأهل الرياضة والقوة وكثرة البيض فيها صالحة وهى من الألوان الماثورة الموصوفة.

الجزورية: حارة رطبة تحرك الباءة وتدر البول وأصلح ما كانت باللحم السمين والخل والمرى والخردل.

ابن سكرة الهاشمى فى جزورية:

أكلت بالامس جزورية تخبر عن خسة أربابها
اللحم فيها أثر دارس كأنما مرّ على بابها

الحصرمية: باردة يابسة وأجودها ما عمل بالماء العتيق العذب والذى يعمل بالحصرم الطرى يولد رياحا بالمعدة لأنه ثمرة فجة لم تنضج ويختار فيها استعمال اللون المر لتعديل يسها وتحسين منظرها.

السماقية: باردة يابسة أيضا.

الرمانية: كذلك ولها فعل فى تقوية المعدة وينفعان من نزف الدم ومن أحب تعديل الطبع فيهما الاسفاناخ والسلق.

التفاحية والرياسية: أيضا متناسبان في البرد واليبس نافعان لاصحاب المزاج الصفراوي والاكباد الحارة والمعدة الضعيفة يكرهان لاصحاب القولنج وهما مضرتان بالعصب والمفاصل والمنى والباءة.

الزيرباج: معتدلة الحرارة نافعة الكبد تولد دما معتدلا وهي مسكنة لحدة الاخلات مفرحة للقلب وللتناس فيها مذاهب وأحمدتها السهلة المائعة الوردية وبعضهم يختارها ردعية بالزعفران خثرة جدا وبعضهم يتخيرها سادجة بيضاء وهذه أقل حرارة.

المضيرة: باردة معتدلة الرطوبة قامعة للصفراء تولد غداء بلغميا واستعمال حلوى العسل بعدها صالح وهي من الالوان المستحبة الماثورة ويختار عملها بالفراخ الجلييلة فإنها أوفق لها من سائر اللحمان وللبصل فيها معنى خلاف سائر الطبخ وكان بشار بن برد الاعمى يقول فيها: ما أظن في الطعام أطيب من بصلة مضيرة لاني ما سبقت البصر إليها قط ولا هم يؤثرونى بها ويستحب تقديمها في الصحن الزرق أو ما شاكلها وتكره لها الصحن البيض ويراه بعضهم قبيحا ويعدّه من سوء الاختيار وكان أبو هريرة رضي الله عنه تعجبه المضيرة جدا فيأكلها مع معاوية فإذا حضرت الصلاة صلى خلف على كرم الله وجهه فإذا قيل له في ذلك شيء قال مضيرة معاوية أدمم والصلاة خلف على أفضل فقبل له شيخ المضيرة.

حكى ابن شكلة الكاتب صردر امتنع من حمل ما طلب منه وأحتمل غليظ المكروه وكان يؤتى بطبق فيه طعام فرأى يوما مضيرة في صحن أبيض هذا ما لا يكون أبدا.

القلايا: حارة معتدلة اليبس تختار للذين تجتمع في معدتهم البلاغم لتقطيعها لا سيما إذا عملت بالابازير الحارة وهي باعثة للشهوة مهيجة لذوى النهمة.

المهلبية: أول من اتخذها بنو المهلب فنسبت إليهم وهي من الالوان المستحسنة المستلذة تنفع لحفظ الصحة وأحمدتها منفعة السلسلة والانعقاد بالدجاج الحديث السمان والعسل الخالص الذهبى والسكر النقى وهي معتدلة الحرارة والرطوبة تغدو غداء صالحا إلا أنها مضرة بالصفراء وتدفع مضرتها بالحصرمية منه قبلها.

الارز باللبن: قال محمد بن خلاد كان كثير من رؤساء العراق يقدمون في أول الطعام الارز باللبن والسكر المنخول ثم يتبعونه ما شاءوا ايثارا له على غيره وكان الحسن ابن سهل يفضلّه على كثير من المطاعم ميلا إلى رأى المأمون فيه وقال له إنه يزيد في العمر يا أمير المؤمنين قال من أين قلت هذا قلت لان الاطباء زعموا أن الارز يولد

أحلاما صحيحة فإذا صحت الأحلام فهى من زيادة النوم على اليقظة لأن النوم موت واليقظة حياة.

الشوى: قال أبو عبيد العرب تقول الشوى رئيس الطعام قال ومر الفرزدق بالاخوص فقال له اقترح يا أبا فراس فقال شوى وطلى وغنا فقال ادخل فقد أعد لك، والشوى حار رطب وأجوده المشوى على اسهل مثل شى الرءوس فإن ذلك يكسبه فضل ترطيب ونضاج ويلطفه.

الكباب: بفتح الكاف وهو اللحم المشروح وأجوده ما شرح اللحم شريحا خفيفا ونثر عليه الملح ونصب له مقل على النار بلا دسم وطرح عليه وقلب من جنب إلى جنب حتى ينضج ويحمر هذا هو الكباب الخالص بعينه وهو الذى كان يعمل ليحيى بن خالد ولولده وفيه بقول أبو الفتح البستى:

عليك إذا أنجب الدجى بكباب وعقبه مرتاحا بكأس شراب
فلم يفتح الاقوام بابا إلى المنى كباب شراب أو كباب كباب
الخيطة: تخبب الجسم وتغذوه وتزيد فى الباءة.
الكشك: قال جالينوس أبوان كريمان انتجا لثيما.

الططمناج: عسر الهضم من أجل أنه من خبز فطير فهو يزلق فى المعدة واصلاحه بالثوم ويؤكل معه النعنع ويشرب نبىذا صرفا قويا وعسلا مطبوخا بأفواه إلا أن يكون محرورا فلا يحتاج إلى ذلك.

الملوخيا: غليظة لزجة باردة كثيرا، الاكثار منها يضر بالمرطوبين والمبلغمين واصلاح ضررها أن تطبخ بلحوم الغزلان لخفته وحرارته أو مع الحجل أو مع الفراخ النواهض أو الفراريج السرخسية فإن لم يتفق فتلقى فيها الشرايح الجافة المدخنة أو التنورية عند خروجها من التنور وكذلك الباذنجان المقلى يلقي عليها ويكمر ساعة ثم تؤكل وماء الليمون يلطف غلظها ويقطع لزوجتها ولا يصلحها اصلاحا تاما إلا هو وإذا قطع ورقها الاخضر ووضع على لسعة الزنبور نفعها وطبيخ ورقه ينفع حرق النار وفيه أكثر منافع الخطمى وهى فرع منه وذكر أنها قديما لم يكن لها ذكر ولا قدر ولا تصريح فى مدينة ولا فى اقليم إلا بعد ثلثمائة وستين سنة مضت من الهجرة النبوية بمصر خاصة وكان السبب فى ذلك أن المعز بنى القاهرة لما دخل مصر استوبها واختلف عليه الهواء الذى كان يعهده

بافريقية ورطوبته لمجاورته البحر فأصابه ييس واستولت عليه أمراض حارة فتدبر له أطباء مصر قانونا من العلاج من جعلته الغذاء بالملوخيا فوجد لها نفعا بينا في التبريد والترطيب وأقلع عنه معظم ما كان يجده من الاعراض الرديئة التي سببها الييس والحرارة وأدمن أكلها فأبلى من مرضه ووقعت منه بموقع عظيم وأمر باصلاحها له ولخواصه حتى سميت الملوكية وبلغ من اعتنائهم بها أنهم كانوا يجففونها ويطبخونها مجففة السنة كلها وكان باكورها إذا دخل القصر يكون ذلك اليوم موسما عظيما ويعطى مهديها عطاء جزيلا.

ما ورد من المنظوم والمنثور في هذا الباب: كتب الشيخ جمال الدين بن نباتة يتشكر من بعض الرؤساء وقد أهدى له خروفا مشويا شكر الله احسان مولانا الذي وصل فأوصل إلى القلب جبره وإلى الكف بره وإلى الفم كل شحمة كاهدا بدمقس المفتل وكل فلذة صفراء تسر ناظر المتأمل فما أحسن ما ملأ ذلك الجود فمه وعينه وتلقاه المملوك قائلا هذا الشرف الذي ينطح النجوم برقيه لقد أرى تواتر هذا البر على ما في النفس ولقد جدت هذه الهدية فخرا حتى كأنما أهدى له حمل البروج على طبق الشمس ولقد آن أن ينثر من الدهر وتتصف ولقد عرف رجاء من أين يؤكل الكتف فإنه الكرم الذي لا يحيل الآمال على سوف والفضل الذي أضاف المملوك وآواه فأطعمه من جوع وآمنه من خوف لا برج مولانا يحيى مآثر آبائه الالى ويقيم سنن قراهم التي هي على الدهر كالحلى ولا زال يفتخر فيقول عزمه أنا طلاع الثنايا ويقول بشره أنا ابن جلا، وقال ابن وكيع فيه:

خروف لو أشار إليه وهم تقطر جلده بالشحم يجرى
لباطنه قميص من لجين تسربل فوقه بقميص تبر

وما أحسن ما كتب به ابن خروف النجوى إلى ابن اللهب وكان قد دعاه
دعائي ابن لهيب دعاء غير نبينه
إن سرت يوما إليه فوالدى في أبيه

نادوة: قدم إلى أبي على الفارسي النحوى شوى غير نضيج فقال هذا لم تعمل فيه العوامل، قدم إلى الفاضل في دعوة خروف شوى فقال هذا من البهائم التي علمت يريد قوله عليه السلام لو تعلم البهائم ما تعلمون من أمر الموت ما أكلتم منها سمينا، قيل عن سليمان بن عبد الملك أنه كان نهما على طعامه وأنه كان يلف على يده بفاضل كمه ليتناول به الكلى من بطون الحملان وهي في شدة الحرارة ولا يمهل حتى تبرد وقد ذكر ذلك الاصمعى في أيام

الرشيد لما وجد سفظ عليه ثياب مذهبة ثمينة وأكمامه مبتلة بالدهن فى ذخائر بنى أمية
والقصة مشهورة ، وصف جحظة دعوة حضر بها فقال أئينا برغفان كالبدر المنقطة بالنجوم
وملح كالكافور السحيق وخل كذوب العقيق وبقل كاخضرار العذار وحمل من الفضة
جسمه ومن الذهب قشره وجوفه وأرز مدفون فى السكر ثم جاءنا غلام بشراب ألد من
ذكره وأطيب من روحه وأصفى من وده وأرق من لطفه وأذكى من عرفه وأعذب من خلقه
وأشهى من قربه.

سيف الدين المشد فى دجاجة مشوية:

دجاجة صفراء من شيها حمراء كالورد من الوهج
كأنها والجمر من تحتها أترجئة من فوق نارنج

وما أظرف قول الشيخ زين الدين بن الوردى:

لى شهوتان أحب أجمعهما لو كانت الشهوات مضمونه
أكباد عذالى مدققة ومفاصل الرقباء مدفونه

نادوة: مرض ابن تقيية المغنى وأشرف على الموت فجاء إليه ابن الصاحب يعوده
فقال له أيش حال التقيية فقال ما أخوفنى تبقى مدفونة، وقال كشاجم يصف مائدة وما عليها:

ومن فراريج بماء الحصرم تصلح للمحموم أو للمحتمى
قد شويت أكبادها ببيض فهى كمثلى نرجس بروض
وجاءنا فيها ببيض أحمر كأنه العقيق ما لم يكسر
حتى إذا أتى به مقشرا أبرز من تحت العقيق الدررا
كأنه اذ حاز أصناف الملح أعاره تلوينه قوس قزح
وجاءنا براضع لم يعتلف كأن قطننا بين جنبيه ندف
وجاءنا فيه يباذنجان مثل قدود أكر الميبدان
قد قارن الهليون بالممازجه تقارن الكراة بالصوالجيه

وقال ابن القطاع فى البيض:

اسمع عن البيض وصف مضطلع بالوصف ماضى الجنان نحرير
بنادق التبصر غشيت ورقا أو مشمش فى صحاف كافور

الرداعى:

تفضل ثمرمانية العبد آيه ومن حسننها يلتذ تكرارها التارى
فقد ذاب من طول انتظارك لحمها وشوقا إلى لقاءك ظلت على النار

ابن تميم:

وبت لخوف النار أحمل همها
لا كشف من غمى واكشف غمها
على فلم أسطع من الحر شمها
فتور لغيظي كنت أكل لحمها

ولم أنس إذ بيت ليلا هريسة
فلما دنا الاصبح بادرت مسرعا
فصادفتها في حاجم النار قد عصت
وما أنا في شك بان لو بدا بها

السراج الوراق:

لنسبة بينهما ووصله
قدم في وجه الضيوف رجله

وأحمق أضيافنا يبقله
فمن أقل أدبا من سقله

وله أيضا:

تطيب شدى ولا طيب العروس
حكى لون المسوح على القسوس
يقل لكم القيام على الرؤوس

ومغمومات رءوس باكرتنا
ونبهنا لها الظامى بليل
فقمنا مائلين له وقلنا

وله:

فلم تنبعث نفسه الجامده
تعاف المفتلة الباردة

أثيت أرجيه في حاجة
وفتل في ذقنه والنفوس

وقال ابن نباتة:

أفكارهم للقمح محمية
فيا لها طبخة قمحية

يا سيدى عطفأ على عصبه
قد طبخت بالسوق أحشاؤهم

كتب الصلاح الصفدى إلى ابن نباتة وقد كان أهدى له ابن نباتة بسلا:

فأهدى جودك الوافى بسلا
واقببالا من الدنيا تولى
إلى كل النفوس فكيف يقلى
تلظت ناره حتى تسلا

ظننت العبد عن مصر تسلا
نعم قد أذكرتنى عيش مصر
طعاما فوقه لحم شهى
ودهن فوقه قد صار صبا

المعمار فى المجون:

فلم أجد بالباب من يحرس
وجدته مستكثا ينعس
منكم فانى جائع مفلس
وجادت المرأة بالكسكس

وصاحب جئت إلى داره
دخلت للدار على غفلة
فقال ما تبغى فسقلت القرا
فجاد لى بالدهن من رأسه

مطاعم شهية وملاذ ملوكية سأل الوزير أبو نصر بن أبى زيد أبا منصور بن سعيد بن أحمد البريدى وكان من أبناء الامراء والسادة بالبصرة عما يحبه ويشتيه ويختاره من أطايب الاطعمة الملوكية فقال قشور الدجاج الفتية المسمنة المشوية والسكباجة التامة التى يجمع فيها بين لحم البقر والغنم ثم ينقى عنها لحم البقر وتحلى بالطبرزد وتطيب بالعنبر والهريسة بلحوم الحملان التى رضعت شهرين وربعت شهرين ومن اللحم المجذع والملبقة بالارز المدقوق والدهن بالسكر المسحوق المبخر بالنند المشرب بالجلاب وماء الورد فقال يا أبا المنصور قد تجلب فمى من هذا الوصف أشهد أنك من أبناء النعم والمروءات وأمر أن يليقه على طباخه، ولما دخل الرشيد البصرة فى ستة ست وتسعين ومائة زار جعفر بن سلمان بن على الهاشمى وكان يومئذ واليها فأحضر له جعفر بن سليمان على مائدته كل حار وبارد وأحضر البان الطباء وزبدها فاستطاب الرشيد طعومها فسأله عن ذلك فأمر بعض الغلمان فأطلق الطباء فتبعها أخشافها وعليها سملها حتى وقفت فى عرصة الدار تجاه عين الرشيد فلما رآها مفرطة مخضبة استفرزه الفرح لذلك والتعجب حتى قال له جعفر يا أمير المؤمنين هذه الالبان واللبأ ورائب الزبد الذى بين أيدينا من هذه الظبية الفيتها وهى خشفان فتلاحقت وتلاحت.

نادوة: حضر الغاضرى عند بعض الرؤساء فقدم صحفة فيها أرز مطبوخ وقد قعر وسط الصحفة جلاب فأخذ الغاضرى الملعقة وخرق التقير إلى ما يليه حتى اختلط بالارز فقال له صاحب المنزل «أخرقتها لتفرق أهلها»^(١) فقال بل «سقتاه لبلد ميت»^(٢) وقال ابن الجصاص الصوفى دخلت على أحمد بن روح الاهوازى فقال ما تقول فى صحفة أرز مطبوخ فيها نهر من سمن على حافتيها كثران من السكر المنخول فدمعت عيناي فقال ما لك قلت أبكى شوقا إليه جعلنا الله وإياك من الواردين عليه بالغواصة والردادتين فقال يا غلام قدمها فجاء بها تفور فقال لى ما الغواصة والردادتين فقلت الغواصة الابهام والردادتان السبابة والوسطى فقال أحسنت بارك الله فيك.

وكيفية الاكل عند الظرفاء والادباء هو أن يقبض الانسان الخنصر والبنصر ويأكل باصابعه الثلاث وفى مذهب الظرفاء أن البنصر إذا أصابه الزفر فليس بطريف فى الاكل

(١) الآية: ٧١ من سورة الكهف.

(٢) الآية: ٥٧ من سورة الأعراف.

اللهم إلا في الشريد فإن أكلها بارية أصابع سوى الخنصر وقالوا الاكل على أربعة انحاء
باصبع من المقت وباصبعين من المكر وبثلاث من السنة وبخمس من الشره.
فصل: فيما يشهى المآكل قال بعضهم يصف سكرانا:

وافى السكردان وفى ضمته مطبخات من فراريج
كأنه بدر قد رصعت فيه ثريا من سكاريج
وقال آخر فى عجة:

وجاءتنا بعجتها عجوز لها فى القلى حس أى حس
فلم أر قبل رؤيتها عجوزا تصوغ من الكواكب عين شمس
وقال ابن تميم فى لبأ وتمر:

يا حبذا لبأ أئانا بكرة يزهى لنا حسنا بأنواع الرطب
فكأنما أهدى سماء فضة قد أشرقت فيها نجوم من ذهب
وقال صفى الدين الحلى يطلب جينا:

خفت عنكم فلم أطلب لمجلستا من المآكل شيئا غالى القيم
لكن أقصى مرادى من هديتكم ما بالكرائم من لامية العجم
يريد قول الطغرائى:

قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ما بالكرائم من جبن ولا بخل
وقال صلاح الصفدى ملغزا فى قريشة:

أى شىء يروق للنفس أكلا ذا بياض وأصله من حشيشه
خمسه أثقل الجمادات وزنا فتعجب له وباقيه ريشه
وقال أبو الفرج الاصفهاني يصف بيضة:

فها بدائع صنعة ولطائف الفن بالتقدير والتلفيق
خلطان ماويان ما اختلطا على شكل ومختلف المزاج رقيق
صنع تدل على حقيقة صانع للخلق طرا ليس بالمخلوق
فبياضها ورق وتبر مخها فى حق عساج بطنت بديق

وقال الشيخ جمال بن نباتة مقاضى ملوحة بدرج الحجاز يا مولانا ما كأن الملوحة إلا
قد اتخذت سبيلها فى بحار السراب سربا أو تعلمت من تلك الهمة فاتخذت إلى نهر

المجرة سيبا وجعل فضلها مقصورا على الاسماع وخلفت من الملائكة فلا يمكن على صورها الاطلاع ولا غرو فانها ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع وتوقفت من المنع والعطاء بين أمرين وحظيت من مولانا ومن الجنب الفخرى بمجمع البحرين وما أظن الظن أن يتفق هذا الظن هذا ولو انها من نسل حوت يونس عليه الصلاة والتسليم وأن عظمها مما يسبح فى بطن آكله إلى يوم يحىى العظام وهى رميم وأن بينها الذ من القرب بعد البين الطويل ورأيها أحسن من رأى عمرو بن العاص فى الامر الجليل وأن قمصها اللؤلؤة مما تنظم فى السلوك وأذيالها المرجانية مما ترصعه فى تيجانها الملوك وعيونها الدرية هى التى دلت الخضر على عين الحياة فوردها وأن بطونها الذهبية غنى من قصدها وعلى الجملة فقد سطر المملوك هذه الورقة ولقم الانتظار تراحم القلم فى يده وأنامله المستعدة كالصنائير فى تصديه لها وتصيده فمولانا يتدارك هذا الامر قبل أن يفوت ويأمر بانفاذها ولو انها بين السماء والأرض عند الحوت ومكارمه المشهورة لا تقف فى البذل مع احتياط ولا يغير عاداتها طريق الحجاز ولولا الغلو لقال ولا طريق الصراط.

نوادير فى هذا الباب: ذكر الشيخ علاء الدين الوداعى فى تذكرته أن صاحب تاج الدين محمد بن حبا رحمه الله كانت له أخت ذات مال وكان كلما اجتمع بها حضها على طعام الفقراء والمساكين والصدقة وفعل الخير ويقول لها لا تتباخلى فقالت له يوما وقد قال لها لا تكونى بخيلة فقالت له ما تستحى كم تقول أنت بخيلة وأنا كريمتك، قال عبد الملك ابن مروان لبعض الشعراء هل اصابتك تخمة قال أما من طعام الامير فلا، وقال بعضهم أربعة ممسوخة البركة أكل الارز البارد والغناء من وراء الستارة والقبلة فوق النقاب والجماع فى الماء، وقال بعض الصوفية من جلس على مائدة فأكثر الحديث فقد غش بطنه، قيل لطفيلى لم أنت حائل اللون قال للفترة بين الطعامين مخافة أن يكون قد فنى الطعام، أولم طفيلى على ابنته فأتاه كل طفيلى فلما رآهم رحب بهم ثم رقامهم إلى غرفة بسلم وأخذ السلم حتى فرغ من طعام الناس أنزلهم وأخرجهم.

دعا يحيى بن أكتم عدوله فقدم إليهم مائدة صغيرة فتضاموا عليها حتى كان أحدهم يتقدم فيأخذ اللقمة ثم يتأخر حتى يتقدم الآخر فلما خرجوا قيل لهم أين كنتم قالوا كنا فى صلاة الخوف، الحارث بن كلدة إذا تغدى أحدكم فليمن على غدائه وإذا تعشى فليخط

أربعين خطوة، وفى قوله تعالى ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾^(١) أفاد الجناب المجدى رحمه الله أن قوله تعالى ﴿على حبه﴾ مما يستشهد به فى البديع، قدم رجل كذاب من سفره وقد أفاد من سفره ما لا كثيرا فدعا قومه إلى الطعام وجعل يحدثهم ويكذب فقال أحد القوم نحن كما قال الله تعالى ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾^(٢) عبر بعض الطفيلية على قوم وهم يأكلون فقال السلام عليكم أيها القوم اللثام فقالوا لا والله الا الكرام فقال اللهم اجعلهم صادقين واجلبنى كاذبا وقعد يأكل، وعبر طفيلي أيضا على قوم وهم يأكلون فقال هل تحتاجون إلى مساعدة فقالوا بالدعاء فقال لا هناكم الله إن لم تأذنوا لى بالاكل معكم، وما أحسن قول ابن دانيال فى شخص يدعى على شير:

إذا ما كنت متخوما فكن ضيف على شير فما يخرج منه الخبز إلا بالمناشير

فائدة جلية: ذكر التوحيد فى كتاب الامتناع والمؤانسة من أدمن الاكل والشرب فى أوانى النحاس أفسدت مزاجه وعرضت له أمراض صعبة وإن أذنت أوانى النحاس من السمك شملت لها رائحة كريهة وإن كبت آنية النحاس على سمك مشوى أو مطبوخ بحرارتها ما حدث منه سم قاتل، ومنه قيل لصوفى ما حد الشبع قال لا حد له ولو أراد الله تعالى أن يؤكل بحدّ لبين كما بين جميع الحدود وكيف يكون للاكل حد والأكلة مختلفون بالطباع والمزاج والعارض والعادة وحكمة الله تعالى ظاهرة فى إخفاء حد الشبع حتى يأكل من شاء على ما شاء كما شاء، وقيل لفقيه ما حدّ الشبع قال ما نشط على اداء الفرائض وثبط عن اقامة النوافل، وقيل لمتكلم ما حدّ الشبع قال حده ما يجلب النوم ويضجر القوم ويبعث على البكوم، وقيل لاعرابى ما حدّ الشبع قال أما عندكم يا حاضرة فلا أدري وأما عندنا فى البادية فما وجدت العين وامتدت إليه اليد ودار عليه الضرر وطلبت له اللهاة وأسأغه الحلق وانتفخ له البطن واستدارت عليه الحوايا واستغاثت منه المعدة وتقوّست منه الاضلاع والتوت منه المصارين وخشيت منه الموت، وقيل لملاح ما حدّ الشبع قال حد السكر قيل فما حد السكر قال أن لا تعرف السماء من الأرض ولا الطول من العرض، وقيل لمدنى ما حدّ الشبع فقال لا عهد لى به فأحده فكيف أصف ما لا أعرف، وقيل لسمرقندى ما حدّ الشبع فقال إذا جحظت عينك ويكم لسانك وثقلت حركتك وازجحن بدنك وزال

(١) الآية: ٨ من سورة الإنسان.

(٢) الآية: ٤٢ من سورة المائدة.

عقلك فانت في أوائل الشبع قيل إذا كان هذا أوله فما آخره قال أن تشق نصفين، قيل لحمال ما حد الشبع قال إني أوصل فما أعرف الحد ولو كنت أنتهى لوصفت الحال فيه أعنى ساعة أعجن الدقيق وساعة أمل الملة وساعة أثرد وساعة آكل وساعة أشرب لبن اللقاح فليس لى قرار فأدرى أنى بلغت الشبع إلا أنى أعلم فى الجملة أن الجوع عذاب وأن الاكل رحمة وأن الرحمة كلما كانت أكثر كان العبد إلى الله أقرب والله عن العبد أرضى، قال إسحاق كنت يوما عند أحمد بن يوسف فدخل علينا أحمد بن أبى خالد فجرى ذكر الغناء فقال لا والله لا أجد شيئا مما أنتم فيه فهان علىّ وخف فى عيني فقلت له كالمستهزئ به جعلت فداك قصدت إلى أرق شيء خلقه الله وألينه على القلب والاذن وأظهره للسرور والفرح وأنفاه للهم والحزن وما ليس للجوارح منه مؤنة إنما يقرع السمع وهو منه على مسافة فتطرب له النفس فذمته ولكنه كان يقال لا يجتمع فى كل رجل شهوة كل لذة وبعد فإن شهوة كل رجل على قدر تركيه ومزاجه قال أجل أما أنا فالطعام الرقيق أعجب إلىّ من الغناء فقلت أى والله ولحم البقر والجواميس والطيوس الجبلية بالاذنجان المبرز أيضا تقدمه فقال الغناء مختلف فيه قد كرهه قوم قلت فالاختلاف فيه من أطلقه لنا حتى يجتمعوا على تحريره أعلمت جعلت فداك أن الأوائل كانت تقول من سمع الغناء على حقيقة مات فقال اللهم لا تسمعناه على حقيقته إذن فموت فاستظرفته فى هذه اللفظة وقدموا إليه الطعام فشغله عن ذم الغناء.

نظر بعضهم إلى مائدة بخيل يوضع عليها دجاجة فلا تمس ثم تردّ من الغد فلما مضت عليها أيام قال يا أخى هذه الدجاجة عمرها بعد موتها أطول من عمرها حال حياتها، ولقى رجل أبا الحرث جمين وقد تعلق به غلام فقال يا أبا الحرث من هذا فقال غلام الفضل بن يحيى كنت عند مولى هذا بالامس فقدم إلينا مائدة عليها رغيفان قد عملا من نصف خشخاشه وثريدة فى سكرجة وخبيص فى مسعط فتفتست الصعداء فدخل الخوان وما علق منه فى أنفى فمولاه بطالبنى بالقيمة قال الرجل أستغفر الله مما تقول فأومى إلى غلام كان معه فقال غلامى هذا حرّان لم يكن ما قلته صحيحا ولو أن عصفورا وقع على بعض قشور ذلك الخشخاش الذى عمل منه ذلك لما رضى مولى هذا حتى يؤتى بالعصفور مشويا بين رغيفين والرغيفان من عند العصفور ثم قال وعليه المشى إلى بيت الله الحرام إن لم يكن إذا عطش بالفرعاء رجع إلى دجلاء العوراء حتى يشرب منها صحيحا ولو أن مولى هذا كلف

في يوم قانظ أن يصعد على سلم من رمل حتى يبلغ كواكب بنات نعش فيلقطها كوكبا كوكبا لكان ذا أسهل عليه من أن يشم شام تلك الثريدة أو يذوق ذائق تلك الخبيصة فقال الرجل عليك لعنة الله وعليه إن كان سمع بمثل هذا.

فصل: في الطست والابريق والخلال والمحلب والاشنان والمنشفة وآداب غسل اليد وكيفية الاستعمال ولا بأس بغسل اليد في الطست وإن ندب إلى ذلك فليقبل الكرامة ولا يردّها، قال دفترخوان:

والطست إن رام إليك المقصدا فلا تخالف من يقول اغسل يدا
وصاحب المرش دعه ساكبا ولا تقل بس اكتفيت كاذبا

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: اجتمعوا على غسل الايدي في طست واحد ولا تسنوا بسنة الاعاجم، وقالوا غسل اليد في الطست في حالة واحدة أدخل في التواضع ويقتضى أن يجتمع الماء فيها، وقال قال عليه السلام اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بات وفي يده غمر لم يغسله فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه وفي حديث آخر: الوضوء قبل الطعام ينقى الفم وبعده ينقى اللحم واللمس من الشيطان والطست الطس بلغة طيئ أبدل من أحد السنين تاء للاستشقال فإذا جمعت وصغرت رددت السين لأنك فصلت بينهما بالتاء فقلت طساس وطسيس وهو أعجمي معرب أصله طشت بالشين المعجمة فلما عرب قيل بالسين المهملة، الابريق عربي صحيح وهو افعيل من البريق وقال الحريري في المقامات إياك واستدعاء المرجفين قبل استدعاء حلول البين أراد بالمرجفين الطست والابريق لأن الاتيان بهما يؤذن بالقيام وفراغ الطعام وما أحسن قول القاضي الفاضل في المقامة العسقلانية يصف المائدة:

وتناوبتــها الالوان صنوان وغــير صنوان
وأبطأ القوم بالمرجفــف سين فما يرجفان ولا يوجفان

وأتينا بغاسول تحظى به الافواه والانوف ولا يوجد بعده بقم الصائم خلوف، وقيل إن كنية الاشنان أبو إياس وكنية الملح أبو عون وسمعت بعضهم يسميهما البداية والنهاية، ولهذا حكى أن بوران بنت الحسن بن سهل لما تزوجها المأمون وأراد أن يدخل بها جعل الناس يهدون لابيها الاشياء النفيسة وكان بالقرب منهم رجل من الادباء فأهدى إليه مزودا فيه ملح مطيب ومزودا فيه اشنان وكتب إليه معهما أني كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر

ولا ذكر لى فيها فوجهت اليك بالمبدأ به ليمنه وبركته وبالمختوم به لطيه ونظافته ومع ذلك:

بضاعتي تقصر عن همتي وهمتي تقصر عن مالى
فالملح والاشنان يا سيدى أحسن ما يهديه أمثالى

وذكر القاضى الرشيد بن الزهر فى كتابه العجائب والظرف أن سيد الوزراء أبا محمد اليازورى وجد فى موجوداته طستا وابريقا من البلور فأفرط فى استحسانه لهما ولعظيم قدرهما أن المستنصر وهبهما له ووجد أيضا مدهن ياقوت أحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا أخذه سرا من السلطان فى خزانته حين قبض عليه فى سنة خمسين وأربعمائة ولما أخرج السلطان الذخائر المصرية عند أيام فتنة ناصر الدولة وجد فيما أخرج من دار ناصر الدولة تسعين طستا وتسعين ابريقا من صافى البلور وجيده كبارا وصغارا.

وقال ابن معقل فيما يكتب على سفرة الطست:

لم أصحب الطست من شوق إليه ولا جعلت خدى له أرضا وما شعرا
لولا وصولى به يوما إلى ملك بصيبنى فضل ما ينقى به الغمرا
وغيره أن يمس الترب مبتدلا ما مس كفيه من ماء إذا قطرا

وقال جلال الدين بن المكرم فى الطست والابريق والمنشفة:

ولى صاحب ينقى الاذى عن جوارحى فيخرجنى منه نقيا مطهرا
وآخر يحويه فيجعل الذى كان لى منه إليه مصيرا
وثالثة غارت لفعلهما فلا تزال تعفى ما لجسمى أثرا

وقال أبو طالب المأمونى:

منشفة حملها تخال بها قد فت كافورة على طبق
كأنما أنبتت خمائلها ما ارتشفت من لآلى العرق

الاشنان: عمل لهارون الرشيد يؤخذ من القرنفل والسليخة والقرفة والقاقلى والفلنجة من كل واحد جزء ومن المصطكى والاذخر والسعد والميعة اليابسة جزء ومن الموزجسوس ثلاثة أجزاء ومن الطين الابيض المكى خمسة ومن الاشنان البارد ضعف ذلك أو ثلاثة اضعافه ومن الارز الابيض المبلول المجفف المنخول مثل الاشنان يدق كل واحد على حدته ويخلط، صفة بنك محمص يؤخذ من البنك الاصفر المخمر وزن ثلاثين درهما ومن القرنفل عشرين درهما ومن الزعفران خمسة دراهم ومن الورد خمسة عشر

درهما ومن السليخة الحمراء الرقاق والسنبيل من كل واحد ستة دراهم يدق الجميع بأسره ويطحن ويحمص بماء الورد ويبخر بالعود الند والكافور والزعفران تبخيرا جيدا فانه يجىء غاية من الغايات:

كيفية تناول الاثنان: أثنان الملوك والرؤساء هو طيب من جملة الطيوب وهو يجعل فى اثنان دان له غطاء يحفظ رائحته ويكون له ملعقة يناول بها الغلام الاثنان ولا يلمس باليد البتة ولا سيما يد الغاسل فانه ان أدخل يده فيه زفرة فسد جميعه لسرعة قبول الطيب الفساد بدخول أدنى سبب من الرائحة الكريهة عليه للطف جوهره، كان بعض الظرفاء اذا قدم اليه الطعام تناول بعض الادهان العطرة الطيبة فمسح به يديه فلا يتمكن الزفر من مسامها ولا يعلق بهما طائل منه والذي يعلق يسهل زواله بأدنى غسل، وقالوا كان كسرى فى زمن السفرجل يتناول قطعة سرجل وفى غير زمانه يتناول مرباه فيأكلها عندما يقدم اليه الطعام فينسد خلل ما بين أسنانه وعموره بالسفرجل فلا يعلق بهما من مضغ اللحم طائل وكان يستعمل على مائدته بين كل لونين ملعقة رمان ليغسل فمه من الطعام الاول فيذوق الطعام الثانى خالص الطعم من شوب الطعام الأول فيدرك فرق ما بين الطعامين ويلتذ بكل واحد بمفرده ومن آداب الملوك ان لا يغسل الانسان يديه فى مجلس الملك أو بحضرة الرئيس ولا بحيث يراه الا ياذنه وكذلك يصنع فى الخلال فانه من أسوء أدب المجلس وان أذن الرئيس لجليسه فى الغسل فى مجلسه وأحب ان يتخلل فلينعزل بحيث لا يراه ولا يقع نظر الرئيس عليه.

وحكى ان أول غضب المعتصم على الافشين وكان حظيا عنده انه أكل عنده ثم دعا بالطست فغسل يده بحيث يراه المعتصم فقال المعتصم هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست حيث أراه ثم من آدابه لمن يؤذن له به ان يستقضى ازالة لزفر ولا يقصر فى غسل يده.

ويحكى ان رجلا قصر فى غسل يده فى دعوة بعض الظرفاء فقال له رب الدعوة اتق يدك والا دنست منديلنا، وكان عبد الله بن سليمان يبطى فى غسل يده ويقول من حكم اليد ان يكون زمان غسلها بمقدار زمان أكلها، وسأل المأمون اليزيدى معلم ولده العباس عن أخلاقه فأخبره انه لا يفلح ولا همة له قال كيف علمت ذلك قال رأيته قد ناوله الغلام اثنانا فاستكثر ما وقع فى يده منه فرده فى الاثنان دان ولم يلقه فى الطست فعلمت انه بخيل

والبخيل لا يصلح للملك فكان الامر كما قال وليحترز عند غسل اليدين من الرشش على من يليه أو نفص يديه بالماء اذا فرغ أو التنخع فى الطست أو المخاط فيه

الخلال: روى عن رسول الله ﷺ انه قال تخللوا فانه نظافة والنظافة من الإيمان والإيمان مع صاحبه فى الجنة، وفى حديث عمر رضي الله عنه عليكم بالخشنين يعنى الخلال والسواك، وقال أبو هريرة رضي الله عنه السواك بعد الطعام يذهب وصر الطعام، وفى حديث آخر انه عليه السلام أمر بالخلال ونهى عن ان يتخلل بالرمان والقصب وقال انهما يحركان عرق الآكلة وفى رواية يحرك عرق الجذام، وفى كتاب طب أهل البيت عليهم السلام عنه عليه السلام الخلال يجلب الرزق، وفيه من تخلل بالقصب لم تقض له حاجة سبعة أيام، وعن أيوب الانصارى عن رسول الله ﷺ قال حبذا المتخللون قالوا يا رسول الله ما المتخللون قال التخلل من الطعام فانه ليس شئ أشد على الملك الذى على العبد ان يجد من أحكم ربح الطعام، والخلال عمله من الصفصاف وعيدان الخلاف وطبع الصفصاف بارد يابس قليل الاضرار بالاسنان كثير النفع لها وهو أجود ما استعمل وخللت به الاسنان من الزهومات مأمون عليها.

ومن مستظرف المعانى وان لم يكن من غرض هذا الفصل لكن الحديث شجون ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ونقلته من خطه بالقاهرة المحروسة سيدنا آقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومى المالكى الشهير بالدمامينى رحمه الله:

أفنديه من ظبى غزالى	بلوا حظ تبغى قتالى
ورآه يضمر بالجفا	فى خاطر منه وبالى
ماللعدول اذا أبعد	ت لحسنه روحى ومالى
والجسم من عشق لذا	ك الشفر أصبح كالخلال

رجع الى ما كنا فيه والخلال المأمون هو زهر قضيب نبت فى الصحراء يقال انه الجزر البرى وهو حار يابس بزره اذا استف ألقى الدود من الجوف وانما سمى المأمون لقله أذاه للاسنان واللثة للينه وهو خلال تستعملها العوام من الناس.

الادب فى الخلال: قال صاحب سرور النفس ورأيت فى زماننا من يغلف فى تناول الخلال فأنى رأيت فى بعض مجالس الوزراء من الطستدارية من يضع الخلال خلف أذنه ويقدم الطست ثم يناوله مخدومه من ذلك الموضع وهو موضع قذر

لا يخلو غالبا من أذى ولو كان حامله أنظف الناس وأظرفهم وأما تناوله فأنى رأيت كثيرا بعد الفراغ من الغسل ليده وفمه ورفع الطست يتناول الخلال وذلك خطأ من وجهين: أحدهما انه اذا تخلل وهو مغسول الفم خرج اللحم من عموره وأسنانة الى فمه فعاد الزفر وبطلت فائدة الغسل، والاخرى انه يلقي ما خرج بالخلال على البساط وحيث اتفق من مواضع مجالسه وتلك قذارة وان كانت محقرة المقدار فالتنزه عنها أشبه بذوى الاقدار.

وأداب المناولة فى الخلال ان يكون مع الطستدار ملفوفا فى ورقة بيضاء فاذا اخرجته وضع احدى رأسيه بين أصبعيه السبابة والوسطى ومد به يده للرئيس وهو قائم فيتناوله الرئيس وهو على الطست فيتخلل ويلقى ما يخرج بالخلال فى الطست أيضا ويلقى الخلال فى الطست ثم يغسل يده وفمه، وقال: ومن أقبح ما رأيت فى أخذ الخلال أن بعض الرؤساء يتناول الخلال بيده وهى زفرة فيرشقه فى شعر لحيته ويغسل يديه ويتحدث طويلاً والخلال مغروز فى لحيته وذلك أقبح ما يكون ورأيت هذا الرئيس الذى أشرت اليه يأخذ الخلال بعد غسل يده وتنظيفها ومسحها بالمنشفة فيستعمل الخلال ويضعه فى شعر لحيته نظراً منه، قال كناجم وأخذ الخلال من المروءة لتنظيف الاسنان وتنقيتها من زفر اللحم لان اللحم اذا بات فى الاسنان أنتن لا سيما اذا كان فيه صلابة والخبز أيضا اذا بات فى الاسنان أنتن الفم وصفر الاسنان.

استشارت امرأة امرأة فى رجل تزوجه فقالت لا تفعلنى فانه وكلة تكلة يأكل خلله ووكلة وتكلة بمعنى واحد كرر للمبالغة وهو الذى يتكل فى الامور على غيره ولا يياشرها بنفسه والتاء فى تكلة واو كما قالوا فى تراث وهو من وراث والخلل ما يخرج من بين الاسنان عند التخلل قال أبو هلال العسكري وليس فى اللوم شىء من الكلام أبلغ من هذا. ول بعضهم فيه:

وناولنى من كفه شبه خصره وشبه محب ذاب من طول هجره
وقال خلالى قلت كل حميدة سوى قتل صب حار فيك بأسره

وقال الفقيه أبو الحسن بن عبد الكريم الانصارى:

وخلال صنع السقم به من نحولى فى الهوى ما قد وجب
اذهب الجسم وأبقى رأسه وكأن الرأس كالجسم ذهب
مغرم بالببيض يسعى نحوها لارتشاف الشفر أو ورد الشنب

فى الاحتياط باعتبار الاسباب المتعلقة بغسل اليد المؤدية الى الهلاك ذكر جماعة من المصنفين وفى كتاب شاناق وزنطاح الهنديين صفات مياه تمتزج بماء القراح وتخفى فيه فمن اغتسل بها أو تمضمض منها اتصل به بمسام جلده ولهواته داء مهلك ومنها ما تحمر به الاسنان ومنها ما يتفع فيه الخلال ومنها ما يجعل فى الثياب والمناشف والمناديل ومنها ما يسقى به موضع الفصد ويفعل ذلك وأوصوا واحترزوا وأكثروا فى الاحتراز من ذلك لما يجب من حفظ مهج الملوك ومهيج مدبرى دولهم والذى يجب الاحتياط فيه أربعة: الاشنان والماء والمنشفة والخلال ولكل واحد منها نوع من الاحتياط يخصه أما الاشنان والماء فوجه الاحتياط فيهما هو ان الغلام اذا قدم الطست جثا على ركبتيه ثم قدم قدح الاشنان والمحلب أو البنك ففتحه ثم أخذ الملعقة فحرك بها الاشنان جميعه حتى يقلبه ظهر البطن ثم يتناول برأس الملعقة منه يسيرا قدر الدرهم أو ما يقاربه فيجعله فى كفه ثم يستفه ميعمد الى الابريق فيمسكه بيده اليسرى ويسط يده اليمنى ويجمعها قليلا ويصب فيها الماء من الابريق ويشربه على أثر سف الاشنان ثم يوضع الابريق ويتناول الرئيس الاشنان بالملعقة ويسكب عليه الماء وأما المنشفة فانه يكون مع الغلام منشفتان احدهما يتناولها للرئيس عندما يقدم الطست يضعها مبسوطة على حجره تقى ثيابه رش الماء الزفر والاخرى تكون مطوية معلقة فى وسطه على طيها وهى التى يجفف يده بها فهذه اذا وضع الطست بين يدى الرئيس أو الملك وقبل ان يتناول الاشنان يقوم قائما ويأخذها ويجعلها فى يده اليسرى ثم يجمع حواشيها باليمنى إلى آخرها ثم يقيمها قائمة ويقبض عليها بيده اليسرى من تحت اليمنى ويسلتها بيده اليسرى سلتا قويا ثم يمسكها باليسرى من وسطها ويثنيها ويقبض عليها باليمنى من تحت يده اليسرى وهى مثنية كما فعل باليسرى وهى غير مثنية ثم يسلتها باليمنى إلى آخرها ثم يجمعها بين يديه ويفركها ثم يقبض عليها من حاشيتها الاخرى ويقيمها قائمة كما جعلها فى المرة الاولى ويسلتها بيده حتى يستوى تجعيدها ثم يعلقها فى وسطه وحيث يجشو لمناولة الاشنان وأما الخلال فقد ذكرنا انه يجب ان ينقع ليلة او ليلتين ويعوج عند التخلل لئلا يتشظا بين الاسنان فيكون له قدح صغير من زجاج طول الاصبع بحيث تدخله الاصبع يجعل فيها ماء ورد أو ماء قراح وماء الورد أنفع لان فيه قبضا تنتفع به الاسنان ويشد اللثة ثم يترك فيه الخلال قبل الحاجة اليه فاذا احتيج اليه أخرج الغلام قدح الخلال مغطى بغطاء محكم مغلفا بغلاف من أديم معدود له يعلقه الغلام فى وسطه فيعمد الى ماء الورد

أو الماء الذى يكون فيه الخلال واليسير منه يجرى فيصبه فى راحته ويشربه جميعه ثم يناول الرئيس حيثئذ الخلال على الصورة السابقة فى مناولته تم ذلك.

وفى ربيع الابرار للزمخشري: أول من عمل الصابون سليمان عليه السلام، ولبعض

الادباء فى رئيس بيده صابونة:

قد أضحت السحب لها حسدا

صابونة فى راحتى ماجد

فزصبح الموج بها مزبدا

تلاطم البحران من حولها

obeikandi.com

الباب الثاني والثلاثون في الماء وما جرى مجراه

قالوا وينبغي ان لا يشرب الماء على المائدة ولا بعد الاكل الى ان يجف اعالى البطن الا بمقدار ما يسكن بعض العطش ولا يروى منه ربا واسعا حتى اذا جف البطن وانحدر الطعام استوفى منه ومن المشروب وفي آداب شرب الماء أحاديث نبوية ومنها أدبية حض عليها العلماء في مراعاتها أما الشرعية فلا يشرب قائما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لو يعلم أحدكم ما في بطنه اذا شرب قائما لاستقى، ومنها ان تمز الماء مزا ولا تعبها وروى عن النبي ﷺ انه قال الكياد من العب والكياد داء الكيد، ومنها ان لا يستوفى الماء الى آخره ومنها ان يناول من على يمينه ومنها ان لا يشرب من ثلثة الاناء هذه كلها من احياء علوم الدين ومن آداب الماء ان يجلس ويتناول الكوز بيمينه ويسمى الله عز وجل وينظر في الاناء قبل الشرب ويضع يده اليسرى من تحته لعله يكون قد وضع على موضع يقطر منه على ثيابه قطرة غير نظيفة ثم يشرب ثلاثة أنفاس ولا يتنفس في الكوز ويحمد الله تعالى بعد الشرب وان يسر ان كان معه غيره.

آداب شرب الماء في مجالس الملوك اتفق أكابر العلماء بالادب ان استدعاء الكوز في مجلس الملك والرئيس وشرب الماء في مواجهته من سوء الادب وأما مجلس الملك خاصة فلا سبيل الى شرب الماء فيه البتة، ذكر في سيرة كافور الاخشيدى حكاية يتفع بسماعها من يلزم مجالس الملوك قالوا كان أبو جعفر مسلم وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير عند كافور عشية صيف ولم يكن عنده غيرهما فقال لهما قد اشتد الحر وللثلج أيام ما جاءنا من الشام وما كان كافور يذوق الثلج وانما كانت الكيزان توضع عليه فيشرب منها وبهذا سلم من ضرر الثلج فبينما هم كذلك اذا خبر بمجيء الثلج فقال هاتوا ثلاث كيزان فجاءوا بها فأخذ كافور كوزا فشربه وأخذ أبو الفضل كوزا وشربه وأخذ أبو جعفر كوزا وقام فخرج من المجلس وشربه ثم عاد وأكب على يد كافور ثم قعد أبو جعفر ساعة وانصرف وأراد أبو الفضل ان ينصرف فشاغله كافور ثم قال هاتوا أبا اليمن فجاء فقال زد

فى جزاءة الشريف أبى جعفر ألف دينار فى كل عام وانما أجلس أبا الفضل ليريه مكافأته
لابى جعفر عن حسن أدبه معه فى شرب الماء.

كتب أبو الخطاب الصابى الى عمه أبى اسحق الصابى مع كوز ما بعث به اليه شرط
المودة أطال الله بقاء سيدى أن لا أنفرد دونه بلذة ولا اختص قبله بعطية اذ كان لا فرق بين
محبتى ومحبه ولا فصل بين مبرتى ومبرته وقد شربت الساعة فى هذا الكوز فوجدته أعذب
ارتشافنا من الافواه وأحلى مصا من الشفاء وأصفى جوهرنا من فاخر الدر وأنقى من الثنايا
الغر وأرق طبعنا من الهوى وأخف وزنا من الهبا وأعبق طيبنا من نسيم العنبر وأذكى رائحة
من المسك الاذفر:

رقت حواشييه فخ ف على الانامل والقلوب
فكانه مستعمل من طيب أنفاس الحبيب

يتم على القدا ولا يحول بين الماء والهوى يلفظ عن صفاء الزجاج ولا يحوج الغلام الى
الثلج ان أفرغ شف وان أترع رف تساوى المياه فيه عذوبة وتعجب العيون قبل النفوس رؤيه:

اشهى الى الابصار من وجه الحبيب بلا رقيب
تهدى لنا أنفاسه ما فيك من كرم وطيب

حتى كأن طيبته من طيبتك وعذوبته مشتقة من عذوبتك وقد أنفدته مملوءا اليك لتعلم
ان قلبى مملوء من المعبة عليك والسلام.

وقال صالح بن يونس فى كوز ومرفع:

أم الحياة على سرير من نحاس عريانة أبدا بغير لباس
هى فى الممات لدى الورى معدودة لكنها ضمنت حياة الناس
وأهدى رجل لرئيس كيزانا وكتب إليه:

ما بعثت الكيزان إلا احتيالا جعلت مهجتي وروحي فداكا
منعتنى الأيام تقبيل كفيك ك فارسلتها تقبل فاكا

ولا يسمى الكوز كوزا الا اذا كان له عروة والا فهو كوب وعلى ذلك فسر قوله عز
وجل ﴿بأكواب وأباريق﴾^(١) ولذلك نظائر فى اللغة وهو ان المائدة لا يقال لها مائدة الا اذا
كان عليها الطعام والا فهى خوان كما تقدم ولا يسمى الكأس كأسا الا وفيه شراب والا فهو

قدح والى ذلك أشار العلامة ذو الوزارتين وإمام العروتين لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير صاحب الاندلس وكاتم سره في قوله لما وقف على كتاب ديوان الصبابة تأليف الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة مخاطبا له على قوله في الكتاب المذكور:

كتاب حوى أخبار من قتل الهوى وسار بهم في كل شرق ومغرب
مقاطيعه مثل المواصيل لم تزل يشبب فيها بالرباب وزنب
قوله هذه الايات:

يا من ادار من الصبابة بيننا قدحنا ينم المسك من رياه
وأنى بريحان الحديث فكلما صبح النسيم براحه حياه
انا لا أهيم بذكر من قتل الهوى لكن أهيم بذكر من أحياه

أنشدنى هذه الابيات المرحوم فخر الدين بن مكاس و ذكر ان شهاب الدين بن أبى حجلة أنشده اياها وانه تبجح بكونه مدح كتابه قال فقلت له يا شيخ شهاب الدين خثر عليك لسان الدين وذكر ان كتابك فارغ من المحاسن قال وكيف ذا قلت لقوله:

يا من أدار من الصبابة بيننا قدحنا ينم المسك من رياه
أما علمت أن الكأس لا يقال له كأس الا اذا كان فيه شراب والا فهو قدح فامتغص له شهاب الدين وأخبرنى ان لسان الدين عارضه بكتاب سماه روضة التعريف بالحب الشريف فى التصوف انتهى.

رجع الى ما كنا فيه سأل رجل الشيخ أبا الفرج بن الجوزى رحمه الله ما لنا ترى الكوز الجديد اذا صب فيه الماء تش وخرج منه صوت فما معناه قال له يا ولدى ذاك صوت شكواه يشكو الى برد الماء ما لقيه من حر النار فقال السائل فما لنا نراه اذا ملأناه لا يبرد فاذا نقص برد فقال الشيخ حتى تعلموا أن الهوى لا يدخل الا على ناقص، وذكر الوداعى فى تذكرته قال حدثنى جماعة من أهل عانة وهيت بالعراق انه اذا كان أو ان الاربعينيات ملئت فاذا انقضت رفعوها الى زمان الصيف وشربوا فيها الماء فانها تبرده بردا كثيرا يقوم مقام الثلج انتهى.

قلت: وذكر لى الوزير فخر الدين بن مكاس رحمه الله ان ماء طويا اذا شيل الى الصيف وسكب منه فى آنية الماء برده الى الغاية وان ماء هذا الفصل لا يفسد اذا شيل بخلاف غيره من الفصول، وما أحسن قول ابن عبد الظاهر ملغزا فى شربة:

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
اذا استولى على حب فقل ما شئت فى الصب

قال وأهل مصر تقول للوزير الحب واليه أشار المرحوم فخر الدين بن مكانس فى السبيل الذى أنشأه الوزير الملكى الشهير بالنشو بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه أمين:

أنشى القطيم النشو لما ارتقى وزارة زادتته فسى وزره
بالجامع العمرى سبيلا وقد قالت لنا عنه بنو مصره
هذا سبيل حاله فاسد وزيره يرشح من قعره
أنشدنى الشيخ شمس الدين الرئيس لنفسه وكتبها على الخواوى:
ترفق أيها الساقى وزد فى اللطف بالصب
وداو القلب لى واعلم بأننى منزل الحب

فصل: فى المحمود من المياه قال ابن النفيس فى الموجز أفضل المياه مياه الانهار وخصوصا الجارية على تربة نقيه فيتخلص الماء من الشوائب أو على حجارة فيكون أبعد عن قبول العفونة وخصوصا الجارية إلى الشمال المشرق وخصوصا المنحدرة إلى أسفل وخصوصا اذا بعد المنبع فان كان مع هذا خفيف الوزن يخيل لشربه انه حلو ولا يحتمل الشراب منه الا قليلا فذلك هو البالغ وماء النيل قد جمع أكثر هذه المحامد وماء العين لا يخلو من الغلظ وأردأ منه ماء البئر وماء النر أردأ وأما الشرب على الريق وعقيب الحركة وخصوصا الجماع وعلى الفاكهة وخصوصا البطيخ فردىء جدا سواء كان المشروب ماء أو شرابا فان لم يكن بد فقليل من كوز ضيق الرأس امتصاصا وكثيرا ما يكون عطش عن بلغم لزج أو مايح وكلما روعى بالشرب حركه فان صبر عليه انضجت الطبيعة المادة المعطشة واذابتها فيسكن من ذاته وفى مثل هذا كثيرا ما يسكن بالأشياء الحارة كالعسل.

قلت وعلى ذكر النيل فلا بأس بإيراد نبذة مما قيل فيه، قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى كتابه السكردان ذكر المهدوى فى تفسيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ان الله تعالى سخر للنيل كل نهر يجرى على وجه الارض فى المشرق والمغرب وذلك له فاذا أراد الله تعالى أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه فاذا انتهى جريه الى ما قدره الله تعالى أمر كل نهر أن يرجع الى عنصره ومصدق هذا الا ترى ان النيل مخالف لكل نهر على وجه الارض لانه يزيد اذا نقصت وينقص اذا زادت لانها والله أعلم تمدّه بمائها، وفى أصل النيل أقول للناس حتى ذهب بعضهم الى أن مجراه من جبال الثلج وهى بجبل قاف وانه يخترق البحر الاخضر بقدرة الله تعالى ويمر على معادن الذهب والياقوت والزمرد فيسير ما شاء الله تعالى الى أن يأتى بحيرة الريح قال الحاكى لهذا القول ولولا ذلك يعنى دخوله فى البحر المالح

وما يختلط به منه لما كان استطاع ان يشرب منه لشدة حلاوته وقال قوم مبدأ من جبل القمر وأنه ينبع من اثنى عشر عينا واختلف فى سبب زيادته ونقصانه فقال قوم لا يعلم ذلك الا الله تعالى وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب يشتهى أن يعرف أصل هذا النيل فرسم أن تشتري عبيد صغار زنوج وما شاكلهم جلب لم يستعربوا وسلمهم لصيادى السمك والبحارة ليعلموهم صنعة البحر وصيد السمك وأن يكون قوتهم من السمك لا غير فاذا مهرؤا فى ذلك تصنع لهم مراكب صغار ليركبوا فيها ويأتوه بخبر النيل وكان فرعون يجبى خراج مصر فى كل سنة ألف ألف دينار فيأخذ الربع من ذلك لنفسه وأهل بيته وبيت ماله والربع الثانى لوزرائه وأمرائه وكتابه وجنده ويكنز الربع الثالث ذخيرة ويصرف الربع الرابع فى حفر الخللجان وسد الترع وعمل الجسور ومصالح الارض وكان فى كل سنة اذا كمل التخضير ينفذ مع قائدين من قواده أردبين من قمح فيذهب أحدهما الى أعلى مصر والآخر الى أسفلها فيتأمل القائد كل ناحية وأرض كل قرية فان وجد موضعا باثرا عطلا قد أغفل بذره كتب الى فرعون بذلك وأعلمه اسم العامل وأخذ ماله وولده فربما عاد القائدان ولم يجد أحد منهما موضعا لبذر الارذب لتكامل العمارة واستظهار الزرع وجباها عمرو بن العاص اثنى عشر ألف ألف دينار وكان ذلك أول دخوله اياها والكلام على ذلك طويل (ومما) قالت الفضلاء فى النيل المبارك فمن ذلك قول علاء الدين الوداعى:

رو بمصر وبسكانها شوقى وجدد عهدي الخالى
وصف لى القلرط وشف به سمعى وما العاطل كالحالى
وارو لنا يا سعد عن نيلها حديث صفوان بن عسال
وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الانام فقابلها بتقبيل
يا من يياهى بيفداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل
وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى:

رأيت فى أرض مصر مذ حللت بها عجائب ما رآها الناس فى جبل
تسود عيني فى الدنيا فلم أرها تبيض الا اذا ما كنت فى النيل
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

زادت أصابع نيلنا وطمت فأكدت الاعادى
وأنت بكل جميلة ما ذى أصابع ذى أبادى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

لنيل مصر كمال فى زيادته وفضله غير مخفى ومكتنم
إذا بدت لك من تياره شيم رأيتنه طاهر الاوصاف والشيم

وقال الشيخ شمس الدين بن الصائغ رحمه الله:

سما النيل اذ يحكى السما فى انبساطه فلله ما أحلى وأصدق حاكى
تسير به الافلاك شرقا ومغربا وحافاته أيضا تحف بأمالك
وقال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة:

نشروا القلوع ويشروا بوفائه الراية البيضاء عليه بالوفاء
وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

لله يوم الوفا والخلق قد أجمعوا كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعه مخلق تملا الدنيا بشائره
وقال الشيخ سديد الدين بن كاتب المرج:

يا نيل يا ملك الانهار قد سقيت منك البرايا شرابا طيبا رغدا
وقد دخلت القرى نبغى منافعها فعمها بعد فرط النفع منك أذى
فقال تذكر عنى اتنى ملك وتثنى ناسيا ان الملوك اذا
وقال ابراهيم المعمار:

سمعت يوما سدا مصر يقل النيل وافى زائدا عندى
فكان هذا خببر صادق فرحت أرويه عن السدى

وفى هذه النبذة كفاية وعلى الجملة فمحاسن النيل مستكثرة ولو استوعبنا ما للفضلاء فى ذلك من النظم والنثر لحفيت من تسطيرها الاقلام وضائق صدور الاوراق وما أحق هذه المقاطيع ان تسمى مقاطيع النيل.

رجع الى ما كنا فيه أنشدنى من لفظه لنفسه ونقلته من خطه الشيخ الفاضل زين الدين ابن العجمى رحمه الله ملغزا سألتك أعزك الله عن سائل لا حظ له فى الصدقة وان لم يكن متصل النسب بالاشراف كثير الرجفان من غير أن يخاف كم رد سائله نهرا وعفر وجهه فاقده بالتراب قمرا مذكر كثير الحيض لطيف الانبساط سريع الغيظ مطلق التصرف وعليه الحجر وطالما قبل العشاء أبدى لنا الفجر يتشعب ويتكسر ويتعوج ويتدور وله خمسون عينا وأكثر يحمل القناطير المقنطرة ويعجز عن حمل ابرة سريع الاستحالة قل ما يثبت على

حاله بعيد الغوص ليس له قرار يعاجل صفاء ورَّاده بالاكدار يسكن في تخوم الغبرا وينم على أحوال أهل السما رقيق القلب على كل عديم وكيف لا وهو الولي الحميم وجود بأفخر الحلى ولا يردّ من نداءه مؤملا كم عمر سبيلا وقطع طريقا وأخاف سبيلا كم طفا واحترق وأظهر الحقائق وهو كثير الملق كم علا درجا وحط قدر الدقائق وقلع بأصابعه عين كل مارق وكم طهر أمما من أرجاسها وأماط عن أرض رديئ أدناسها وكم درأ عن شيخ خبثا ورفع كهلا وحدثا صقيل يجلو الصدا ويظهر على شدة البرد تجلدا يبلغ فيه بشيء يسير مقاما لا ترقى اليه همة الملك الكبير كم أباح محرما للعباد واكثر الفساد في البلاد وكم رأينا شموسا تجرى لمستقرها فيه وتجنح وتلوح في فلكه وتسبح كم خاض في ذاته خائض مع كثرة سياحته وربما وجد في الجبال رابض قد جمع فيه الخوف والرجا والكدر والصفاء ومن العجائب انه كافر وكم أعان على العبادة أهل الصلاح وأضاف نزيله بالميتة ولم يخش في ذلك من جناح فسبحان من جمع فيه الاضداد وأرسله رحمة للعباد.

وقال أبو الفضل أحمد بن محمد الخازن فيه:

وخل صفاء زرته بعد هجره	فألقيت شخصي في حشاه مصورا
وأودعته سرائف شاه للورى	فيا حسن ما أفشى الغداة وأظهرها
أبو حليف للثريا وأمه	به حامل في بطن منخفض الثرى
سطح له جسم بغير جوارح	يبارى الرياح الجاريات اذا جرى
نصافح كفى منه كفا رطبة	يخادع عيني كالخيال اذا سرى
تزر عليه الريح ثوبا مفرگا	ويكسوه شهب الليل ثوبا مدثرا

وقال أبو الحسين الباخري ملغزا:

لا أحساجي في زمرة الفضلاء	غير خل خصصته بأخائي
في شببيه البلور ردّ الى الماء	وقد كان قبل عين الماء
ينذر الحرر بالهزيمة بردا	فهو المنذر بن ماء السماء

وأنشدني المقر الاشرف المرحوم أبو عبد الله محمد بن الانصارى صاحب ديوان

الانشاء بالشام لنفسه حكاية حال:

ضلوا عن الورد لما أنهم رحلوا	قومي فظلوا حيارى يلهثون ظما
والله أكرم منى بالورد دونهم	فقلت يا ليت قومي يعلمون بما

وعلى ذكر الماء ذكرت ما أنشدني من لفظه لنفسه شيخنا العلامة أفضى القضاة بدر

الدين أبو عبد الله محمد المخزومى المالكى الشهير بالدمامىنى ملغزا فى قرية وكتب به إلى
المرحوم الامينى صاحب ديوان الانشاء على يد مسطرها:

أكاتب سر الملك والفاضل الذى
ومن فاه فى فن البديع بمنطق
تحدث عن سهل رواة كلامه
فديتك ما ذات أظالمكم بها
تشد وكم فى الارض قارا ما لها
وما هى فى التحقيق رواة وكم
مليحة شكل يألف الحب صبها
ويلغ منها للحياض حقيقة
يزيد مريدوها اذا ما تصوّفت
لها أربع لكن بساق رأيتها
وترضع أحيانا وما حان وضعها
وتحمل ما فيه الحياة لربها
وترسله فاعجب له من مسلسل
وكم من خليع سمته اذ تعتقت
وما نال اثما فى تعاطيه بعدما
وسم فمها المفتوح كم راح سائلا
وكم قد تعبدنا بتحريف لفظها
وتصحيفها يا بهجة الدهر بلدة
وتوجد فى الافلاك عالية بها
فيا من لرق الفضل أصبح مالكا
تلفت للغز نحو بابك قد أنى
وقال بعضهم ملغزا فى قرية السباحة:
وذا فم يوما تسبح ربها
معانقة الصبيان مضمرة الهوى
ثناه على الافكار فرض مرتب
فأمست غويضات المعانى تهذب
اذا ما أناه اللغز يرويه مصعب
ويبحث فى الاسفار عنها ويطلب
فصدق اذا ما قيل تملى وتكتب
لها خبر فى الذوق يحلو ويعذب
زمانا وفى وقت لها يتجنب
ولكن رأينا قلبه وهو طيب
ويشكرها أهل الزوايا ويطنبوا
على السعى فى الاحياء بالنقع تدأب
وكم من فتى فى حملها راح يرغب
فيا حبذا منها البسيط المركب
غدا مرسلا عنه الروية تعجب
يمد اليها الراح لهوا ويطرب
رأينا من تلك العتيقة يشرب
وما نظقت حرفا عن القصد يعرب
ولم أر بالتحريف من يتقرب
حواها من الاقطار شرق ومغرب
ويألفها بعض الحوارى ويصحب
فما لى الا نحو عليها مذهب
وكل غدا من ظرفه يتعجب
ولم تكتسب أجرا بتسييحها قط
كأن بقايا قوم لوط لها رهط

الباب الثالث والثلاثون

فى المشروب والحلواء

قال أبو عبيد معمر العرب تقول كل طعام لا حلواء فيه فهو خداج أى ناقص غير تام وقال الزمخشري عن بعضهم انه قال اللوذنج قاضى قضاة الحلواء والخبيص خاتمة الخير وقيل لبعضهم النمر يسبح فى البطن فقال على هذا التقدير اللوذنج يصلى التراويح، دخل الحمل البصرى على قادم وعنده قوم بين أيديهم طباق حلواء ولا يمدون أيديهم فقال لقد أذكرتمونى ضيف ابراهيم وتلا الآية ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾^(١) ثم قال كلوا رحمكم الله فضحكوا وأكلوا، وكان أبو هريرة يقول أكل ثمرة أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب الوصب والنصب، قيل: لأعرابي على مائدة بعض الملوك وهو يأكل الفالودج لم يشبع منه أحد الا مات فأمسك وفكر ثم ضرب بالخمس وقال: استوصوا بعبالى خيرا، وكان: عبد الله ابن جذعان سيدا شريفا فى قريش فوفد على كسرى وأكل عنده الفالودج فسأل عنه فقيل له الفالودج قيل وما هو قيل لباب البر يلبك مع العسل النحل فابتاع من عنده غلاما يصنعه وقدم به مكة فصنع بها الفالودج فوضع موائده بالابطح الى باب المسجد ثم نادى من أراد أن يأكل الفالودج فليحضر فكان ممن حضر أمية بن الصلت وكان يمدحه كثيرا فقال:

لكل قسب سبيلة رأس وهاد	وأنت الرأس تقدم كل هاد
له داع بمكة مشمعل	وأخسر فوق دارته يناد
الى درج من الشير املاى	لباب البر يلبك بالشهاد

حدث المحسن عن ابن خلاد باسناده فى كتاب الموائد ان الرشيد وأم جعفر اختلفا فى الفالودج واللوذنج فحضر أبو يوسف القاضى فسأله الرشيد فقال اذا حضر الخصمان حكمت بينهما فقدا الى فأكلا منهما حتى انتهى فقال له الرشيد احكم فقال كلما أردت أن أفضى على أحدهما أدلى الآخر بحجته فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار وبلغ زبيدة فأمرت له بألف دينار الا واحدا.

(١) الآية: ٧٠ من سورة هود.

حدث حماد بن سلمة قال دخلت على اياس بن معاوية وهو يأكل فالودجا فقال ادن دكل فان كان شيء يزيد في العقل فهذا، وأتى اعرابي بفالودج فأكل منه فقبل له تعرف ما هذا فقال هذا وجدك الصراط المستقيم.

ومن نوادر الصوفية انهم اذا اكلوا طعاما عند أحد فقالوا أكل طعامك الابرار وأفطر عندك الصائمون ولا يقولون وصلت عليك الملائكة الا بعد الحلواء، قيل لابی الحارث جمين ما تقول في الفالودج قال وددت انها وملك الموت اختلجا في صدري والله لو ان موسى لقي فرعون بفالودج لامن ولكن لقيه بعضا، وقال أنس يرفعه: من لقم أخاه لقمة حلواء صرف الله عنه مرارة الموقف، اشترى رجل احمالا من السكر وأمر باتخاذ مسجد من السكر ذى شرف ومحاريب وأعمدة منقوشة ثم دعا الفقراء فهدموه ونهبوه ذكر ذلك الزمخشري في ربيع الابرار، قدم فالودج حار الى مائدة عليها أبو هفان وأبو العيناء فقال له أبو هفان هذا آخر مكانك من جهنم فقال أبو العيناء ان كانت حارة فبردها بشعرك، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من لعق العسل ثلاثا في كل شهر لم يصبه عظيم البلاء أبدا، وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال شفاء أمتي في ثلاث: لعقة من عسل أو شرطة من حجام أو آية من كتاب الله، ونقلت من خط القاضي الفاضل واقعة غريبة اتفقت بالديار المصرية وهي انه لما أحرق شاور مصر أيام دخول الفرنج اليها كان بها رجل صالح وله ابنة مليحة احترقت دكانه في جملة ما احترق فرحل الى البر الغربي وسكن في بعض القرى وجلس في حانوت سمان يرتفق به واتفق ان مقطّع القرية رأى ابنته فهوينا وجعل يروم افسادها فلم يتيسر له فخطبها من أبيها فما رضىه كفؤا لها فشرع فى أذيته وتسخيره وطرح عليه غرامة لا تلزمه وعزم على حبسه فسأل امهاله مدة معينة فقال اكتب لى بها حجة علما منه انه فقير ومتى حلت الحجة أخذ ابنته بتلك الحجة فكتب وأشهد عليه فلما انقضت الحجة جاء شاب واشترى منه عسلا فأخذه فى جرّة ومضى فسقطت منه صرة مشدودة فأخذها الرجل وفتحها فوجد فيها عشرة دنانير فأخذها فلما جاءه المقطع طالبه ورفعته الى القاضي فقال له احضر الحجة فأحضرها فدفع اليه العشرة دنانير واخذ الحجة وتخلص من الظالم فلما عاد الى حانوته جاء الشاب الذى اشترى منه العسل وسقط منه الذهب وقال اجعلنى فى حل وابرى ذمتى فانى لما اشتريت منك العسل ذلك اليوم وقعت منى صرة فيها عشرة دنانير فاتهمتك بها وظننت انك أخذتها فلما حضرت اليوم وجدتها مرمية فى طريقى فتعجب الرجل من

ذلك وقال اشكر الله الذى ردّ عليك فأنّت فى حل من جهتى فلما كان ثانى يوم جاءه الظالم وقال اجعلنى فى حل فإنى رأيت البارحة مناما أزعجنى بسبيك وأما الذهب فانه وقع منى وذلك لانى قد أخذته حراما وقد تبت الى الله تعالى مما جرى منى فشكر الله تعالى وتفرقا.

كتب الشيخ شرف الدين عيسى العالبة الى سيدنا ومولانا الشيخ بدر الدين محمد

الدامينى ملغزا فى عسل:

ألقت مدحا كالجواهر نظمه
يمضى على الالغاز جميعا حكمه
أكرم به أصلا يروك طعمه
ريشا وأجنحة ولست أذمه
لحما ويعجب من يراه جسمه
لم يدر ما هى من تبدل فهمه
كالمسك حين يفيض عنه ختمه
ما أصل هذا فى الطيور وما اسمه
قد غره فيما ادعاه وهمه
أكلته فى وقت المجاعة أمه

ولعزه قد ذل عجزا خصمه
منه علا بين الافاضل رسمه
ومن الفضائل قد توفر سهمه
بنفيس در صبح فينا يتمه
قلنا بهذا الفعل قد وضع اسمه
أعربت لحنا ليس يجهل حكمه
فحوت به شهيدا لذیذا طعمه
فقضى بتفطير المرارة همه
عذب المذاق فحار فيه وهمه
أضحى عليا فى افصاحة نظمه
يا من تحلى بالنباهة فهمه
يا طالعا فى خير أفق نجمه

يايها المولى الرئيس ومن له
اسمع سمعت الخير لغزا محكما
قالوا من الاطيار حقا أصله
لكنه ما حاز منقارا ولا
والجسم منه ما حوى عظما ولا
ويفرد عين كم بدا لمعاين
يا من له ذكر يفوح لناشق
قل للذى يبدى الدعاوى قل لنا
ان قال هذا واضح فهو الذى
من أين يعرف اسم شىء ربما

فأجابه:

يا فاضلا بين المحاسن نظمه
وطرّزت حلل البسديع بمنطق
شرف لاغراض البلاغة سابق
ألغزت فى اسم عاطل حليته
فاذا أضفت القلب منه لاسمه
واذا عكست الاصل منه فهو ان
قد كانت الاذهان منه خلية
وروى ابن سكرة حلالة نظمه
ورأى بعين لغزك الحلو الجنى
وأعاده بحلى أسير النحل اذ
فاسلم وصغ البيان لفهمنا
واصفح بفضل عن جواب سافل

ومن تذكرة الوداعى قال صاحب فخر الدين بن الشيرجى أهدى الامير بدر الدين
نور المسعودى قصب سكر من الغور فأرسلت اليه مع الرسول أبلوجة سكر مكرر وكتب
فيها رقعة فيها:

كالبحر يطره السحاب وما له
أبو الحسين الجزار ملغزا:

أتعرف لى حبللى اذا ما تنفست
ويرضع منها الندى ساعة حملها
تريك جنينا وهو من غير جنسها
عليه به ستر دقيق وانما
اذا كسرت فى القوم تجبر كسرهما
تروق عيون الناظرين جلالة
وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

بعثت قطائفها روى
فسكرها أبو ذر
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة يستهدى قطرا:

لجود قاضى القضاة أشكو
والقطر ارجو ولا عجيب
وقال الشيخ العلامة أبو محمد بن جابر الاندلسى نزىل حلب:

وقفت للوداع زينب لما
مسحت بالبنان دمعى وحلو
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة ملغزا:

احاجيك ما حلو اللسان وانه
يرى جالسا فى الصدر ما كان كاملا
وله يستهدى قطرا

مولاي عندى للبنات قصائد
وتشاق من احسانك الحلو رسمها

ابن نباتة:

أقول وقد جاء الغلام بصحنه
بعيشك قل لى جاء صحن قطائف
عقيب طعام الفطريا غاية المنى
ويح باسم من أهوى ودعنى من الكنى

الصالح الصفدى:

أتانى صحن من قطائفك التى غدت وهى روض قد تثبت بالقطر
ولا غرو ان صدقت حلو حديثها وسكرها يرويه لى عن أبى ذر
وما أحسن قول القاضى محى الدين بن عبد الظاهر فى منزلة القطيفة:
هذى القطيفة التى لا تشتهى عقلا ونقلا
حشيت ببسرد يابس فلاجل ذاك الحشوشو يلقى
وقال الشيخ برهان الدين القيراطى وكتب بها إلى القاضى نور الدين بن حجر والد
سيدنا القاضى شهاب الدين رحمهم الله:
مولاي نور الدين ضيفك لم يزل يروى مكارمك الصحيحة عن عطا
صدقت قطائفك الكبار حلاوة بقمى وليس بمنكر صدق القطا
وأنشدنى القاضى بدر الدين بن الدمامينى قال أنشدنى شرف الدين عيسى بن حجاج
العالية لنفسه:

تهن بنصف كم به من حلاوة وجد لى بفضل لا يضيع ثوابه
فإن لسانى صارم وقمى له قراب وارجو أن يحل قرابه
وأنشدنى من لفظه لنفسه شيخنا زين الدين بن العجمى أحد فضلاء الديار المصرية
وقد أهدي له حلواء سكب:

لفضلك يا قاضى القضاة مزية على السحب لا تخفى على من له لب
فأول جود الغيث قطر مبدد وغيث نذاك الجم أوله سكب
ابن المنشد:

وقطائف مثل البودور أتت لنا من غير وعد
فحسبتها لما بدت فى صحنها اقراص شهد
السراج الوراق:

قطائفك التى رقت جسوما لماضغها كما كتفت قلوبا
كغصم رق لكن فيه قطر غدا المرعى الجديب به خصيا
وقال أبو الحسين الجزار يستهدى قطرا:
أيا علم الدين الذى جود كفه براحة قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة اننى لأرجو لها من سحب راحتك القطرا

ولـه:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر
وتبا لاوقات المخلل إنها
ولى زوجة إن تشتهى قاهرة
المعلم المرصص:

وحقك ما أوليتى من قطائف
وقد ضمنت مثل العتاب حلاوة
ابن نباتة:

رعى الله نعماك التى من أقلها
أمد لها، كفى فأهتز فرحة
ولـه:

شكرا لبرك يا غيث العفاة ولا
قد جدت بالقطر حتى زدت فى طمع
سعد الدين بن عربى:

قال القطائف للكنافة ما
أنا بالقلوب حلاوتى حشيت
ولآخر فى أقرصة البسندود:

أقرصة هشة مدورة
كأنها فى الصحف مطبقة
دراهم فوقها دنائير

كتب سيدنا القاضى صدر الدين بن الادمى إلى سيدنا ومولانا أفضى القضاة بدر الدين
محمد بن الدمامينى ملغزا فى لودنج يقبل الارض وينهى أنه أصدرها عن صدر محرور
وقلب لانقطاعه عن الباب الكريم مكسور فاسبل عليها من فضلك ستور وأعذر فإنها نفثة
مصدور:

يا من له فى عروض الشعر ايد
ما اسم دوائره فى نظمه اثتلقت
أجزاؤه من زحاف الحشو قد سلمت
تصحيف معكومه لفظ يرادفه
والعبد منتظر من خله فرجا

فاق الخليل بها فضلا وتمكين
والثلم فى صدرها مستعمل حين
هذا ويقطع مطويا ومخبونا
يا فرد يا رحلة قوم مقيمونا
لا زال سعدك بالاقبال مقرونا

وقد جهزها لثنوب عنه فى تقبيل اليد الكريمة وتستمطر من سحائب جوابه الصيب ديمه، فكتب إليه الجواب يقبل الأرض وينهى ورود المشرفة التى عذب معناها وشهد أهل الذوق بحلاوة مجتاتها وحاول العبد حل لغزها الاسير فأذن دون شهده ابن النحل وقرنه بالغاز المتأدبين فإذا هو مخصب النبات بتوال القطر وإذا تلك مطروقة المحل بالمحل وكادت مرارة الفقير تنفطر لعجزه عن هذه الحلاوة وجرى على عادته فى الاسف المكرر حيث فقد هذا الرونق وتلك الطلاوة لكنه عقد الفضيحة على نفسه بعد أن استقال وتجاسر بعد الخوف على نظم الجواب فقال:

يا مرسلا من شهى النظم لى كلما	منها ابن سكرة قد راح مغبوننا
لله درك صدرا من حلاوته	وجوهر النظم لم يبرح يحلينا
جليت لغرك إذ أبهمته فلذا	يا فائنى رحت بالاعجاب مفتونا
هذا وكم قد رأينا فى دوائره	للكف قبضا يزيد العقل تمكينا
وليس اضماره مستحسننا فأدم	بالكشف عنه لمن وافاك تحسنا
وكن لنا هاديا صوب الصواب ودم	فينا أمينا رشيد الرأى مأمونا

والله تعالى يحلى أفواه ذاكريه بما هو أشهى من اللوزنج وأحلى وأعناق المتأدبين من كلمه بما هو أنفس من الدر وأعلى ويكلؤه فى الإقامة والارتحال ويقى عيشه كل مرّ ويحفظه على كل حال، وقال الشيخ برهان الدين القيراطى ملغزا:

هذان لغزان قد حلا بيبالك يا	قاضى البرية ما هذان خصمان
اسمان كل خماسى إذا كتبت	حروفه وهما لا شك خندان
تباينا فى الورى شكلا إذا نظرا	وصورة وهما فى الاصل مثلان
يرى بكانون اصلاحاك أنهما	كما لاصلهما نفع بنسيان
فى مصر والشام منسوب لاصلهما	يضاف يا خير بستان لبستان
لكن إلى الصين منسوب مقرهما	إن أحضرا فى مكان بين اخوان
لذا كنا وهو بين الناس ليس له	من كنية ما انتحى فى ذاك اثنان
فى البر يلقى وان فتشت عنه تجد	فى لجة البحر يلقى خمسه الثانى
نبت أرى النار قد أبدت له ورقا	فاعجب له ورقا ينمو بنيران
يحى إذا ما سقاه القطر وابله	وجاده بسحاب منه ممتان
كبيقة هو لكن لا يشم ولا	يضاف يوما إلى أزهار بستان

ذو رقة فإذا صحفته ظهرت
وكم له من بدور كمل طلعت
فقدما خيط فجر أبيض عجل
واللفز الآخر اسم ذات السنة
يا حسنها ألسنا أضحت حلاوتها
تطوى على الحشو أحشاء وليس لها
بالطى والنشر فى حال قد اتصفت
كم سكرت ففتحنا للدخول بها
حسنا أجمع أهل الحل أجمعهم
وصالها حل بالاجماع فى زمن
ثلثا ثلاثة أخماس لها وجدا
وما ذكرت من الاخماس كم نطقت
وخمسها جبل لكن بقيتها
تقلى ولكن لها قلب تقربه
ما مل ذا من القالى أماليه
فى الجوف منها قلوب جمعت
كم ظل يطرحها من ليس ذا شرف
جميلة الوصف طابت عنصرا وزكت
بالحل أنعم سقى القطر المواطئ من

كنافة منه فاستره بكتمان
فى سائر الشهر لم تمحق بنقصان
بالبرق يسطو عليها سطوة الجانى
لم يبد منها لنا بالنطق حرفان
يحلو المديح لها من كل ملسان
فى الاشعرية من رام بنكران
والطى والنشر فيما قيل ضدان
أبوابها فتلقنا باحسان
والعقد منا عليها بعد عرفان
فيه الوصال حرام بعد اعيان
شيئا يجىء بإيضاح وتبيان
صدقا بذكر اسمها من غير بهتان
فى مكة ترتجى فوزا بغفران
ممن قلاها من الاقوام عيان
عنها وما خطر القالى لها شانى
ولا يكون لجوف الشخص قلبان
جهرا ويوصف مع هذا باتقان
أصلا وما سلمت من ظعن ظعان
اقدام سعيك فى ارواء ظمآن

وكتب الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى بعض أصحابه وقد أرسل قطرا ردينا وينهى أن
الذى أرسل إليه مولانا الوصول وأحال عليه بالبر المحصول أرسل قطرا ولكن بزيادة حرفين
فإذا هو قطران وبكسر أوله فإذا هو لسد الأمل الواحد قطران عندما شمه المملوك أنكره
وعندما عاينه استغرب كدره حتى حلف بالسجدة ما هو الا دخان وقالت عينه المتظرة خير
من هذا القطر قطر الاجفان وقال الفكر ما هذه إلا فعلة الواسطة التى فعلها وهو من
الظالمين وهمته التى بعثها وهو من الأثمين ورد المملوك ذلك المرسل بالعيب لوقته
وعجبت من الايادى كيف نقض عليها سواد بخته وعلى كرم مولانا تديبر هذه القضية والله
تعالى لا يخل الأمل من وجود سنته الشمسية بمنه وكرمه، وكتب إلى الجنب العالى العلائى

ابن القلانسى وقد ارسل إليه سكرًا يقبل الارض وينهى وصول البر الذى حلت مواقعه وجلت صنائعه وحلت عن أبهى وأبهر من بدر التمام مطالعه وابيضت به أيادى الكرم وشب شخصه الجميل وإن كان أشبه شىء بالهرم فضمه المملوك كنهده الحبيب وقبله أحلى وأزهر من الثغر الشنيب وابتهج به نظرا وفكرا ونقطه بدمع السرور حتى عاد السكر بالتنقيط شكرا وكرر حديثه فقال هكذا يكون المكرر وهكذا يبعث قطعة من سحابه المسخر وهذا والله البر الذى لا يستبطن لديه القصد منجحا والفضل الذى هو أحق بقول الأول لنا الجففات الغر يلمعن فى الضحى أمتع الله العفاة يمين مولانا التى أعادت من العيش حلواء وعتب الدهر خلواء وشكر عوارفه التى ما فتح على مثلها الطالب جفنه وأياديه التى حسنت المدح حتى نسى الناس ما قال حسان فى أهل جفنه.

فصل فى الشربة: عن ابن عباس رضي الله عنه سئل النبي ﷺ أى الشراب أفضل فقال الحلو البارد قالوا أراد العسل، وقال ﷺ سيد شراب الدنيا والآخرة الماء، وقيل لبعضهم أى الشراب أحب إليك فقال أعز مفقود وأهون موجود وكان المأمون يقول شراب الماء بالثلج أدعى إلى اخلاص الحمد، قال الحسن لفرقد بلغنى أنك لا تأكل الخبيص قال إني لا أقوم بشكره قال وهل تقوم بشكر الماء البارد، صفة شراب ينفع من العطش والخمار ولهب المعدة يؤخذ من ماء الرمانين ومن ماء حماض الاترج من كل واحد نصف رطل ومن ماء الاجاص وماء نقيع التمرهندي من كل واحد رطل يطبخ بنار لينة حتى يغلظ ويصير فى قوام الاشربة ويسقى منه أوقيتين بماء بارد وثلج وبماء ورد وماء خلاف.

الفقاع: يتخذ من أصناف من الحلاوات يتخذ من السكر البياض النقى بأن يحل بالماء والماء ورد ويطيب بالمسك ويوعى ويبرد بالثلج ويستعمل ويتخذ من العسل ويتخذ من ماء الزبيب الحلو السمين ويتخذ من الدبس وغير ذلك ومن الناس من يطيبه بالزنجبيل أو الفلفل أو القرنفل مع المسك والماء ورد وهذا يضر المحرورين ومن الناس من يحل شراب التفاح ويصبه فى كيزان الفقاع ويرده ويستعمله وجميع أنواع الفقاع شربها الواجب النافع أن يكون قبل الطعام ويصبر عليها حتى ينحدر فأما بعده فلا فائدة فيه غير تجشيات يسيرة يلتذ الانسان بخروجها.

فقاع ينفع المحرورين: يؤخذ من الخبز الحوارى مثل ما يؤخذ من الشعير ويصنع منه فقاع ويضاف كرفس ونعنع وماء الرمان المز ويحلى بسكر بياض ويستعمل، وأهل دمشق

يأخذون الفقاع الخرجى ويسمونونه المسدب لأنه يعمل فى كيزان محشوة بالسداب البرى فينفضونه فى الاوانى النظيفة ويرمون فيه قطعة سكر بياض ويعصرون عليه ليمونا أخضر قدر ما يطيب لهم حمضه ويحركونه بعيدان نعنح بحيث يظهر طعمه فيه ظهورا يسيرا ثم يبردونه بالثلج ويرش عليه الماء ورد وماء الخلاف ويستعملونه وهذه الصفة تنفع أصحاب الخمار وتشهى وتطيب النفس وتصرف، واعلم أن جميع أنواع الفقاع تطيب بالاشياء المناسبة لمزاج شاربه إن كان المزاج حارا كانت المطيبات باردة وإن كان المزاج باردا كانت المطيبات حارة.

أنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ جمال الدين يوسف الزعيفرانى رحمه الله:

وكيزان من الفقاع جاءت زكت طعما على الشهد المذاب
هدايا من أحببتنا ولكن كما قالوا على ورق السداب

صفة أقسما ملوكية: يؤخذ سكر أبيض يعقد جلابا رقيقا أرق ما يكون ويؤخذ دقيق أبيض مثلث يطبخ مثل العصيدة القوية بغير ملح ويبرد ويجعل فى طست وتضرب باليد ويقلب عليها الجلاب مغرفة بعد مغرفة وكلما زدت ضربها باليد زادت رغوتها إلى أن يصير لها قوام الحرية الشديدة الثخينة ثم يقلب عليها فقاع خرجى وفى مصر عوض الفقاع أقسما فإذا صارت رقيقة اجعلها فى وعاء نظيف ويكون فيه أثر دبس أو أثر عسل واجعل معها قبضة سداب مربوطة وقبضة نعنح كذلك وأظرف طيب مثل القرنفل والباسل والزنجبيل وجوز الطيب وماء ورد ومسك ويكثر فيها من أظرف الطيب ويجعل فى مكان داف ويغطى بغطاء كبير فإنها تبقى جميعها كالرغوة ثم إنها تطلع فإذا طلعت خذ لها اناء زجاج أو حقا يمينا ويخره بالعنبر واجعله فيها واستعمله وعند استعمالها انفض عليها فقاعا خرجيا فهذا النوع من الاقسما وهو أطيب من المشروبات.

صفة نقوع مشمش يؤخذ المشمش اللوزى أو غيره يغسل من التراب والغبار غسلا مستقصى ثم يصب عليه ماء اللينوفر وماء لسان الثور وماء ورد ويعصر عليه ماء رمان طرى حامض ويرمى فيه طاقات نعنح ثم يحلى بسكر بياض ويترك حتى يتنقع المشمش فى هذه المياه المذكورة نقعا معتدلا لا يبلغ أن يتهرى فى اناء مبخر بالعنبر فإنه يجىء فى غاية الطيبة واللذة، ومن أراد أن يتنقل بالمشمش اليابس الطيب فيأخذ ماء ورد ومسكا يحلان فى

سكر فائق وقليل ماء ثم ينقع المشمش فيه بعد غسله بحيث لا يتهرى فى نغعه بل يكون فيه قوة ظاهرة ثم يخرج المشمش من الماء المنقوع فيه ويجفف تجفيفا معتدلا فى مكان نظيف ثم يتنقل به فإنه يكون فى غابة الطيبة، ومن الادعية المستعملة بين الناس قولهم هنيئا مريئا فالهنيء الطعام الذى لا يحصل عقيب أكله أو هضمه ضرر والمرىء السريع الهضم.

obeikandi.com

الباب الرابع والثلاثون فى بيت الخلاء المطلوب

قال الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد رحمه الله الخلاء بالمد فى الاصل هو المكان الخالى كانوا يقصدونه لقضاء الحاجة ثم كثر حتى تجوز به عن غير ذلك قال أنس بن مالك رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث بضم الخاء والباء جمع خبيث والخبائث جمع خبيثة استعاذ من ذكور الشياطين وإنائهم قال بعضهم إذا كمل للانسان فى داره حسن ثلاثة مواضع لم ييال فيما فاته منها وهى: مجلس السكن والدھليز والكنيف.

وفيه يقول المأمونى:

بيت إذا ——— زاره زائر	فقد قضى أعظم أوطاره
يدخله المولى يبرز كما	يدخله العبد باطماره
وهو إذا ما كان مستصفا	مرورة الانسان فى داره

وكان جعفر الصادق يقول من سعادة المرء سعة داره وحسن مجلسه ونظافة متوضاه. حكى عن بعض الحمقى أنه استدان سبعمائة درهم وأنفقها على كنيف داره فبلغ ذلك بعض أصحابه الظرفاء فقال ليت شعرى ما الذى يريد يخترى فيه وحكى أبو الفرج الاصبهاني فى أخبار العرجى عن الاصمعى قال مررت بكناس يكنس كنيفا وهو يغنى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كرهية وسداد ثغر
فقلت أما سداد الكنيف فمعلوم وأما سداد الثغر فلا علم لنا بك كيف أنت فيه وكنت حديث السن وأردت العبث به فأعرض عني مليا ثم أقبل على وأنشد:

وأكرم نفسى إن أهنتها وحققك لم تكرم على أحد بعدى
فقلت له والله ما أكرمتها وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به فبأى شىء أكرمتها فقال بلى والله إن من الهوان لشر ما أنا فيه فقلت وما هو قال الحاجة إليك وإلى أمثالك فانصرفت وأنا أخزى الناس.

ومن أداب المضيف أنه يرى الضيف بيت الخلاء، قال ملك الهند إذا أضافك أحد فأره الكنيف فإنى قد ابتليت فوضعت فى قلنسوتى.

نادرة: قيل إن رجلا حكى قال كنت بائنا فى بيت بين جماعة وكنت ضيفا فتحررت بطنى فى اثناء الليل فقممت فلم أجد موضعا فطفت فى البيت فإذا أنا بمهد فيه طفل فأخذت الطفل فى حجرى ثم خربت فى المهد ثم رجعت لارد الطفل فى المهد فإذا به قد خرى فى حجرى أضعاف ما خربت فى مهده فما جرى على كاتبه أعظم منها.

قلت: الطبيعة مكافئة.

ومثلها حكى أن دعبل بن على الخزاعى دعا أبا هفان فأطعمه ألوانا كثيرة الحبوب وسقاه نبذا حلوا وغمز الجوارى أن لا يذلوه على بيت الخلاء ثم تركه ونام فلما أجهده الامر قال لبعض الجوارى أين الخلاء فقالت لها الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى فغنت:

خلا من آل عسالية الديار فمشوى أهلها منها قفار
فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا وسقوه فقال قد أحستهم وجددتهم
غير انكم لم تأتوا على ما فى نفسى وسكت فلما أجهده الامر قال لعل الجارية بغدادية لم تفهم ما قلت لها ثم التفت إلى أخرى وقال لها فذاك أبوك أين المستراح فقال الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى فغنت:

واستريح إلى ليلى فاذكرها كما استراح عليل من شكيه
فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا وسقوه فقال أحستهم وجددتهم
غير انكم لم تأتوا على ما فى غرضى ثم قال لعلها ما فهمت ثم قال لاحداهن فذاك أبوك أين الحش فقالت الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى فغنت:

وحاشاك أن أدعو عليك وإنما أردت بهذا القول أن تقبلى عذرى
فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا فقال أحستهم وجددتهم غير أنكم
لم تأتونى على مقصودى ثم أجهده الأمر فقال لعلها كوفية ثم قال للآخرى فذاك أبوك أين الكنيف فقالت الأخرى ما يقول سيدى قالت يقول غنونى:

تكنفى الواشون من كل جانب ولو كان واش واحد لكفانى
فغنت هذه وضربت هذه وزمرت هذه وشربوا أقداحا فما تمالك حتى وثب وحل سراويله وذرق فى وجوههن فتصارخن فانتبه دعبل فقال ما شأنك يا أبا هفان فقال:

تكنفى السلاح فأضجرونى على ما بى بنيات الزوانى
فلما قل عن حالى اصطبارى رميت به على وجه الغوانى

فقام دعبل فدلله على الخلاء فدخل واغتسل وخلع عليه بعد أن ضحك منه ضحكا عظيما، وما أظرف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

أُـمـطُ بالدوا ثـيـاب الـاذى وطـب فى الرواح به والـغـدو
وكرر احاديث بيت الخلاء ولكن على رغم أنف العـدو
ولبعضهم يستحث:

يا قـاعـدا مـتـفـكـرا لـمـن الـولـايـة بـالـعـبـراق
ارحم فـديـتـك مـدـنـفا قـد لـف سـاقا فـوق سـاق

نادوة: قال رجل لآخر يمدحه أنت من بيت الطهارة فقال الرجل دعنى من هذا المدح فقال صدقت الشكر فى الوجه ذم ولكن أنا أذكرك فى الخلاء.

حكى أن بعض الكتاب كان يلقب بجعيص فلقيه بعض حرفائه فقال له أوحشتنى يا جعيص وأين كنت فأنشده:

وحيث ما كنت من بلاد فلى إلى وجهك التفات
قلت: وضمن هذا الشيخ بدر الدين بن الصاحب فقال:

يا كـعبـة الله إن رحلنا وطال ما بيتنا الشـتات
فحيث ما كنت من بلاد فلى إلى وجهك التفات

(رجع) كان لبعض المغفلين دار فقال له الساكن إن الكنيف قد انفتح فقال له صاحب الدار نظرت إليه من أيام وأردت أن أتفدى به قبل أن يتعشى بى فسبقنى، قلت الشيء يذكر بلوازمه نقلت من خط الفاضل المؤرخ الناظم الناصر الرحال صاحب المؤلفات المبدعة نور الدين على بن سعيد من كتابه الذى سماه بالمغرب فى أجلاء المغرب قال فى ترجمة أبى العباس أحمد بن القاسم وهو الذى يقول فيه ابن تقي فى موشحته المشهورة التى منها أما ترى أحمد فى مجده العالى لا يلحق أطلعه الغرب فأرنا مثله يا مشرق وجرت له معنى حكايات أكرمها حكايته وقد وفد عليه مرة فوجده قد عجز عن لارتياح وألقع عن شرب الراح وكانت له عادة باحضاره المجلس راحته عندما يصل فخطب ذلك منه فأعلمه بتوبته وتكلف له مجلسا فيه أصحابه ومن يشرب من أقاربه وحضر هو فيه عازما على المؤانسة دون المشاركة فى شراب فقال ابن تقي موشحته المشهورة:

نـسـدِـمـنـا قـسـد طـا ب غـن لـه وأنـشـد
وأردد عليـه الكـأ م عـسـسـاه يـرـتـد

فارتد عن توبته وشرب كأسه من نوبته وأتى من المطايب والطرب ما قرب به عين الظرف والادب ولما أخذ السكر من ابن تقي قام إلى المستراح وفى وسطه كيس فيه جملة من الذهب الذى جرت عادة أبى العباس أن يصله به فى كل سفرة وما اجتمع له من غيره فحله وحطه فى كوة المستراح حتى يقضى شغله ثم فرغ ومضى ونسى الكيس لما كان فيه من السكر ونام فلما أصبح وصحا قلب وسطه ليطلب الكيس فلم يجد شيئاً ونظر إليه أبو العباس فقال له ما لك فأخبره فقال أنا أخذته منك البارحة لثلاث يضيع منك وإذا احتجت إليه دفعته لك واستفهمه عن عدد ما فيه فأخبره فلما دخل إلى منزله جعل فى كيس من عنده ذلك العدد ودفعه إليه وابن تقي لا يشك أنه ذهبه ثم ودعه وانصرف ولما اجتاز عليه فى سفرة ثانية حضر فى ذلك المجلس ليلة على مثل تلك الحالة فلما سكر قام إلى المستراح ثم تفكر فى حالة السكر أنه كان قد حل هناك سراويله ووضع الكيس فى الكوة فمد يده إلى الكوة فوجد كيسه بعينه فأخذه وجعله فى وسطه ثم عاد لشربه والمجلس غاص محتفل بالاعيان فبكى ابن تقي وكدر المجلس فظن أبو العباس أنه جرى عليه ما أوجب ذلك فقال له ما يبكيك هل نابتك أمر أكشفه عنك فقال والله ما أبكى إلا حسرة على العالم أنه لا يخلد مثلك فيه وحكى الحكاية فقال أبو العباس ما كان يسعنى فى ذلك الوقت إلا ما فعلته لاني خفت أن يكون ضاع لك ففتهم به أحد ندمائى ويشيع ذلك ولا بد من غرمه لك لثلاث تنصرف خائباً فكان الأولى غرمه دون أن يفتضح أحد من أصحابنا فقبل الأرض ودعى له وهذه إحدى مكارمه جدد الله عليه الرحمة وجازاه بما هو أهله فى جنة الفردوس من النعمة آمين آمين .

سألنى بعض المخاديم أن أنظم له أبياتاً تكتب على الخريشت الذى جددته بعد حريقه وانهدامه فى الواقعة المشهورة الخواجا بدر الدين محمد بن الخواجا شمس الدين محمد ابن المزلق أدام الله سعدهما بيباب البريد بالجامع الاموى وكان والده قد بيضه:

يا بقعة لقضا الحوايج أسست	لا زال سعادك دائماً يتزايد
لمحتك من بدر وشمس نظرة	فغدا قرانا سعدة لك يرصد
جددت فعل الخير يا بن مزلق	لا زال فعل الخير منك يجدد
عشرون بيتاً قد قصدت رويها	يا خير من يروى ومن يتقصده
كانت مسودة وقد بيضتها	فالماء للآيات منها ينشد
وإذا نظرت إلى البقاع وجدتها	تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

الباب الخامس والثلاثون

في نبلاء الأطباء

قال الحكيم الفاضل الفيلسوف العارف ابقرات وينبغى أن يكون الطبيب حرا في جنسه جيدا في طبعه حديث السن معتدل القامة متناسب الاعضاء جيد الفهم حسن الحديث صحيح الرأي عند المشورة عفيفا شجاعا غير محب للفضة مالكا لنفسه عند الغضب ولا يكون تاركا له في الغاية ولا يكون بليدا وينبغى أن يكون مشاركا للعليل مشفقا عليه حافظا للاسرار لأن كثيرا من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم وينبغى أن يكون محتملا للشتيمة لأن قوما من المبرسمين وأصحاب الوسواس السوداوى يقابلونا بذلك وينبغى لنا أن نتحملهم عليه ونعلم أنه ليس منهم ذلك وإن سببه المرض الخارج عن الطبيعة وينبغى أن يكون خلق رأسه معتدلا مستويا لا يحلقه ولا يدعه كالجمجمة ولا يستقصى قص أظافير يديه ولا يتركها تعلو على أطراف أصابعه وينبغى أن تكون ثيابه نظيفة بيضاء نقية لينة ولا يكون في مشيه مستعجلا لأن ذلك دليل الطيش ولا متباطئا لأنه يدل على فتور النفس وإذا دعى إلى المريض فليقعد مترعا ويختبر منه حاله بسكون وتأن لا بقلق واضطراب فإن هذا الشكل والزى والترتيب عندى أفضل من غيره وابقراط هذا أول من برهن كيف يكون المريض والصحة في جميع الحيوان وفي النبات وهو الذى استنبط أجناس الامراض وجهات مداواتها وكانت لها العناية في نفع المرضى ومداواتهم ويقال له أول من جدد البيمارستان واخترعه وأوجده وذلك أنه عمل بالقرب من داره موضعا من بستان له مفردا للمرضى وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه أخشندوكين أى مجمع المرضى ولذلك أيضا يقع لفظه البيمارستان وهو فارسى وذلك أن البيمار بالفارسى هو المرضى وستان هو الموضع أى موضع المرضى ولم يكن له دأب في مدة حياته وطول بقائه إلا النظر في صنعة الطب واتخاذ قوانينها ومداواة المرضى واتصال الراحة إليهم وانقاذهم من عللهم ولم يكن لابقراط رغبة في خدمة أحد من الملوك لطلب الغنى ولا في زيادة مال وكان ابقرات في زمن بهمن بن اسفنديار بن بستاسب وظهر ابقرات سنة ست

وتسعين لبختنصر وهى سنة أربع عشرة لملك بهمن وأما تفسير اسمه فإن معناه ضابط
الحيل وقيل معناه ماسك الأرواح وقيل ماسك الصحة وأصل اسمه باليونانية ابوقرطيس
ويقال هو بقراطيس وإنما العرب عادتوا أن تخفف الاسماء فخفف هذا الاسم فقالوا ابقرات
وبقرات أيضا وقد جرى ذلك كثيرا فى الشعر ويقال أيضا بالتاء ابقرات وبقرات ومات
مفلوجا ومن ألفاظه الحكمة ونوادره المفردة فى الطب قال الطب قياس وتجربة وقال العادة
إذا قدمت صارت طبيعة ثانية والزجر والفأل حبس نفسانى وقال كل مرض معروف السبب
موجود الشفاء وقال لا تأكل حتى تجوع وقال يتداوى كل عليل بعقاير أرضه فإن الطبيعة
تنزع إلى عادتها وقيل له لم يكون البدن أثور ما يكون إذا شرب الانسان الدواء قال لأن أشد
ما يكون البيت غبارا إذا كنس وقال مثل المنى فى الظهر كمثل الماء فى البئر إن نزفته فار
وإن تركته غار وقال إن المجمع يقتلع من ماء الحياة وسئل فى كم ينبغي للانسان أن يجمع
قال فى كل سنة مرة قيل فإن لم يقدر قال فى كل شهر مرة قيل فإن لم يقدر قال فى كل
أسبوع مرة قيل له فإن لم يقدر قال هى روحه أى وقت شاء يخرجها وقال العافية ملك خفى
لا يعرف قدرها إلا من عدمها وقيل له أى العيش خير فقال الأمن مع الفقر خير من الغنى
مع الخوف ودخل على عليل فقال له أنا وأنت والعلة ثلاثة فإن أعتنى عليها بالقبول لما
تسمع منى صرنا اثنين وانفردت العلة فقوينا عليها والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه وقال
للقلب آفتان وهما الغم والههم فالغم يعرض منه النوم والههم يعرض منه السهر وذلك أن
الههم فيه فكر فى الخوف بما سيكون فممن يكون السهر والغم لا فكر فيه لأنه إنما يكون بما
قد مضى وانقضى ومن كلامه فى العشق العشق طمع يتولد فى القلب وتجتمع فيه مواد من
الحرص وكلمة قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج وشدة القلق وكثرة السهر وعند
ذلك يكون احتراق الدم واستحالة إلى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها إلى السوداء
ومن طغيان السوداء فساد الفكر ومع فساد الفكر تكون الندامة ونقصان العقل ورجاء ما لم
يكن وتمنى ما لم يتم حتى يؤدى ذلك إلى الجنون فحيثئذ ربما قتل العاشق نفسه وربما مات
غما وربما وصل إلى معشوقه فيموت فرحا وأسفا وربما شهق شهقة فتخفى فيها روحه
أربعا وعشرين ساعة فيظن أنه قد مات فيقبر وهو حى وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه
فى تامور قلبه فينضم عليها القلب فلا تنفجر حتى يموت وربما ارتاح وتشوق للنظر أو رأى
من يحب فيموت فجأة دفعة واحدة وأنت ترى العاشق إذا سمع بذكر من يحب كيف

يهرب دمه ويستحيل لونه وزوال ذلك عمن هذه حاله بلطف رب العالمين لا بتدبير من
الآدميين وذلك أن المكروه العارض من سبب قائم بمفرده بنفسه بتهىء التلطف فى إزالته
بإزالة سببه فإذا وقع السببان وكل واحد منهما علة لصاحبه لم يكن إلى زوال واحد منهما
سبيل كما إذا كانت السوداء سببا لاتصال الفكر وكان اتصال الفكر سببا لاحتراق الدم
والصفراء وميلهما إلى السوداء فالسوداء كلما قويت قوت قوة الفكر والفكر كلما قوى
قوت السوداء فهذا الداء العياء الذى تعجز عن معالجته الاطباء ومن كلامه الاقلال من
الضار خير من الاكثار من النافع وقال أما العقلاء فيجب أن يسقوا الخمر وأما الحمقاء
فيجب أن يسقوا الحريف وقال ليس معى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست بعالم وقال
المالك للشئء هو المسلط عليه فمن أحب أن يكون حرا فلا يهوى ما ليس له وليهرب منه
وإلا صار له عبدا وقال لتلميذ له إن أحيت أن لا تفوتك شهوة فاشته ما يمكنك وقال الدنيا
غير باقية فإذا أمكن الخير فاصطنعوه وإذا عدمتم ذلك فتحمدوا واتخذ من الذكر أحسنه.
انتهى. ما لخصته من ترجمة ابقرات من طبقات الاطباء للعلامة موفق الدين أبى العباس
أحمد بن أبى القاسم الخزر جى المعروف بابن أبى أصبيعة رحمه الله.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى شرح العيون ومن ظرائف حكايات أبقرات أن ولد
أحد الملوك عشق جارية من حظايا أبيه فتحل بدنه واشتدت علته وهو كاتم خبره فأحضر
ابقرات فجس نبضه ونظر إلى بشرته فلم ير علة فذاكره حديث العشق فرآه يهتز لذلك
ويضطرب فاستخبر الحال من حاضته فلم يكن عندها خبر فقال هل خرج من الدار فقالت
لا فقال لآبيه مر رئيس الخصيان بطاعتي فأمره فقال أخرج على النساء فخرجن وابقرات
أصبعه على نبض الصبى فلما خرجت الجارية اضطرب عرقه وحار طبعه فعلم ابقرات أنها
المعينة فصار إلى الملك فقال إن ابن الملك عاشق لمن الوصول إليها صعب قال الملك
من هى قال زوجتى فقال انزل عنها ولك عنها بدل فتمنع ابقرات وقال هل رأيت أحدا كلف
أحدا إلى طلاق زوجته ولا سيما الملك فى عدله ونصفته يأمرنى بمفارقة زوجتى وهى
عديلة روى فقال الملك إنى أؤثر عليك وأعوّض لك أحسن منها فامتنع حتى بلغ الامر إلى
التهديد والسيوف فقال إن الملك لا يسمى عادلا حتى ينصف من نفسه رأيت لو كانت
العشيقة حظية الملك ففهم الملك المراد وقال يا ابقرات عقلك أتم من معرفتك ونزل عن
الحظية لابنه وشفى الفتى.

فيثاغورس: قال القاضى صاعد فى طبقات الامم ان فيثاغورس كان بعد بندقليس بزمان وأخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داود عليها السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام ومن كلامه وآدابه وحكمه قال كما أن بدء وجودنا وخلقنا من الله سبحانه هكذا ينبغي أن تكون نفوسنا منصرفة إلى الله تعالى وقال الفكرة لله خاصة فمحبته متصلة بمحبة الله ومن أحب الله سبحانه وتعالى عمل بمحابه ومن عمل بمحابه قرب منه ومن قرب منه نجا وقال الاقوال الكثيرة فى الله تعالى علامة تقصير الانسان عن معرفته وقال ما لا ينبغي أن تفعله احذر أن تخطره ببالك وقال الاشكال المزخرفة والامور المموهة فى أقصر الازمان تبهرج وقال الاخلاق بالانسان أن يفعل ما ينبغي لا ما يشتهى وقال الدنيا دول مرة لك وأخرى عليك فإن توليت فاحسن وان تولوك فألن وكان يقول إن أكثر الآفات إنما تعرض للحيوانات من عدمها الكلام وتعرض للانسان من قبل الكلام وكان يقول من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به مكروه كما ينزل بغيره: العجلة واللجاجة والعجب والتوانى فثمرة العجلة الندامة وثمرة اللجاجة الحيرة وثمرة العجب البغضاء وثمرة التوانى الزلة ونظر إلى رجل عليه ثياب فاخرة يتكلم فيلحن فى كلامه فقال له اما أن تتكلم بكلام يشبه ثيابك أو تلبس لباسا يشبه كلامك وقال استعمل الفكر قبل العمل وقال كثرة العدو تقل الهدو وحضرت امرأته الوفاة فى أرض غربة فجعل أصحابه يتحرقون على موتها فى أرض الغربة فقال يا معشر الاخوان ليس بين الموت فى الغربة والوطن فرق وذلك أن الطريق إلى الآخرة واحدة من جميع النواحي وقيل ما أحلى الاشياء فقال الذى يشتهى الانسان وقال أنكى لعدوك أن لا تريه أنك تتخذة عدوا. انتهى كلامه.

سقراط: كان من تلاميذ فيثاغورس واقتصر من الفلسفة على العلوم الالهية واعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها وأعلن بمخالفة اليونانيين فى عبادتهم الاصنام وقابل رؤساءهم بالحجاج والادلة فشوروا العامة عليه واضطروا ملكهم إلى قتله فأودعه الملك الحبس تحمدا إليهم ثم سقاه السم تفاديا من شرهم مع مناظرات جرت له مع الملك محفوظة وله وصايا شريفة وآداب فاضلة وحكم مشهور ومعنى سقراطيس باليونانية المعتصم بالعدل وبلغ من تعظيمه الحكمة مبلغا أضر بمن بعده من محبى الحكمة لأنه كان من رأيه أن لا يستودع الحكمة الصحف ولا القراطيس تنزيها لها عن ذلك ويقول إن الحكمة ظاهرة مقدسة فلا ينبغي أن تستودعها إلا الانفس الحية وتنزهها عن الجلود الميتة ولم يصنف

كتابا ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبتته فى قرطاس وإنما كان يلقنهم علمه تلقينا لا غير وتعلم ذلك من أستاذه طيماوس فإنه قال فى صباه لا تدعنى أدون ما أسمع منك من الحكمة فقال له ما أوثقك بجلود البهائم الميتة وأزهدك فى الخواطر الحية هب انسانا لقيك فى طريق فسألك عن شىء من العلم هل كان يحسن أن تحيله على الرجوع إلى منزلك والنظر فى كتبك فإن كان لا يحسن فالزم الحفظ فلزمه سقراط ومن آداب سقراط وحكمه ونوادره ما ذكره الامير المبشر بن فاتك فى كتابه قال سقراط عجبا لمن عرف فناء الدنيا كيف تلهيه عما ليس له فناء وقال النفس جامعة لكل شىء فمن عرف نفسه عرف كل شىء وقال ما ضاع من عرف نفسه وما أضيع من جهل نفسه وقال ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقدود والحسود وحديث عهد بغنى وغنى يخاف الفقر وطالب رتبة يقصر قدره عنها وجليس أهل الادب وليس منهم وقال خير من الخير وشر من الشر من عمل به وقال اتقوا ما تبغضنه قلوبكم وقال من اهتم بالدنيا ضيع نفسه ومن اهتم بنفسه زهد فى الدنيا وقال طالب الدنيا إن نال ما أمل تركه لغيره وإن لم ينل ما أمل مات بغصة وقال من أحب أن لا تفوته شهوة فليشته ما يمكنه وقال له رجل شريف الجنس وضيع الخلائق أما تأنف نفسك يا سقراط من خساسة جنسك فأجابه جنسك عندك انتهى وجنسى منى ابتدئ وقال لا يكون الحكيم حكيما حتى يغلب شهوات الجسم وكان يقول القينة مخدومة ومن نخدم غير ذاته فليس بحر وقال إنما جعل للانسان لسان واحد وأذنان ليكون ما يسمعه أكثر مما يتكلم به وقال أنفع ما اقتناه الانسان الصديق المخلص وقال الصامت ينسب إلى العيى والمتكلم ينسب إلى الفضول ويندم وقال إذا ضاق صدرك بسرك فصدر غيرك به أضيق وقال من أراد النجاة من مكائد الشيطان فلا يطيعن امرأة فإن النساء سلم منصوب ليس للشيطان حيلة إلا بالصعود عليه وقال لتمليذ له يا بنى إن كان لا بد لك من النساء فاجعل لقاءك لهن كأكل الميتة ولا تأكلها إلا عند الضرورة فتأخذ منها بقدر ما يقيم الرمق فإن أخذ أخذ منها فوق الحاجة أسقمته وقتلته وقيل له ما تقول فى النساء فقال هن كشجر الدفلى له رونق وبهاء فإذا أكله الغرّ قتله وقال من قل همه على ما فاته استراحت نفسه وصفا ذهنه وقال أفضل السيرة طيب المكسب وتقدير الانفاق وقال من يجرب يزدد علما ومن يؤمن يزدد يقينا ومن يستيقن يعمل جاهدا ومن يحرص على العمل يزدد قوة ومن يكسل يزدد فترة وقال القينة ينبوع الاحزان فلا تقنوا الاحزان وقال لولا أن فى قولى اننى لا أعلم اخبارا أننى أعلم لقلت إنى لا أعلم.

افلاطون: فيلسوفى يونانى طبى عالم بالهندسة وطبائع الاعداد ومعنى اسمه العميم
الواسع لزم سقراط وسمع منه خمس سنين ثم مات سقراط فبلغه أن بمصر قوما من
أصحاب فيثاغورس فسار إليهم حتى أخذ عنهم وبلغ من العمر احدى وثمانين سنة وكان
حسن الاخلاق كريم الافعال كثير الاحسان إلى كل أحد غريبا وقريبا مبتدأ حكيما صبورا
ومن كلامه ومواعظه العادة على كل شىء سلطان وقال من لم يواس الاخوان عند دولته
خذلوه عند فاقته وقيل له لم لا تجتمع الحكمة والملك فقال لعز الكمال وقال إذا أردت أن
تدوم لك اللذة فلا تستوفى الملتذ أبدا بل دع فيه فضلة تدوم لك اللذة وقال غاية الادب أن
يستحى المرء من نفسه وقال ما ألت نفسي إلا من ثلاث من غنى افتقر وعزيز ذل وحكيم
تلاعبت به الجهال وقال لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده فإن الناس ليس يسألون فى
كم فرغ من هذا العمل وإنما يسألون عن جودة صنعته وقال اطلب فى الحياة العلم والمال
تحز الرئاسة على الناس لأنهم بين خاص وعام فالخاصة تفضلك بما تحسن والعامه
تفضلك بما تملك وقال عين المحب عمياء عن عيب المحبوب وقال الحلم لا ينسب إلا
إلى من قدر على السطوة والزهد لا ينسب إلا إلى من ترك بعد المقدرة وقال الحسن الخلق
من صبر على السىء الخلق وقال أشرف الناس من شرفته الفضائل لا من يشرف بالفضائل
وذلك أن من كانت الفضائل فيه جوهرية فهى تشرفه ومن كانت فيه عرضية تشرف بها ولم
تشرفه وقال الحياء إذا توسط وقف الانسان عما عابه وإذا أفرطه وقفه عما يحتاج إليه وإذا
قصر خلع عنه ثوب التجمل فى كثير من احواله وقال لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق
من طبعه سرا وأنت لا تدري وقال من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك
ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك وقال رب مغبوط بنعمة هى بلاؤه ورب
محسود على حال هى دواؤه وقال الامل خداع النفوس لا تستكثرن من عشرة حملة عيوب
الناس فإنهم يلتقطون ما غفلت عنه وينقلونه إلى غيرك كما ينقلون عنهم إليك وقال الافراط
فى النصيحة يوهم بصاحبها كثيرا من المظنة وقال ليس ينبغى للرجل أن يشغل قلبه بما ذهب
منه ولكن يعتنى بحفظ ما بقى عليه وستل عند موته عن الدنيا فقال خرجت إليها مضطرا
وعشت فيها متحيرا وما أنا أخرج منها كارها ولم أعلم فيها اننى لا أعلم.

ارسطاطاليس: وتفسيره تام الفضيلة قال سليمان بن حسان المعروف بابن حلجل فى
كتابه عن ارسطاطاليس أنه كان فيلسوف اليونان وعالمها ونحريها وخطيبها وطبيبها وكان

أوحدا فى الطب وغلب عليه علم الفلسفة قال المسعودى وكان افلاطون يجلس فيستدعى من الكلام فيقول حتى يحضر الناس وربما قال حتى يحضر العقل فإذا حضر قال تكلموا فقد حضر العقل ومن كلامه وحكمه رغبتك فيمن زهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك قصر همة وقال الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديق غيره وقال الحاجة تفتح أبواب الحيلة ونظر إلى حديث ينهاون بالعلم فقال له إنك لم تصبر على تعب العلم وصبرت على شقاء الجهل وقال كفى بالتجارب تأديبا وبالأيام عظة وقال خير الاشياء أجدها إلا المودات وقال كلام العجلة موكل بالزلزل وأعاد على تلميذ له مسألة فقال له أفهمت فقال التلميذ نعم فقال لا أرى آثار الفهم عليك قال وكيف ذلك قال لا أراك مسرورا والدليل على الفهم السرور.

جالينوس: وكان مولده من بعد زمان المسيح بتسعة وخمسين سنة على ما أرخه إسحاق ابن حنين وأما قول من زعم أنه كان معاصره وأنه توجه ليراه ويؤمن به فغير صحيح وقد أورد جالينوس فى مواضع متفرقة من كتبه ذكر موسى وعيسى وتبين من قوله أنه كان من بعد المسيح بهذه المدة التى تقدم ذكرها ومن ألفاظ جالينوس وحكمه ونوادره ما ذكره حنين بن إسحاق فى كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء وآداب المعلمين القدماء قال اللهم فناء القلب والغم مرض القلب ثم بين ذلك فقال الغم بما كان والهم بما يكون وفى مواضع آخر الغم بما فات والهم بما هو آت.

ومن كلامه فى العشق قال العشق استحسان يضاف إليه طمع وقال لن واحكم تبيل تنل ولا تكن معجبا فتمتهن وقال الحياء خوف المستحى من نقص يقع به عند من هو افضل منه وقال يتهى للانسان أن يصلح أخلاقه إذا عرف نفسه فإن معرفة الانسان هى الحكمة العظمى وذلك أن الانسان لا فرط محبته لنفسه بالطبع يظن بها من الجميل ما ليست عليه حتى أن قوما يظنون بأنفسهم أنهم شجعان وكرماء وليسوا كذلك وأما العقل فيكاد ان يكون الناس كلهم يظنون بأنفسهم التقدم فيه وأقرب الناس إلى الذى يظن ذلك بنفسه أقلهم عقلا ورأى رجلا تعظمه الملوك لشدة جسمه فسأل عن أعظم ما فعله فقالوا أنه حمل ثورا مذبوحا من وسط الهيكل حتى أخرجه خارجا فقال لهم فقد كانت نفس الثور تحمله ولم يكن لها فى حمله فضيلة وقال إن العليل يتروح بنسيم أرضه كما تتروح الأرض الجذبة ببل القطر وقيل له متى ينبغى للانسان أن يموت قال إذا جهل ما يضره مما ينفعه ومن كلامه أنه سئل عن

الاخلاق الاربعة فقيل له ما قولك فى الدموى فقال عبد مملوك وربما قتل العبد مولاه قيل له فما قولك فى الصفراء قال كلب عقور فى حديقة قيل له فما قولك فى البلغم قال ذلك الملك الرئيس كلما أغلقت عليه بابا ففتح لنفسه بابا قيل له فما قولك فى السوداء قال هيهات تلك الأرض إذا تحركت تحرك ما عليها ومن ذلك قال أنا ممثلك مثالا فى الاخلاق الاربعة فأقول إن مثال الصفراء وهى المرة الحمراء كمثلك امرأة سليطة صالحة تقية فهى تؤذى بطول لسانها وسرعة غضبها إلا أنها ترجع سريعا بلا غائلة ومثل الدموى كمثلك الكلب فإذا دخل دارك فعاجله إما باخراجه أو قتله ومثل البلغم فى البدن إذا تحرك مثل ملك دخل بيتك وأنت تخاف ظلمه وجوره وليس يمكن أن تحرق به وتؤذيه بل يجب أن ترفق به وتخرجه ومثل السوداء فى الجسد مثل الانسان الحقود الذى لا يتوهم فيه بما فى نفسه ثم يشب وثبة فلا يبقى مكروها إلا يفعله ولا يرجع إلا بعد الجهد الجهيد.

ومن تمثيلاته الظريفة قال الطبيعة كالمدعى والعلة كالخصم والعلامات كالشهود والقارورة والنبض كالبيئة ويوم البحران كفصل القضاء والفضل والمرض كالمستوكل والطبيب كالقاضى.

ابن كلدة الشقى لما وفد على كسرى أنوشروان أذن له بالدخول فلما وقف بين يديه منتصبا قال له من أنت قال أنا الحرث بن كلدة قال فما صناعتك قال الطب قال اعرابى أنت قال نعم من صميمها ويجبوحه دارها قال فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء أغذيتها قال أيها الملك إنه إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى ما يصلح جهلها ويقيم عوجها ويسوس أبدانها ويعدل أمشاجها فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه ويميز موضع دائه ويحترز عن الادواء كلها بحسن سياسته لنفسه قال كسرى فكيف تعرف ما تورد عليها ولو عرفت الحكم لم تنسب إلى الجهل قال الطفل يناغى فيداوى والحية ترقى فتحاوى ثم قال أيها الملك العقل من قسم الله تعالى قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم فكل من قسمته أصاب وخص بها قوم وزاد فمتهم مشر ومعدوم وجاهل وعالم وعاجز وحازم ذلك تقدير العزيز العليم قال كسرى فما الداء الدوى قال ادخال الطعام على الطعام وهو الذى يفنى البرية ويهلك السباع فى البرية قال أصبت قال فما العلة التى تظلم منها الادواء قال هى التخمة إن بقيت فى الجوف قتلت وإن تخللت أسقمت قال صدقت قال فما تقول فى الحجمة قال فى نقصان الهلال فى صحو لا غيم فيه والنفس طيبة والعروق ساكنة

لسرور يفاجتلك وهم يساعذك قال فما تقول فى الحمام قال لا تدخله شبعانا ولا تغش أهلك
سكرانا ولا تقم بالليل عريانا ولا تقعد على الطعام غضبانا وارفق بنفسك تكن رضى البال
وقل من طعامك يكن أهنى لنومك قال فما تقول فى الدواء قال ما لزمك الصحة فاجتنبه
فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها
عمرت وإن تركتها خربت قال فما تقول فى الشراب قال أطيبه أهناه وأرقه أمراه وأعذبه
أشبهه تشربه صرفا فيورثك صداعا ويثير عليك من الادواء أنواعا قال فإى اللحمان أفضل
قال الضأن الفتى والجدى الرضيع والقديد المالح مهلك للأكل واجتنب لحم الجزور
والبقر قال فما تقول فى الفواكه قال كلها فى اقبالها وحين أوانها وأتركها إذا أدبرت وانقضى
زمانها وأفضل الفاكهة الرمان والاترج وأفضل الرياحين الورد والبنفسج وأفضل البقول
الهندباء والخس قال فما تقول فى شرب الماء قال هو حياة البدن وبه قوامه ينفع ما شرب
منه بقدر وشربه بعد النوم ضرر وأفضله أمراه وأرقه أصفاه قال فاخبرنى عن اصل الانسان
ما هو قال أصله من حيث شرب الماء يعنى رأسه قال فما هذا النور الذى فى العينين قال
مركب من ثلاثة أشياء فالبياض شحمة والسواد ماء والناظر ريح قال فعلى كم شىء جبل
وطيع هذا البدن قال على أربع طبائع المرة السوداء وهى باردة يابسة والدم حار رطب
والبلغم بارد رطب والصفراء حارة يابسة قال فلم لم يكن من طبع واحد قال لو خلق من
طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك قال فمن طبيعتين لو كان اقتصر
عليهما قال لم يجز لانهما ضدان مختلفان يقتلان قال فمن ثلاثة قال لم يصلح موافقان
ومخالف فالأربع هو الاعتدال والقيام قال فاجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة قال كل
حلو جار وكل حامض بارد وكل حريف حار وكل مرّ معتدل وفى المر حار وبارد قال فما
أفضل ما عولج به المرة الصفراء قال كل بارد لين قال فالمرة السوداء قال كل حار لين قال
فالبلغم قال كل حار يابس قال فالدم قال أخرجه إذا زاد.

الشيء بالشيء يذكر كنت أنشدت سيدى القاضى صدر الدين على بن القاضى أمين

محمد بن الادمى قول بعض الفضلاء وهو:

من دار اكــــرام لدار هوان

أبدا ويخرج من أعز مكان

وأعزّه لأبان عن جثمانى

روحى فصلت عليك بالهجران

أصبحت تخرجنى بغير جريمة

كدم الفصّاد يراق أرذل موضع

فأنشدنى لنفسه بعد أيام:

قد كنت مثل دمي صدقت أجله

لما فسدت وزدت لم آمن على

رجع: قال فالرياح قال بالحقن اللينة والادهان الحارة اللينة قال أفتأمر بالحقنة قال نعم قرأت فى بعض الكتب للحكماء أن الحقنة تنقى الجوف وتكسح الادواء عنه والعجب ممن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد وأن الجاهل كل الجاهل من يأكل ما عرف مضرته ويؤثر شهوته على راحة بدنه قال فما الحمية قال الاقتصاد فى كل شىء فإن الاكل فوق المقدار يضيق على الروح مساحتها ويسد مسامها قال فما تقول فى النساء واتبانهن قال كثرة غشيانهن رديئة وإياك واتبان المرأة المسنة فإنها كالشن البالى تجذب قوتك وتسقم بدنك وماؤها سم قاتل ونفسها موت عاجل تأخذ منك الكل ولا تعطيك البعض والشابة ماؤها عذب زلال وعناقها غنج ودلال فوها بارد وريحها طيب وهنها ضيق تزيدك قوة إلى قوتك ونشاطا إلى نشاطك قال فايهن القلب إليها أميل والعين برؤيتها أسر قال إذا أصبتها المديدة القامة العظيمة الهامة واسعة الجبين قناة العينين كحلاء لعساء صافية الخد عريضة الصدر مليحة النحر فى خدها رقة وفى شفتيها لعس مقرونة الحاجبين ناهدة الشدين لطيفة الخصر والقدمين بيضاء فرعاء جعدة غضة بضة تخالها فى الظلمة بدرا زاهرا تبسم عن أقحوان وعن مبسم كالارجوان كأنها بيضاء مكنونة ألين من الزبد وأحلى من الشهد وأزهى من الفردوس والخلد وأذكى ريحا من الياسمين والورد تفرح بقربها وتسرك الخلوة بها قال فضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه قال ففى أى الأوقات آتيانها أفضل قال عند ادبار الليل يكون الجوف أخلى والنفس أهلى والقلب أشهى والرحم أدنى فإن أردت الاستمتاع بها نهارا لتسرح عينيك فى جمال وجهها ويجتنى فوك من ثمرات حسننها ويعى سمعك من حلاوة لفظها وتسكن الجوارح كلها إليها فتجنب الشبع ووقت القيلولة وهيجان الدم قال كسرى لله درك من اعرابى لقد أعطيت علما وخصصت فطنة وفهما وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به.

تياذوق: كان فى دولة بنى أمية وصحب الحجاج بن يوسف الثقفى وخدمه بصناعة الطب ومن وصيته له لا تأكل حتى تجوع ولا تكرهن على الجماع ولا تعبس البول وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك وقال له أربعة تهدم العمر وربما قتلن دخول الحمام على البطنة والمجامعة على الامتلاء وأكل القديد الجاف وشرب الماء البارد على الريق ومجامعة المعجوز يبعد منهن وقيل إن بعض الملوك لما رأى تياذوق شاخ وكبر خشى أن يموت ولا يعتاض عنه لأنه كان أحذق الأمة فى وقته بالطب فقال له صف لى ما أعتمد عليه فأسوس به

نفسى وأعمل به أيام حياتى فلست آمن من أن يحدث عليك حادث الموت ولا أجد مثلك فقال تياذوق أيها الملك أقول لك عشرة أبواب إن عملت واجتنبتها لم تعتل مدة حياتك وهى: لا تأكل طعاما وفى معدتك طعام ولا تأكل ما ضعف أسنانك عن مضغه فتضعف معدتك عن هضمه ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين فإن أصل الداء التخممة وأصل التخممة الماء على الطعام وعليك بدخول الحمام فى كل يوم مرة واحدة فإنه يخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء وأكثر الدم فى بدنك تحرس به نفسك وعليك فى كل فصل بقيئة ومسهلة ولا تجس البول وإن كنت راكبا وأعرض نفسك للخلاء قبل نومك ولا تكثر الجماع فإنه يقتبس منك ماء الحياة فلتكثر أو تقل ولا تجماع العجوز فإنه يورث موت الفجأة فلما سمع ذلك أمر كاتبه أن يكتب هذه الالفاظ بالذهب الاحمر ويضعه فى صندوق من ذهب مرصع بالجوهر ويقي ينظر إليه فى كل يوم يعمل به فلم يعتل مدة حياته حتى جاءه الموت الذى لا بد منه ولا محيص عنه.

بخثيشوع: طبيب الرشيد من كلامه أربعة تهدم العمر ادخال الطعام على الطعام والشرب على الريق ونكاح العجوز والتمتع فى الحمام.

يوحنا: ابن ماسويه ومن كلامه وقد سئل عن الخير الذى لا شر معه فقال شرب القليل من الشراب الصافى ثم سئل عن الشر الذى لا خير معه فقال نكاح العجوز.

يعقوب: ابن إسحاق الكندى فيلسوف العرب ومن كلامه ما أوصى به لولده أبى العباس قال الكندى يا بنى الاب رب والاخ فخ والعم غم والخال وبال والولد كمد والاقارب عقارب وقول لا تصرف البلاء وقول نعم تزيل النعم وسماع الغناء برسام حاد لان الانسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيعتل فيموت والدينار محموم فإن صرفته مات والدرهم محبوس فإن أخرجه فر والناس سحرة فخذ شيشهم واحفظ شيشك ولا تقبل ممن قال إن اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع.

أوحد الزمان هبة الله أبو البركات ابن على كان يهوديا وأسلم ومن حذقه أن مريضا كان ببغداد قد عرضت له علة المالىخولياء وكان يعتقد أن على رأسه دنا وأنه لا يفارقه أبدا فكان كلما مشى يتخايل أن المواضع سقوفها قصيرة ويمشى برفق ولا يترك أحدا يدنو منه حتى لا يميل الدن عن رأسه أو يقع وبقي هذا المرض مدة وهو فى شدة منه وعالجه جماعة من الاطباء ولم يحصل من معالجتهم تأثير يتففع به وأنهى أمره إلى أوحد الزمان ففكر أنه ما بقى

شئ يمكن أن يبرأ به إلا بالأمور الوهمية فقال لاهله إذا كنت فى الدار فأتونى به ثم إن أوحده الزمان أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل إليه وشرع فى الكلام معه وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أن يسرع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد كسر الدن الذى يزعم أنه على رأسه وأوصى غلاماً آخر وكان قد أعد معه دنا فى أعلى السطح أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأسه أن يرمى الدن الذى عنده بسرعة إلى الأرض ولما كان أوحده الزمان فى بيته وأتاه المريض فأقبل إليه وقال له والله لا بد لى أن اكسر الدن وأريحك منه ثم أدار تلك الخشبة التى معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدن من أعلى السطح فكانت له ويحة عظيمة وتكسر قطعاً كبيرة فلما عاين المريض ما فعل به ورأى الدن المنكسر تأوه لكسرهم إياه ولم يشك فيه أنه الذى كان على رأسه بزعمه وأثر فيه الوهم أثراً أبرأ عنته من تلك وهذا باب عظيم فى المداواة.

العتري صاحب النور المجتبى: كان طبيباً ممارساً مشهوراً وعالماً مذكوراً وافر الفضل فيلسوفياً متبصراً فى علم الادب ومن كلامه الجاهل عبد لا يعتق رقه إلا بالمعرفة وقال الحكمة سراج النفس فمتى عدمتها عميت النفس عن الحق وقال الادب أزين للمؤمن من نسبه وأولى للمرء من حسبه وأدفع عن عرضه من ماله وأرفع لذكرك من جماله وقال من أحب أن ينوه باسمه فليكثر من العناية بعلمه وقال الجاهل يطلب المال والعالم يطلب الكمال وقال الغم ليل القلب والسرور نهاره وشرب السم أهون من معاناة الهم ومن شعره:

لو كنت تعلم كل ما علم الورى جمعا لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب كل من يهوى خلاف هواك ليس بعالم

يحيى بن إسحاق: كان طبيباً ذكياً وعالماً بصيراً بالعلاج صانعاً بيده وكان فى دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزره نقل عنه من حذقه أنه أتى إليه بدوى على حمار وهو يصيح على باب داره أدركونى وكلموا الوزير بخبرى فلما خرج إليه قال ما بالك فقال له ورم فى احليلى منعنى النوم منذ أيام كثيرة وأنا فى الموت فقال له اكشف عنه فإذا هو ورم فقال لرجل كان قد أقبل مع العليل اطلب لى حجراً أملس فطلبه فوجده فقال ضعه على كفك وضع عليه الاحليل فلما مكن احليل الرجل على الحجر جمع الوزير يده وضرب على الاحليل ضربة غشى الرجل منها ثم اندفع الصيديد يجرى فلما استوفى الرجل صديد

الورم فتح عينيه ثم بال البول فى أثر ذلك فقال له اذهب فقد برئت علتك وأنت رجل عاث واقعت بهيمة فى دبرها فصادت شعيرة من علقها فى عين الاحليل فورم لها وقد خرجت فى الصديد فقال له الرجل قد فعلت هذا وأقر بذلك وهذا يدل على حدس صحيح وقريحة صادقة.

ابن جميع الاسرائيلى: من الاطباء المشهورين والعلماء المذكورين خدام سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظى فى أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الامر ونقل عنه من حذقه أنه كان جالسا فى دكانه وقد مرت عليه جنازة فلما نظر إليها صاح يا أهل الميت وذكر لهم أن صاحبهم لم يميت وأنهم إن دفنوه فإنما يدفنونه حيا فصاروا ناظرين إليه كالمتعجبين من قوله ولم يصدقوه فيما قال ثم إنهم قال بعضهم هذا الذى يقوله ما يضرنا إنا نمتحنه فإن كان حيا فهو الذى نريده وإن لم يكن حيا فما يتغير علينا شئ فاستدعوه إليهم وقالوا بين الذى قلت لنا فأمرهم بالمصير الى البيت وأن يتزعوا عنه أكفانه وقال لهم احملوه إلى الحمام وسكب عليه الماء الحار فاحمى بدنه ونظله نظولا وغطسه فرأى فيه أدنى حس وتحرك حركة خفية فقال أبشروا بعافيته ثم تمم علاجه إلى أن أفاق وصلاح فكان ذلك مبدأ اشتهاره بجودة الصنعة والعلم وظهرت عنه ثم إنه سئل بعد ذلك من أين علمت حال ذلك الميت وهو محمول وعليه الاكفان أن فيه روحا فقال إنى نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الذين قد ماتوا تكون منبسطة فحدست أنه حى وكان حدسى صائبا والله أعلم.

الحكيم صدقة السامري: هو الفاضل صدقة بن منجا بن صدقة ويعرف بابن الشاعر من الاكابر فى صناعة الطب والمتميزين من أهلها والامائل من أربابها خدم الملك الاشرف موسى بن العادل بن أيوب إلى أن توفى فى خدمته وكان يحترمه غاية الاحترام ويكرمه غاية الاكرام وخلف من الكتب عشرة آلاف مجلدة غير كرارىس وأوراق مفردة تقدير ألف مجلد ومن كلامه انظر السموت بعين عقلك تراه قريبا ولا تراه بعين أملك تلحظه بعيدا وقال العلم شجرة فى القلب تزرع ومن الستتنا تظهر ثمارها وقال أنت بنفسك قريب من موجدك ومكونك وبشهوأتك وعصيانك أنت بعيد من ربك ومن نظمه:

يا بن قسيم أصبحت تنتحل النح	و ودعواك فيه منحوله
أمك ما بالها قل وأجب	مرفوعة الساق وهى مفعوله
فاعلها الاير وهو متعصب	مسائل قد أثنتك مجهوله
والعين عطل وعين عصعصها	بنقطة الخصيتين مشكوله

وله:

شيخ لنا من عظمه داهيه ما مثله فى الامم الخاليه
مهندس فى طول أيامه مع قصره يتلع الساقيه
مثلث بدعمه قائم لأنه منفـرج الزاويه

نقلت من خط المرحوم فخر الدين بن مكاس كتب صاحبنا فخر الدين عبد الوهاب كاتب الدرجة الشريفة رحمه الله الى ابن صفيير المتطبب وقد دعاه فى مرضه ودخل الى الطهارة فعر فى طست الحقة فاختضبت رجله رقة يداعبه بها أولها، الشىء بالشىء يذكر، توجه سيدى بالامس مخضب القدم من هيلواه ذا مأمن محله المعمور لما منه تولاه وما كان من حقه فى أمسه تكدير نفسه ولكل شىء آفة من جنسه هذه مسألة عركها أكبر منه لجبين واشتغل بها اشتغال ذى النحيين وأظنه قبل قدمه فخرج على تلك الصورة أو بعض أجزائه خلع صورة ولبس صوره.

مفرد:

فتى غير محبوب الندى عن صديقه ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت
على أنه أكثر محافظة وودا وأرعى ذمة وعهدا كم أحرقت نار وجد الى أوطانه وأزعجته
من مكانه وهو لا يظهر الا حبا ولا يطلب منه الا قربا:
لا شك اذ لونكمما واحد انكمما من طينة واحد
وبالجملة فانا أسأل الله ان يكفيه سوء هذه المحنة كما كفى شمائله اللطيفة شر الابنة انه
مجيب الدعاء ولى المنة.

حكى ان بعض الاطباء كان فى بعض خدمة الملوك فى غزوة ولم يكن معه وقت
النصرة كاتب يرسل فتقدم الى الطبيب ان يكتب الى الوزير يعلمه بذلك فكتب الطبيب أما
بعد فانا كنا مع العدو فى حلقة كدائرة البيمارستان حتى لو رميت مبضعا لم يكن الا على
قيفال فلم يكن الا كنبضة أو نبضتين حتى لحق العدو بحران عظيم فهلك الجميع بسعادتك
يا معتدل المزاج.

قلت ما رأيت أحسن من هذا ولا أوجز ووجدت بخط طبيب على بعض الكتب
طالعت هذه النسخة فوجدتها تأن سقما فعالجتها بالمقابلة الى ان تمايلت للصحة،
ولبعضهم يهجو طبيا يهوديا:

قالوا اليهودى أخو حكمة لا زالت الامراض فى كأسه
لو كان ذا النحس أخا حكمة أزال ذا الصفراء من رأسه
وما أطف قول الشيخ زين الدين بن لوردى مضمنا:

يا من يطبب قوما ثم يهملهم يوما بماذا عداك الشر تعتذر
اذكر فلانا الذى أسهلته سحرا ان الكرام اذا ما أسهلوا ذكروا
ولآخر مفرد:

حكيم لطيف من لطافة وصفه يؤد المعافى السقم حتى يعود
كتب المرحوم الوزير فخر الدين بن مكانس الى ابن صفير فى بعض مرضاته يسرع
المولى عند الوقوف اليها نقل الخطوة ولا يتأخر فان القوة على الضعيف ضعف فى القوة
فجاءنى على عاداته:

تغدو المنايا فما تنفك واقفة حتى تراه على عزم فتنبعه
فحين رآنى من الهريرة كالرعيد وشاهد ما بى من البرد قال ما أراك الا جليدا فقلت له
معالجة أم محاجة ومناصحة أم ممازجة ومطايبة أم مداعبة واستوصفته فجرى على
المعهود منه فى الجهل بما يقول وعدم التمييز بين المعقول والمنقول ولكنى الظالم على
نفسى والمشكك فى حسى فأنى أعهد له لم يزل مميت الأحياء ومقفر الأحياء فكم له بالديار
المصرية من قتلى وأوراقه للمرضى أشرف من أوراق الدفلى كم شاب عالجه فأكسبه الصرع
الفالج ولان يسمى مصارعا أليق به من معالج ثلاثة تدخل فى دفعه طلعتة والنعش والغاسل
لكنه مع ذلك ممن يجمع بين الاقربان ويعمل المحرم فى رمضان قد ملك قياد القيادة على
الفنين وطالت فيها مدته فاستحق ان يدعى بذى القرنين فاستعدت بالله من الشيطان وسرحته
باحسان، كتب القاضى الفاضل فى الكحالين يياكرنى كل عبرى العناصر يعزىنى بالرحمة
على بخت ناصر كأنه غاسل يدخل الى انسان العين بحنوطه من كحل الملعون ويدرجه فى
كفن من الخرقه السوداء التى يلبسها سواد العيون مردودة عصية ولديها عصى العمى ينقل
العين الى بياض الشغور ويسلبها اللعى قد انتهى الى فوق ما ضرب به المثل اذ قيل يسرق
الكحل من العين وهذا يسرق العين من الكحل فهذا وأمثاله لص من اللصوص وسموا
كحالين وهم صاغة لما يصوغون ويركبون فوق العون من الفصوص بل دباغون يدبغون
الجفن أبيضاً وما يعدوهم مهبك الدباغ بل صباغون يصبغون الأسود أبيض وليس ذلك

الصباغ قد أودعوا حزن يعقوب فى كحلهم مكاحلهم فمن كحل به ابيضت عيناه وجحدوا
معجز القميص اليوسفى فلو مروا به على ناظر ما انفجرت جفناه واذا رفعوا أميالهم فانما
هى لشمس العيون مزولة واذا أولج أحدهم الميل فى المكحلة فهو أولى بالرحم ممن أولج
الميل فى المكحلة وما يؤم أهل الكتاب فى التبديل بواحد ولا خطاهم طريق الى الغى غير
راشد فيوما محوا آية النبى ﷺ من التوراة وهى مسفرة ويوما محوا آية النور من الابصار
وهى مسفرة ولا خير فيهم حاربوا فمحوا بالامس الخطوط من الأوراق واستداموا الى اليوم
فمحوا الخطوط من الاحداق.

كتب الحكيم شمس الدين بن دانيال الى السراج الوراق قطعة كحل اصفهاني:

قل لعين الامائل الاعيان	ومحل الانسان للانسان
خذه كحلا مثل السيوف جلاء	وصقلا يروق فى الاجفان
حجر كسره أجل من الاكسير	فعلا فى العين أو فى العيان
ألف عين تقيمها حبة منه	قياسا يصح بالبرهان
ان تعظم مثاله فى حجاز	فلهذا التعظيم فى اصبهان

الباب السادس والثلاثون

فى الحساب والوزراء

اعلم ان الوزير مشتق اسمه من حمل الوزر عمن خدمه وحمل الوزير لا يكون الا بسلامة من الوزير فى خلقته وخلاتقه أما فى خلقته فانه يكون تام الصورة حسن الهيئة متناسب الاعضاء صحيح الحواس وأما فى خلأقه فهو ان يكون بعيد الهمة سامى الرأى ذكى الذهن جيد الحدس صادق الفراسة رحب الصدر كامل المروءة عارفا بموارد الامور ومصادرها فاذا كان كذلك كان أفضل عدد المملكة لانه يصون الملك عن التبذل ويرفعه عن الدناءة ويغوص له على الفكرة ومنزلته منزلة الآلة يتوصل بها الى نيل بغيته وبمنزلة الذى يحرز المدينة من دخول الآفة ومنزلة الجراح الذى يصيد لطعمة صاحبه وليس كل أحد وان صلح لهذه المنزلة يصلح لكل سلطان ما لم يكن معروفا بالاخلاص لمن خدمه والمحبة لمن استنصحه والايثار لمن قر به وقال الثعالبى فى يواقيت المواقيت، الوزارة اسم جامع للمجد والشرف والمروءة وهى تلو الملك والامارة والرتب العليا والدرجة الكبرى بعدهما، قال منصور النميرى يمدح يحيى البرمكى:

ولو علمت فرق الوزارة رتبة تنال بمجد فى الحياة لنالها

والانبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن الوزراء فكيف الملوك والامراء وقد نطق القرآن بوزارة هرون لموسى عليه السلام فى قوله تعالى ﴿رب اشرح لى صدرى * وسر لى امرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى امرى﴾^(١) ثم قال فى نظام الآية الكريمة وعلى نسق الكلام ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾^(٢) فدل على انه جعله وزيره وصاحب سره وشريكه وافصح عن حسن موقع الوزارة وجلالته ووقوع الحاجة اليها وكان آصف بن برخيا وزير سليمان ابن داود عليهما السلام والمستولى على أموره وكان نبينا المصطفى ﷺ يقول ان لى

(١) الآيات: من ٢٥ - ٣٢ من سورة طه.

(٢) الآية: ٣٦ من سورة طه.

وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض فأما اللذان من أهل السماء فجبريل وميكائيل عليهما السلام وأما اللذان من أهل الأرض فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وقال عليه السلام إذا أراد الله بملك خيراً قيض له وزيراً صالحاً أن ينسى ذكره وأن نوى خيراً أعانته أو أراد شراً كفه وكان أتوشر وأن يقول لا يستغنى أعلم الملوك عن الوزير ولا أجود السيوف عن الصقال ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعقل النساء عن الزوج.

فصل فيما ينبغى للوزير أن يأتيه: اعلم أن الملوك لا يشبهون الآدميين إلا بالصور فأما بالطباع والاخلاق والهمم فلا لأنهم لا يشاكلونهم ولا يشابهونهم والملك وإن كان كريماً سخياً بعيد الهممة كثير المحاسن فإنه لا يخلو قط من أربع خصال الحسد والحقد والمال والحرص على المال فينبغى أن يكون الوزير أعقل الناس وأحزمهم وأدهامهم وأبعد غوراً فيجب عليه أن يدارى أخلاق الملك كما يدارى السباح الماء المفروق والولدان أولادهم الصغار والحاوى الحية ويتحفظ من غائلته كما يتحفظ من السبع والنار القوية والمجنون الذى بيده السيف المسلول ويجب أن لا يملك ما يصلح للملك من الاعلاق النفيسة إلا ما فى نفسه أن يهديه إليه ويخدمه به وينبغى له أن يظهر ويشيع جميع ما يملكه وتحويه يده للملك وأنه إنما يمسكه ويحفظه من أجله ويجب عليه أن لا يسرف فى الإهداء ولا يتخرق فى بذل ما فى يده وكما لا يشيع النار من الحطب لا يشيع الملك من الأموال ولا بد للوزير من الاستظهار بالذخائر الخفية وقد قال الحكيم لوزير كان يستكثر من اعتقال الضياع ويغالى به عليك بحفظ الدنانير التى تشتري بها روحك من الملك فربما فعل ألف دينار ما لا تفعله ضياع ومستغل بمائتى ألف.

ومن نكت هذا الباب أن الملك يريد كل حسن وطيب لنفسه ويستأثر به على والده وولده ولذلك يقال من ملك استأثر وكان معاوية يقول وددت لو أن الدنيا فى بيضة نيمرشت فأحسوها حسوة واحدة لا يشركنى فيها أحد، ودعا الفضل بن مروان المعتصم إلى داره واحتفل واحتشد فى إحسان الدعوة فلما حضر المعتصم ورأى مروءته وتجمله عمل فيه الحسد عمله فانقبض ورثى فى عينه ولم ينشط لطعام ولا شراب وزعم أنه يشتكى بطنه ففطن الفضل لما دهاه وأراد أن يوهم أن تلك الآلات مستعارة من دار أمير المؤمنين ليطلق نار حسده فتقدم إليه وقال يا أمير المؤمنين إنما استعرت أكثر هذه الأشياء من دار أمير المؤمنين وقد أرهقنى الخزائون والفراشون باسترجاعها فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر

بامهالى فى ردها فعلت فضحك المعتصم وقال قل لهم لا يسترجعونها اليوم ثم نشط للطعام والشراب، ومما ورد فى تجنبها قال المأمون لاحمد بن أبى خالد هل لك فى ان أستوزرك فقال دعنى يا أمير المؤمنين يكون بينى وبين الغاية درجة يرجوها الصديق ويخافها العدو فلست أريد بلوغ النهاية لثلا يقول عدوى قد بلغها وليس الا الانحطاط، وكان ابراهيم بن المدير اذا عرضت عليه الوزارة أنشد قول العتابة:

يلوم على ترك الغنى بأهلية	طوى الدهر عنا كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن كالدماء	مقلدة أجيادها بالقلائد
يسرك ان قد نلت ما نال جعفر	من الملك أو ما نال يحيى بن خالد
وان أمير المؤمنين أغصنى	بغصتها بالمرهفات البوارد
ذرنى تجتبنى منى مطمئنة	ولم اتجشم هول تلك الموارد
وان عليات الامور مشوبة	بمستودعات فى بطون الاساود

فصل فى لطائف كلام الوزراء أبو سلمة الخلال وزير السفاح كان يقول خاطر من ركب البحر وأشد منه مخاطرة من داخل الملوك ، أبو عبد الله وزير المهدي يقول الرجال تحت ألسنة الاقلام خير الكلام ما دل وقل، يحيى بن خالد وزير الرشيد ما رأيت باكيا أحسن تبسما من القلم ما رأى أحد فى ولده ما يحب الا رأى فى نفسه ما يكره، الفضل بن يحيى وزيره أيضا جرى بين يديه يوما مدح الناس أباه لجوده فقال وما قدر الدنيا حتى يمدح من يجود بكلها فضلا عن بعضها ولما عزل بأخيه جعفر قال ما انتقلت عنى نعمة صارت الى أخى ولا عزبت عنى رتبة طلعت عليه، جعفر بن يحيى وزيره أيضا شرّ المال ما لزمك اثم مكسبه وحرمت الاجر فى انفاقه، الفضل بن الربيع وزير الرشيد والامين كما يقول ما أظن النعمة الا مسخوطة عليها أما ترونها أبدا عند غير أهلها، الفضل بن سهل وزير المأمون من توقيعاته الامور بتمامها والاعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها، اخوه الحسن بن سهل وزير المأمون أيضا، عجبت لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه وقيل له لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير ومن كلامه لا يصلح للتصدير الا واسع الصدر، أحمد بن أبى خالد وزيره أيضا بالاقلام تساس الاقاليم وكتب الى صديق له يستدعيه يوم الالتقاء قصير فأعن عليه بالكور وكتب الى المأمون مع هدية بعثت الى أمير المؤمنين قليلا من كثيره، محمد بن يزداد وزيره ايضا ليس فى الحب مشورة ولا فى الشهوات خصوصه ومن

عنه أبواب الملوك معادن الحاجات وليس لاستنجاحها الا الصبر والملازمة، الفضل
 ابن مروان وزير المعتصم الكاتب كالدولاب اذا تعطل تكسر، ما رأيت أقرب رضى من
 سخط ولا أسرع ما بين قرب وبعد من الملوك، محمد بن الفضل الجرجاني وزير المتوكل
 عاتبه المتوكل يوما على اشتغاله بالملاهى فقال يا أمير المؤمنين ان مقاساة هموم الدنيا لا
 تنأتى الا باستجلاب شيء من السرور، سليمان بن وهب وزير المهدي، انى أغار على
 أصدقائى كما أغار على حرمى ونظر يوماً فى المرأة فرأى شيئاً كثيراً فقال عيباً لا عدمناه،
 الحسن بن مخلد وزير المعتمد كان يقول أعوذ بالله من نحس الاربعاء وحد الاحد وكان
 يقول أمر أمثالنا يأتى جملة ويذهب جملة فلم لا يتعجل اللذات قبل فوتها ويتمتع بصفو
 الزمان قبل كدره، صاعد بن مخلد وزير المعتمد الموفق، النفس أصل لا عوض عنه
 والمال فرع يعود اذا تشرب عما قليل، المنع الجميل أحسن من المظل الطويل، أبو الحسن
 ابن الفرات وزير المقتدر، ما أريد الوزارة الا لصديق أنفعه أو لعدو أقمعه وكان يقول إنى
 لأكف كل شيء حتى الطريق ومن كلامه ما رأيت أحداً على بابى وفى دارى ليس لى عنده
 احسان الا استحيت منه وصرفت غاياتى الى ارفاقه وتحصيل مراده ولولا حب المروءة ما
 رغبت فى الرياسة والوزارة، أبو على بن مقله وزير المقتدر والقاهر والرضى كان يقول اذا
 أحبيت تهالكت واذا أبغضت أهلكت واذا أرضيت أثرت واذا غضبت تأثرت وكان يقول أنا
 فى وزارتى أقدم على العظائم كلها الا على اثنتين ازالة النعم وهتك الحرم، أبو جعفر أحمد
 ابن سيرزاد وزير المستكفى، الاصاغر يهفون والاكابر يعفون اياك والافراط الممل
 والتفريط المخل، أبو عبد الله الجبهانى الكبير وزيره أيضا كان يقول جمال المرء فى لسانه
 وجمال المرأة فى عقلها ومن كلامه حسن الذكر ثمرة العمر، ابو الفضل بن العميد وزير
 ركن الدولة، خير القول ما أغناك جده وألهاك هزله العاقل من أفتح من كل أمر خاتمته وعلم
 من بدء كل شيء عاقبته، الصاحب ابو القاسم بن عباد وزير فخر الدولة وعد الكريم الزم من
 دين الغريم، قد يبلغ الكلام حيث يقصر السهام، الآمال ممدودة والانفاس معدودة، ومن
 كلامه يا أسفى على رداء من الايام رقيق ما لبسنه حتى خلعناه وروض من الزمان مربع ما
 حللناه حتى فارقتنا .

قلت لم أسمع فى رقة العيش ألطف من قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى
 رحمه الله تعالى:

لست انسى رقة العيش الذى زاد فى الرقة حتى انقطعنا

رجع أبو نصر بن أبي يزيد الراضى قال فى امتهانه لبعض الاعداء ما عسى ان يبلغ عض النملة ولسع النحلة ووقوع البقة على النحلة ومن كلامه الهدية تردُّ بلاء الدنيا والصدقة ترد بلاء الآخرة، أبو اسحاق ابراهيم بن حمزة وزير ابى على السمجورى قال ينبغي للصاغر أن يتقدموا على الاكابر فى ثلاثة مواطن اذا ساروا ليلا واذا خاضوا سبلا أو لقوا خيلا، أبو الحسن الاهوازى العدل أقوى جيش والامن أهنى عيش الاحن حصد المحن، عبد الله بن يحيى بن خاقان كان يقول اذا دهانا أمر تمثلهنا فى أصعب حالاته فما نقص منه كان سزورا يتعجله، نقلت من تاريخ صاحب كمال الدين بن العديم وهو تاريخه الكبير المسمى بغية الطلب فى تاريخ مدينة حلب بسنده الى يحيى بن خاقان قال حضرت الحسن بن سهل وقد جاءه رجل يستشفع به فى حاجة فقضاها فأقبل الرجل يشكره فقال له الحسن بن سهل علام تشكرنا ونحن نرى ان للجاه زكاة كما أن للمال زكاة ثم أنشأ يقول:

فرضت على زكاة ما ملكت يدي وزكاة جاهى أن أعين وأنفعا
فاذا ملكت فجد فان لم تستطع فاجهد بفضلك كله ان تشفعا

الصاحب عون الدين يحيى بن هبيرة وزير المستجد صاحب كتاب الافصاح حكى عنه انه لما أدركته الوفاة أغمى عليه ثم أفاق فوجد أهله ييكون فقال ما شأنكم فقالوا بكينا لكونك خدمت الملوك والخلفاء فقال ماذ دخلت فى عمل السلطان الى يومى هذا ما خجلت أحدا من خلق الله وأرجو من كرم الله تعالى انه لا يخجل هذه الشيبة.

فصل فى لطائف هذا الباب، قال بعض الفضلاء:

غزال قد غزا قلبى بألحاظ واحد اقد
له الثلثان من قلبى وثلثا ثلثه الباقي
وثلثا ثلث ما يبقى وثلث الثلث للساقى
وتبقى أسهم ست تقسم بين عشاق

هذا الشاعر قسم قلبه الى أحد وثمانين سهما جعل لمحبوبه منها الثلثين وذلك أربع وخمسون سهما يبقى الثلث وهو سبع وعشرون زاده ثلثيه وذلك ثمانية عشر فصار له اثنان وسبعون يبقى ثلث الثلث وهو تسعة زاده منها ثلثي ثلثها وهو اثنان بقى من الثلث واحد أعطاه للساقى بقى من التسعة ستة قسمها بين العشاق فحصل لمحبوبه أربعة وسبعون سهما وللساقى سهم وللعشاق ستة الجميع احد وثمانون.

وقال ابو عبد الله محمد بن جابر المغربي نزيل حلب المحروسة:

قسم القلب فى الغرام بلحظ يضرب القلب حين يرسل سهمه
هذه فى هواه يا قوم حالى ضاع قلبى ما بين ضرب وقسمه
وقال شيخنا عز الدين الموصلى:

نسبة قلبى للهوى قسمت فكرى وكم للعين من ضربه
ضاع حابى ولقيت الاسى بالضرب والقسمة والنسبه
وقال الصلاح الصفدى:

عملت مع الزمان حساب بعدى وسقت الاصل من يوم الفراق
وكننت اظننى غلقت قسطى فقد ظلمت على له بواقى
وانشدنى فخر الدين بن مكاس ل نفسه مضمنا:

عملت مالى ارتفاع سقته غلظ الحاصل راح فى مضمونه مالى
وكلمنا نلت من عزم ومن نكد من غفلتى ونوالى سوء أعمالى
وانشدنى من لفظه ل نفسه فى نكبة حصلت له وأجاد:

وما تعلقت فى السرياق متكسا لجرمة أوجبت تعذيب ناسوتى
لكتنى مذ نفثت السحر من كلمى عذبت تعذيب هاروت وماروت
وقال المعمارى:

ولى رفسيق جهول خالى من الآداب
أقول لى ما أراه فى جملة الكتاب
سبحان رازق هذا رزقا بغير حساب

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

لقلان فى الديوان صورة حاضر وكأنه من جملة الغياب
لم يدر ما نحرومه وجريده سبحان رازقه بغير حساب

وانشدنى الشيخ المحدث لفصيح البارع الرحال غرس الدين خليل الافقهسى لابن

حرى المغربى:

يا ناصبا علم الحساب حباله لقناص ظبى ساحر الالباب
ان كنت ترزق بالحساب وصاله فالله يرزقنا بغير حساب

وما أظرف قول حسام الدين الحاجرى:

صح حساب السحر من طرفه
وقال ابراهيم المعمار ولطف:

ومليح قال صسفنى
كم حوى جفنى معنى

وقال التقى السروجى

خدمت بذاك الوجه للشعر ناظرا
وأصل حسابى ضبط حاصل وصله

وقال برهان الدين القيراطى:

خدمت بالاغزال أبوابه
ولى من الدمع على خدمتى

وقال ابراهيم المعمار:

لمولانا الوزير ندى بأس
فيرضينا بألفاظ وكذب

وظرف ابن الوردى فى قوله:

وكنت اذا رأيت ولو عجوزا
فأضحى لا يقوم لبدر تم

اذ كان فى جفنيه جمع الكسور

لازداد ســـــــــــــــــــــرورا

قلت ألفا وكـــــــــــــــــــــورا

لعلى أمسى واليا من ولاته
وتقبيله مستخرج من جهاته

لما تبدى حسنه الباهر
جراية أطلقها الناظر

واحسان به سمحت حياتى
محالات على كل الجهات

تبادر بالقيام على الحراره
كأن النحس قد أعطى الوزاره

obeikandi.com

الباب السابع والثلاثون

فى كتاب الإنشاء وهو فصلان

الفصل الأول: فيما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من الاخلاق والادوات والآلات.

الفصل الثانى: فى أعيان كتاب الإنشاء قديما وحديثا ونبذة مما لهم من المكاتبات.

الفصل الأول: قال أبو حيان التوحيدى يجب على الكاتب أن يكون حافظا لكتاب الله

تعالى ليتزعم من آياته وأن يعرف كثيرا من السنة والاخبار والسير حافظا لكثير من الرسائل والكتب وأن يكون متناسبا اللفاظ متشاكلا المعانى متشابه الخط ذكيا عارفا بما يحتاج إليه خبيرا بالحلى والشيات مضطلعا لعب الكتابة له يد فى السواد وعمل فى الحساب وأن يكون له يد فى عمل الشعر نظيف الثوب لطيف المركب ظريف الغلام لقيق الدواة حاد السكين صقيل الكاغد صلب الاقلام متوددا إلى الناس مخالطهم غير متكبر عليهم ولا منقبض منهم دمث الاخلاق رقيق الحواشى ترف الاطراف عذب النجايا حسن المحاضرة مليح النادرة غير قنف ولا متعجرف ولا متكلف للالفاظ الغريبة ولا متعسفا للغة الغويصة. انتهى كلام أبى حيان. وقال أبو الحسين محمد بن أحمد أظنه قدامة منزلة الكاتب التى يستحق بها أن يكون كاتباً فى قوله وفعله ومحاورته وفطنته وحججه وأن يكون مطبوعا على المعرفة محنكا بالتجربة عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما ومتشابههما وناسخهما ومنسوخهما وبالازمنة والادوار فى اختلافها وتعاقبها وبالملوك فى سيرها واقدارها وبالخطوط وانسابها واقلامها فى تصاريفه وجهاتها وبوادى الكلام ومقاطيعه فى فواتح الوصف وخواتم الوقف وفصول التمام ورسوم الكتب واقدار الرجال وتأليف الاوصاف ومشاكل الاستعارة واثبات المعنى بشكله من القول والعلم بالنظائر والاشباه والتثبت بالشواهد والامثال حتى ينصب البنيان أشخاصا ماثلة ويقيم للقول صورا ناطقة تنبئ عن أحوالها وتدل على منازلها مع التخلق باخلاق الدين والتحلّى بحلية الكرم واثبات محاسن الامور والاحمال فى الصبر والطلاقة ولبسة اللب والوفاء واجتناب الدنانا والنقائص فى الشره والارتشاء والقلق والضجر والسخفة والسفه.

وقال محمد بن أيوب بن سليمان عميد الرؤساء وأبو طالب وزير للقائم حال كونه أولى عهد كان مترسلا بليغا متفتنا صنف كتابا فى الخارج وهو القائل الكتاب سبعة.

أولهم الكامل الذى ينشئ ويملى ويكتب.

الثانى الاعزل وهو الذى ينشئ ويملى وخطه ردىء.

الثالث المبهم الذى يكتب خطأ مليحا ولا يد له فى الانشاء.

الرابع الرقاعى يجيد رقعة يكتبها ولا حظ له فى التطويل.

الخامس المختل وهو الذى له حفظ ورواية ويعجز عن الانشاء فهذا نديم.

السادس المخلط وهو الذى يأتى بالدرة والبعرة ويقرن بينهما.

السابع السكيت شبه بالمتأخر فى الجلية فربما جهد نفسه وأتى بمعنى، توفى سنة ثمان

وأربعين وستمائة، وقال الشيخ الإمام سيد كتاب الانشاء شهاب الدين أبو العباس أحمد بن

فضل الله العمرى فى كتابه الذى سماه مسالك الابصار فى ممالك الامصار أن كتابة الانشاء

كانت فى المشرق خلافة فى بنى العباس منوطة بالقدماء وربما انفرد بها رجل وذكر ابن

عبدوس فى مواضع من كتابه من ديوان السر وديوان الترسل ثم كانت آخر وقت افردت

واستقل بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة وكان فى المشرق يسمى كاتب الانشاء ثم لما كثر

عددهم سمي رئيسهم رئيس ديوان الانشاء ثم بقى يطلق عليه تارة صاحب ديوان الانشاء

وتارة كاتب السر وهى إلى الاحب وعند ابنه وعند الناس أذل وكان فى دول السلاجقة

وملوك الشرق يسمى ديوان الطغراوية وبه سمي مؤيد الدين الطغراى والطغراء هى الطرة

وهى التى تكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ تتضمن القاب الملك وهى لفظة أعجمية

وكانت تقوم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى بذلك عن أن يكون

للسلطان علامة بخطه لكثرة وثوق الناس بصاحب هذه الرتبة وأهل المغرب يسمون رئيس

ديوان الانشاء صاحب القلم الاعلى وأهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر

من كل عام وخاص تحتاج الامراء إلى مداراتهم وتقصر الوزراء مع علو الرتبة فى الوزارة

عن مباراتهم يجتمعون بالملك إذا أرادوا على عدد الانفاس وهم معنى الدولة وعليهم عولة

كل الناس وما كانت الملوك تكاتب الخلفاء ببغداد الا على هذا الديوان أعنى ديوان الانشاء

وكانت تسميه الديوان العزيز ولهذا كانت كتبهم تستفتح أدام الله أيام الديوان العزيز اشارة

إلى ديوان الانشاء وعليه كان يطلق هذا الاسم وله بهذا من الشرق ما له ومن الفخر ما يجز

على السماء أذباله انتهى كلام القاضى شهاب الدين، وذكر الثعالبى فى كتابه لطائف المعارف أن ادريس عليه السلام أول من خط بالقلم وكان يوسف عليه السلام يكتب لعزير مصر وكان هرون ويوشع يكتبان لموسى عليهما السلام وكان سليمان يكتب لايه داود عليهما السلام وكان آصف يكتب لسليمان عليه السلام، وروى أن النبى ﷺ استكتب عبد الله بن الارقم وكان يجيب عنه للملوك واستكتب أيضا زيد بن ثابت وكان يكتب الوحى ويكتب الملوك وكان إذا غاب عبد الله بن الارقم وزيد بن ثابت واحتاج أن يكتب إلى أمراء الاجناد والملوك أو يكتب لانسان بقطيعة أمر من حضر أن يكتب وكتب له عمر وعثمان وعلى والمغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبى سفيان وخالد بن سعيد بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح وحنظلة بن الربيع.

آداب الكتابة روى عن الشعبى أنه قال كتب النبى ﷺ أربعة كتب أولها باسمك الله ونزلت سورة هود وفيها ﴿بسم الله مجراها ومرساها﴾^(١) فكتب بسم الله ثم نزلت سورة بنى اسرائيل وفيها ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾^(٢) فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت سورة النمل وفيها ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾^(٣) فكتبها، وروى أن فصل الخطاب الذى أعطى داود أما بعد وروى أن أول من قالها كعب بن لؤى وهو أول من سمى يوم الجمعة وكان زيد بن ثابت يكره أن يكتب بسم الله ليس لها سين وكان إذا رآها بغير سين محاسها وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب عمرو بن العاص لما كتب إليه بغير سين وقيل له فيما ضربك فقال ضربنى فى سين وعن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال إذا كتب أحدكم فليتره فإن التراب مبارك وهو أنجح للحاجة وروى عنه ﷺ أنه كتب كتابين إلى قريتين فاترب أحدهما ولم يترب الآخر فأسلمت القرية التى أترب كتابها وقال الحسن بن وهب كاتب رئيسك بما يستحق ومن دونك بما يستوجب وكاتب صديقك كما تكاتب حبيبك فإن غزل المودة أرق من غزل الصباة قال الوداعى فى تذكرته إن القاضى تاج الدين ابن بنت الاعز رحمه الله كان إذا كتب كتابا بدأ فى ترميله بالبسملة لتعم بركتها سائر الكتاب وإنه يخزن ذلك الرمل ويحتفظ به ولا يرميه فى الأرض وقال بزرجمهر من لم يختم كتابه فقد استخلق صاحبه وإذا كتبت فاعد النظر فيه فإنما تختتم على عقلك وعن عبد الله بن

(١) الآية: ٤١ من سورة هود.

(٢) الآية: ١١٠ من سورة الإسراء.

(٣) الآية: ٣٠ من سورة النمل.

عباس عليه السلام فى قوله تعالى ﴿إِنِّى أَلْقِىَ إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ﴾^(١) قال مختوم وفض الكتاب إذا كسر ختمه ومعنى الفض فى اللغة التفريق والكسر ومنه لا يفضض الله فاك.

العنوان فيه خمس لغات أفصحها عنوان ويقال علوان وعينان وعينان وجمع عنوان عناوين وجمع علوان علاوين والعنوان الاثر وهو أثر الكتاب ممن هو والى من هو صحوا باشمط عنوان السجود به والقلم لا يقال له قلم الا إذا برى وإلا فهو أنبوية.

ومن أحسن ما قيل فيه قول السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على بن الأمدى نقلته كذا من خط الوداعى:

تمشى البراعة والمداد وراها	ظل على شمس الطروس ينوع
عوض المعانى لو يلوح لمسلم	هذا المعانى راح وهو صريع
لو لم تكن ألفاظه خطية	ما راح سرب اللفظ وهو منيع
ألفاظه رقت بوجنة طرسه	فكأنهن وقد جريرين دموع
قلم مسحى الخطاب لنطقه	فى المهد من يمناه وهو رضيع
وغدا كليما وقد ضاهى العصا	فغدا يروق بفعله ويروع
باللفظ حاكته الشموس وبالضيا	حاكته فى حال المداد شموع
قد لازم القرطاس وهو منور	والظل يهوى الروض وهو مربع
نور ونور حظه وكلامه	هذا يضىء به وذاك يضموع

وله أيضا رحمه الله تعالى:

ليمناه ذو طرف كحيل اذا بكى	تبسم ثغر الخط من دمه عجبا
وقد راح مشقوق اللسان متى جرى	بشعر الدوى اللعس أبدى اللما عذبا
وأوته فى سنه سم أرقم	إذا ما ثنى فى الرقم من حمده جنبا
فطورا خطيب والسواد شعاره	إذا ما علا اعواد كف جلا خطبا
ويحقر فعل الخط بين كتائب	تلاقت إذا ما خط فى يدك الكتبا
حكى السمر قد احبت للبيض خده	فطاعن به إن شئت واضرب به ضربا

وقال الشيخ الإمام مجد الدين الروذرا وروى عبد الحميد بن أبى الفرج الهمداني الفقيه الشاعر المفضل مولده سنة تسع وتسعين وخمسائة وتوفى بدمشق سنة سبع وستين

وستمائة من نظمه فى وصف القلم من قصيدة مدح بها الوزير القمى مؤيد الدين وزير الدولتين الناصر والمستنصر كذا نقلته من خط محبى الدين بن عبد الظاهر من كتابه المسمى بالنجوم الدرية فى الشعراء العصرية:

لك من نبات الماء أصفر للعدا	من رأسه المسود موت أحمر
خجل القنا من فعله حتى غدا	مثل النساء يرى عليه المعجر
يصفونه وزد العلا وورده	أبدا كعيش الحاسدين مكدر
ظلمات نفس خاضها بروية	من ماء الحياة كأنه الاسكندر
متقيد يعدو وينطق ساكتا	متحكم فى الدهر وهو مسخر
يا راكعاً لبس السواد وساجدا	يتلو بنى العباس وهو مزئر
قد خر رأسك واللسان لبثه	سر العلا وأسود منك المنظر
هب أن جسمك من جواك نحوله	أو أن لونك للنحافة أصفر
مركوبك البحر الجواد وما له	من كبوة تلفى لماذا تعثر

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدى وأخى تقى الدين بن حجة الحموى:

له يراع سعيد فى قلبه	ان خط خطا أطاعته المقادير
محبر وبثحرير العلوم إذا	جرى يرى منه تحرير وتحبير
غصن عليه طيور العلم عاكفة	وجانس النور من أوراقه النور
واشقر يده البيضاء غرته	له إلى الرزق فوق الطرس تيسير
بل اسمر عينه السوداء تلحظنا	وهذب أجفانها تلك التشاعير
أو سهم علم باطراف السطور غدا	مريشا وله فى الفضل تأثير
كذا محابره سود العيون فإن	دانت أياديه قلنا الاعين الحور

ومن وقف على رسالة السيف والقلم للشيخ جمال الدين بن نباتة رأى من هذه المعانى العجائب ولولا اطالتها لاثبتها فى هذا الباب ولقد ظرف إلى الغاية شمس الدين الواسطى حيث قال:

ما زال بقلبه لهيب النار	إذا صير جسمه خيالا سارى
الله بقلبه فما يعلم ما	قاساه الواسطى الا البارى

وأنشدنى أخى تقى الدين بن حجة الحموى يصف سكيناً أهدها له بعض الاصحاب

وهو سكين قطع الملوك بها أوصال الجفا وأضافها إلى الادوية فحصل بها البرء والشفاء وتالله ما غابت الا وبلغت الاقلام من تغييرها إلى الجفا أنها لسان كل عنوان ما شاهدها موسى الا وسجد فى محراب النصاب وذل بعدما خضعت له الرءوس والرقاب ان هجعت بجفنها كانت أمضى من الطيف وكم لها من خاصية جازت بها على حد السيف تنسى بحلاوة العسال ولا يظهر لطوله طائل وتغنى عن آلة الحرب بايقاع ضربها الداخل كم مرت بشكلها المحلى فتركت المعادن عاطلة ولم يكن للحديد فى هذه الواقعة مجادلة فلو لمحها الفاضل لتحقيق أن خاطر سكينه كل أو شاهدها ابن نباتة لما أقر برسالة السيف وقل إلى أن دخلت إلى القراب كانت قد سبكت على الدخول أو ابرزت من غيمه كان على طلعتها الهلالية قبول كم أيقظت طرف القلم بعدما خط وعلى الحقيقة ما رأى مثلها قط ما اسفر صبح نصلها فى ليل نصابها الذى دجا الا تغزلت وقلت ما أحسن طرة الصبح من تحت أذيال الدجى تطرف باشعتها الباهرة عين الشمس وبقامتها الحد حافظت الاقلام على مواظبة الخمس وكم لها من عجائب تركت جدول السيئ فى بحر غمده غريق ولو سمع بها من قبل ضربه لما حمد التطريق لا زالت صدقات مهديها تحف بما يذبح نحر فقرى وتأتى فى كل حين بما يشفى من داء الفقر ويرى بمنه وكرمه.

كتب مولانا محمد بدر الدين الدمامى إلى المرحوم أمين الدين صاحب ديوان الانشاء بالشام ملغزا فى دواة:

كتبت وأعذارى اليك تقرر	ونطقى بها يا كاتب السر يجهر
أتتك أبيات المعانى فرضتها	وحكت حبير اللفظ فهو محرر
وحليت أهل الفضل إذ كنت خاتما	لهم فعليك الآن يعقد خنصر
وما أنت الا البحر جاش عبابه	ولكن رأينا منك حلما يجسر
فما كلمة أفديك دام اعتلالها	وفيها دواء إن اعترها تغيير
ويحفظها ذو السر وهى التى وشت	وذلك من عادتها ليس ينكر
وما مسها الا وجاب بنفسها	وصحف تر المقصود بالنفس يظهر
وتحمل سمر الخط رايات ملكها	على الرأس عباسية حين تخطر
كحيلة طرف تعشق العين شكلها	ويحسن مرآها إذا ما تحبر
مؤنثة كم ذكرتنا بلوتها	عهود الصبى والشىء بالشىء يذكر
إذا هجرت يبدو المشيب برأسها	وفى الوصل تدرى أدمعا تتحدّر

يلذ به فى الذوق ورد ومصدر
فغادت لها الجهال بالعى تحصر
وإن سخطت فالموت لا شك أحمر
فتنهل منه موردا لا يكدر
بذلك قد جاء الكتاب المسطر
وكم ذا غنى عن قصدها ليس يفتر
إلى نحوها أمست على المد تقصر
تفه بسؤال فاعترانا التحير
فأنت به والله أجدى وأجدر
على رأسها طول المدى لا تقصر

وروضة آداب لها القلب يجبر
فيا حبذا الاسكندرى المحرر
فكل بليغ عن مداها يقصر
حماها من العلياء لا يتصور
فاحشاؤها فيها الاجنة تقبر
فإن هب فرد ظل يسعى ويحصر
تهادى به نشوان يمشى ويعثر
خطيب له فوق الانامل منبر
فيخضل من رياه روض محبر
وعما أراه فى الانام يعبر
سموا ومع هذا على الطول يقصر
تقام به بين الانام وتعمر
وربت ويكفيها بذلك مفخر
تجاهى وجاهى عندها ليس يحقر
فأما استقالت فهى فى ذاك تعذر
لذى النقص مثلى منه حظ موفر
بحق وأفسواه الدوى تعطر

وكم قد أرانا ريقها من مسلسل
وكم لاقت الاحبار منها محاسنا
مسودة ان ترض فالعيش أخضر
ويعذب للسمر الرقاق رضاها
لقد أحكمت والنسخ ما زال دأبها
وما هى الا ذات متربة غدت
إذا امتدت الراحة وهى مثيرة
ولسنا نراها غير سائلة ولم
فانعم بحل اللغز يا خير منعم
ولا زالت الاقلام تسعى لشكركم
فكتب الجواب إليه بعد أيام:

مواقع أقلام لها الفضل ينشر
تحرر معنى حسنهما نسج وحدة
يطول على الافهام شقة شاوها
أنت سهلة اللفاظ ممنوعة الذرى
تشير إلى الجبلى التى عز وضعها
ينامون لا تغشاهم سنة الكرى
وإن أرشفته من سلاف رضاها
وأما إذا اعتموا السواد فكلهم
يسيل دموعا فى مجال سجوده
وينطق عن علم وطول نباهة
يطاول سمر الخط أنى تشامخت
وكل بنى الاداب تلقى بيوتهم
واكرم بما قد ولدته وأنشأت
نجية فكر ان جلست ووجهها
وقد فتحت فاها فقالت وقصرت
فلا زلتهم أهل الكمال وجبركم
بمدحكم الاقلام يضحك منها

قال) بعض الفضلاء إذا أردت أن تضمن كتابا سرا فخذ لبنا حليبا واكتب به في القرطاس فإذا أراد قراءته المكتوب إليه فليذر عليه رماد القراطيس سخنا فإنه يظهر ما كتب وإن شئت كتبت بماء الزاج الأبيض فإذا وصل إلى المكاتب فليمر عليه شيئا من ماء العقص وإن شئت بالعكس وإن شئت أن يقرأ ليلا ولا يقرأ نهارا فاكتبه بمرارة السلحفاء.

قال الشيخ شهاب الدين بن العطار فيما يكتب على الدواة:

انا دواة يضحك الجود من بكاء يراعى جل من قسـد براه
دلوا على جودى من شفه دا من الفقر فانى دواه
وانشدنى شمس الدين الجرائحى لنفسه:

انا دواة كسبحـر جـود فى الفضل قل للسخى عنى
فلو غدا كفه سحابا عند العطا يستمد منى
وقال ضياء الدين المناوى يصف حبرا:

وعندى حبر ودّت العين لونه سوادا وترضاه الحسان خضابا
غدا سائلا من فرط سقم ورقة وأصبح للسمر الرقاق رضابا
كأنى لمابت أشكو صبابتى إلى الليل بالاشواق رق وذابا

وكتب الشيخ برهان الدين القيراطى صحبة حبر أهده:

ليراعىكم أهديت انسان النظر وشباب طرس شاب من فرط الكبر
أرسلته عبدا دعوه غنبرا إذا فاح طيب نشره بين البشر
أقلامه أخذته حال كتابة سبحا وألقته على طرس درر
ويودّ مرسله إلى أبوابكم لو زاد فيه سواد قلب أو بصر
ليل وإن أبدى لنا ألفاظكم فى صبح طرس أبيض قالوا سحر

وانشدنى المرحوم فخر الدين بن مكائس:

لداود الرئيس الحبر فضل وأنس عم إبناء الوجـود
أنا منه حبر فابتهلنا وقلنا نعم أحبار اليهود

وقال ابن الوردى فيمن انقلب حبر على ثوبه:

انقلب الحبر على ثوبك فأبشرت بالارب
فحبر كل كاتب ربح اذا هو انقلب

وأنشدنى القاضى أمين الدين محمد الانصارى صاحب ديوان الانشاء بالشام لنفسه فى لوح الموقعين المرصد للصاق الاوصال على لسانه:

قطعونى وكنت منبر سجع
فبكسرى جبرت بين الموالى
وفيهما له أيضا:

طال ما فى الرياض أسبغت ظلا
وبقطعى جعلت للوصل أهلا
ليس يدرون فضلها
أسبغ الله ظلها
ابن نباتة وكتبها على مرملة:

عملت لمن جود اقلامه
إذا طلع الخط رملته
ربيع ومنطقه بارع
فيا حبذا الرمل والطالع

وقال السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على بن الأمدى مجاوبا لمن كاتبه فى ورقة رزقا:

أرسلت زهر الروضة الغناء
فكأنما هى من أديم سمائنا
رزق جلا درر القريض بحسنه
أو مثل منعطف الخليج وقد صفا
وله:

أنت أرسلت بالكتاب سما
فيه كل نقطة مثل نجم
تبرز الشهب قبل وقت الزوال
وبه كل جزمة كهلال
وله:

كلمات لضحكها قد بكى الدر
حسد المسك نفسه فغدا
وهل منكر بكا اليتيم
اسود ذا زفيرة بخسد لطيم
وله:

وذى مقول يخفى الكلام فإن رقى
عقود بلا سلك يبهر طروسه
إلى اذن قرطاس ففيها يحدث
ولا عقد فى سجره وهو ينفث
وقال:

جادت رياض الطرس سحب يراعه
فكست غصون طروسه ورقابها
لما صدرن من النهى عن أبهر
أكمام لفظ بالمعانى مثمر

وقال أبو الفتح محمد بن قادوس الدمياطى:

مداده فى الطرس لما بدا قبله الطرس ومر يزهد
كأنما قد حل فيه اللما وذاب فيه الحجر الاسود

الفصل الثامن: فى أعيان كتاب الانشاء قديما وحديثا ونبذة مما لهم من المكاتبات،

عبد الحميد بن يحيى كان يقول لو كان الوحي ينزل على أحد بعد الانبياء لنزل على بلغاء الكتاب وذكر البلاغة فقال هى ما رضىته الخاصة وفهمته العامة، اسماعيل بن صبيح، كاتب الرشيد لم يسمع فى الجمع بين الشكر والاستزارة أحسن وأوجز مما كتب به إلى يحيى بن خالد فى شكر ما تقدم من احسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر منه، عمرو بن مسعدة، كاتب المأمون وكان يقول قليل دائم خير من كثير متقطع وكتب إلى المأمون كتابى هذا وفى قبلى من أجناد أمير المؤمنين وقواده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم وأختات أحوالهم فقال المأمون لاحمد بن يوسف لله در عمرو ما أبلغه ألا ترى إلى ادماجه المسألة فى الاجناد واعفائه سلطانه من الاكثار، إبراهيم ابن العباس الصولى، كاتب المستعصم والوائثق والمتوكل كان يقول المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه، الحسن بن وهب، سئل عن ميته فقال سررت البارحة على عقد الثريا ونطاق الجوزاء فلما تنبه الصبح نمت ولم أستيقظ الا بلبسى قيص الشمس ومدح صديقاً له فقال خلق كما يشتهى إخوانه ووصف مغنيا فقال كأنه خلق من كل قلب فهو يغنى بكل ما يشتهه، أحمد بن سليمان، أحسن الكلام ما لا تمجه الآذان ولا تتعب فيه الاذهان، بديع الزمان الهمداني، من انشائه الحمد لله الذى بيض القار وسماه الوقار وعسى الله أن يغسل الفؤاد كما غسل السواد، وله (قد يوحش اللفظ وكله ود ويكره الشيء وليس منه بد هذه العرب تقول لا ابا لك ولا يقصدون الذم وويل أمه للامر إذا أهم وسبيل أولى الأبواب فى هذا الباب أن ينظر فى القول إلى قائله فإن كان وليا فهو المولى وإن كان خشن وإن كان عدوا فهو المبلى وإن حسن من إنشاء أبى القاسم على بن الحسين المعروف بالمغبرى، ووصلت الرقعة فاستجفيت النسيم العذب بالاضافة إلى لطافتها واستثقلت محل عقود اللؤلؤ بالقياس إلى خفة موقعها، وله وكتب هذه الاحرف وقد أظلم البلاد ثلج ذكرنى قول الصنوبرى ورد الربيع مورد مبيض والورد فى كانون أبيض الا أنه انتقل إلى ضد طباعه معنى واستأنس إلى عكس خلقه فإنه مع برده أحدث لى شوقا إلى سيدنا ألهب جوانحي وصباية

نحوه أضمرت جوارحى حتى عاد بياضه فى عيني سواد التذكرة وسقياه ظمأ برحا قلبى بتصوره على أن قلبى مزحوم من جهته مما يزدحم فيه من كآبة جفائه وصباة بعده ونائه، وله) وعرفت فى هواجس الفكر ووسواس الذكر حتى نسيتمكم من شدة المذكر ولقيتمكم من حدة التصور وحتى عدت كأنى أجد فى فمى عبقا من تقبيل ذلك الوجه الناضر وفى عيني لمعا من سناء ذلك الجمال الباهر والله تعالى اسأل ان يسقط بيننا فى تشاكى ألم الفراق اسناد القلم بمشافهة الفم للفم، القاسم الحريرى، قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه نصرة الثائر على المثل السائر سمعت الشيخ شهاب الدين محمود حين قرأت المقامات عليه يحكى عن القاضى الفاضل أنه أراد معارضتها ووضع ثلاث عشرة مقامة عارض كل فصل فيها بمثله حتى جاء إلى قوله أعنى الحريرى فى المقامة الثالثة عشرة اعلّموا يا مآل الامل وئمال الأرامل أنى من سرورات القبائل وسريات العقائل لم يزل أهلى وبعلى يحلون الصدر ويسرون القلب ويمطون الظهر ويولون اليد فلما أردى الدهر الاعضاء وفجع بالجوارح الاكباد وانقلب ظهر البطن نبأ الناظر وجفا الحاجب وذهبت العين وفقدت الراحة وصلد الزند ووهنت اليمين وضاع اليسار وبانت المرافق ولم يبق لنا ثنية ولا ناب فمذاغبر العيش الاخضر وازورّ المحبوب الاصفر اسود يومى الابيض وابيض فؤادى الاسود حتى رثى لى العدو الارزق فحبذا الموت الاحمر فقال القاضى الفاضل من أين يأتى الانسان بفصل يعارض هذا ثم أنه قطع ما عمله من المقامات ولم يظهرها أو كما قال وناهيك بمن يقول مثل القاضى الفاضل فى حقه مثل هذا ويعترف له بالعجز وأما أنا فكلما قرأت هذا الفصل أجد له نشوة ولا نشوة الراح وبهجة ولا بهجة السارى بضوء الصباح، أبو الحسن بن بسام عارض إذا سمع استوسلت البحار ونجم إذا طلع تضالت الشمس والاقمار وسائق لا يمسح وجهه الا بهيادب الغيوم وصارم لا يحلى غمده الا بافراد النجوم، القاضى السعيد، هبة الله بن سنا الملك وإن للشوق بحرا وقلبه والله الغريق بأمواجه وجرا وصدرة المظلم بسراجيه وأقل بد للهموم عنده أنها حلتها فى عنفوان الشباب بحلية الاشيب وجعلته سادجا من الشعر الاسود وإن كان فى وسط العمر المذهب كما قال أبو عبادة ذهبية الصبوات من أعوامه، وله فالاسلام من طلاقته والكفر مجاهد ولكن باتقائه وسيوفه تحسن فى الاجسام البسط وفى الارواح القبض ورماحه تكاد لطولها تمسك السماء أن تقع على الارض، وله لا جمع الله عليك المصيتين فراق الاحباب وفراق الثواب ورزقك من الاعانة على ما تعانیه ما

يفضل عنك إلى أن تخلعه على وترسله إلى، وله وازهد فى دنيا تنبت الحمام وتحصد الاجسام وتقصف أغصان الاشباح وتقطف ازهار الارواح واذهل عن الذهول وأحسن ضيافة النصح بالقبول.

واذا رأيت جنازة محمولة فاعلم بأنك بعدها محمول

وكيف لا يحمل المملوك تلك الاشواق وهى تقربه من المولى بالتخيل إذا أبعدته الايام ويمثل له المقام الكريم فيقابل به كل ساعة بالسجود ويشافهه بالسلام ويرفع ناظره فلولا نظرة إليه لكانت عينه مطرقة وستور أهدا به مسيلة وأبواب جفونه مغلقة ولولا اشتغالها بمطالعة طلعت لا تهب من دموعها بمياه محرقة فهو منها فى نار وجنة مغلول بغله مطوق بمنه، وله ولقد أنساه فراق المولى حروف المعجم فما يعرف منها حرفا وعاقب خاطره الذى كفر بالبلادة فأسقط عليه من سمائه كسفا شوقا ما خطر مثله على قلب بشر ودمع ما مر على بصر إلا ومر بالبصر ولسان لا ينفك من الدعاء على يوم الفراق ومن دعاء على ظالمه فقد انتصر ضياء الدين بن الاثير الجزرى ودولته هى الضاحكة وإن كان نسبها إلى العباس وهى خير دولة أخرجت للدهر ورعاياها خير أمة أخرجت للناس ولم يجعل شعارها من لون الشباب الا تفاؤلا بأنها لا تهزم وانها لا تزال محبوبة من أبكار السعادة بالوصل الذى لا يضرم، وله يصف بناء مرتفعا إذا أضرم برأسه قبس ظنه المتأمل نجما وإذا استدار عليه قوس السماء كان فى كبده سهما، وله فى القلم فهو الملقب بالجواد المضمهر وإذا أخذت السوابق فى احضارها بلغ الغاية وما أحضر وله لون يحقق فيه القول النبوى لو جمعت الخيل فى صعيد واحد لسبقها أشقر فإن الاشواق عن الحمام خليفة وإذا كانت حركة الفلك شوقية فما الظن بالقلوب الضعيفة، القاضى) محبى الدين بن عبد الظاهر يصف بطيخا حليبا أهدي إليه فشاهد اهابه وكأنما جمع من زهر الاقاح وكان كل واحد منه قنديل وعروقه فتيلة الاصباح وكان كبراه بطن خميص من له من مجموع اللب حنين وكان صغراه رأس كم منها ان فصلت جبين يقسم كل رأس منه رئيس من الاناسى وقصر أيمانه فى الاستحسان عليه فما يقول الا وحق راسى، ومن انشائه نعلمه بفتوحات استطعم الايمان حلاوتها من أطراف المران واستنطق الاسلام عبارتها من السنة الخرسان ذلك بفتح حصن الاكراد الذى كان فى خلق البلاد الشامية عضه لم تسمع بمياه السيوف المجردة وشجن صدرها لم تقاومه أدوية العزائم المفردة طالما أكسب البلاد رعبا ورهبا وطالما استمارى من أخلاق الامصار حليبا،

ومن إنشائه بكتاب يأمر فيه بإبطال الحشيش بعد الخمر يعلم أن المنكرات التى أمرنا أن تملأ الصحائف بأجرها ونفرغ الصحف وأن لا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف قد بلغنا الآن أنها اختضرت وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نصرت وأن أم الخبائث ما عمقت والجماعة التى كانت ترضع ثدى الكأس قد أرتعت بعدما فطمت وإنها فى النشأة ما حيت إبليس مسعاها وإنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها وإنها استراحت من الخمار واستغنت لما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار وإن ذلك فشا فى كثير من الناس وعرف فى عيونهم ما يعرف من الاحمرار فى الكأس وصاروا كأنهم خشب مسندة سكرى وإذا مشوا يقدمون لفساد أذهانهم رجلا ويؤخرون أخرى ونحن نأمر أن تحت أصولها وتقتلع ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع وتظهر منها المساجد والجوامع ويشتهر مستعملها فى المحافل والمجامع حتى تتبه العيون من هذا الوسن وحتى لا تشتهى بعدها خضرا ولا خضراء الدمن، ومن إنشائه من كتاب إلى الفرنج وقد أخذت شوانى السلطان وخيولهم المركب ومراكبنا الخيول وفرق من يجريها كالبحار وبين من يقف به فى الوجول وبين من يتصيد بالصقور من الخيل العرب وبين من اذا افتخر قال تصيدت بغراب فلتن أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة وقد قال الملك وقلنا والله أعلم أن قولنا هو الصحيح واتكلنا واتكل وأين من توكل على الله وسيفه ممن اتكل على الريح، ول وأما فلان فانه شمر الذيل وامتنى هربا أشهب الصباح وأحمر الشفق وأصفر الاصيل وأدهم الليل، وله فكم شاهدنا من قتلهم كل مهيب الهامة حسن الوسامة قد فض الرمح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامة، وله من منشور كتبه للامير جمال الدين المحمدي عند اخراجه من الاعتقال أوله الحمد لله الذى أظهر جمال الدين المحمدي، وله من منشور كتبه ليسرى عن السلطان المنصور وجربنا فى الاحسان إليه على القياس وإن كان من أكابر أصحاب الظاهر، ومن إنشائه يقبل اليد التى لو تجسدت القبل فيها لنظمت سبحا ولو اثرت فيها كتائب الوضوء كانت حجولا ووضحا ولا برحت القبل التى قبلتها ساجدة والأفواه إلى مسرعتها واردة حتى يقال والمباسم يقبلها أحباب فى حياض أم زهر فى رياض وىروق فى غمام أم درر فى بحر طام، ومن انشاء قوام الدين بن زيادة يهنئ الوزير البلدى، وأفاض عليه من صنوف تشريفاته خلعا خاع بها قلوب الاعادى من أعماق الصدور وطلع فيها من آفاق البدور كأنما أنشئت من

عين الصريم وغزلانه أو غشيت بعصر الشباب وريعانه فألبسها من حلاء سربال
الجلال وجرتها على المجرة أذيال الاختيال وقلده سيفاً عقد النصر بلوائه وتعلم المضامن
آرائه أهدى فى قلوب العدى من الاوجال لا ينصل نصله من خضاب القراب ولا يغمد الا
فى قراب الرقاب وأمضاه صهوة صافن أسرع من تأدية الاسماع إلى الافهام وأوحى من
مضاحكة البرق خلال سحجف الغمام يسبق مطارح نظره بمواقع حافره ويهدى ظلال ظله
بأهله أثره بشكل رأيه فيه اذا تدرع فى شوطه واشتد أطرف ردىء أم طرف يرتد كأن بركة
سهم وسنبكة وهم أو يحف بقوادم شهاب أو عنده علم من الكتاب ولاطفه بدواه وهى دوام
العدم واداة النعم ومنبع الكرم ومرتع أرزاق الامم يستشف لآلى الاداء من قرارها ويصفق
أمواج الحكمة والبلاغة من أقطار ثنائها تكشف يراعا يردع كل روع ويتبع أمره كل متبوع قد
حمل من اعباء الخلافة عظيما وحمل الاسد رضيعا والملك فطيما يصوب بكرم الغيوث
الغواذى ويصول بقرم الليوث العواذى:

يمحو ويثبت أرزاق العباد بها فما المقادير الا ما محا ودحا

من انشاء الصدر عز الدين بن سينا من بشارة للديوان العزيز بكسر عساكر الفرنج من
عكا عن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة اثنين وأربعين وستمائة، فلا
روضة الادرع ولا جدول الاحسام ولا غمامة الانفع ولا ويل الاسهام ولا مدامة الادما
ولا نغم الا صهيل ولا معربد الا قاتل ولا سكران الا قتيل حتى أنبت كافور الرمال شقيقا
واستحال بلور الحصباء عقيقا وازدحمت الجناث فى الفضا فجعلته مضيقا وضرب النقع
فى السماء طريقا وعاد الفارس بالدماء عريقا:

وضاقت الارض حتى كاد ربههم اذا رأى غير شىء ظنه رجلا

ومن انشاء القاضى تاج الدين بن الاثير: والمنجنقيات تفوق اليهم سهام قسيها وتخيل
اليهم أنها ساعية اليهم بحبالها وعصيتها وهى فى الحصون من ألد الخصوم وإذا أمت حصنا
حكم بأنه ليس بامام معصوم ومتى امترى خلق فى آلات الفتوح لم يكن فيها أحد من
الممترين واذا نزلت بساحة قوم فساء صباح المنذرين تدعى إلى الوغى فتكلم وما أقيمت
صلاة حرب عند حصن الا كان ذلك الحصن ممن يسجد ويسلم، ومن انشاء سيد كتاب
الانشاء وامام البلغاء القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى: فقم عنا بهذه الفريضة
وطر فى تلك المضار ورفه قوادمنا المهیضة وأدر علينا أن نشرب وقل وعلينا أن نظرب
وانفرد بالحرب وعلينا النظارة وأعطنا السلب وياشر أنت الغارة وأنفد الينا كل يوم من

أقمصة يوسف قميصا وليكن قميص البشارة، وله من شفاعاة وعلى المذكور ديون كثيرة والدين عشرة الصراط والقبر على المطلوب سم الخياط فإن رأى مولانا أن ينظر إليه بما يفك أسره ويغنى فقره فهناك الاطلاق بالحقيقة أو الاسر والغنى بعد العرض على الله أو الفقر فبهذا عرفتم يا أهل المعروف من آل أيوب وكذا كان يوسفكم رحمه الله يقضى كل حاجة فى نفس يعقوب، وله والجو يتنفس عن صدر مسجور كصدر المهجور والحر وصاليه فى نحو هذه الطب جار ومجرور والمهمة قد سرفها ملا السراب وزخرفها بحر ماء ولد لغير رشده وعلى غير فراش السحاب وحر الرمل قد منع حث الرمل ونحن فى أكثر من جموع صفين الا اننا نخاف وقعة الجمل ووردنا ماء هذه العيون وهو كماء المحابر يغترف منه المجرم مثل عمله ويرسله سهما فلا يخطئ تفرة مقتله وهو مع هذا قليل كأنه حادت به الآماق فى ساحات التفاق لا فى ساعات الفراق فيا له من ماء لا تتميز أوصافه من التراب ولا يرتفع به فرض التيمم كما لا يرتفع بالسراب ولا يعدو ما وصف به أهل الجحيم فى قوله ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب﴾^(١) فنحن حوله كالعوائد حول المريض يعللون عليلا لا يرد الجواب بل يندبون ميتا قد حال بينهم وبينه التراب بجهز للدفن ونعشه المراد ويحفر عليه ليقوم من قبره وذلك خلاف المعتاد وفى غير من قد وارت الارض فاطمع على أنه لو كان دمعاً لما بل الاجفان ولو كان مالا لما رفع كفة الميزان وإن امرؤ روحه فى جلد غيره وهو المراد وخصمه من غير جنسه وهو النار التى فى غير الزناد لجدير أن يغرى به اغراؤه وان يلام على مفارقة الاحبة ويقال هذا جزاؤه، وله) إلى أن ترد كتب العسكر وأعلامها من مدات ألفاته ورءوس العدى قطعات همزاته والايام التى لا أشاهد فيها الوجه لا أحسبها من العمر والايام التى لا يصل فيها ركابه لا أحسبها من الدهر ولا يخنصر على على عمرى ولا يغالطنى فى حساب دهرى، وله وقد أحسنت الحضرة فى بشرى بكتابة فى كتابها فقد طلع طيفا للحبيب الزوار ونجما لفجره ولا أقول الفرار وعليه أبقاه الله سلام أنور مما بعد الفجر وأشرق مما تحت الخمار وأجلب للسرور مما قبل الخمار، وله ذكر الله ذلك العهد بخير ما ذكرت العهود ولعن الله الفرنج المحتدين وقتل أصحاب الاخدود فقد قطعوا طرقات المسار وأطالوا عمر الأبرار وسبكت نار مقاساتهم الدينار فعجل الله أعلام الكافرين لمن عقبى الدار، وله وظننا أننا به بل

بدعائه قد دخلنا الجنة لما نلناه من خمرها الذي هو لذة للشاربين وأنا خالطنا أهلها
فأشخاص المعاني من الحروف على سرر متقابلين ووثقنا بأن لنا منه الدعا الذي نأوى منه
إلى كنز عتيد والرأى الذي أنزله الله هو والحديد فيهما بأس شديد، وله رب إني لا أملك
إلا نفسي وما هي في سبيلك مبذولة وأخى وقد هاجر إليك هجرة نرجوها مقبولة وولدى
وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم وما أنا على محبوبك بمكروه فيهم ومكروههم
ونقف عند هذا الحد والله الأمر من قبل ومن بعد فيا عصابة محمد ﷺ أخلفه على أمته بما
تطمئن منه مضاجعه ووفه الحق فينا فأنا والمسلمون عندك ودائعهم، وله ودعا المسلمون
برءوس عدوهم في رءوس القنا وقد اجتنوا ثمراتها ورواحهم في صدور الأطباء قد أطفئوا
لمائها جمراتها فأنبتت سنابك الخيل سماء من العجاج نجومها الأسنة وطارت إليهم عقبان
من الخيول قوادمها القوائم ومخالبها الأعنة وتصويت عيون السمير إلى قلوبهم كأنما تطلب
سوادها وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنما أرادت أن تروى جيادها ونصبت للملك
خيمة حمراء كأنما وضع على الشرك عمادها وتولت حفظ اطنابها الرجال فكأنهم أوتادها،
وله وقد كان يقال إن الذهب لا يبريز لا يدخل عليه آفة وإن يد الدهر البخيل عنه كافة وأنتم
يا بنى أيوب أيديكم آفة نفائس الأموال كما أن سيوفكم آفة نفوس الابطال فلو ملكتم الدهر
لامنطيطم لسياليه إذاهم وقلدتم أيامه صوارم ووهبتم شمسوه وبدوره دنانير ودراهم وأيام
دولتكم أعراس وكان ما تم فيها على الأموال ما تم والجود في أيديكم حاتم ونفس حاتم في
نقش ذلك الخاتم، وله) وما أحسب الاقلام جعلت ساجدة الا لان طرسه محراب ولا أنها
سميت خرساء الا قبل أن نفت سيدنا في روعها رائع هذا الصواب ولا أنها اضطجعت في
دوبها إلا لبيعتهما ما يتفخ فيه من روحه من مرقدتها ولا سودت رءوسها الا أنها اعلام عباسية
تناولتها الحضرة بيدها لا جرم أنها تحمى الحمى وتسفك دما وتحقن دما وتتوشح بها يده
عنانا ويرسلها فيعلم الفرسان أن في الكتاب فرسانا وتقوم الخطباء بما كتبت تعلم الاسنة أن
في الايدي كما في الافواه لسانا ولقد عجبت من هذه الاقلام تخر ألسنتها شقا فتنتطق فصيحته
وتجدع أنوفها برياً فتخرج صحيحة تحلى مليحة وما هي الا آية في يد سيدنا البيضاء
موسومة وما مادتها في الفصاحة الا علوية ولولا الغلو لقال علوية، وله ففضه عن فضة مسها
ذهب وفاوضه عن نار ذكاء لو لم يمازجه ماء الطبع لهب منه أى لهب وخمد له كل متلهب
القريحة وقصرت يده فإن نواه قيل له ﴿تبت يدا أبا لهب﴾^(١) وأغاربه على القلوب فرجع

وهى بالاشواق محتوية الفضل ماخوذة السلب فكم فيه من فقرة قيل لها يا أخت خير اخ
يا بنت خير اب وله وأما الثلوج التى وصفها ذلك البيان فأحجها بل أهداها إلى الصدور
فأثلجها فقد ثملت البلاد وكأنما نشر عليها المولى غرضه وسرنى أن يرد لك القضاء فضة
فأرانى النجوم فى هذه السنة وقد ناصحت فى خصبها فنزلت بأنفسها وبرزت ظاهرة فى
النهار بجواربها وخنسها وأجدر بها أن تكون سنة يغسل وضر الكفر يصابون ثلجها وتير
العزيمة الناصرية من هذه الرغبة صريع فلجها، وله وبيننا أنا من الخمول فى مهبط رسم اذ
رفسى التمويه إلى مطلع شمس وبيننا أنا أندب أفعال بنى الاصفر فى عسقلان وجفوة أبيهم
يعنى الدينار لى فى مصر فما يرانى الا وكان عليه من سكتة عوذاتها منى يعتصم وكأنما
يصفر خوفا منى وهو إلى الغير يتسم اذ صرت أنفضه من بنان أبى الطيب من دنائير شمس
وربما انقله بعد الضرب إلى النفى لا إلى اعتقال الكيس وحبسه، وله وان ادعى سحر البيان
أنه يقضى أيسر حقوقه ويثمر ما يحب من شكر فروعه وعروقه لكنك أفضح باطل سحره
وأذيقه وبال أمره وأصلب الخواطر السحارة على جذوع الاقلام واعقد ألسنتها كما تعقد
السحرة اللسان عن الكلام، وله وأشكو بعد قلبى جسمى فقد ضعفت قوته وقوى ضعفه
ونسجت عليه همومى ثوبا دون الثياب وشعارا دون الشعار من الحرب الذى عاد بينى وبينه
وأسقم يدى من جسمى واستخدمها تحرث أرضه فإن لم يكن لاضه.

obeikandi.com

الباب الثامن والثلاثون

في الهدايا والتحف النفيسة الأثمان

ذكر ابن بدرون في شرحه لقصيدة ابن عبدون عند ذكر كسرى وبنائه للسور المذكور في الباب السادس من هذا الكتاب ولما بنى كسرى هذا السور هادته الملوك ورأسلته، فمنهم ملك الصين كتب إليه من يعقوب ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر الذي في قصره نهران يسقيان العود والكافور والذي توجد رائحة قصره على فرسخين والذي تخدمه بنات ألف ملك والذي في مربطه ألف فيل أبيض إلى أخيه كسرى أنوشروان وأهدى إليه فارساً من در منضد عينا الفارس والفارس من ياقوت أحمر وقائم سيفه من الزمرد منضد بالجوهري وثوباً حريراً صينياً وفيه صورة الملك على أيوانه وعليه حلتاه وتاجه وعلى رأسه الخدام بأيديهم المذاب المصورة من ذهب تحمله جارية تغيب في شعرها يتلألاً جمالها وغير ذلك مما تهديه الملوك إلى أمثالها.

وكتب إليه ملك الهند: من ملك الهند وعظيم ملوك الشرق وصاحب قصر الذهب وإيوان الياقوت والدر إلى أخيه كسرى أنوشروان ملك فارس صاحب التاج والراية وأهدى إليه ألف من من عود يذوب في النار كما يذوب الشمع ويختم عليه كما يختم على الشمع وجاما من الياقوت الأحمر فتح شبر مملوء من در وعشرة أمانان كافور كالفستق وأكبر من ذلك وجارية طولها سبعة أذرع تضرب أشفار عينيها إلى وجتيها كأن بين أجفانها لمعان البرق مع اتقان شكلها مقرونة الحاجبين لها صفائر شعر تجرها وفراشا من جلود الحيات ألين من الحرير وأحسن من الوشي وكان كتابه في لحاء الشجر المعروف بالكاذي مكتوب بالذهب الأحمر وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيبة تكاتب فيه ملوك الصين والهند.

وكتب إليه ملك التبت من ملك تبتان ومشارك الأرض المشاخبة للصين والهند إلى أخيه المحمود السيرة والقدر ملك المملكة المتوسطة الأقاليم السبعة كسرى أنوشروان وأهدى إليه أنواعاً مما تحمل من عجائب أرض تبت منها مائة جوشن ومائة ترس مذهبة وأربعة آلاف من المسك في نوافج غزلانه.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار صاحب خراسان إلى المعتمد هدية في بعض السنين

من جمعتها عشر بزة منها بازى أبلق لم ير مثله ومائة مهر وعشرون صندوقا على بغال عشرة فيهم ظرائف الصين وغرائبه ومسجد فضة برواقين يصلى فيه خمسة عشر انسانا ومائة من مسك ومائة من عود هندى وأربعة آلاف درهم.

وأهدت ملكة فرنجية إلى المكتفى بالله فى سنة ثلاث وتسعين ومائتين خمسين سيفًا وخمسين رمحا وخمسين فرسا وعشرين ثوبا منسوجا بالذهب وعشرين خادما صقليا حسنا وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع وست بازات وسبعة صقور ومضرب حرير يجمع ثلاثة وعشرين ثوبا معمولا من صوف يكون فى صدف يخرج من البحر يتلون بجميع الألوان كقوس قزح يتلون كل ساعة لونا وثلاثة أطيار تكون فى أرض افرنجية إذا نظرت إلى الطعام المسموم صاحت صياحا منكرا وصفقت بأجنحتها ليعلم ذلك من حالها وخرزا يجتذب النصول فتخرج من غير ألم وقدم الرسول بكتابها وهديتها وكان فى فصل من كتابها وعرفت أن بينك وبين ملك قسطنطينية صلة وأنا أوسع منه سلطانا وأكثر جندا وأشد سطوة وملكى على أربعة وعشرين مملكة لسانها لا يشبه الآخر وفى مملكتى وطاعتى رومية الكبرى.

ومن ظرائف الهدايا ما أهدته شجرة الدر جارية المتوكل وكان يميل إليها ميلا كبيرا ويفضلها على سائر حظاياه فلما كان يوم المهرجان أهدى إليه حظاياه هدايا نفيسة واحتفلن فى ذلك فجاءت شجرة الدر بعشرين غزالا تربية عليهن عشرون سراجا صينيا على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية وأصناف الطيب ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب وفى يدها قضيب ذهب فى رأسه جوهرة فقال المتوكل لحظاياه وقد سرّ بالهدية ما فيمكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه فحسدنها وعملن على قتلها بشيء سقيه لها فماتت.

عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو عبد الرحمن الأمير ولى المدينة للرشد ثم ولى الشام والجزيرة للأمين وجه إلى الرشيد فأكهة فى أطباق خيزران وكتب إليه أسعد الله أمير المؤمنين وأسعد به دخلت إلى بستان أفانديه كرمك وغمرته لى نعمك قد أينعت أشجاره وتهدأت ثماره فوجهت إلى أمير المؤمنين من كل شىء شيئا على القدرة والامكان فى أطباق القضباني ليصل إلى من بركة دعائه مثل ما وصل إلى من بركة عطائه فقال رجل يا أمير المؤمنين لم أسمع بأطباق القضباني فقال يا ابله كنى عن الخيزران بالقضباني إذ كان اسما لأمنا.

أنشدنى فى المجدى فضل الله بن مكاس وقداهدى له والده تحفا جليلة:

تناهيت فى برى الى أن هديتنى وقد كنت قبل اليوم فى الفى ساريا
وأهديت لى ما حير الفكر حسنه فلا زلت فى الحالين للعبد هاديا

التحف النفيسة الاثمان ذكر الاصمعى قال حدثت أن برمك جدّ يحيى بن خالد كان زوارا للملوك وكان يتطيب فحدث أنه صار إلى ملك الهند فأكرمه وأنس به وأحضر له طعامه قال فأكلت حتى انتهيت فقال لى كل فقلت لا والله أيها الملك ما أقدر على أن أزداد شيئا فقال يا غلام هات القضيب قال فوهمت وظننت أنى أخطأت فلم يلبث أن جاءه بقضيب فأخذه الملك وأمره على صدرى فكأننى لم أكل شيئا قط ثم أكلت أكلا كثيرا حتى انتهيت فقال كل فقلت ما أقدر على ذلك فأخذ القضيب وفعل مثل ما فعل فكأننى لم أكل شيئا قط ثم أكلت حتى انتهيت فقال لى كل فقلت ما أقدر على ذلك فأراد أن يمرّ القضيب فقلت أيها الملك إن الذى دخل يحتاج إلى أن يخرج فقال صدقت وأمسك عنى فسألته عن القضيب فقال تحفة من تحف الملوك ثم خرجت من عنده فأتيت الاصبهد فقربنى وأكرمنى وكان جالسا فى مجلس على البحر وفى يده خاتم ياقوت أحمر يغلب نوره نور الشمس قد أضاء المجلس منه فلم أزل أنظر إليه فلما رآنى أفعّل ذلك نزعه من يده ورمى به فى البحر فوردت على أعظم مصيبة وقدّرت أنى قد جنيت جناية ووجمت فلما رآنى قال ما لك قلت أحسب أنك أنكرت نظرى إلى الخاتم فألقىته فى البحر قال لا وضحك ودعا بسفط فأخرج منه سمكة من فضة فى رقبتها سلسلة طويلة فألقاها فى البحر فغاصت ثم ظهرت بالخاتم فى فيها فجذبها وأخذ الخاتم وردّه إلى أصبعه فورد على ما حيرنى ولم أعرف سببه ثم خرجت وأتيت الشام ولقيت هشام بن عبد الملك فأكرمنى ورحب بى وسألنى عن خبرى فأخبرته فأمرنى أن أتخذ له انتجات أرادها ، قال الشيخ الانتجات هى اخلاط تربت فى العسل مثل الاترج والاهليلج ونحوها.

رجع: فتشاغلت بعملها فبينما أنا فى بعض الأيام فى منزلى قد نزع ثيابى وأخذت فى اصلاح حالى وما أمرنى به إذا بغلماناه قد هجموا على وقالوا أمير المؤمنين يطلبك فأردت أن أغتسل وألبس ثيابى فقالوا كما أنت فأخذت بصورتى واحضرت فى مجلسه فلما دخلت من الباب قال اتركوه اذهب اذهب لا تقربنى معك سم الله وأخرجوه فأخرجت وعدت إلى منزلى وأنا على حال حيرة من انزعاجه فاغتسلت وتنظفت ولبست ثيابى ثم رحت إليه دخلت إلى حضرته وسألته عما كان منه فقال لى كان معك سم أو عبت بشىء من السموم فقلت لا

والله إلا أنى كنت أعمل تلك الانتجات التى أمر أمير المؤمنين بها ولم تدعنى الغلمان إلى أن أغتسل وكان من جملة ما أليفون وهو سم قال ما أشك فى ذلك قلت فكيف علم أمير المؤمنين ذلك قال فى عضدى كبشان من الياقوت إذا لقينى انسان معه سم أو قدم إلى ما فيه سم انتطحا فلما وقعت عيني عليك انتطح الكبشان فعلمت أن فى يدك شيئا من السم، نقلت هذه الحكاية من مجموعته بخط سيدنا وشيخنا شمس الدين محمد بن الكتبى الشهير بالترىكى رحمه الله.

قال صاحب كتاب المباحج مما وجد فى خزائن الملوك والخلفاء والوزراء من الجواهر النفيس الدرة اليتيمة وسميت بذلك لأنها لم يوجد لها نظير حملها إلى الرشيد مسلم بن عبد الله العراقى فباعها عليه بتسعين ألف دينار وكان للمتوكل فص ياقوت أحمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار، وكانت له سبعة مائة حبة جواهر وزن كل حبة مثقال اشترى كل حبة منها بألف دينار.

وأهدى بعض ملوك الهند إلى الرشيد قضيب زمرد أطول من ذراع وعلى رأسه تمثال طائر ياقوت أحمر لا قدر له نفاسة قوم هذا الطائر على حدته بمائة ألف دينار.

ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى مولاه زياد فصا من الياقوت الأحمر وقال له بخ بهذا وكانت قيمته ألف ألف درهم وسقط من يد الرشيد فى أرض كان يتصيد فيها فاغتم لفقدته فذكر له فص ابتاعه صالح صاحب المصلى بعشرين ألف دينار فأحضره ليكون عوضا عما سقط منه فلم يره عوضا عنه ووهب المأمون للحسن بن سهل عقدا قيمته ألف ألف درهم وقوم الجواهر الذى سلم من النهب عند فتنة المأمون بألف ألف ومائة ألف وستة عشر ألف درهم ووجد فى تركة السيدة بنت المعز العبيدى طست وأبريق من البلور ومدهن ياقوت أحمر وزنه تسعة وعشرون مثقالا وكان الناس يستعظمون الطست والأبريق إلى أن قبض على أبى محمد البازورى وزير المستنصر العبيدى فوجد عنده تسعون طستا بأباريقها من صافى البلور وجيده كبارا وصغارا فهان عليهم ما استعظموه.

وكان لمحمود بن سبكتكين صاحب غرنة كنصاب المرأة من الياقوت الأحمر إذا ركب قبض عليه بيمينه فتبين طرفاه من جانبيه يده بحيث ينظر إليهما الناس ووجد فى خزائن مروان بن محمد مائة جذع أرضها بيضاء فيها خطوط سود وحرر سعتها ثلاثة أشبار وأرجلها ذهب فيقال إنها صنعت على شكل المشتري من أكل منها لا يشبع.

ووجد أيضا فى خزائنه جام من زجاج فرعونى غلظ أصبع وفتح شبر ونصف فى

وسطه صورة أسد ثابت وامامه رجل قد برك على ركبتيه وقد أغرق السهم فى القوس وكان فيما أخذ من خزائن قصر العاضد العبيدى بعد وفاته الجبل الياقوتى وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا ولما انهزم أبو الفوارس بن بهاء الدولة البويهى من أخيه سلطان الدولة قصد يمين الدولة محمود بن سبكتكين فبلغ محمود أنه باع جوهرتين كانتا على جبهة فرسه فاشترهما نصير الدولة صاحب ديار بكر بعشرة آلاف دينار فقال من غلطكم ترككم على جبهة الفرس مثل هذا وقيمته ستون ألف دينار.

وأهدى صاحب قلعة اصطخر إلى السلطان الملك العادل ألب رسلان السلجوقى قدح فيروزج فيه منوأمسك مكتوب عليه جم شاد أحد ملوك الفرس الأول.

وأخذ يوسف بن تاشفين من عبيد بن المكين الصنهاجى وكان ملك أفريقية لما قبض عليه سبعة فيها أربعمئة حبة جوهر كل حبة قومت بمائة دينار ووجد فى ذخائر العبيديين لما أخذ الملك منهم عشرة آلاف قطعة بلور محكم تفاوتت قيمتها من ألف دينار إلى عشرة دنائير ووجد فيها قطعة بلخش وزنها ثلاثة وعشرون قيراطا.

ووجد فيما أفاء الله على السلطان محمود بن سبكتكين لما فتح الهند قطعة ياقوت أحمر زنتها أربعمئة وخمسون مثقالا، وكان فيما أخذ لمؤيد الملك بن نظام الملك من الجواهر قطعة بلخش وزنها احد وأربعون مثقالا.

وحكى الواقدى فى فتوح السند أن عبيد الله العبيدى عامل معاوية على السند غزا بلد القيفال فأصاب منه مغانم كثيرة وأن ملك القيفال بعث إليه يطلب الفداء وحمل إليه هدايا كان فيها قطعة مرآة يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم لما كثر ولده وانتشروا فى الأرض فكان ينظر فيها فىرى من بعد منهم على الحالة التى هو عليها من خير وشر فحملها عبد الله إلى معاوية فبقيت فى ذخائر بنى أمية إلى أن انتقل الملك منهم إلى بنى العباس فصارت عندهم فى الذخائر.

بدنة عبدة: ذكر أصحاب التواريخ أن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان مات وخلف عاتكة بنت يزيد وكانت تحت عبد الملك بن مروان فلما ماتت عاتكة أوصت بأن يفرق مالها على أولاد أخيها فقسم عبد الملك تركتها بين عشامة وعبدة فتزوج عبد الملك عشامة وتزوج هشام عبدة فرآها يوما هشام وقد ألقت حليها وإذا فى نحرها خال فبكى وقال لأنت هى فقالت وما معنى هذا القول فقال إنا نروى أن امرأة خليفة وابنة خليفة فى جيدها خال تذبج كما تذبج الشاة فقالت لا يجزيك الله إن كان الامر صحيحا فلا حيلة لى فى دفع

القضاء وإن لم يكن فلا معنى لتعجيل الهم فلما قتل عبد الله بن على بن أمية واستباح أموالهم أخذ بدنة عبدة وبعث بجواهر إلى السفاح فعرضها على امرأته أم سلمة بنت يعقوب المخزومية فقالت ما لى لارى بدنة عبدة فكتب إليه بذلك وأمره بأنفاذ بدنة عبدة فأنفذ إليه بدنة وزعم أنها هى فعرضها على امرأته فقالت ليست هى هذه البدنة الرائقة جارية هشام وحية واحدة من بدنة عبدة أفضل من هذه كلها وعلامتها أن فى ظهرها وصدرها خطين من كبار الياقوت الاحمر فكتب أبو العباس إلى عبد الله يعزم عليه فى البعث ببدة عبدة فكتب إليه أنه لا يعرفها فقالت أم سلمة لأبى العباس مره يبعث لنا بعبدة فهى تعرف أين بدنتها فكتب إليه بذلك فكره أن يبعث بعبدة لشلا تقر عليه ولم يجد بداً فبعث بها ودس بعض أجناده وقال إذا صرت بموضع كذا فاقتلوها فلما صارت بموضع من طريق الشام يعرف اليوم بجب عبدة وأرادوا قتلها قالت لهم إن كنتم عزمتم على هذا فاتركونى حتى أصلى وأستر فتركوها فصلت وشدت أزارها على يديها ورجليها وأبرزت لهم نحرها فذبحوها وكتب عبد الله إلى السفاح إنى انفذت عبدة فقتلها بعض الاعراب بالطريق فلما أوقع أبو مسلم الخراسانى بعبد الله وهرب منه وأخذ ماله وانفذه إلى المنصور أخذ البدنة فكانت فى خزائن بنى العباس إلى أن صارت إلى زبيدة بنت جعفر ثم بعث بها ذلك المتوكل إلى ابنة عبد الله بن طاهر التى زوجها من المعتز ولده.

وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والطرف كان المعتز بالله قد التمس من أمه قتيحة خمسين ألف دينار ينفقها فى الجند فذكرت أنها لا تملك حبة واحدة فظهر لها بعد قتل ابنها فى سنة خمس وخمسين ومائتين وكانت قتيحة قد استخفت فوجد لها خزانة فيها ألف ألف دينار وثلاثة اسفاط فى أحدهم زمرّد لم ير مثله قط وفى الآخر نصف مكوك حب كبار لؤلؤ وفى الآخر كالجة فصوص ياقوت أحمر فقوم ذلك فكانت قيمته أثنى ألف دينار وكانت غلتها فى كل سنة عشرة آلاف ألف دينار والله أعلم.

الباب التاسع والثلاثون

فى خواص الاحجار وكيانها فى المعادن

قال الفاضل أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف التيشاء: فى الجوهر اسم عام يطلق على الكبير والصغير منه فما كان كبيرا فهو الدرّ وما كان صغيرا فهو اللؤلؤ المسمى حبا ويسمى أيضا اللؤلؤ الدق ولؤلؤ النظم وحيوان الجوهر الذى يتكوّن فيه كبيره وصغيره يسمى باليونانية اسطوروس يعلو لحم ذلك الحيوان صدفتان ملازمتان لجسمه والذى يلى الصدفتين من لحمه اسود ولهذا الحيوان فم وأذنان وشحم يلى الفم من داخلهما إلى غاية الصدفتين والباقي رغوة وصدفة وماء.

وذكر أرسطاطاليس فى كتابه أن من الحيوان غير الناطق السرطان يشتهى أكل لحم هذه الدابة فلما حال دونه ودون شهوته شىء بمنزلة الحاجز بينه وبين ذلك اللحم الرخص الذى فى الصدقات احتال عليه فلا يزال السرطان راصدا له حتى يراه قد فتح جلدة الصدفة فيأخذ حجرا صغيرا فيرمى به فى جوف الصدفة فلا تقدر عند ذلك على انضمامها كما كانت لأنها لا تلتحم بمنع الحجر من انطباقها فيدخل السرطان قرنيه إلى ذلك اللحم الرخص فيستخرجه ويأكله لالتذاده به، ويذكر من أكله من الغواصين أنه شبيه بطعم توانص الطير.

وذكر أرسطاطاليس فى كتاب الاحجار، أن البحر المحيط بالعالم هو الذى فى ظلمات مقيمة يلحق آخره أول البحر المسلوك وأن الرياح تصفق هذا البحر المحيط المسمى أوقيانوس فى أوقات فصل الشتاء فيهبج هيجانا شديدا فيطلبه الصدف الذى يكون فيه الدر فى وقت ربح الشمال فإذا هاجت الرياح والامواج من ذلك البحر المحيط كان لامواجه رشاش فيلتقمه الصدف الكائن فى البحر الذى يسلكه الناس كما يلتقم الرحم المنى فتصير تلك النطفة من ذلك الماء فى اللحم المركب فى الصدف فلا يزال الصدف يعمد إلى ذلك الموضع الساكن من ماء البحر فيفتح فمه ويستقبل بذلك الماء الذى هو مثل النطفة رياح الهواء وحر الشمس عند طلوعها وغروبها ولا يعرض لها فى وسط النهار لشدة حر الشمس وهيجان البخارات التى تهيج من العالم والغبار الذى تهيجه الرياح فإذا انعقدت الدرّة ولو كانت الدرّة منها نهاية فى الكبر فلا يكون لها طائل ثمن إذ ليس فيها شىء من أصناف الدر النفيس والله أعلم.

جيده ورديشه: الجوهره الكامله خواصها إما فى الكمية فى العظم وكثر الماء وإما فى الكيفية فى شدة البياض وكرة الاشراف واستواء اللون واستواء استدارته واكتنازه وشكله وما لم يكن كذلك فالآفات أفسدته ومنها أنه ربما وجد بعض الدرة لم تتم تربيتها وربما لصق بها قشر من لحم الحلزون صار كالصدا والوسخ فأفسد لونها وربما كانت كدرة أو كان فيها ماء أو كانت فيها دودة أو كانت مجوفة غير مصمتة وكل هذه آفات دخلت على الدرة من مقر التربية وأما فساد شكلها فمن قبل أن الحبة تقع فى موضع من اللحم الذى فى الصدف غير مستوى فتتجسد الدرة على صورة الموضع الذى ضمها فجيد الجوهر على الجملة المدحرج القار الصافى الشفاف الكبير الجرم الكبير الوزن الضيق الثقب وجيد اللؤلؤ النقى من الوسخ.

ذكر خواصه ومنافعه: من خواص الجوهر أنه يتكون قشورا رقاقا طبقة على طبقة وما لم يكن كذلك فليس بجوهر مخلوق والجوهر بالجملة الدر الذى هو كبار اللؤلؤ وحبه الذى لا يمكن ثقبه لصغره كل ذلك معتدل فى الحر والبرد واليبس والرطوبة لطيف يجفف الرطوبة فى العين ويزيل كثرة وسخها ولا سيما العتيق منه الذى يوجد فى التراب وقد جفت رطوباته فإنه أصلح فى ذلك ولذلك يخلطه الكحالون فى أكحالهم لنفعه وتشديد أعصاب العين وخاصيته مع ذلك لخفقان القلب ومن الخوف والجزع الذى يعرض فى المرة السوداء ويلطف الدم الذى يغلظ فى الفؤاد ولهذا أيضا يخلطه المتطببون فى أدوية القلب ويحبس نزف الدم ويجلو الاسنان جلاء صالحا وإذا سحق وسقى مع سمن بقر نفع من السموم.

وذكر ارسطاطاليس أن ماء البحر الذى يتكون منه اللؤلؤ على ما قدمناه إذا قطر منه فى الكف أو غمس فيه بعض أعضاء البدن ألبس ذلك العضو صبغا كالفضة المذابة. وذكر أيضا أنه من وقف على حل الدر من كباره أو صغاره حتى يصير ماء رجراجا ثم طلى به البياض الذى يكون فى الابدان من البرص أذهبه من أول طلية بطليها وإن سعط بذلك الماء من به صداع من قبل انتشار أعصاب العيون أذهبه عنه وكان شفاؤه فى أول تسعطة.

قال التيفاشى مما جربته واختبرته ووقفت عليه بالعمل أن حماض الاترج يحل الجوهر إلا أنه يحله خائرا مثل المنى لا يعلق بالاجسام إذا طلى عليها والمياه الحادة الطاهرة القوية الحريفة تحله رجراجا يعلق بالاجسام على ما يوجبه القياس فى حل الحماض له وقد جربته فصيح.

عيوبه: التصديف وعدم الاستقرار والصفرة والانبراص وهو قبيح البياض وخصيه وعدم رونقه وسعة الثقب وصغر الجرم وقلة الوزن.

الاشياء التى تضر بالجواهر: الادهان جميعها والحموضات بأسرها لا سيما ماء الليمون ووهج النار والعرق والذفر والاحتكاك بالاشياء الخشنة والله أعلم، الذى يجعلوه ويذهب وسخه ماء حماض الاترج إلا أنه إذا لح عليه به قشره ونقص وزنه وهو يحله أيضا خائرا كما ذكر قبل.

محاسن تليق بهذا المكان:

قال القاضى السعيد بن سناء الملك من قصيدة فاضلية أولها:

نعم هى سعد أو هى لى قمر سعد	وصال ولا صد وقرب ولا بعد
يعانقها من دونى العقد وحده	فيا عجبيا قوم لم يعلق العقد
هى البدر إلا أنها كله سنا	هى الغصن إلا أنه كله ورد
ولو أبصر النظام جوهر ثغرها	لما شك فيه أنه الجوهر الفرد

وقال من قصيدة أخرى فاضلية أيضا أولها:

باتت معانقتى ولكن فى الكرى	أترى درى ذاك الرقيب بما جرى
ونعم درى لما رأى فى بردتى	ردعا وشم من الشياب العنبرا
بابى وأمى من حلمت بذكرها	لما انتبهت ومذ رقدت تفسرا
ومن العجائب أن ماء رضاها	حلو ويخرج حين تبسم جوهرها

وله من مراثية أولها:

كجسمك جسمى أصبح اليوم باليا	ولكن ما بى عاد للناس باديا
يخيل نى أنى دعيت إلى الردى	وأنت عنى قد أجبت المناديا
فيا أسفى إذ كنت قبلى ماضيا	ويا خجلى إذ صرت بعدك باقيا
وغاص فؤادى فى بحور همومه	فالقى إلى جفنى الدموع لآليا

وقال ابن الحلوى جوابا عن رقعة من أبيات:

فإن كان زاهرا فهو صنع سحابة	وإن كان درا فهو من لجة البحر

وقال صفى الدين الحلوى من قصيدة أولها:

الست ترى ما بالعيون من السقم	لقد نحل المعنى المذقق من جسمى
واضعاف ما بى بالخصور من الضنا	على أنها من ظلمها غصبت قسمى
ومما ذاك إلا أن يوم وداعنا	وقد غفلت عين الرقيب على زعمى

ضممت ضمنا جسمى إلى ضعف خصرها
فيا من أقامتنى خطيبا لوصفها
خذى الدر من لفظى وإن شئت نظمته
وقال ابن سناء الملك من قصيدة أشرفية أولها:

جسمى كما حكم الغرام وحسبها
علقت ظببته وعيشى أخضر
ومنها فى المدح:

وأرى العقود حسدن ما قد سطرت
ومما ينظم فى هذا السلك قول شيخنا العلامة بدر الدين الدمامينى من قصيدة أولها:

رضيت فيه بقتل النفس مذ سخطا
ومنها فى المديح:

ونظمه الدر حسنا قد علا وغلا
قال ابن منير وأجاد:

لا تخدعنك وجنة محمرة
وقال النور الاسعدى:

قد كدت أحرق خده يوم النوى
وما أحسن قول أبى الحسن على بن عبد العزيز الحلبي المعروف بالفكيك يخاطب بعض التجار:

أبا جعفر أنفذت اطلب عمه
كرقة دين البابلى ولونها
فأنفذتها بالضد فى لون عرضه
وفصا من الياقوت أحمر ناصعا
فأنفذت لى فصا كخفة عقله
قصدت خلافى فى جميع مآرى
فلو قلت قبل رأسه وبنانه

الياقوت: قال بليونس العلة فى تكون حجارة الياقوت هى أن الشمس لما طلعت على الأرض سخنتها بقوتها فسخن من الأرض ما لم يحجب منها واشتدت سخونة المكان

بظهور الشمس عليه وغيرت الشمس رطوبة المكان الذى اشتدت حرارتها عليه فلما اشتد ييسه لقله رطوبته اجتذبت قوته من الشمس وقوتها حرا ويبسا فانقلب عن طباعه ولونه وطعمه على قدر الرطوبة التى كانت فيه من كثرتها وقتلتها فلما حالت الرطوبة وأقامت عليه اجتذب الماء ما كان فى ذلك المكان من حر الشمس ويبسها وطلعت عليه الشمس وسختته فحجبت الرطوبة عن ذلك اليبس الذى فيها بحر الشمس فتسخن الماء بحرهما فتلطف وقوى على تحليل اليبس الذى قبلته الارض من ييس الشمس المتصل بها فى الماء وانحل به واشتدت عليه السخونة حتى ظهرت قوة اليبس المفرطة فيه فكان منه الحجر المسمى بالياقوت ولشدة ييسه ضاقت مسامه لقبض اليبس له ولشدة انحلاله وشدة لطافته رجع منعقدا ولشدة اليبس تكاثفت أجزاؤه بعضها فى بعض وتداخلت.

الياقوت الاصفر: فمنه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع والخلوقى وهو أشبع صفرة من الرقيقى والجلنارى وهو أشبع من الخلوقى وأشدّها شعاعا وأكثرها ماء وهو أجوده، والاسمانجونى فمنه الازرق واللازوردى والكحلى وهو أشبع من النيلى ويسمى الزيتى، وأما الابيض فمنه المهاى وهو أشد بياضا وأكثر ماء وأقواها شعاعا ومنه الذكر وهو أثقل من المهاى وأقل شعاعا وأصلب حجرا وهو أدونها وثمنه أرخص أثمان الياقوت.

ذكر خالص الياقوت ومعينه: أجود الياقوت الاحمر البهرمانى والرمانى والوردى النير المشرق واللون الشفاف الذى ينفذه البصر بسرعة السالم من العيوب.

عيوبه: الشعرة والسوس فالشعرة شبه تشقيق يرى فيه والسوس خروق توجد فى باطنه يعلوها شئ من ترابية المعدن وربما وجد فى تلك الثقبه دود حى يتحرك إذا خرجت الدودة منها إلى الهواء ماتت ورأينا من رأى ذلك من الثقات.

عيوب ألوانه: أردأ الألوان الاحمر الوردى الذى يضرب إلى البياض والسماقى الذى يضرب إلى السواد وأردأ منه الازرق الذى يضرب إلى لون الرماد ويسمى السنور وكذلك الذى يسمى الزيتى وأردأ ألوان الياقوت الاصفر ما نقص لونه وضرب إلى البياض وأردأ صفات جميعه فى الجملة قبح الشكل والذى قدمناه.

ذكر خواصه ومنافعه: قوة الياقوت على قدر معادنه المتكون فيها وعلى قدر أصبغته وألوانه فالاحمر منه حار يابس والاصفر أقربها إلى الاحمر وفيه فضل حر وكذلك الاصفر والاسمانجونى أبرد وأيبس والابيض أبرد الياقوت وأرطبها.

خواصه فى نفسه: من خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة شبيها بقطع الماس وليس يقطعه شىء غير الماس وإنما يثقب بالماس وذلك بأن تتركب منه قطعة فى طرف مثقاب حديد ثم يثقب به كما يثقب الخشب ومن خواصه أنه لا ينحك على الخشب الذى ينحك عليه كل شىء أما الياقوت فإنه لا ينحك على شىء إلا على صفيحة نحاس يكسر الجزع اليماني ويحرق حتى يصير كالنورة ثم يسحق بالماء حتى يصير كأنه الغراء ثم ينحك به على وجه الصفيحة النحاس حجر الياقوت فينجلى حتى يصير أشد الجواهر صقاله، ومن خواص الياقوت الشعاع فإنه ليس لشىء من المشفة شعاع مثله، ومن خواص الياقوت الثقل فإنه أثقل الاحجار المساوية لمقداره فى العظم ومن خواصه صبره على النار فإنه لا يتكلس كما يتكلس غيره من الاحجار المثمثة كالزمرد وغيره ومن خواصه أنه يقبل البرودة بسرعة إذا أخرج من النار بخلاف غيره من سائر الاحجار وليس من ألوانه ما يثبت على النار غير الاحمر فقط، وقد ذكر ارسطاطاليس فى كتاب الاحجار أن الياقوت الاحمر إذا نفخ عليه فى النار ازداد حسنا وحمرة وإذا كانت فيه نكتة شديدة الحمرة ونفخ عليها فى النار انبسطت فى الحجر فسقته من تلك الحمرة وحسنه وإن كان فيه نكتة سوداء نقص سوادها وهو حجر يزداد حسنا وصفاء عند النفخ عليه فى النار وإذا كان الحجر أحمر ونفخ عليه فزالت حمرة فليس بياقوت بل أحد الاشياء أو مصنوع مدلس وقد رأيت بسوق القاهرة جواهر تباع على أنها ياقوت أزرق وأصفر وهى مصنوعة مدلسة كان أصلها ياقوتا أبيض ومن خواصه أنه لا تعمل فيه المبارد والحديد ولا يلصق شىء فى جسمه من جميع ألوانه أحمره وأصفره وسماويه، ومن خواصه قطع الاحجار المشفة غير الماس والاحمر فى جميع هذه الخواص زائد على جميع ألوانه فى القوة، خواصه فى منافعه من خواصه ذكر ارسطاطاليس أنه من تقلد هذا الحجر أو تختم به من أنواع اليواقيت التى وصفنا وكان فى بلد قد وقع الطاعون فيه منعه أن يصيبه ما أصاب أهل ذلك البلد من الطاعون ونبل فى أعين الناس وسهل عليه قضاء الحوايج وتيسر له من أرباب المعاش أمور صعبة ومن خواصه تقوية قلب لابسه وتشجيعه والهية له فى قلوب الناس واجلاله ومن خواصه أن ينفع من خفقان القلب والوسواس فى التعليق له ومن خواصه أن الصاعقة لا تقع على من تختم به أو علقه عليه ومن خواصه أنه لم ير فى أصبع غريق قط ومن خواصه أنه يقطع العطش إذا وضع فى الفم وتحت اللسان ومن خواصه أنه يمنع جمود الدم إذا علق ومن خواصه أنه يقطع نزف الدم إذا علق ومن خواصه ما أخبرنى به شريف جوهرى معروف بالخبرة والذكاء فى هذا ودخل

إلى الهند ومارس كثيرا من علم الاحجار أن الهند يقولون إن من كان معه حجر ياقوت جذب قوسا قويا عن طبقته وقوته إذا لم يكن معه ذلك الحجر على شرط أن لا يفعل ذلك على سبيل الخبرة والامتحان بل يكون ذلك بغير قصد له ولا تعمد.

ومحنة أشباه الياقوت باجمعها أن يحك بالياقوت الاحمر فإنه يخرجها كلها ولا تخرجه وليس شئ منها يقوم على النار كما قدمنا فهذه علة تكون الياقوت.

وأما اختلاف ألوانه فإنه بنسبة بقاع الأرض إذا وقع عليها الماء فدام عليها فيتغير الماء بما انحل فيه من ييس الأرض وتسخين الشمس له فيحمى الماء على قدر الحرارة فينعقد أحمر وربما انعقد أصفر لقللة الحرارة فيه وربما اعتدل الحر عليه فى اللين والانحلال فانعقد أبيض صافيا وربما اشتدت يوسته فعرض فيه البرد لشدة الييس وتباعد الحر عنه فعرض فيه السواد وظهر على أعلاه لبطون الحمرة فى باطنه وربما طرحت الحمرة نورها إلى خارج مع ظهور السواد فى ظاهره فقام بينهما لون أسود اسمانجونى وذلك أن صفرة الرطوبة إذا التحمت مع سواد الييس قام من بينهما اللون الاسمانجونى، قال بليونس والياقوت حجر ذهبى وجميع الحجارة غير الاجساد الذائبة انما انعقدت وابتدأت لتكون ياقوتا فأقعدتها عن الياقوتية كثرة الرطوبة وقلتها وكثرة الييس وقلته فلم تكن ياقوتا وصارت حجارة حمرا وبيضا وخضرا وصفرا وغير ذلك من الألوان التى لا تذوب فى النار ويقع عليها الحديد فيسحلها وفيها ما لا يسحله الحديد ووضعت عليه اسماء كثيرة خلاف الياقوت.

ذكر معدنه الذى يتكون فيه: الياقوت يؤتى به من معدن يقال له سجران من خريرة خلف سرنديب بنحو من أربعين فرسخا والجزيزة تكون نحوا من ستين فرسخا فى مثلها وفيها جبل عظيم يقال له جبل الراهون تحدر منه الرياح والسيول الياقوت فيلقط وهو حجر من أرض ذلك الموضع وحصباؤه وما تجر سيوله من جبل الراهون ويقال إن الشمس إذا أشرقت على ذلك الجبل أنبتت فيه شعاعات كثيرة لوقوع شعاع الشمس على حصى الياقوت فيسمى ذلك برق الراهون وهذا الجبل هو الذى أهبط عليه آدم عليه السلام من الجنة ومنه خرج إلى الأرض فإذا أصيب ذلك الحصا أصيب وظاهره مظلم يميل أكثره إلى السواد والغبرة كالحصى الموجود فى هذه الألوان عندنا فإذا استشف فى الشمس أشف لونه أحمر كان أو أصفر أو سماويا أو غير ذلك من ألوان الياقوت، قال التبفاشى أخبرنى من دخل جزيرة سرنديب من التجار أن أهل ذلك الموضع إذا لم تحدر السيول والرياح لهم من

حصباء الياقوت فى بعض السنين ما جرت به العادة احتالوا لتحصيله بالحيلة التى تذكرها وذلك أن الجبل الذى فيه الياقوت جبل شاهق صعب المسلك لا يمكن الوصول إلى أعلاه وفى أعلاه نسور كثيرة تعيش فيه وتتخذ مساكنها به لخلوته فيعمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان فيذبحونه ويسلخون جلده ثم يقطعونه قطعاً كباراً ويتركونه فى سفح الجبل المذكور ويبعدون عنه وهم يرقبونه فتأتى النسور فترفع ذلك اللحم وتنزل به عند أوكارها فإذا وضعت على الأرض علق به من حصى الياقوت ولصق فيه ثم تأتى نسور أخرى فتجتمع على اللحم لتخطفه فيأخذها بعضها وتطير من الجبل فيسقط منه الياقوت لثقله فيلقطه الذين يرقبونه من الموضع الذى يسقط فيه ويذكر أن فى سفلى هذا الجبل غياضاً عظيمة وخنادق عميقة وأشجاراً شاهقة ويسكن بها حيات عظام تبتلع الحية منها الإنسان ورأس البقر وغيره صحيحاً فإذا ابتلعت عمدة إلى أصل شجرة فالتوت عليها واشتدت فيتكسر فى بطنها ما تبلعه وتندق عظامه فيهضم بها ولاجل ذلك أيضاً لا يستطيع سلوك هذا الجبل ولا الوصول إليه وإلى ما فيه من عجائب الاحجار.

ذكر أصنافه: أصول الياقوت أربعة أصناف أحمر وأصفر واسمانجونى وأبيض فالأحمر منه ينقسم إلى أربعة أقسام الوردى وهو يتفاضل فى شدة الصبغ إلى الوردية لا يجاوز ذلك ويقل صبغه إلى أن يقرب من البياض ثم الجمدى وهو مشوب بقرقرية كلون ورد الخبرى وأظهر قرقرية وهو يتفاضل فى قوة الصبغ وضعفه إلى أن يقرب من البياض ثم الأحمر وهو بلون العصفر الشديد الحمرة الناصعها فى القوة إلى القرب من الوردية فى الضعف ثم البهرمانى وهو أحمر نقى الحمرة لا يشوبها شائبة وهو يتفاضل فى قوة الصبغ وضعفه حتى ينتهى إلى لون العصفر الشديد الحمرة الناصعها فى القوة وإلى قريب من لون الورد فى الضعف وأثنى الياقوت الذى فى لون الحمرة البهرمانى وأثنى كل واحد من بقية أصنافه أشدها مستشفاً وأشدها شعاعاً وأسلمها من العيوب التى تذكر فيما بعد.

وأما الزمرد: قال بليونس إن الزمرد هو الياقوت لأنه إنما ابتدأ لينعقد ياقوتا فى جميع أجزائه وكان لونه أحمر فلشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرض له السواد فصار اسمانجونياً ولثقل اليبس وغلظة بطن الاسمانجونى وارتفع ما صفى على الحمرة على أعلاه فاصفر ولما كان باطنه اسمانجونياً واشتدت عليه الحرارة بطبخها فمزجت اللونين جميعاً لون ظاهره بلون باطنه فتولدت الخضرة بينهما فصار لونه أخضر فسمى زمرداً وإنما كان أصله ياقوتا لأن الياقوت هو حجر ذمى وهو أصل الحجارة كما أن الذهب رأس الاجساد المذابة.

ذكر معدنه الذى يتكون فيه: موضع الزمرد الذى يؤتى به منه، فى التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف اسوان يوجد فى جبل هناك كالجسر فيه معادن تحتفر فيخرج منها الزمرد قطعاً صغاراً كالحصى منبتة فى تراب المعدن وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع وهو جيد، وأما صغيره فإنه يصاب فى التراب بالنخل وذلك أنهم ينخلون التراب ثم يوجد خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة فيوجد فيه الحجر بعد الحجر ويوجد بعضه عليه اتربة كالكلحل الشديد السواد وهو أشد خضرة وأكثر ما وجد من الزمرد فى التراب فهو الفص وما قطع منه من العروق فهو القضيبي فى اصطلاح الجوهرين وهو أعتقه وأخلصه. ذكر جيد وربيته: أصنافه أربعة الذبابى والريحانى والسلقى والصابونى فأغلاه وأفضله فى سائر الخواص الموجودة فى الزمرد هو الذبابى وهو أخضر مغلوق اللون جدا لا يشوبه فى خضرته شئ آخر من الألوان حسن الصبغ جيد المائبة وإنما سمي ذبابيا لشبه لونه بالخضرة التى تكون فى الكبار من الذباب الربعى لا فى صغاره الموجودة فى البيوت وهو أحسن ما يكون من الخضرة بصيصاً وذلك اللون غير موجود فى ذباب البيوت وأما بقية الاصناف المذكورة من الزمرد غير الذبابى فإنها نازلة مقصرة عن جميع الخواص الموجودة فى الذبابى ولهذا ألغيتها.

عيوب الزمرد: من أكبر عيوب الزمرد الذبابى اختلاف الصبغ حتى لا يكون موضع منه بلون مخالف للون موضع آخر ومن عيوبه عدم الاستواء فى الشكل وهذا عام له وللياقت ولكل حجر مستشف ثمين أو غير ثمين ومن عيوبه التشعير وهو من لوازمه لا يكاد يخلو منه وهو شبه شقوق خفية تظهر فيه.

خواص الزمرد: الذبابى فى نفسه خواصه الكبرى فى نفسه وهى التى انفرد بها عن سائر الأحجار وبها يمتحن الخالص منه من غيره أن الافاعى إذا نظرت إليه وقع بصرها عليه انفقات عيونها على المكان قال أحمد التيفاشى وقد كنت أقف على هذه الخاصة فى الزمرد فى كتب الحكماء ثم جربت بها بنفسى فوجدتها صحيحة وذلك أنه كان وقع لى فص زمرد ذبابى خالص أردت امتحانه على عيون الافاعى فاستأجرت حاويا على صيد أفعى وجعلتها فى طست وأخذت قطعة شمع فالصقتها فى رأس سهم ثم ألصقت فيها الفص وقربته من عين الافعى فكانت تشب أولاً نحو السهم وكانت لها حركة قوية تروم بها الخروج من الطست فلما قربت الزمرد من عينها سمعت قرعة خفية كمن يقتل صبابة على ظفره ثم رأيت عيني الافعى وقد برزتا على وجهها بروزاً ظاهراً وبقيت حائرة فى الطست تدور فيه

لتقصده مخرجا ولا تدرى حيث تتوجه وسكنت أكثر حركتها وانقطع وثوبها بالجملة، ومن خواصه الرخاوة وتخلل الاجزاء ومن خواصه خفة الوزن ومن خواصه شدة الملاسة والصقال والنعومة ومن خواصه زيادة الخضرة والماء إذا ركب على البطانة وأخص صفاته به الخفة.

خواصه فى منافعه من خواصه أنه من نظر إليه أذهب عن بصره الكلال ومن خواصه أنه من تقلد بخاتم منه دفع عنه داء الصرع إذا كان لبسه له قبل حدوث الداء ومن أجل هذا كانت الحكماء تأمر الملوك بعلقه على أولادهم عند ولادتهم ليدفع عنهم داء الصرع ومن خواصه أنه من سحل منه وزن ثمان شعيرات وسقاه شارب السم قبل أن يعمل السم فيه خلص نفسه من الموت ولم يتمعط شعره ولم ينسلخ جلده وكان شفاءه ومن خواصه أنه ينفع من نفث الدم واسهاله إذا علق على من به ذلك ومن خواصه النفع من وجع المعدة إذا علق عليها من خارج ومن خواصه أنه ينافى الحيات المسمومة ولا تقرب حامله ومن خواصه أن شرب حكاكته تنفع من الجذام ومن خواصه أن جميع أصنافه كلها تصلح أن تعلق على العضد وعلى الرقبة للتعويذ وعلى الفخذ لسرعة الولادة مجرب.

ومن معانيه الشعرية قول القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر:

ذباب السيف من لحظ إليه لاخضر صدغه بعد انتساب

فلا عجب إذا ما قيل هذا له صدغ زمردنه ذبابى

البلخش: معدنه الذى يتكون فيه، يؤتى به من بلخشان والعجم تقول بذخشان بذال معجمة وهى من مدن التتر فيما يتاخم الصين وأخبرنى من وصل إلى معدنه من التجار أنه وجد فى المعدن حجرا فى باطنه ما لم يكمل طبعه وانعقاده بعد والحجر مجتمع عليه.

جيده ورديته: هو ثلاثة أنواع أحمر معقرب وأخضر زبرجدى وأصفر وأجوده الاحمر وليس لجميعه شىء من الخواص التى للياقوت ومنافعه وإنما فضيلته شبهه والمائية والشعاع الاحمر لم يذكر فيه شىء من الخواص البتة.

الماس: قال بليئوس الماس حجر ذهبى وهو أشبه الاحجار بالاجساد المذابة لأنه ليس من الاحجار شىء يسحقه كما تسحق الاحجار بعضها بعضا فلذلك شبهته بالاجساد ولم يفسده شىء من الاحجار غير الابار فلذلك قلت إنه حجر ذهبى وأقول إن الماس إنما كان فى معدنه وابتداء خلقته ليكون ذهباً وذلك أن الماء فى معدنه فلما سخنته الحرارة يبس الماء من الحر الذى سخنته جدا فصار حجرا فلما كثرت عليه الحرارة وعرض فى الماء

غلظ فصارت فيه لزوجة لغلظه وصار أشبه شىء بالزيت وتولد فيها رطوبة المعدن وببسه بلطافة الطباع وملح وشفه الماء والريح فغلظ واشتدت عليه الحرارة فقوى الملح على نسف الحر واليبس واشتدت يوسسته فظهرت على وجه الماء اللزج الذى هو يشبه الزيت فانعقد حجرا بافراط اليبس عليه وإنما انعقد ليكون ذهباً فأقعدته عن الذهبية انعقاده باليبس والملوحة فلو انعقد باللين ولم يفرض عليه اليبس وبالحلاوة مكان الملوحة لكان ذهباً فلما انعقد وكان فيه ملوحة وشدة ييبس نقص عن كيان الذهب فصار حجراً صلباً يأكل الأحجار كلها بملوحة طبيعته وشدة ييبسه وإنما صار يتكسر للملوحة فبقيت الملوحة واليبس فى جسده وإنما صار لا يفسده شىء غير الأبار لأنه ذهبى كما أن الأبار يفسد الذهب ويسحقه وإنما يسحق الأبار الماس لكثرة ييبسه وذلك لاجتماع الكبريت الذى فى الأبار مع ملوحة الماس لأن الملح الذى فى الماس إذا أحس برائحة الكبريت تفتت وانسحق وإنما صار لون الماس أبيض لانعقاده بالرطوبة ودفع رطوبة الموضع عنه وهيج النار فصار لذلك أبيض فهذه علة تكون الماس.

معدنه الذى يتكون فيه، يوجد فى معدن الياقوت ويتكون فيه ويخرج منه كما يخرج الياقوت فهو حصاء معدن الياقوت إذا أخرجته الرياح والسيول من معدنه حسبما بيناه فيما سلف.

جيده ورديته: الماس نوعان الزيتى والبلورى والزيتى أجودهما والبلورى أبيض شديد البياض كالبلورى والزيتى يخالط بياضه صفرة كلون الزجاج الفرعونى.

خواصه فى ذاته: من خواصه أن جميعه ذو زوايا قائمة ست زوايا وثمان زوايا وأكثر من ذلك وأقل، يحيط بزواياه سطوح قائمة مثلثة الشكل إذا كسر فلا ينكسر إلا مثلثاً ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه وهو فى نفسه عسر الانكسار وإن وضع على سندان حديد ودق بمطرقة لم ينكسر ودخل فى وجه السندان ووجه المطرقة وكسرهما وإنما يكسر بأن يصير فى شىء من الشمع ثم يدخل فى أنبوب قصب وينقر بمطرقة غيرها برفق ومدارة بحيث لا يباشر جسمه الحديد حتى ينكسر أو يصير فى أسربة ويفعل به ذلك.

ومن خواصه أن الإنسان إذا ابتلع منه قطعة ولو كانت أصغر ما يكون حرقاً امعاءه فقتلته على الفور ومن خواصه ما ذكره أرسطاطاليس من أن بينه وبين الذهب محبة ينشأ به حيث كان حتى يخالط منه الحبة الخفيفة يعرف ذلك صبأغ الذهب فإنهم إذا بردوه وقعت تلك الحبة تحت مباردهم فأكلت المبادر وأفسدتها ومن خواصه أنه يثقب الدر والياقوت

والزمرد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الاحجار كما يثقب الخشب وذلك بأن تركيب فى رأس مثقاب حديد منه قطعة بقدر ما يراد من سعة الثقب وضيقه ثم يثقب به فيثقب بسرعة وأما طبعه فإنه بارد يابس فى الدرجة الرابعة.

خواصه فى منافعه منها ما ذكره ارسطاطاليس أنه من كانت به الحصاة الحادثة فى المشانة من مجرى البول ثم أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها فى مروود نحاس أو فضة بمصطكا الصاقا محكما ثم أدخل ذلك المروود إلى الحصاة فتتها قال أحمد بن أبى خالد المعروف بابن الجزار فى كتابه فى الاحجار وبهذا الفعل عالجت أنا وصيفا الخادم من حصاة عظيمة كانت به وامتنع من الفتح عليها بالحديد فلما فعلنا به هذا الفعل انسلخت الحصاة حتى صغرت وسهل عليه خروج ما بقى منها فى البول ومن خواصه أنه ينفع من المغص الشديد ومن فساد المعدة إذا علق على البطن من خارج.

عين الهر: معدنه الذى يتكون فيه هذا الحجر يوجد فى معدن الياقوت مع الماس فهو حصباء معدن الياقوت كما ذكرناه عن الماس فيما سلف.

جيده ورديته: هذا الحجر غريب الشكل وذلك أن الغالب على لونه البياض باشراف عظيم ومائية رقيقة شفاقة إلا أنه يرى فى باطنه نكتة على قدر عين الهر أعنى الناظر الحامل للنور المتحرك فى فص مقلته وعلى ذلك اللون سواء وتلك النكتة مع ذلك متحركة على الدوام إذا حرك الفص تحركت بخلاف جهة حركته بحيث إن أميل إلى جهة اليسار مالت النكتة متحركة إلى جهة اليمين وذلك فى الاعلى والاسفل فهى كناظر الهر حقيقة ولذلك سمى به فإن كسر أو قطع على أقل الاجزاء ظهرت تلك النكتة فى كل جزء من أجزائه وأجوده ما اشتد بياض أبيضه وشفيفه واشتدت كثرة مائية تلك النكتة التى فيه وسرعة حركتها واشراقها وحسن الشكل وكبر الجرم زائد أن فى جودته كسائر الاحجار.

خواصه ومنافعه: هو أنه يحفظ حامله من عين السوء والانفس الخبيثة ومما أنقله فيه عن ثقات الجوهريين ممن دخل الهند ومارس هذا الفن ومهر فيه أنه يجمع خواص الياقوت البهرمانى فى منافعه ويزيد عليه بمنفعتين احدهما أنه لا ينقص مال محتمله ولا تعتريه فيه الآفات والنكبات والأخرى أنه إذا كان فى يد رجل أو معه وحضر مصاف حرب ثم هزم حربه فالتقى نفسه بين القتلى يراه كل من يمر عليه من أعدائه كأنه مقتول متشحط فى دمه فتتفر عنه النفوس حتى لا يقربه بشر منهم وأخبرنى بعض من دخل الهند من الجوهريين أنه رأى هذا الجوهر يعبد فى المغرب كما تعبد الاصنام قال وثمنه عندهم أغلا من ثمنه ببلاد

العرب وهم به أغبط وهو عندهم أعز وذكر أنه وقف على حجر بيع فى المعبر بمائة وخمسين دينارا ولعله يساوى فى الهند عشر هذا الثمن وذلك لعلمهم بخواصه ووقوفهم عليها بالتجربة.

البازهر: الموجود من هذا الحجر الآن بأيدي الناس نوعان أحدهما حيوانى والآخر معدنى فأما المعدنى منهما فيقال إنه ينفع من لدغة العقرب فقط وهو مقصر عن جميع ما يذكر فى الكتب عن البازهر الحيوانى ويذكر أنه يجلب من الصين وهو حجر خفيف هش أصفر وأغبر منقط نقطة خفيفة توجد طبقات رقاق فى أصل تكونه طبقة فوق طبقة لا توجد إلا كذلك وينحك سريعا إذا حك ومحكه يميل للبياض وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل يؤتى به من بلد فارس من تخوم الصين والحيوان الذى يوجد فيه هو الايل الذى يكون بتلك الجهات ويذكر أن الايل الذى يوجد فيه البازهر يشتهى أكل الحيات لا سيما من صغر من أولادها وهو معظم غذائه يبحث عنها ويستخرجها من حيث كانت فياكلها وقد اختلف الناس فى أى موضع من الحيوان يتكون البازهر على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه يتكون فى عينيه قالوا وذلك أنه إذا أكثر من أكله لفراخ الحيات اعترته حكة فى سائر جسده من سمها فيعمد إلى بركة ماء فيغوص فيها رافعا رأسه عن الماء إلى أن يغيب كله فى الماء حتى لا يظهر منه إلا حدقته فيرتفع حيثئذ من سائر جسده بخار رطب إلى عينيه ثم يخرج من مآقيه اللذين يليان أنفه يمئة ويسرة ويستحيل ماء فإذا ضرب به الهواء جمد وجسده حجرا وبقي معلقا بشعر ناحيتى أنفه ثم يعرض له مثل ذلك العارض فيفعل مثل هذا الفعل فيخرج بخار آخر ويستحيل ماء ويسيل من ذلك الموضع بعينه على الحجر المتكون قبل فيجمد إذا باشره الهواء فوق الحجر الأول كما جمد الذى قبله ولا يزال كذلك حتى يشغل الحجر فيسقط من ذاته أو يحكه الحيوان إذا ثقل عليه إلى حجر أو أصل شجرة فيسقط فتتبع مظانه حتى يوجد فيؤخذ منها وأخبرنى من لا أشك فى صدقه وثقة نقله أن بتخوم الشام فيما بينها وبين بلد الروم بموضع يسمى مرعش وما يتصل به ايل يأكل فراخ الحيات ويعرض له من أكلها ما ذكرناه ويفعل الوصف الذى وصفناه وأن البازهر يتكون فى عيونه على حسب ما ذكرناه.

القول الثانى: أن هذا الحجر يتكون فى قلب هذا الحيوان وأنه يصاد لاجله ويذبح ويستخرج الحجر من قلبه وهذا القول رأيته لبعض أطباء مصر حسبما نوره عنه فيما بعد وهو غير صحيح.

القول الثالث: أن هذا الحجر يتكون فى مرارة هذا الحيوان كما يتكون كثير من الاحجار فى كثير من الحيوان ويذبح فيخرج البازهر من مرارته ومن يقول ذلك يستدل على صحة قوله بأن هذا الحجر إذا ذبق ظاهره باللسان وجد طعم المرارة عليه ظاهرا وأكثر حذاق الجوهرين وأرباب الخبرة منهم على هذا القول وهذا عندى هو الصحيح وأخبرنى بعضهم أنه شاهد حجرا منه انكسر فوجد فيه حشيشة اشتمل عليها الحجر فى أصل تكونه. جيده ورديته: الخالص الجيد الموجود منه فى هذا التاريخ هذا الحيوانى المذكور قبل وهو الاصغر الخفيف الهش المنقط ذو الطبقات الابيض المحك المر المذاق.

خواصه فى نفسه: منها أنه إذا مر على حمة العقرب أبطل لسعها وإن لسعت لم يؤذ سمها ومنها أنه إن حك على أفواه الافاعى والحيات خنقها وماتت وهذا الذى قبله مما يختبر به البازهر الحيوانى الخالص من المغشوش ومنها أنه إذا جعل مع أجسام خشنة مباشرة لجسمه محتكة معه غيرت صورته وخشنته وغيرت لونه وجميع صفاته حتى لا يكاد يعرف وقد كان عندى حجر بازهر حيوانى خالص فجعلته فى كيس فيه دنانير ذهباً ثم سافرت من موضع إلى موضع آخر فلما استقرت فتحت الكيس واستخرجت الحجر البازهر فلم أعرفه حتى ظننت أنه قد بدل على لتغير جميع صفاته ثم وزنته فوجدته أقل مما كان فزاد تشككى ولم يكن معى من أتهمه فعجبت من ذلك وبقيت متحيرة فى أمره ثم جعلته فى حق صغير بعد أن لففته بابرسم وغفلت عنه مدة ثم أخرجته فوجدته الحجر الذى كنت أعرفه أولا قد زالت عنه الهيئة الرديئة التى اكتسبها من احتكاكه بخشونة الذهب إلا أن وزنه نقص بما انحك منه فى الكيس ولما كان بعد ذلك جرى ذكر البازهر بينى وبين حذاق الجوهرين فعرفنى أن من خاصيته أن احتكاكه بالاجسام الخشنة يغيره فعرفته بما شاهده فى ذلك بالتجربة تصديقا لقوله.

خواصه فى منافعه أخص منافعه النفع من السم أى سم كان قاتله أو غير قاتله من سموم الحيوان والنبات من السموم الحارة والباردة ومن عض الهوام واللدغ والنهش إذا شرب منه من ثلاث شعيرات إلى اثنى عشرة شعيرة مسحوة أو مسحولة بالمبرد أو محكوكة على المسن بزيت الزيتون أو الماء فإنه يخرج السم بالعرق من جسد المسموم ويخلص نفسه من الموت ويفعل ذلك بجملة جوهره والخاصية المودعة فيه أنه هو حجر شريف نفيس ليس له فى جميع الاحجار ما يقوم مقامه فى دفع السموم ومن خواصه أنه إذا سحق ونثر على موضع النهش وغيره جذب السم إلى خارجه وابطل فعله.

ومن خواصه ما ذكره ابن جميع فى كتابه الملقب بالارشاد إلى مصالح الانفس والاجساد قال والحيوانى من البازهر وهو الموجود فى قلوب الايائل افضل فى جميع الاوصاف المذكورة فى البازهر حتى أنه إذا حك بالماء على مسن وسقى منه كل يوم وزن نصف دانق للصحيح على طريق الاستسداد والتقدم بالحوطة قادم السموم القادمة وحسم من مضارها ولم يخش غائلة ولا اشارة خلط حام كما يخشى من المشرود يطوش ولا يضر المحرورين ولا النحيفين لأنه إنما يفعل ذلك بخاصية جوهره ومن خواصه أنه من تختم منه بوزن اثنتى عشرة شعيرة فى فص خاتم ثم وضع ذلك الفص على موضع اللدغ من العقارب والهوام الطيارات وغير الطيارات ذوات السموم وأجناس الزنابير والدراريح نفع منها نفعا بينا ومن خواصه أنه إذا سحق ثم نثر على موضع اللدغ من الهوام الارضية حين تلدغ اجتذب السم وأرشفه وإن غفر الموضع قبل أن يبادر إليه بالدواء ثم نثر عليه من هذا الحجر مسحوقا أبراه ومن خواصه ما ذكره بعض الحكماء من الأوائل أنه إذا صنع خاتم من ذهب ويكون فصه بازهر ونقش عليه صورة العقرب حين يكون القمر فى العقرب ويكون العقرب وتدا من أوتاد الطالع ثم طبع بهذا الخاتم طوابع من كندر ممضوغ معمول منه قرص والقمر فى العقرب أيضا ويرفع فمن لدغته العقرب وشرب قرصا من هذه الاقراص المختومة بهذا الفص البازهر لم تضره اللسعة وبرأ منها وقد جرب هذا فوجد صحيحا وختم به على غير الكندر لئلا تكون الخاصية للكندر ففعل كما يفعل إذا ختم به على الكندر. انتهى.

الفيروزج: حجر نحاس يتكون من أبخرة النحاس الصاعدة من معدنه على ما نذكره بعد فى تكون غيره من الاحجار النحاسية.

معدنه الذى يتكون فيه الفيروزج يجلب من معدن جبل النيسابور ومنه يحمل إلى سائر البلاد ومنه نوع يوجد فى نشاور إلا أن النيسابورى خير منه.

جيده ورديته: الفيروزج نوعان سبحاني وقبحاني والخالص منه العتيق وهو السبحاني والاجود منه الازرق الصافى اللون المشرق الصفا الشديد اللمعان المستوى الصبغ وأكثر ما يكون فصوصا وذكر الكندى أنه رأى حجرا زنته أوقية ونصف، خواصه فى نفسه منها أنه حجر يصفو لونه فى صفاء الجو ويكدر مع كدورته وذكر ارسطاطاليس أن كل حجر يستحيل عن لونه فهو ردىء للابسه ومنها أنه إذا أصابه شىء من الدهن أفسد حسنه وغير

لونه وكذلك العرق يفسده ويطفئ لونه بالكلية وكذلك المسك إذا باشره أبطل لونه وأذهب حسنه.

خواصه ومنافعه: منها أنه يجلو البصر بالنظر إليه ومنها أنه ينفع العيون إذا سحق في الاحمال ومنها أنه إذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب وطبيعته البرد واليبوسة. العقيق: حار يابس وفيه ثلاث خصال من الخواص:

الأولى: أنه من تقلد بالاحمر منه الشديد الحمرة سكنت روعته عند الخصام. الثانية: أنه من تسختم بالنوع الثاني منه وهو الذي لونه لون ماء اللحم إذا ألقى فيه الملح وفيه خطوط بيض قطع عن حامله نزع الدم من أى موضع كان من الجسد ولا سيما النساء اللواتي يدوم طمثهن.

الثالثة: أنه إذا استيك به من أى أنواعه اتفق أذهب عن الاسنان صدها ويبضها وذهب الحفر ومنع الاسنان أن يخرج من أصولها الدم. ظرائف تليق بهذا المكان:

قال بعض الفضلاء ممن يعتمد على قوله من تمذهب للشافعي وقرأ لأبي عمر ولبس البياض وتسختم بالعقيق وحفظ قصيدة ابن رزيق البغدادي فقد استكمل الظرف ومما سمع عنه قيل إن خاتمه ما وجد في أصبع قتيل. وقيل:

وما أحسن استخدام فيه
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

لا تسئل عن حديث دمعي لما
لونته وأمطرته دموعي
وقال صدر الدين بن عبد الحق:

اذكرها الغضا ولذيذ عيش
فقلت ما الغضا فأجبت قلبي
وأشدني الشيخ تقي الدين بن حجة من قصيدة نبوية أولها:

شدت بكم العشاق لما ترنموا
وضاع شذاكم بين سابع وحاجر
وجزتم بوادي الجزع فاخضر والتوى
فغنوا وقد طاب المقام وزمزم
فكان دليل الظاعنين إليكم
على خده بالنبت صدغ متمم

ولما روى أخبار نشر ثغوركم
وأراك الحمى جاء الهوى يتنسم
ومنها فى المديح الشريف:

فيا ساكنى واد العقيق بأحمد
خواتم خير قد أنت فتختموا
وهذه القصيدة كلها غرر فصح الله فى وجود قائلها وأنالنا شفاعه ممدوحها عليه السلام
وكيف لا تكون غرة وهو القائل فيها:

نبى غدا فى جبهة الدهر غرة
وروضة حسن فى ربيع لنا بدت
له النسب الاعلا فيا مادمح الورى
ويا من غدا فى حب زينب هائما
بحب ابن عبد الله أولى فإنه
به يبدأ الذكر الجميل ويختتم

تأمل ما أحسن هذا التضمين:

اليشم واليشب: حجران فضيان وكيانهما قريب بعضه من بعض ويتكونان من أبخرة
مقصرة عن كيان الفضة على ما تقدم القول فيما سلف، معدنه الذى يتكون فيه كاشغر ومنه
يجلب إلى البلاد وكاشغر بين الصين وغزنة مسيرة نيف وعشرين يوما من غزنة إلى جهة
الشمال لسانهم تركى.

جيده ورديته: اليشم نوعان أحدهما أبيض والآخر أصفر كلون العاج العتيق ويقال إن
هذا هو الخالص.

خواصه ومنافعه من خواصه فى نفسه إذا لقت عليه شعرة من شعر الانسان ثم وضع
فى النار لم يحترق الشعر وكثير من المحرفين فى بلاد العجم يحملونه ويفعلون به ذلك
ويدعون أنه من شعر النبى عليه السلام فيوهمون العوام بذلك وبهذه الخاصية يختبر الخالص من
هذا الحجر ممن سواه ومن خواصه ومنافعه أن الصاعقة لا تقع عليه وعلى من حمله البتة
وقد أخبرنى ثقات من العجم أنهم شاهدوا ذلك ببلاد العجم حيث تقع الصواعق كثيرا فبنوا
فى القلعة منارة وعلوا فيها هذا الحجر فترى الصواعق نازلة من السماء تحيد عن موضع
الحجر إلى سائر الجهات البعيدة عنه ويقال إن من تختم به قطع عنه كثرة الاحتلام ومن
خواصه ما ذكره جالينوس فى الادوية المفردة أنه ينفع من وجع المعدة بالتعليق عليها من
خارج.

البلور: معدنه الذى يتكون فيه ما يوجد بترية العرب بالحجاز الشريف على ساكنه
أفضل الصلاة والسلام وهو أجوده ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دون العربى ومنه ما يكون

ببلاد أفرنجة وهو جيد أيضا ومنه معادن بناحية أرمينية يميل إلى الصفرة الزجاجية كأنه مطبوخ بالنار وقد ظهر منه بهذا التاريخ معدن بالمغرب الأقصى بمقربة من مراكش حاضرة الغرب نقى اللون إلا أن فيه تشعيرا وهو كثير عندهم حتى فرش منه ملك المغرب مجلسا كبيرا أرضا وحيطانا.

جيده ورديته: أجوده أنقاه وأصفاه وأشفه وأبيضه وأسلمه من التشعير فإن كان مع ذلك كبير الجرمانية كان أو غير آتية كان الغاية فى نوعه قال التيفاشى أخبرت أن تاجرا من تجار الافرنجة أهدى إلى ملك من ملوك المغرب قبة من البلور قطعتين يجلس فيها أربع نفر ورأيت منه صورة ديك مخروطا إذا صب فيه الشراب ظهر لونه فى أظفار الديك ورءوس أجنحته صنعة بلاد الافرنجة ويصنع منه كل عجيب من الاوانى وقال الكندى إن فى البلور قطعاً يخرج فى القطعة منها من المعدن أكثر من مائة من قال التيفاشى وأخبرنى غير واحد من أهل غزنة بنقل متفق على صحته أن بالقرب منها بينها وبين كاشغر بمسيرة ثلاثة عشر يوما واديا بين جبلى ذلك الوادى طريق موصل إلى كاشغر والجبلان اللذان على الوادى من جهته بلور خالص يقطع فى الليل لأن أشعته إذا طلعت عليه الشمس تمنع العمل فيه بالنهار ويصنع منه خواب للماء فى كاشغر وغزنة وأخبرنى من كان متصلاً بشهاب الدين الغورى ملك غزنة أنه رأى فى قصره أربعة خوابى للماء كل خابية تحمل ثلاث روايا ماء من روايا الجمال جميعها على محمل يصعد منها إليها من بلور كل واحد من محمل ثلاث قناطير إلى أربعة.

خواصه فى نفسه: أنه يذوب كما يذوب الزجاج ويقبل الصيغ ومنها أنه يستقبل به الشمس ثم ينظر إلى موضع الشعاع الذى قد خرج من الحجر فيستقبل به خرقة سوداء فتحترق وتوجد فيها النار.

خاصيته فى منفعة من علق عليه لم ير منام سوء تم ذلك.

ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى تاريخه الذى سماه مسالك الابصار أن شخصا من بعض التجار فى أصناف الجواهر يجهز كل سنة مماليكه وجماعة إلى المغاص ليغوصوا على اللؤلؤ فى الوقت المعتاد وهو فى شهرين فى السنة فاتفق أنه أنفذ جميع ما يملكه فى ذلك ولم يحصل على طائل ولم يطلع له شىء وافترق ولم يبق له ما يجهز به إلى المغاص فطلب من امرأته معضدة كانت فى عضدها ذهبا فقالت له يا هذا تعمل لك بهذه المعضدة حرفة غير ما أنت فيه من اللؤلؤ فقال ما أرجع عن صنفى ومتجرى

وتجهز هو بنفسه فى جماعة إلى المغاص فغاصوا له فى الوقت المعتاد إلى اليوم التاسع والخمسين ولم يطلع له شىء إلى آخر النهار طلعت درة ما لها قيمة فأحضروها إليه وقالوا له هذه غصنى على اسم ابليس وقد رد الله عليك جميع ما أنفقته فاستدعى بحجرين ووضعها بينهما إلى أن عدهما وكسرها ثم رمى بها فى البحر فلامه الحاضرون رفقاؤه التجار على ما فعل وقالوا: قطعة مثل هذه تقع لك وما عندك مثلها تعدهما فقال: هذه القطعة ما أنتفع بها ولا أجد لها بركة ويجيء كل من يأتى بعدى يقتدى بفعلى ويغوصون له على اسم ابليس ويبقى على أثم ذلك إلى يوم القيامة اذهبوا وغوصوا على اسم الله عز وجل فأصبحوا تمام الستين يوما غاصوا له على اسم الله فطلعت لهم الدرة اليتيمة فوجه بها إلى الخليفة ببغداد وهو ذاك المقتدر فابتاعها عليه بثلاثمائة ألف درهم وحسن حاله ببركة اسم الله عز وجل. انتهى ذلك والله أعلم.

obeikandi.com

الباب الرابعون فى خزائن السلاح والكنائن

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن معدى كرب عن السلاح فقال ما تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك فانقصف، قال فما تقول فى الترس قال هو المجن وعليه تدور الدوائر، قال فالنبل قال منايا تخطئ وتصيب، قال فما تقول فى الدرع قال مفشلة للرجال مشغلة للفارس وإنها لحصن حصين، قال فما تقول فى السيف قال هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلاه عمر بالدرة وقال له تقول لا أم لك قال الحمى أصرعتنى.
القاضى الفاضل من قصيدة:

تمد إلى الأعداء منا معاصما فترجع من ماء الكلى بأساور
وله:

ولرب هاتفة دعتهم للوغى جعلوا صليل المرهفات صداها
هى فى بحار يديه أمواج ترى نفوس من قتلته من غرقاها
العنوى:

كأن على افرنده موج لجة تعاصر فى حافاته وتجول
كأن عيون الذر كسرن حوله عيون جراد بينهن دخول
حسام غداة الروح حتى كأنه من الله فى قبض النفوس رسول
أبو العلاء المعرى:

ودبت فوقه حمر المنايا ولكن بعدما مسخت نمالا
غراره لسانا مشرفى يقول غرائب الموت ارتجالا
يذيب الرعب منه كل غضب فلولا الغمد يمسكه لسالا
النامى:

ذى مدمع من غير ما مستعبر وتبسم من ثغره متوالى
ويريك فى لآلئه متواقدا حنق المنون به على الأجسال

وقال أعلم الرؤساء ابن الصيرفى أبو القاسم على بن منجب من نشره على طريق اللغز
يبالغ فى شكره إذا أفسد وبرح ويقبل فى تزكية شهادة المجرح.
ابن قلاقس:

أسرتهم وشهرتها فجموعهم
وكلاهما جفن منعت غراره
ابن سناء الملك:

له منصل لا ينقضى فرض حجه
تنسك الاسلام لما رأيتـه
فكم سل لما سل من بطن غمده
وقال وجيه الدين بن الدروى:

فتقت بأجساد الاسود لواحظا
وأنظفت أفواها على فم العدى
بحيث الوغى روض تغنى ذبابه
وقد نشقت ورد الكلوم صعاده
ولـه:

سكران من شربه خمر الدما فان
ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الاندلسى:

وخليج هند راق حسن صفائه
غرقت بصفحته النمال وأوشكت
فالصرح منه ممرد والصفح منـه
وقال مجير الدين بن تميم:

لما اقتنيت من الصوارم أعوجا
جبت القفار وما حملت اداوة
ابن نباتة:

وصارم كعباب الموج ملتطم
لما غذا جدولا تسقى المنون به
الشرىف البياضى:

وإنا إذا الأرواح ذابت مخافة
فتحنا باشطان الرماح ركايها

منى ما أردنا أن يذاق حديدنا خلعنا بحد المشرفية أفواها
ومن كلام تقي الدين بن حجة فى معنى سكون الحرب:
واعقل الرمح بسجن السلم بعد أن كان على رأسه لواء الحرب معقود وهجعت مقل
السيوف فى أجفانها لما علمت أن الزيادة فى الحد نقص فى المحدود.
وللشيخ برهان الدين القيراطى:

قوم مناديلهم بيض فكم مسحت رقاب أعدائهم تلك المناديل
الغزى وأجاد:

وقد سلب الطعن الأسنة لونها فعصفر فى اللبات ما كان أزرقا
وأسيافتنا فى السابغات كأنها جداول تجرى بين زهر تفتقا
ابن خفاجة:

موسد تحت ظل السيف تحسبه مستلقيا فوق شاطئ جدول ثملا
الرمح: ذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه كان فى خزانة
السلاح أيام السفاح خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف وثلاثون ألف جوشن ومائة ألف
رمح، ومنه قال الفضل بن الربيع لما ولى محمد الامير الخلافة فى سنة ثلاث وتسعين ومائة
أمرنى أن أحصى ما فى الخزائن من الكسوة والفرش والآنية والآلة ذكرت الفرش والكسوة
فى بابها من هذا الكتاب وأما الآلة فعشرة آلاف سيف محلاة بالذهب وخمسون ألف
للساكرية والغلمان ومائة وخمسون ألف رمح ومائة ألف قوس وألف درع خاصة محلاة
وألف درع عامة وعشرون ألف بيضة وعشرون ألف جوشن ومائة وخمسون ألف ترس
وأربعة آلاف سرج محلاة خاصة وثلاثون ألف سرج عامة.
القاضى الفاضل:

يقتل حيات الحقود من العدا بحيات سمر بالأسنة نهشا
وينصبها أن يرتقوا السحب سلما ويرسلها أن ينزلوا القلب كالرشا
ولله:

أمنصل الرمح الطويل بكوكب من ذا يطاعن والسماك سنان
ابن سناء الملك:

ملوك يحوزون الممالك عنوة بسمر العوالى أو ببيض القواضب
رماح بأيديهم طوال كأنما أرادوا بها تشقيب در الكواكب

ابن قلاتس:

أساة الحرب أحداق الدروع
وأسبل غيث أمواه الدموع
حديث عن مصيف أو ربيع

وقد كحلت بأميال العوالى
وشب البأس نيران المواضى
فللفرسان من محل ووحل
ولله:

فتحنأ له قلما هناك محرفا
تننى على الاصباح ليلا مفدفا
ومن الطوال السمهرية أوطفا

ومصرف الرمح الطويل سنانه
حيث العجاجة فوق لامعة الظبي
فتريك طرف الجوى منها أكحلا
ابن النبيه:

وابل تتابع فى خلال سحائب
فكأنها شهب ذوات ذوائب

والنبل فى خال العجاج كأنه
لعبت أسته على أعلامها
الذروى:

هاماتها نبت الوشيع الأعوج
حتى كأنك فى رياض بنفسج

وراء هاتيك الخيام أهلة
ارتحت حولهم لزرق أسنة
ابن المنشد ملغزا فيه:

راق حسنا عند اللقاء ومخبر
إنما قلبه بلا شك أحمر

أى شىء يكون مالا وذخرا
أسمر القد أزرق السن وصفا
الفاضل:

بمختلفات من قتال الشواجر
كأنك قد نصلتها بنواظر

فبأعجبا للملك قرقراره
طوا عن أسرار القلوب نواظر
لسان الدين محمد بن الخطيب:

من العيون فبالعجاجة مكحل
مما يعمل من الدماء وينهل
رمد ولا يخفى عليه مقتل
السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على بن الأمدى:

ويكل أزرق إن شكت الحافظه
متأود أعطافه من نشوة
عجبا له أن النجيع بطرفه
غصون بها طير النفوس تنافرت

وعهدى أن الغصن للطير مألّف
ولا زهر إلا من النصر يقطف

ولا ورق إلا من التبر حولها
وقال فخر القضاة نصر الله بن بصاقة كتب للناصر داود بن عيسى ووزر له وجلس معه

فى صلب الايوان ومن نظمه ملغزا:

عصى ثقيل إن أطيل عنانه
ترى منه أميّا إلى الخط يتسمى
عجبت له من صامت وهو أجوف
ومن طاعن فى السن ليس بمنحنى
ابن نباتة السعدى:

وولوا عليها يقدمون رماحنا
خلقن بأطراف القنا لظهورهم
وتقدمها أعناقهم والمناكب
عيونا لها وقع السيوف حواجب
ذكر الثعالبي فى لطائف المعارف أن أول من عمل له سنان من حديد ذو وزن الحميرى
وليه نسبت الرماح اليزنية وإنما كانت أسنة العرب من صياصى البقر.
قلت: قد كان رسم لجماعة من الفضلاء بالمملكة الشامية أن ينظموا أبياتا تكتب على
أسنة الرماح وأن تكون البيوت أربعة وذلك برسم المقر العالى الطنبغا الجوبانى كافل الشام
المحروس رحمه الله تعالى فنظم سيدنا المقر المرحوم الشهير بابن الشهيد فتح الدين
رحمه الله تعالى:

إذا الغبار علا فى الجو غبره
هذا سنانى نجم يستضاء به
فأظلم الجو ما للشمس أنوار
والسيف إن نام ملء الجفن فى غلق
كأنه علم فى رأسه نار
إن الرماح لأغصان وليس لها
فإننى بارز للحرب خطار
سوى النجوم على العيدان أزهار
وأشدنى القاضى المرحوم أمين الدين محمد الأنصارى لنفسه وهو اذ ذاك كاتب السر
بحمص المحروسة:

عروس سنانى حين يجلى على العنا
وقد صيغ من هم فبين صدورهم
وتظهر تبدى ما لهم من بواطن
سيلقون يوم الجمع غنا لموتهم
مجال له رحب فسيح المواطن
وإن شهدوا بالجور فى وعدلوا
بطعنى ويوم الجمع يوم التغابن
فإنى قد بينت فيهم مطاعنى
ونظم سيدنا القاضى صدر الدين على بن الحنفى الأدمى رحمه الله وأشدنيها من لفظه
وهى من مبادئ نظمه:

النصر مقرون بضرب أسنة
لمعانها كوميض برق يشرق

سبكت لتسبك كل خصم مارد
وتطرت لمعانك تطرق
زرق تفوق البيض فى الهيجاء إذ
يحمر من دمه العدو الأزرق
ينسخن يوم الحرب كل كتيبة
تحت الغبار فنصرهن محقق

ونظم الشيخ شمس الدين محمد بن بركة الرئيس وأنشدنيها من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى:

أنا أسمر والراية البيضاء لى
لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل لى عيش العداة لأننى
نوديت يوم الجمع بالمران
وإذا تغانمت الكماة بجحفل
كلمتهم فيه بكل لسان
فتخالهم غنما تساق إلى الردى
قهر المعظم سطوة الجوبان

لو قال: كلمت كلا منهم بلسان، لكان أحسن الشيء يذكر بلوازمه، نقلت من مجموعة بخط بعض الأفاضل أن بعض الأمراء بالأندلس وأظنه المنصور بن عامر رحمه الله كان إذا قصد غزوة عقد لواءه بجامع قرطبة ويجعل مسيره إلى الغزوة من الجامع فاتفق أنه فى بعض حركاته للغزوات توجه إلى الجامع لعقد اللواء واجتمع عنده القضاة والعلماء وأرياب الدولة فرفع حامل اللواء فصادف ثريا من قتاديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليها الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقام رجل وقال أبشريا أمير المؤمنين بغزوة هينة وغنيمة سارة قد بلغت أعلامك الثريا وسقاها الله من شجرة مباركة فاستحسن ذلك المنصور واستبشر وكانت تلك الوجهة من أبرك غزواته.

وما أظرف وألطف قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل متغزلا:

كم قال معاطفى حكتها الأسل
والبيض سرقن ما حوته المقل
فالألآن أوامرى عليهم حكمت
البيض تحدد والقنا تعتقل
ابن تميم:

لو كنت تشهدنى وقد حمى الوغى
فى موقف ما الموت عنه بمعزل
لتسرى أنايب القناة على يدى
تجرى دما من تحت ظل القسطل
ابن شرف القيروانى:
وقد وخطت أرماعهم مفرق الدجى
فبات بأطراف الأسنة شائبا

القوس: حدث العتبى عن بعض أشياخه قال كنت عند المهاجرين عبد الله والى الإمامة فأنى بأعرابى كان معروفا بالشرف فقال له أخبرنى عن بعض عجائبك قال عجائبي كثيرة ومن

اعجبها أنه كان لى بعير لا يسبق وكان لى خيل لا تلتحق فكنت أخرج محاربا فخرجت فاحترشت ضبا فعلقته على قبتى ثم لا أرجع خائبا فمررت بخبا ليس فيه إلا عجوز وليس معها غيرها فقلت يجب أن تكون لها رائحة من غنم وإبل فلما أمسيت إذ أنا بإبل مائة فيها شيخ عظيم البطن شثن الكفين ومعه عبد أسود فلما رآنى رحب بى ثم قام إلى ناقة فحلبها وناولنى العلبه فشربت ما يشرب الرجل فتناول الباقي فضرب به جبهته ثم حلب تسع أنيق فشرب ألبانهم ثم نحر حوارا فطبخه ثم ألقى عظامه بيضاء ثم جثى على كومة من بطحاء وتوسدها ثم غط غطيظ البكر، فقلت والله هذه الغنيمة الباردة ثم قمت فحل إبله فخطمته ثم قرنته ببعيرى وصحت به فأتبعنى واتبعت الإبل أربا كأنها فى قطار فصارت خلفى كأنها جبل ممدود فمضيت أبادر ثنية بينى وبينها مسيرة ليلة للمسرع فلم أزل أضرب بعيرى مرة بيدى ومرة برجلى حتى طلع الفجر فأبصرت الثنية فإذا عليها شىء أسود، فلما دنوت إذا الشيخ قاعد وقوسه فى حجره فقال أضيفنا قلت نعم قال أتسخو بنفسك عن هذه الإبل قلت لا فأخرج سهمما كأنما نصله لسان كلب ثم قال أبصره بين اذنى الظبى المعلق متى ألقىته فرماه فصدع عظمه عن دماغه، ثم قال ما تقول قلت أنا على رأى الأول ثم قال أبصر هذا السهم الثانى فى قفارة ظهره الوسطى ثم رمى فكأنما غرسها فيه ثم قال ما رأيك قلت أحب أن أستثبت، قال انظر هذا السهم الثالث فى علوة ذنبه والرابع والله فى بطنك ثم رماه فلم يخطئ العكوة، قلت آنزل آمنا قال نعم ثم دفعت إليه خطام فحله وقلت هذه إبلك لم يذهب منها وبرة وأنا أنتظر متى ترمينى بسهم تقصد به قلبى فلما تباعدت قال أقبل فأقبلت والله فرقا من شره لا طمعا فى خيريه فقال أحسبك ما جئت الليلة إلا من حاجة قلت أجل والله قال فاقرن من هذه الإبل ببعيرين وامض لمطيتك فقلت لن والله حتى أخبرك عن نفسك فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشد ضرسا ولا أعدى رجلا ولا أرمى يدا ولا أكرم عفوا ولا أسخى نفسا منك، قال فاستحى وترك الإبل جميعها.

قلت: ذكر هذه الحكاية الشيخ جمال الدين بن نباتة فى سرح العيون بخلاف هذه الالفاظ وأن الشيخ المذكور زيد الخيل واسمه مهلهل، عزم الملك المعظم على الصيد فقال له بعض الجماعة يا مولانا القمر فى العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة الصبر إلى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو يفكر اذ دخل مملوك كان له من أحسن

الناس وجها يقال له ايدغدى فوقف قدامه وقد توشح بقوس فقال بعض الحاضرين يا مولانا اركب الساعة فهذا القمر فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشاراً فلم ير أطيّب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها.

الشهاب الاعزازى ملغزا فيها وفى النشاب:

ما عجوز كبيرة بلغت عم
قد علا جسمها صفار ولم تش
ولها فى البنين سهم وقسم
وأراها لم يشتهوها ففى الام
الحلى ملغزا:

وما اسم تراه فى البروج وإنما
إذا قدر البارى عليه مصيبة
بدر الدين بن الصاحب ملغزا:

لله ملوك إذا
لكنه فى لحظه
أيدمر يرثى سهماً انكسر:

ياسهم هاج رداك لى بلبالا
مذنب ما راع الحمام حمامه
ولطال ما شوشت من سرب المها
قد كنت أعجب للقى سقيمة
فإذا بها علما بيومك فى الردى
عجبا من الآجال كيف تقسمت

وقال الإمام كمال الدين اسماعيل بن جمال الدين عبد الرزاق الاصفهاني رحمه الله:

«وسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سبباً * فأتبع سبباً» (١) حكيم جبل على السداد يهذى إلى سبل الرشاد آثار بأسه مشهورة على ذرى الأعواد بطشه شديد ومرماه بعيد أيد فى مغزاه بالتعقيب يأخذ فى التشريق بعد التغريب فشدد بكل شديد الاغارة أسره ووسد إلى كل مشبوح الذراعين نصره

فأنفذ رسله ترى شفعا ووترا فطير برده إلى الأطراف بنوع من الاستعطاف وأثبت ما فى ضميره فى القرطاس اظهارا للباس وانذارا للناس وأغرق قوس عزائمه فى الركض وحرم على جنبه القرار فى الأرض فأعين بقوة جمع بها بين اليدين ثم قبض فى البين عند ملتقى لحدين وكان من دعائه فى انحنائه رب اشرح لى صدرى واشدد أزرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى وأخى أفصح منى لسانا فارسله معى واشركه فى أمرى نعم ويسألونك عن الأهلة صفراء من غير علة حنانة حنت ولا تهنت حية اذا انطلقت رججت مرتان لا عن مرض يشهب إلى غرض هلال يطلع بحلول الأجل المضروب استهلاله دليل الوقائع والحروب، مجرة تنقض منها نجوم الرجوم، برج ذو جسدين يطلع بالطائر الميشوم ثابت يقارن السيارات، وقع ينهض من وكره الطيارات ذات الحبك لا تراجع كواكبها، برج معوج الضلوع تغور فى أسرع زمان غواربها معنى أحكمت مبانيه ورفعت مجنيه حائطه مائل وعماده زائل لا يقوم مناده ولم ينقص وكاده نبأنا بساكنه فترحل منه، وبيت أزعج نازله فتحول عنه رباط موقوف على العارة لا تلبث فيه السيارة بيت منزحف ينفر عنه الطبع السليم وينفر عنه النبع المستقيم محل النزاع ينظر فيه عند المجادله متحرف للمقاتل يولى الظهر عند المقاتلة، سورة محكمة ذكر فيها القتال يتمسك به أصحاب الجدال شديد القوى ذو مرة يواتر بين رسله من غير فترة متى بذات الجنب يقلقه انبعاث مرته لا يسكن الا اذا دسع بحريته شيطان تطلع شمس النصرة من قرنيه مارد لا يسكن الا بتعريك أذنيه صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم الا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم اضلاع على الوتر تطوى أكباد تحن إلى القد من الطوى متأسر شدت إلى العقب أذقانه يضيق صدره ولا ينطلق لسانه بطل شد حيازيمه للموت ويجزع من خوف القوت بأعلى الصوت مقدم من بنى الأصفر قدم فى دار الحرب وشد عليه الوثائق حتى شكا ضيق الخناق وجرى عليه سهم الاسترقاق فصار ملك اليمين باستحقاق ولا غرو إن مال إلى أصحاب الشمال فهو فرع أصله ضال متكبر بأبى السجود للبشر فى صلبه مثل صياصى البقر مغشى عليه، جمع إلى الاصفرار نحولا وحيننا فقبض وكان فى النزاع حيننا مطية تخالف سائر الانعام قيامها باليد وقيامهن بالأقدام، وكلما كانت أثبت على المقام كان راكبها أقرب إلى بلوغ المرام مضيرة يمتطيها الراكب إذا كانت معقولة وينزل عنها إذا أرسلت محلولة أعوجى يشتد فى مراكض السباق أعجمى يلوى الأشداق شاكية تودع شفرا لا تعود عقيلة تحن إلى زوج من عود عاتكة شبقى شديدة العرامة أعجب بها حذباء مديدة القامة عنقاء تزف افراخ النسر تزيد

فى مرتها الدهور سلس القيادة صعب إلى ذى مرة غير مستوى، مقبوض جمع البارى عظامه
فصوره وأحسن نظامه فقامت عليه القيمة ألف ونون جمعا للثنائية لا يرميه أهل القياس
بالتخطئة بل بألف، قارون نون مشددة فإذا حركته أن وإذا تركته اطمأن، حرف اذا رفع نصب
للجر ولا يستعمل جزما بعدما دخله الكسر وحرف آخر معطوف عليه ومجرور بالاضافة
إليه حرف أدغم فيه غيره بتسكين وجعل منه تشديد وتنوين هيئته شبه علامة اذا عطلت
وتشاكل الباء إذا استعملت ذو نيرب مشاء بنميم عتل على الجفاء مقيم مغرق يتنكب على
موارد الماء مغرق عند جر النسب والانتماء وأخوه دعى به لاحق عيص ألف ونبعه ممتورة
ينمى إذا اتصل الدعى اللاصق مقيد يحمل عليه المطلق طويل العنق من جبل عاتقه معلق
خفيف الرأس يميل إلى كل طياش عارى المناكب فى حبالته ذوات الرياش نحيف يرى أثر
المحاجم بظهره يتسم لفصمده غيره أجش يرفع صوته بين الرماة بارز يفت فى أعضاء الكماة
لمرمانا درك الرقاة ونكب عن مراشقك الرماة كان شظيته من فرع ايك تسنمها النصور
الطاويات أعجوبة جمعت بين أضدادها تمنا فى خضوع وإباء فى خشوع وتعطفا فى قساوة
وصلابة فى رخاوة أشباه أعناق الجمال طابقتها زمامها أضلاع انضاء توسطها سنامها كأن
قرنيه صل انسلخ من اهابه فخلع عليه بعض ثيابه مضمار جمع بين الانسى والوحشى عاطل
يرفل فى اللباس موشى وثنوى يغشى النار ولا يخشى العار موتور نشر أذنيه لدرك النار موتر
أخذ فى الركوع وهو قائم خميص البطن يبتلع ذراعا وهو صائم محدوب بلغ قاب قوسين
فى الارتياض متكشف ابلى طمره فى التذلل والانخفاض منقبض جمع للانزواء أطرافه
مرابط يهز عند اللقاء أعطافه متخرج يعض على ناجذ التصبر فى الشدة والرخاوة من صاحبه
طرفة عين مشى على الهواء فقل فى إن التقم مرسلا فنبذه بالعراء راعع اوآه يشكو وزره
الذى أنقض ظهره يطوف على من مد إليه يد الاجتذاب قنول ولو أن السيف جواب مجرم
ألزم طائره فى عنقه وعرض على النار لسوء خلقه وسوف يؤخذ بالنواصى والأقدام ويجزئ
بما تحمله من الاوزار والحطام ويستنطق جلوده قسرا وقهرا فينطق بما يخفيه جهرا وأنى له
التناوش من مكان بعيد وقد تمكن من حز رقبتة من هو أقرب إليه من حبل الوريد ناحل
ألصق بطنه بظهره حتى بدت للناظرين ذات صدره وغارت كلاء فى خصره لاستيلاء قوته
الدافعة الهالكة على قوته الجاذبة والماسكة وانقطاع حبل وريده عن شربانه وتجانفى جنبه
عن مصرانه ثعبان إذا أنشط من عقاله أمن الناس عادية أفعاله جموح يعثر بالراكب معرقب
تحمله المناكب ضرس شرس يتمطى ويتأوب لتمدد أعضائه متجرد يستظهر ويدل بأولاده

وأعقابه ظرف مظروفه يخالف الظرف هذا لا يقبل العدل وذا لا يقبل الصرف هيفاء منها
مجدول وفروعها مفتول خصرها دقيق وقدها رشيق قوية العليا محطوطة المطاء ناشرة
اكتادها قب الكلى يضمها صاحبها إلى الصدر فتتكب عنه وتزور مزاج مطلق يودع
صاحبه عند الاعتناق مكلف خلق فى كبد طموح لا يذعن إلا لمن عنده مديد مقبوض
يقارب السريع ويفارقه عند التقطيع صحيح معلول ممدود فى العرض مقصور فى الطول
قرناء أحصنت فرجها وأبعدت من نفسها زوجها محب ذو أناة تعود وأراد البنات غيور إذا
لاقى بناته الاتراب زوى حاجبه للاضراب فيمسكه على هون أم يدسه فى التراب عرق من
عروق الشريان إذا جسته البنان ينبض وله ضربان قوسه حين دائرة سوء يحيط بالأعداء
متعصب ينشط للمنازعة بعد الاغراء دهرى أتى عليه قرن بعد قرن فانحنى مطاه لا يتصب
إلا وعلى اليد متكاه وينشد إذا فتح فاه:

سلبت عظامى لحمها وتركتها مجردة تحظى لديك وتحضر
خذى بيدى ثم اكشفى الثوب تنظرى ضنا جسدى لكنتى أنسى

عظامى إذا انتسب عصاى إذا انتصب مكاشح أولع بضرب غيره وربما رد كيده فى
نحره منحذب يظهر الحنو ويضم السوء من عصبته هى بالقوة بنو مبالاة الاعطاف تسند
العود إلى صدرها وتمكنه بين سحرها ونحرها وتدنى من الأسماع أوتارها فيضرب بها فتغنى
فتغشى أسرارها قرنان يسمح بأزواجه على الأعداء ويقذف بنات صلبه بالنكراء غليظ الكبد
يجفو أفلاذ كبده ويشمئز من تحمل أعباء ولده فينقيه عن حجره ثم يحن على أثره فقيل له يا
هذا أسوقا وشوقاً أجمعاً:

حننت الى ربا ونفesk باعدت مزارك من ربا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الامر طائعا وتجزع ان داعى الصباة أسمعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنشئ على كبدى من خشية أن تصدعا

مشاجر مشجر النسب يطاوع من يمدد إليه بسبب غدق يشمر الشوك دون الرطب
منحنى الظهر حملة الحطب وثيقة جامعة لأسباب اللزوم والاحكام عرية عن النواقص
مطوية على النفوذ والانبرام يتشبث بها عند الخطام متمرد كلما قيد الاستسلام بأسبابه نكص
وارتد على أعقابه أمين غير مأمون على الودائع وكلما استودعته فهو ضائع ظلوم يقبل الأمانة
بجهله ويؤدى ما قبل إلى غير أهله نافذ الامر ليس يعادل ثانى عطفه ليجادل مكبود يعالج
بالكى مطالب يدافع باللى مسدد غير سديد جمع بين المد والتشديد قاتل له فى سهم

الفرائض نصيب يأخذ ما يأخذ بالتعصيب معشش أفراخ العقاب صرت عليه رجل الغراب
متجلد لا يتضعضع لريب الدهر ولو رمى بقاصمة الظهر يساهمنى فى مكابد الشدائد
ويسعد فى التحنن على الأولاد والولائد:

لنا كل يوم رنة خلف ذاهب ومستهلك بين النوى والنواثب
وقلعة إخوان كأننا وراءهم نرامق أعجاز النجوم الغوارب
منحنى الظهر يتوكأ على العصا فيلقبها فإذا هى حية تسعى مجاهد يرجى دهره بين شدة
وراحة وكد واستراحة ولين ووقاحة وقبض وسماحة وهو بين ولى ظاهر وعدو مجاهر
جذوب يميل إلى من يجذب بضبعه وينازع من خالفه بطبعه وإن نحت من نبعه مفتت إذا
أناه ابن السبيل فاغرا فاه أطعمه من عنده ثم ضرب قفاه وأبعده ونفاه جانية مختضبة سليطة
دربه عارية كأنها أفعى جارية رقيق فيه شدة بليد فيه حدة فاتك تأبط شرا ملاعب الأسنة يقتل
صبرا متلف مخلف وهارب لا يمسك سخي بما يملك لذى اليدين بذول كأنما عناه من
يقول يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما محاكم يعاضد ذا اليدين على صاحب الرقبة مسترسل
لا يبالى باقتحام العقبة حاجب غمرات الحاظله كالعين تدخل الرجل القبر مبذر يده مغلولة
إلى عنقه للحجر كوماء معقولة هوجاء مغلولة حاجب مقرون لا يوجد مثله فى القرون
كالحية الرقشاء مسها لين وخطبها غير هين نائم العين بصره حديد كالجمل الانف ينقاد إذا
قيد شاحب محقوق سائق لا يستوقف بطل نشد للموت حيازيمه وشحد للقاء العدو غرار
العزيمة طائفة تنبو عن سرعة الأصحاب كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها
ليذوقوا العذاب.

ومن آخر رسالة القوس للشيخ كمال الدين الأصفهاني شيخنا زين الدين بن العجمي
محاجيا فى لامة:

يا سيد الحجاج سر المحاجة يكشف
ما مثل قول المحاجي للنهى والامر بالكف
ومن انشاء القاضى محى الدين بن عبد الظاهر ومن الجواشن حسنه التسامى
والتسامت لا يرى فى حلق سمائها من تفاوت قد رفع بعضها فوق بعض درجات وبنيت
أسوار الحفظ المهجات قد زينت سماؤها بزينة الكواكب وفاق غمامها المتراكم وراق
موجها المتراكب كم أحسنت دفاع البؤس عن النفوس عدة وقوع وكم حنت حين حنت
أضالها على الضلوع كم دخلت جنة جنتها بسلام وكم بدت كأنها طلع نضيد ولا عجب
فإنها ذوات الاكمام.

كتب إلى الجناب المجدى فيما ينقش على طير:

لئن لحت طوراً كالهلال شكله فلى من غبار النقع يا صاحى سما
فإن لحت مثل البرق فى ساعة الوغى فعمما قليل بعده تمطر الدما
وله فيه:

ألا انظر إلى شكلى واتقان صنعى وروح عن بديع الحسن عنى مخبرا
طلعت هلالاً فى سما النقع نيرا بتقصير أعمار البغاة مبشرا

obeikandi.com

الباب الحادى والأربعون

في الكتب وجمعها وفضل اتخاذها ونفعها

قال ابن الخشاب ملغزا فيها:

بسر وذو الوجهين للسر يظهر
فتسمعها ما دمت بالعين تنظر

وذى أوجه لكنه غير بايع
يناجيك بالأسرار أسرار وجهه
وقال أبو زيد الدبوسى:

بزهرة الندامى وعز الصحاب
وتم السرور بخود كعب
فكان الانيس لقلبي كتابى
فظوفوا على بذاك الشراب
سوى العلم جمعه للذهاب

إذا خلا الناس فى دورهم
وأكل الطعام وشرب المدام
خلوت وصحى كتب العلوم
ودرس العلوم شراب العقول
ومن كان فى دهره جامعا
أبو النصر الفارابى:

وليس فى الصحبة انتفاع
وكل رأس به صداع
به من العز اقتناع
لها على راحتى شعاع
ومن قرا قيرها سماع
قد اقفرت منهم البقاع

لما رأيت الزمان تنكسا
كل رئيس به ملال
لزمت بيتى وصنت عرضا
أشرب ممن اقتنيت راحا
لى من قواريرها ندامى
وأجتنى من حديث قوم
غيره:

تسامرنى من غير عى ولا ضجر
تخفف تكليفى وتقنع بالنظر

وما شغفى بالكتب إلا لانها
وأحسن من ذا أنها فى صحابى
ابن نباتة:

كرونق الحبات فى عقدها
تموت بالهيبسة فى جلدتها

لله مسجـمـوع له رونق
كادت مجاميع الوردى عنده

قال الجاحظ الكتاب وعاء مليء علما وحشى ظرفا وإناء شحن مزاحا وجدا ان شئت كان أعمى من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان بن وائل وإن شئت ضحكت من نوادره وإن شئت اشجكت مواعظه والكتاب نعم الظهر والعمدة والكنز والعقدة ونعم الذخر والعمدة ونعم السنزهة والنشرة ونعم الشغل والحرفة ونعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربه ونعم القرين فى الرحيل ونعم الوزير والنزيل والكتاب هو المجلس الذى لا يطريك والصديق الذى لا يغريك والرفيق الذى لا يملك والمستميج الذى سماحته لا تستزيدك وهو يعطيك بالليل طاعته وبالنهار يطلب العطاء ويفيد فى السفر كإفادته فى الحضر.

ثم قال فمتى رأيت بستانا يحمل فى ردن وروضة تقلب فى حجر ينطق عن الموتى ويترجم كلام الأحياء ومن لك بواعظ مله وبزاجر مغر وبناسك فاتك وبساكت ناطق وحاد بارد ومن لك بطبيب أعرايى وبرومى هندى.

قال وسمعت حسن اللؤلؤى يقول عمرت أربعين عاما ولا بت ولا اتكأت الا والكتاب موضوع على صدرى وكان يقال انفاق القضة على كتب الآداب يخلف عليك ذهاب الالباب.

وقرأ أبو الحسن بن طباطبا فى بعض الكتب، الكتب حصون العقلاء إليها يلجئون ويساعتهم فيها يتزهون.

وقال بديع الزمان الهمدانى ما رأيت جارا أبر ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحباً أظهر كفاءة ولا أقل خيانة ولا أزهد فى مال ولا أكف عن قتال من كتاب.

وقال الزمخشري ما رأيت قرينا أحسن موافاة ولا أعجل مكافاة ولا أخص معرفة ولا أخف مؤنة ولا أطول عمرا ولا أجمع أمرا ولا أطيّب ثمرا ولا أقرب مجتنى من كتاب.

وكتب ابن نباتة إلى بعض الأجلاء يستعيد كتابا فى عاريتة ويسأل ارسال الكتاب الذى أشرقت بمولانا حروفه وأينعت فى الأوراق قطوفه وأصبح لفظه الباسم، كما قال العباس يكون أجاباً دونكم فإذا انتهى وقد عزم المملوك على السفر حيث يجلى صدأ الغياهب ويتسلم الغرب وديعة الشرق من در الكواكب ويستحب ذيل الفجر المجرور ويتلو لسانه على الافق سورة النور والله تعالى الخليفة على مجد مولانا الغريب وفضله القريب وشخصه الذى لولاه فى هذا البلد لم يلف بها غريب.

وكتب لشخص أهدى كتابا فى فضائل الاعمال يقبل الباسطة لازالت بادية الاجمال

وافية الكرم على ما فى الآمال هادية مهديه بما أولته من فضائل الأقوال وفضائل الأعمال وينهى ورود كتابيه اللذين ملأ بأكبر يديه وبالنور قلبه وعينيه ونعماء نظرا ومسمعا وأرياه القمرين فى وقت معا فله مكاتبه التى جنت نسماها السحرية وغازلت عيون فضائلها السحرية وتضوعت حتى أرخصت الغوالى بنفحاتها الشجرية تركت والحسن يأخذه يتبعى منه ويتحب لله كتابه الذى جمع الأعجاز والأعجاب وجالس الملوك فكأنه المعنى بقول أبى الطيب:

*** وخير جليس فى الأنام كتاب ***

ما أبهج عقوده المنسقة وما أحسن ما تدخل النواظر عذبا من أبوابه المتفرقة وما أجمع فصوله لحسن وإحسان وما أطيب أحاديثه عن جنان الخلد اذ طابت الأحاديث عن جنان لقد أضاء حتى حسبه مشارق الانوار وتأمله فإذا عجائب الحسن من نفسه وطرسه فى ليل ونهار وغنى فهو للطرف معنى وتلمح من فنون أفنانه الجنة صورة ومعنى فهذه الاسطر المبدعة أشجارها وهذه الألفاظ المتنوعة أزهارها وهذه الثمرات المرتفعة اطيوارها وهذه الطريق المتفرقة بين السطور أنهارها وما كان المملوك قبله يحسب أن جنة تهدى فى أوراق ولا أن حديقة تسير على البعد فتعرض على أحداق فشكر الله لمولانا هذه المنن الباهرة ونفع بهداياه التى تجمع للأولياء بين خيرى الدنيا والآخرة.

استعار الصنعانى كتابا «سفينة» من صاحب له فكتب اليه لما ردها على معيرها رأيت السفينة مشحونة علوما وصاحبها الحبر بحرا وكان من رأى ردى اليه سفينته فهى بالبحر أخرى.

وعلى ذكر المجموع فما أحسن قول الحكيم موفق الدين المعروف بالورن:

الله أيامنا والشمل منتظم نظم به خاطر التفريق ما شعرا
والهف نفسى على عيش ظفرت به قطعت مجموعه المختار مختصرا
ابن الوردى فى شخص أخذ له كتب ولم يرده:

إذا لم يرد فلان الكتاب ودافعى عنه بالباطل
ندبت له قاضيا فاضلا وخلصت حقى بالفاضل
ابن نباتة مع كتاب أهده:

أرسلته نعم الجليس إذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا أبدا ويتقنع بالنظر

وخبر جليس فى الآنام كتاب هو النديم الكريم والخدن الامين البرىء من الذنوب
السليم من العيوب الذى إن أدنيته لم يباعدك وإن أقصيته لم يعاودك وإن واصلته حمدته وإن
هاجرته أمنتته وإن استنطقته أسمعك وإن استكفيته أقنعك وإن استنكفته كف وإن استثقلته
خف وإن دعوته لباك وإن استعفيته أعفاك لا يعصى لك أمرا ولا يحملك اصرا عرضك معه
وافر وهو لسرك غير ناشر أنيق المنظر طيب المخير جميل المشاهد كثير المحامد يملأ
العيون قرة والنفوس مسرة بضحك الحزين الالهف ولهى الغضبان الاسف يجتلب السرور
ويشرح الصدور ويطرده الهموم والأحزان وينفى بواعث الأشجان مجاورته أحسن مجاورة
ومسامرته أحلى مسامرة ومجالسته أنفع مجالسة ومؤانسته أمتع مؤانسة فيه مدعاة إلى الطرب
ومسلاة من الوصب وثعلة لذى الغرام وتلهية لقلب المستهام وأنس للمستوحش ورى
للمتعطش وعمارة للمجالس وحلية للمؤانس تلقى القلوب محبتها عليه وتميل النفوس
بكليتها إليه ليس بينه وبين حبات القلوب حجاب ولا يغلق بينه وبين سويداواتها باب.

كتب شيخنا زين الدين بن العجمى على مناسك قاضى القضاة بن جماعة:

ألفت يا أزكى الورى مناسكا فقت بها من قبلكا
قد وضحت لكل سار بهجة ولم تدع للناقدين مدركا
وقد نلت أحكامها على الورى لكل أمة جعلنا منسكا

الديوان: الأصل الذى يرجع إليه ويعمل بما فيه قال ابن عباس: اذا سألتمونى عن شىء
من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب أى أصله ويقال دُونَ هذا زى
أثبته وأجعله أصلا وزعم بعضهم أن أصله أعجمى وذكره سيويه فى كتابه وقال: إن أصله
دَوَان.

الدفتر: عربى لا يعلم له اشتقاق وحكى دفتر بالكسر ويقال أيضا تفتّر وأما الكراسية
فمعناها الكتب المضمومة بعضها إلى بعض والورق الذى الصق بعضه إلى بعض مشتق
من قولهم رسم مكرسى إذا ألصقت الريح التراب به كما قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا قال نعم وأعرفه ملبسا

أبليس تحير ولم تكن له حجة وقال الخليل بن أحمد الكراسية من الكتب مأخوذة من
أكراس الغنم وهى أن تبول فى الموضع شيئا بعد شىء فيقبله.

شمس الدين العفيف كان عنده مجموع فطلبه منه بعض الرؤساء فأرسل إليه وكتب له:

يا أيها الصدر الذى وجه العلا منه يزان بمنظر مطبوع
لا تعتقد قلبى بحبك وحده هاقد بعثت لسيدى مجموعى

اجتمع لسيف الدولة بن حمدان ما لم يجتمع لغيره من الملوك كان خطيبه بين نباتة الفارقي ومعلمه ابن خالويه ومطربه الفارابي وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديان والصنوبري ومداحه المتنبي والسلامي والوأياء الدمشقي والسفهاء والنامي وابن نباتة السعدي والصنوبري وغير ذلك.

قال مجير الدين بن تميم فيما يكتب على خزانة كتب:

انظر إلى ترى في صورتى عجباً شخصاً حوى العلم فى صدر من الخشب
وفنيه من كل فن غير أن له وجداً يميل به تشويقاً إلى الأدب
ولله:

يا حسنهما نسخة يلهو مطالعها وطالما قد حوت من رائق الكم
صحت وقد لطفت فى حجمها فحكت لطف النسيم وحناشها من السقم
ولبعضهم:

ان مجموعى البديع لحلى قد تنقيت ديزه المختاراً
واذا لم أعره ليس عجيب شغل الحلى أهله أن يعاراً

قلت ولا بأس بإيراد نبذة من التورية بأسماء الكتب فمن ذلك تقول بعضهم:
ياسائلى من بعدهم عن حالى ترك الجواب جواب هذى المسألة
حالى اذا حدث لا لمعاً ولا جملاً لا يضاحى لها من تكلمه
عبد حوى بدر الفصيح منكداً فاترك مفصله بؤدونك مجمله
القلب ليس من الصحاح فيرتجى اصلاحه والعين سحب مثقله

ومنه للشيخ أبى عبد الله بن جابر المغربي نزيل دمشق المحروسة:

عرائس مدحى كم أتین لغيره فلما رآته قلن هذا من الاكفا
نوادر أدابى ذخيرة ماجد شمائل كم فيهن من نكت تلفى
مطالعها هن المشارق للعلی قلائد قد راقى جواهرها رصفاً
رسالة مدحى فيك واضحة ولى مسالك تهذيب التنبيه من أغفى
فيا منتهى سؤلى ومحصول غايتى لانت أمرين حاصل الوجد مستصفى

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتاباً وهى العرائس للثعالبي والنوادر لابی على القالى وغيره والذخيرة لابن بسام وغيره والشمائل للترمذى والنكت لعبد الحق الصقلی وغيره والمطالع لابن قرقول وغيره والمشارق للمقاضى عياض وغيره والقلائد لابن خاقان وغيره ورصف المباني فى حروف المعانى للاستاذ ابن عبد النور كتاب

لم يصنف مثله فى فنه والرسالة لابن أبى زيد ولغيره والواضحة لابن حبيب والمسالك للبكرى وغيره والجواهر لابن شاش وغيره والتهذيب فى اختصار المدونة وغيره والتنبية لأبى إسحاق ولغيره ومنتهى السؤال لابن الحاجب والمحصول للإمام والغاية للنووى وغيره والحاصل مختصر المحصول والمستصفى للغزالى وغيره تم ذلك.

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب:

ولما رأت عزمى حثيثا على السرى وقد رابها صبرى على موقف البين
أنت بصحاح الجوهري عيونها فعارضت من دمعى بمختصر العين
ولما أنشدتهما لشيخنا العلامة أفضى القضاة بدر الدين الدمامينى أسبغ الله ظلاله
أنشدنى ولم يسم قائله:

فى نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فأرضاه
قلت هما لابن شعيب المغربى والأول منهما:
وبائع للكتب يتاعها بأرخص السعر وأغلاه
مأمون بن مأمون خوارزم سمع يقول همنى كتاب أنظر فيه وحبيب أنظر إليه وكريم
أنظر إليه.

نادوة: مر العلم بن الصاحب بن شكر المعروف بالاجوبة على بعض الأكابر من
المصريين ومعه كتاب مجلد فقال له شيخ العلم أرنى أنظر فى كتابك هذا فقال لم يكن
الذين كفروا من أهل الكتاب.

استعار الصدر تاج الدين أحمد بن سعيد بن الاثير الكاتب مجموعا من مجاهد الدين
ابن شقير وأطال مطله فاتفق أن حضر يوما إلى ديوان المكاتبات فقال ابن الاثير: كيف أنت
يا مجاهد الدين والله قلبى عندك وخاطرى عليك، فقال وأنا والله مجموعى عندك فطرب
لهما الحاضرون.

قال الفاضل كل كراسة لا يخرم أنفها ولا يكون الجلد دفها عرضة للضياح وما مكانها
من الخزانة الا مسترق الوداع لالصفدى:

ملككت كتابا أخلق الدهر جلده وما أحد فى دهر بمخلد
إذا نظرت كتبى الجديدة جلده يقولون لا تهلك أسى وتجلد
كتب سيدى وأخى القاضى شهاب الدين بن حجر سامحه الله على جزأى تذكرتى التى
سميتها ثمرات الاوراق:

نظرت لما سطرته من مجامع لها الفضل اذا راقبت محاسنها تعزى

وقد لذ منها ما كتبت بخاطري
ابن نباتة:

رب مليح رأى كتابا
فقلت في الحال يا كتابي
ووجدت على ظهر كتاب هذا البيت:
وما الكتب الا كالضيوف وحقها
ابن الوردي وكتبها على كتاب الشمائل للترمذي:

يا أشرف مرسل كريم
من يسمع لفظها تراه
ما أطف هذه الشمائل
كالغصن مع النسيم مائل

ولم يكف طرفي منه جزء ولا أجزا

obeikandi.com

الباب الثانى والأربعون فى الخيل والدواب ونفعها

قيل: أول من اتخذ الخيل وركبها اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان داود وسليمان عليهما السلام يحبان الخيل وورث سليمان عن أبيه ألف فرس، وكان للنبي ﷺ فرس يقال له السكب.

نادوة: كانت مغنية عند رجل فلما أرادت الانصراف قال اسرجوا لها الاشهب فقالت لا أريده هو يمشى إلى خلف قال لها فحولى ذنبه إلى ناحية بيتكم.

القول فى طبائع الفرس: وإنما بدأت به لأنه قريب من الاعتدال الخالص وأحسن ذوات الأربع صورة وأفضل من سائرهما وأشبهها بالإنسان لما يوجد فيه من الكرم وشرف النفس وعلو الهمة وتزعم العرب أنه كان وحشيا وأول من ذلل صعبه وركبه اسماعيل عليه السلام وهو جنسان عتيق وهو المسمى فرسا وهجين وهو المسمى برذونا والفرق بينهما أن عظم البرذون أحسن من عظم الفرس وعظم الفرس أصلب وأثقل من عظم البرذون والبرذون أحمل من الفرس والفرس أسرع من البرذون والعتيقي بمنزلة الغزال والبرذون بمنزلة الشاة ولكل واحد منهما نفس تليق به وآلات مناسبة له وفى طبع الفرس الزهو والخيلاء والعجب والسرور بنفسه والمحبة لصاحبه ومن أخلاقه الدالة على كرمه شرف نفسه ومن شرفها أنه لا يأكل بقية عليق غيره وعلو همته كما حكى المؤرخون أن أشقر مروان كان سائسه لا يدخل عليه إلا باذن يحرك له المخلاة فإن حمحم دخل وإن دخل ولم يحمحم شد عليه وناهيك بهذا الخلق فى علو الهمة والأنثى من الخيل ذات شبق شديد ولشدة شبقها تطيع الفحل من غير نوعها ويقال إنه متى اشتد شبقها وقص من عرفها سكن عنها والذكر يشتد به الشبق ويزيد حتى يؤثر أن يأتى لفرط شهوته وقصور آتته عن الوفاء بتسكين ما يجد وربما اقتتل الفحلان بسبب الأنثى حتى تكون لمن يغلب منهما ويقال إن الإناث تمتلئ فى أوان السفاد ریحل وإذا أصابتها هذه الآفة ركض بها ركضا شديدا متتابعاً، ولا يؤخذ بها إلى الشرق ولا إلى الغرب بل إلى الشمال والجنوب حتى يخرج من أرحامها بشيء كما يخرج عند ولادتها وهى فى زمان السفاد تطأطئ برءوسها وتحرك أذنانها ويسيل

من قبلها شئ يشبه المنى غير أنه رقيق وإذا تودقت الرمكة فأفرطت وكان بها هزال أو ضعف من علة ولم يمكن أن تبرأ علتها لتلك أنزى عليها بغل لأنه لا يلحقها وهو يبلغ أقصى شفائها وغاية شهوتها بالذى معه من الطول والغلظ فيسكن ذاك عنها، والذكر يكون مع ثلاث إناث وأكثر وإذا دنا ذكر آخر من الأنثى التى اختارها قاتله وطرده والطمث يعرض للاناث لكنه أقل من طمث النساء والذكر ينزو اذا تمت له ستان وكذلك الإناث والإناث تحمل أحد عشر شهرا وتضع فى الثانى عشر وهى تضع ولدا واحدا وربما وضعت فى النادر اثنين والذكر ينزو إلى تمام أربعين سنة وربما عمر إلى تسعين سنة والأنثى تأنف من نزو الحمار عليها فإذا أريد ذلك منها أخذت بعرفها فتذل وتستكين وكذلك الفحل يأنف أن ينزو على أخته وعلى أمه ولقد حكى أنه أريد أن يحمل على رمكة ولد لها يريدون بذلك العتق فأنف فلما سترت بثوب نزا عليها فلما رفع الثوب ورآها من محضر ألقى نفسه فى بعض الأودية فهلك، والخيل قد ترى الأحلام وتحتلم كبنى آدم وذلك لفرط الشهوة فيها ومتى ضلت الانثى أو هلكت وكان لها فلو أرضعته الإناث وربته وإذا لم يكن فيها ما يرضع عطف عليه العواقر وتعاهدته ولكنه يهلك إذ ليس فيها لبن وربما ضل الفلو عن أمه فوضع من غيرها فإذا فعل ذلك ماتت أمه، ويعتري الفرس داء شبيه بالكلب وعلامته استرخا أذنيه إلى ناحية عرفه وامتاعه من العلف وليس لهذا الداء علاج الا السكين، وفى طبع الفرس أنه لا يشرب الماء الا كدرا حتى أنه يرد الماء وهو صاف فيضرب بيده حتى يكدره ويبين عكره وربما ورد الماء الصافى وهو عطشان فيرى فيه خيالا له ولغيره فيتحاماه ويأباه وذلك لفرعه مما يراه ويوصف بحدة البصر حتى أن بعض المغالين فيه يقول لو أجرى فرس من شوط بعيد فى يوم ضباب واعترضت بين يديه شعره لتوقف عندها ولم يتعهدا وفى طبعه أنه إذا وطئ على أثر الذئب حذرت قوائمه حتى لا يكاد يتحرك وخرج الدخان من جلده وإذا وطئته الحامل منها ازلفت.

فصل: والعلامات الجامعة للنجابة فى الفرس ما ذكره أبوب بن الفريه وقد سألته الحجاج عن صفة الجواد من الخيل فقال: القصير الثلاث الصافى الثلاث الطويل الثلاث الرحيب الثلاث، فقال صفهن فقال: أما الثلاث الصافية فالعينان والأديم والحوافر، وأما الثلاث القصار: فالعسيب والساق والظهر، وأما الثلاث الطوال: فالأنف والعنق والذراع، وأما الثلاث الرحبة: فالجوف والمنخر والجبهة.

ومما قيل فيه قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي:

ومجرر في الأرض ذيل عسيبه حمل الزبرجد منه جسم عقيق
يجرى فلمع البرق في آثاره من كثرة الكبوات غير مضيق
ويكاد يجرى سرعة من ظله لو كان يرغب في فراق رفيق

القول في طبائع البغل قال أصحاب الكلام البغل حيوان مركب من الفرس والحمار ومتولد من فساد منيهما ولما كان ممترجا بينهما صار له صلابة الحمار وعظم آلات الخيل وكذا سحيحه مولد بين نهيق الحمار وصهيل الفرس، وقال الجاحظ: البغل يخرج بين حيوانين يلدان مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقرة وهو أطول عمرا من أبويه وأصبر على الأفعال من طرفيه كابن المذكرة من النساء و المؤنث من الرجال فإنه يكون نتاجهما أخصب من البغل وأفسد اعراقا من السبع وأكثر عيوباً من الشعبان وشر الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادة والأخلاق المتعادية والعناصر المتباعدة ويقال إن أول من أنتجها قارون وقيل أفريدون ومن أخلاقه الألف لكل دابة ويذكر بالهداية في كل طريق يسلكه مرة واحدة ويقول أصحاب الكلام في الطبائع أن أبوال إناث الأبطال تنقية لأجسادها كما تنقى النساء بدم الطمث.

محائل النجابة في هذا النوع: قال بعضهم إذا اشتريت بغلة فاشترها طويلة العنق تجده في نجابتها مشرقة الهادي تجده في طباعها مجفرة الجوف تجده في صدرها، والاحسن في مدحها قول عبد الرحمن بن أبي ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب جواباً لصفوان بن عمرو بن الهمم وقد أنكر عليه ركوب البغل قال: تطأطأت عن خيلاء الخيل وارتفعت عن ذلة العير وخير الأمور أوسطها، ويقال كم في السواحيج من أسحج الخدين شهير الحدين شؤمه شؤم العناق ويومه شهر لذوات الأعناق راكبه يركب أبداً وطياً وتحسبه وهو يمر مر السحاب طياً، والاناث منها أحمد أثراً ولذلك قيل: عليك بالبغلة دون البغل فإنها جامعة للشمل مركب قاض وإمام عدل وعالم وسيد وكهل تصلح للرحل وغير الرحل.

وساير عبد الحميد مروان بن محمد الجعدي على بغلة فقال له طالت صحبة هذه الدابة لك فقال يا أمير المؤمنين من بركة الدواب طول صحبتها، فقال صفها فقال: همها أمامها وسوطها زمامها وما ضربت قط إلا ظلماً.

القول في طبائع الحمار الاهلي: قال المتكلمون في طبائع الحيوان ليس في الحيوان شيء ينزو في غير نوعه ويلقح ويأتي فيه شبهه إلا الحمار وهو ينزو إذا مضى له ثلاثون شهراً

ولا يولد له قبل أن يتم ثلاث سنين ونصف قالوا وهذا النوع صنفان: صنف عاس حاس وهو يصلح لحمل الاثقال، والآخر لدن دمت أحر وإيس من نفس الفرس فتراه كثير الشغب والحركة بمنزلة النار المتوقدة التى لا يهدأ اضطرابها فهذا يصلح أن يرفه للركوب فى قضاء الأوطار والحاجات وأجود الحمر المصرية وأهلها يعتنون بتربيتها والقيام عليها لما يجدونه من الفراهة وسرعة الحصر والنجابة ويبالغون فى أثمانها بحسب فراهيتها حتى بيع منها فى بعض السنين حمار بمائة دينار وعشرة دنائير فقد كان صاحبه يسمع أذان المغرب بالقاهرة فيركب ويسوقه فيلحقها بمصر وبينهما ثلاث أميال، ومن عادة الحمار أنه إذا شم رائحة الأسد رمى بنفسه عليه من شدة خوفه له يريد بذلك الفرار منه قال حبيب بن أوس الطائي فى أبيات يخاطب بها عبد الصمد بن المعدل وقد هجاه حيث يقول:

أقدمت ويلك من هجوى على خطر كالعبر يقدم من خوف على الأسد

ويوصف بالهداية لأنه لا يضل عن طريق سلكه ولو مرة واحدة ولا يخطئه فإن ضل راكبه هداه إلى طريق وحمله على المحجة وربما غاب عن الموضع الذى كان فيه السنين العديدة فاذا مر بالزقاق الذى فيه الموضع دخله وربما سرق فتكون معرفته للموضع عوناً لصاحبه على معرفة من سرقه، ويوصف بحدة حاسة السمع بحيث انه ينذر راكبه بما يتوقع خوفه فيحذر منه وإن بعد مثواه، وهذا الحيوان يحس بالبرد ويؤذيه أكثر من غيره ولهذا لا يوجد فى بلاد موغلة فى الشمال وبلاد الصقالبة ويعتريه داء الدماغ كالزكام يعرض له البرد فى دماغه ويسيل من منخره بلغم كثير حار فان انحط الى الرئة مات والطريق العجيب انه اذا نهق أضر بالكلب حتى يقال ان أهون نهيقه يحدث بالكلب مغسا فلذلك يطول نباحه:

طريقتان رأيت ألا أتركهما لأنهما أعجوبتان:

إحدهما: أنى ركب حماراً من مصر إلى القاهرة فلما كنت فى أثناء الطريق حادبى عن السكة فجهدت أن أردّه فلم أطق حتى انتهى الى جدار بستان فوقف وبال وعاد إلى الطريق، وكذا جرى لى مع حمارين آخرين.

والأخرى: انه كان عندنا رجل بمصر يضرب حلقة على حمار قد علمه وكان يجمع له عدة مناديل من المتفرجين عليه ويلقيها على ظهره ويأمر بان يعطى كل منديل لصاحبه فيدور فى الحلقة ولا يقف إلا على من له فى ظهره منديل فإن أخذه ذهب عنه وإن أخذ غيره لا يذهب ولو ضربه مائة ضربة ويأخذ الخاتم من أصبع الرجل ويسأله عن وزنه ويقول له كم وزن الخاتم فان كان وزنه درهما مشى خطوة واحدة وان كان درهما ونصفاً مشى خطوة ونصفاً وان كان أكثر من ذلك فبحسابه، وبينما هو واقف إذ قال له شخص الوالى يسخر

الحمير فما تم كلامه إلا وقد ألقى بنفسه على الأرض ونفخ بطنه وقطع نفسه كأنه ميت منذ زمان، ثم قال له بعد ذلك ما بقيت سخرة فنهض قائماً ذكر ذلك صاحب المباهج.
ما قيل فيه من الأوصاف:

قال أبو العيناء لبعض سماسرة الحمير: اشتر لي حماراً لا بالطويل اللاحق ولا بالقصير اللاصق إن خلا الطريق تدفق وإن كثر الزحام ترفق لا يصادم بي السوارى ولا يدخل بي تحت البوارى إن أكثرت علفه شكر وإن أقلته صبر وإن ركبته هام وإن ركبه غيرى نام فقال له: إن مسخ الله بعض قضائنا حماراً أصبت حاجتك وإلا فليست موجودة.

وقال شيب بن شبة لقيت خالد بن صفوان على حمار فقلت له: يا صفوان أين أنت عن الخيل؟ فقال تلك للطلب والهرب ولست طالبا ولا هاربا، قلت فأين أنت عن البغال؟ فقال تلك للانزال والانتقال ولست ذا نزل ولا ثقل، قلت فأين أنت عن البراذين؟ قال تلك للمعدين والمسرعين ولست معدا ولا مسرعا، قلت فما تصنع بحمارك؟ قال أدب عليه ديبا وأقرب عليه تقريبا وأزور إذا شئت عليه حبيبا، ثم لقيته بعد ذلك على فرس فقلت له يا صفوان ما فعلت بالحمار؟ قال بش الدابة إن أرسلته ولى وإن استوقفته أدلى قليل القوة كثير الروث بطيء عن الغارة سريع إلى الغرارة لا ينكح به النسا ولا ترقى به الدما.

ويروى أن سليمان بن على رآه على حمار فقال له زين الخيل يا أبا صفوان فقال الخيل للجمال والبغال للأثقال والإبل للأحمال والحمير للإمهال، وقال جرير بن عبد الحميد لا تركب الحمار فإنه إن كان حديدا أتعب بدنك وإن كان بليدا أتعب رجلبك .

ومما قيل فيه قول أحمد بن أبي طاهر:

شبة كأن الشمس فيها أشرقت	وأضاء فيها البدر عند تمامه
وكأنه من تحت راكبه إذا	ما لاح برق لاح تحت غمامه
ظهر كمجرى الماء لين ركوبه	فى حالتى أتعابه وحمامه
سفهت يده على الثرى فتلاعبت	فى حزنه وسهوله وإكامه
عن حافر كالصخر إلا أنه	أقوى وأصلب منه فى استحكامه
ما الخيزران إذا انتنت أعطافه	فى لين معطفه ولين عظامه
فكأنه بالريح منتقل وما	جرت الرياح كجريه ودوامه
أخذ المحاسن آمنا من عيبه	وحوى الكمال مبرا من ذامه

الجزار يصفه بالبلادة والعجز:

هذا حمارى فى الحمير حمار فى كل خطوة كبوة وعشار
قنطار تبن فى حشاه شعيرة وشعيرة فى ظهره قنطار

القول فى طبائع الإبل: وهذا النوع ثلاثة أصناف: عرابى ويمنى ونجيبى فاليمنى هو النجيب ويتنزل منها منزلة العتيق من الخيل والعرابى كالبرذون والنجيبى كالبغل ويقال النجيب ضأن الإبل وهى متولدة من فاسد منى العرابى فقط فان منى النجب منجب فكأنه حصل له نصف البغل فأما النجيب فزعم من حكى عن الجاحظ قوله: إن فى الإبل ما هو وحشى وأنه يسكن أرض وبار وهى غير مسكونة وقالوا ربما بدا الجمل فى الهياج فيحمله ما يعرض له على أن يأتى أرض عمان فيضرب فى أذنى ما هجمه من الإبل فالمهرية من ذلك التناج وتسمى الإبل الوحشية الحوس ويقولون إنها بقايا إبل عاد وثمود ومن أهلكه الله تعالى من العرب العاربة والمهرية منسوبة إلى مهرة قبيلة باليمن وهى لا يعد لها شىء فى سرعة عدوها يعلقونها بسمك يصاد فى بحر عمان يصاد ويقدّد، وأما النجيب فمنها ما يرهون مثل البراذين ومنها ما يجمز جمزا ويرقل ارقالا والجمز فى الإبل كالخبب فى الخيل.

وحكى أبو هلال العسكري فى كتاب الأوائل إن أول من رىضت له الإبل على الحمر أـ جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور لما حجت، وقال الجاحظ اذا ضربت الفوائح فى العرب جاءت بالجوامر والنجب الكريمة وفى البخت ما له سنامان فى ظهره كالسراج ولبعضه سنامان فى عرض ظهرها أحدهما فى ذات اليمين والآخر فى ذات الشمال وتسمى الخراسانية وقد يشق عن سنام البعير ويكشط جلده ثم يجتث من أصله ويعاد على موضعه الجلد فيلتحم عليه ويؤخذ السنام فيؤكل كما يفعل بعض الناس ذلك بالكباش اذا عظمت إليها وعجزت عن النهوض فيقطعونها، ويقول أصحاب السير لطبائع الحيوان: إنه ليس لشىء من الفحول مثل ما للجمل عند الهياج من الارباد وسوء الخلق وهجران المرعى وترك الماء حتى ينضم إبطاه ورأسه ويكون كذلك الأيام الكثيرة وهو فى هذا الوقت لا يدع إنسانا ولا جملا يدنو منه ولو حمل على ظهره حينئذ، مع امتناعه شهرا من الطعام ثلاثة أضعاف حملة لحمله وهو لا ينزو إلا مرة واحدة يقيم فيها النهار أجمع ينزل فيها مرارا كثيرة بجىء منها ولد واحد ويخلو فى البرارى حال النزو ولا يدنو منه غير راعيه الملازم وذكره صلب جداً لأنه من عصب، والأنثى تحمل اثني عشر شهرا وتلقح اذا مضى عليها ثلاث سنين وكذلك الذكر ينزو فى هذه المدة ولا ينزو عليها إلا بعد

أن تضع بسنة وفيه من كرم الطباع انه لا ينزو على أمهاته ولا إخوته ومتى حمل على أن يفعل
 حقد على من ألزمه ذلك إلى أن يقتله.

وحكى أن جملاً احتيل عليه بتغيير صورة أمه حتى نزا عليها ثم عرفها عند فراغه فألقى
 نفسه من شاهق حتى مات وليس فى الحيوان من يحقد حقه وأنه يترصد من حقد عليه
 الفرصة والخلو لينتقم منه فإذا أصاب ذلك لم يبق عليه، وفى طبعه الاهتداء إلى الطريق
 التى اعتاد سلوكها لا يضل فيها ليلاً ولا نهاراً والعرب تضرب به المثل فى ذلك فيقولون
 أهذى من جمل، والغيرة والصولة والصبر على الحمل الثقيل وعن الماء الزمن الطويل
 الخمسة أيام والستة والعشرة إذا كان الزمان ربيعاً، والعرب تسمى الأيام التى ترد فيها الإبل
 الخمس والسدس والسبع والثمن والتسع والعشر وكلها بالكسر ويقال إن البعير إذا صعب
 وخافته رعاته استعانوا عليه فتركوه وعقلوه حتى يلومه فحل آخر فإذا فعل به ذلك ذل والإبل
 تميل إلى شرب الماء الكدر الغليظ وهو الماء النмир فهى أبداً إذا وردت مياه الأنهار
 حركتها بأرجلها حتى تتكدر وهى عشاق الشمس فلهذا ترى أبداً تصوب إليها فى أى جهة
 كانت من المشرق أو المغرب.

ومن عجيب ما ذهبت إليه العرب فى الإبل إذا كثرت فبلغت الألف فقتلوا عين الفحل
 فان زادت على الألف فقتلوا عينه الأخرى ويزعمون أن ذلك يطرد العين عنها، ومما قيل فيها
 قول بعضهم لم تخلق نعم خير من الإبل إن حملت أثقلت وإن سارت أبعدت وإن حلبت
 أروت وإن نحرت أشبعت.

الشيخ عز الدين الموصلى فى حادى:

حاد لنا كالشادن الريب لحظته بالمنظر المريب
 فقال فى السكره عند نومه يا رب سلمها من الدبيب

وعلى ذكر الحادى قال الشيخ شمس الدين بن الصائغ أحسن ما سمعته من الحداة
 يحدون به جمالهم فى طريق الحجاز قولهم:

يا خودان طال المدى تنسينى ينسى الذى ينساك نوم العين
 وآخر يقول:

كم ليلة سهرتها لم أرقد إلا رقاداً كرقاد الأرمـد
 القاضى الفاضل فى وصف الخيل:

جنائب فى بحر العجاج سفائن فان حرّكت للركض فهى جنائبه
 وقد خفقت راياته فكأنها أنامل فى عمر العدو تحاسبه

وله من قصيدة:

لها غرر يستضحك النصر وجهها ففتفهم منها العين معنى البشائر
وقال النبى ﷺ: «بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معونون عليها.

صفة جياذ الخيل: سأل معاوية من صمصمة بن صوجان أى الخيل أفضل؟ فقال الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافى الثلاث، فقال فسر لنا قال أما الطويل الثلاث: فالأذن والعنق والحزام وأما القصير الثلاث: فالصلب والعسيب والقضيب وأما العريض الثلاث: فالجبهة والنحر والورك وأما الصافى الثلاث: فالأديم والعين والحافر، كان محمد ابن السائب الكلبى يحدث إن الصافنات الجياذ المعروضة على سليمان بن داود كانت ألف فرس ورثها عن أبيه فلما عرضت عليه ألهمته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب فعرقبها إلا فرسا لم تعرض عليه فوفد عليه قوم من الازد وكانوا أصهاره فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبى الله إن أرضنا شاسعة فزوّدنا زادا يبلغنا فأعطاهم فرسا من تلك الخيل، وقال فاذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا فانكم لا ترون ناركم حتى يأتىكم بطعام فساروا بالفرس فكانوا لا ينزلون منزلا إلا ركبهم أحدهم للقنص ولا يفلت شىء تقع عينه عليه من ظبى أو بقرة أو حمارة إلى أن قدموا بلدهم فقالوا ما لفرسنا هذا اسم إلا زاد الراكب فسموه زاد الراكب فأصل فحول العرب من نتاجه، وطلب البحترى الشاعر من سعيد بن حميد الكاتب فرسا فوصف له انواعا من الخيل فى شعره فقال:

لاكلفن العيس أبعد همة	يجرى إليها خائف أو مرتجى
والى سراة بنى حميد أنهم	أمسوا كواكب أشرقت فى مدحج
والبيت لولا أن فيه فضيلة	تعلو البيوت بفضل له لم يحجج
فأعن على غزو العدو بمنظو	أحشاؤه طى الرشا المتدرج
اما بأشقر ساطع أغشى الوغى	بمثل الكوكب المنأجج
متسربل شية طلت أعطافه	بدم فما تلقاه غير مخرج
أو أدهم صافى الأديم كأنه	تحت الكمى مطهر بالنبرج
صرم يهيج السوط من شؤبويه	هيج الجناث من حريق العرفج
خفقت مواطى وقعه فكلونه	يجرى برملة عالج لم يرمج
أو اشهب يقق يضى وراءه	متن كمتن اللجة المترجرج
يخفى الحجول ولو بلغن لبانة	فى أبيض متألّق كالدملج
أوفى يعرف أسود متعرف	فيما يليه وحافر فيروزجى

أو أبلق يملأ العيون اذا بدا
من كل لون معجب بنموذج
جذلان تحسده الجياد إذا مشى
عنقا بأحسن حيلة لم تنسج
وعريض أعلا المتن لو عليته
بالزيبق المنهال لم يتدحرج
خاضت قوائمه القويم بناؤها
أمواج بجنيب بهن مدرج
ولانت أبعد فى السماحة همة
من ان يضمن بملجم أو مسرج

نادرة: ذكرها أبو حيان التوحيدى فى الامتناع والمؤانسة قال الاصمعى مر اعرابى على قوم وهم على ماء لهم فقال: من رأى جملاً أحمر بعنقه غلاط وفى أنفه خزيمة يتبعه بكرتان سمران عهد العاهد به عند البثر؟ فجعل القوم يقولون حفظ الله علينا وجمع عليك لا والله ما أحسنا وجورية على حوض لها تمدر وهى تقول لاجمع الله عليك يا فاسق فقالوا ما تريد من الرجل، قالت إنما ينشد سوائيه قال فتبعته فقلت له يا هذا ما تنشد قال ابرى وخصيتى.

نادرة: اشترى رجل من رجل برذونا فقال له المشتري سألتك بالله هل فيه عيب قال لا الا أن فيه قليل مشمش كأنه سفرجله وقليل جرد كأنه قناية وكليل دبر كأنه بطيخة، فقال له المشتري يا بن الفاعلة جثنا نشترى منك برذونا أو بستانا.

قال المدائنى كان ابن أبى هريرة يساير سنان بن مكملة النيمري فتقدمت بغلة النيمري ابن هيرة فقال غض من بغلتك فالتفت اليه النيمري وقال أصلح الله الأمير إنها مكتوبة وإنما أراد ابن هيرة قول الشاعر:

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وأراد النيمري قول سالم بن دارة من بنى فزارة:

لا تأمنن فزاريا خلوت به
على قلو صك وأكتبها باسبار
وكتب الوهرانى على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك المملوكة ربحانة بغلة الوهرانى يقبل الأرض بين يدي الأمير عز الدين حسام أمير المؤمنين نجاه الله من حر السعير وعطر بذكره قوافل العير ورزقه من القرظ والتبن والشعير وسق مائة ألف بعير واستجاب فيه صالح أدعية الجمل الغفير من الخيل والبغال والحمير، ونهى إليه ما تقاسيه من مواصلة الصيام وسوء القيام والتعب فى الليل والناس نيام، قد أشرفت مملوكته على التلف وصاحبها لا يحتمل الكلف ولا يوافى بالخلف ولا يقول بالعلف لأنه فى بيته مثل المسك والعنبر والاطريفل الأكبر أقل من الأمانة فى الاقباط والعقل فى رأس قاضى سنباط فشعيرة

أبعد من الشعرى العيور ولا وصول اليه ولا عبور وقراطه أعز من قرط مارية لا يخرجها صدقة ولا هبة ولا عارية والتبن أحب إليه من الابن والجلبان أعز من دهن البان والقصيم بمنزلة الدر النظيم والقضة أجمل من سبائك الفضة وأما الفول فمن دونه ألف باب مقفول فما يهون عليه ان يعلف الدواب إلا بعيون الآداب والفقه اللباب والسؤال والجواب وما عند الله من الثواب ومعلوم يا سيدى أن البهائم لا توصف بالحلوم ولا تعيش بسماع العلوم ولا تطرب إلى شعر أبى تمام ولا تعرف الحرث بن همام ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الاشغال شبكة من الفصيل أحب إليها من كتاب التحصيل وقفة من الدريس أشهى إليها من فقه ابن ادريس لو أكل البغل كتاب المقامات مات وإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع وإن قيل له أنت هالك إن لم تأكل موطأ مالك ما قبل ذلك وكذلك الجمل لا يتغذى بشرح أبيات الجمل وحزمة من الكلاء أحب إليه من شعر أبى العلاء وليس عنده طيب شعر أبى الطيب وأما الخيل فلا تطرب إلا لسماع الكيل وإذا أكلت كتاب الذيل ماتت فى النهار قبل الليل والويل لها ثم الويل ولا تستغنى الاكاديش عن الحشيش وكل ما فى الحماسة من شعر أبى الحريش وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار حل به الدمار وأصبح منفوخا كالطبل على باب الاصطبل وبعد هذا كله فقد راح صاحبها الى العلاف وعرض عليه مسائل الخلاف فطلب من تبته خمس قفاف فقام اليه بالخفاف يخاطبه بالشعر وفسر عليه آية التعبير وطلب منه وبة شعير فحمل على عياله ألف بعير فانصرف الشيخ منكسر القلب مغتاظا من الثلب وهو أنحس من ابن بنت الكلب فالتقت الى المسكينة وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة وقال لها إن شئت أن تكدى فكدى لا ذقت شعيرا ما دمت عندى فبقيت المملوكة حائرة لا قائمة ولا نائرة فقال لها العلاف لا تجزعى من خباله ولا تلتفتى على سباله ولا تنظرى الى نفقته ولا يكون عندك أخس من عنفقه هذا الامير عز الدين سيف أمير المؤمنين عز المجاهدين أندى من النمام وأمضى من الحسام وأبهى من البدر ليلة التمام يرئى للمحروب ويفرج عن المكروب وهو من بنى أيوب ولا يرد قائلاً ولا يخيب سائلاً فلما سمعت المملوكة هذا الكلام جذبت الزمام ورفضت الغلام وقطعت اللجام وشقت الزحام حتى طرحت خدها على الاقدام ورأيت العالى والسلام.

ذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف انه لما مات أحمد بن طوابع ترك فى بيت ماله عينا عشرة آلاف دينا، فبـ اصله ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم

سوى ما كان مودعاً عند حميد الطويل وهو ألف دينار سوى ما حمل إلى المعتمد فى أربع سنين أولهن سنة اثنين وستين ومائتين ما نفدت به الفاتج لم يظهر بعضه وهو ألفا ألف ومائتا ألف دينار، وكان له أربعة وعشرون ألف غلام مملوكا، وخمسة وعشرون ألف أسود، وتطبق جريدته على سبعة آلاف حر مسترزق، وخلف من الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس وثلاثمائة وثلاثين رأسا، ومن البغال ستمائة بغل، ومن الجمال ألفين ومائة جمل، ومائة مركب حربية، ومن الدواب المركوب مائة ألف وثلاثين دابة وكان خراج مصر فى السنة التى مات فيها أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار مع ما يضاف إليها من ضياع الأمراء بالحضرة وأنفق على الجامع مائة وعشرين ألف دينار وعلى البيمارستان ومستغله ستين ألف دينار وأنشأ فى سنة تسع وخمسين ومائتين وحبس عليه سوق الرقيق وغيره ولم يكن قبل بمصر بيمارستان وكان قد شرط ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك وكان يباشره ويشارفه بنفسه ويركب اليه فى كل أسبوع مرة وأنفق على عين المصنع ببركة الجيش مائة وأربعة وأربعين ألف دينار وعلى شرر الجزيرة ثمانين ألف دينار ولم يتممه وعلى الميدان مائة ألف دينار وخمسين ألفا وكانت صدقاته فى كل شهر ثلاثة آلاف دينار ورسم مطبخه فى كل يوم مائة وعشرون دينارا ومات فى سنة سبعين ومائتين وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا ومن الاناث سبعة عشر أنثى.

فائدة جلييلة: قال ابن عباس رضي الله عنه: من هرب من عدو أو خاف فكتب بسوطه بين أذنى دابته لا تخاف دركا ولا تخشى أمنه الله من خوفه وحال بينه وبين عدوه.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه غيث الأدب ويحكى أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصى أنت عندنا مثل الاب وشدد الباء فقال لا جرم أنكم تأكلونى وأقول لا يخفى ما فى هذا التنذير من اللطف لان الاب مشدد الباء هو المرعى، قال بعضهم هو للدواب بمنزلة الخبز الذى للاناسى ومن يشدد الباء من الاب الذى هو الوالد ما يكون الا دابة، قال الشيخ بدر الدين الدمامينى رحمه الله تعالى رادا عليه قصد الصفدى بهذا الكلام الرد على من شدد باء الاب المراد به الوالد وفيه دليل على قصوره فان الامام جمال الدين بن مالك نص فى التسهيل على ذلك قال فى أوائله: وقد تشدد نون هن وبا أب وخا أخ وحكى فى الشرح عن الازهر أن تلك لغة كوفية ويقال استأيت فلانا بياين أى اتخذته أبا وإذا كان كذلك فلا وجه للانكار على الرئيس الذى شدد الباء من أب.

قلت: ولو قال القوصى فى جوابه لا جرم انكم ترعونى لكان ألطف فى التنذير وأحسن موقعا مما قاله والله أعلم انتهى كلام أفضى القضاة بدر الدين المخزومى.

الشيخ جمال الدين الزملكانى:

وفى حلبة الخد من أدمعى خيول تجول ولا تركب
فسبق الكميت بها بين ولكن تقدمه الاشهب
وعلى ذكر البغال: ذكرت قول شمس الدين الضفدع الخياط فى وقعة القاضى شهاب الدين محمد بن المجدد عبد الله الاربلى الدمشقى الشافعى الذى مات فيها:

بغلة قاضينا اذا زلزلت كانت له من فوقها الواقعه
تكاثر ألهاه من عجبته حتى غدا ملقى على القارعه
وأظهرت زوجته عندها ضايقة بالرحمة الواسعه
أبو الحسين الجزار وقد رآه بعضهم ماشيا عقيب موت حماره:

كم من جهول رآنى أمشى لا أطلب رزقا
وقال لى صرت تمشى وكبل ماش ملقى
فقلت مات حمارى تعميش أنت وتبقى

المعمار:

ان ابن الاطروش حوى رتبة باع بهما الجنة بالنار
تنصرت بغلته تحته وأصبحت تمشى بزنار
ابن دانيال مضمنا:

ولقد ركبت من الحمير مكدا مكرا بطيا للحران مصاحبا
رجلاى فى جنبه منذ ركبته لن يفترأ فغدوت أمشى راكبا
ابن نباتة:

أصبحت يا سيدى ويا سدى أقص فى أمر بغلتى القصصا
بالأمس كانت لفرط سرعتها طيرا وفى اليوم أصبحت قفصا
الحلى مضمنا:

رأى فرسى اصطبل عيسى فقال لى قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل
به لم أذق طعم الشعير كأننى بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تقعقع من برد الشتاء أضالعى لما نسجتها من جنوب وشمأل
إذا سمع السواس صوت تحمحمى يقولون لا تهلك أسى وتجمل

أعوّك فى وقت العلوق عليهم وهل عند رسم دارس من معوّل
حكى أن العماد الكاتب قال للقاضى الفاضل: سر فلا كبا بك الفرس، فقال له دام علا
العماد.

ولبعض أهل عصره أعنى الحسين الجزار:

مضى وقد فات منه ما فاتا مات حمار الاديّب قلت لهم
خلف مثل الاديّب ما ماتا من مات فى عزه استراح ومن
وقال شرف الدين البوصيرى ناظم البردة فيه:
فلا تياسن لهذا الاديّب عليه فللموت ما يولد
إذا عشت أنت لنا بعده كفانا وجودك ما نفقد
قال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس كان للشيخ شرف الدين البوصيرى حمارة
استعارها منه ناظر الشرقية فأعجبه فأخذها وسير له ثمنها مائتى درهم فكتب على لسانها الى
الناظر المذكور المملوكة حمارة البوصيرى:

يأيها المولى الذى أنبتت أخلاقه بأنه الفاضل
ما كان ظنى ان يبيعوننى قط ولكن صاحبى جاهل
لو جرصوه على من سفه لقلت غيظا عليه يستاهل
أقصى مرادى لو كنت فى بلدى أرعى بها فى جانب الساحل
وبعد هذا فما يحل لكم لاننى من سيدى حامل
فردها الناظر ولم يأخذ الدراهم منه، لناصر الدين بن النقيب:

نفقت لى رأسا من الخيل كانت تسبق البرق والرياح الزعازع
وابتلى الله فى المشاعر اخرى بشقاق لها عن المشى مانع
فاذا قيل كم بقى لك رأس قلت رأس بغير كوارع
وللشيخ جمال الدين بن نباتة وأفحش فى السرقة فى فرس له ثمل الأربعة:

يقول لى صاحب وفى والخيل تحت الورى تسارع
كم لك فى ذا الزمان رأس فقلت رأس بلا كوارع
ابن دانيال:

قد كمل الله برذونى بمنقصة وشانه بعدما أعماه بالعرج
أسير مثل أسير وهو يعرج بى كأنه ساشيا ينحط من درج
فإن رمانى على ما فيه من عرج فما عليه اذا مات من حرج

صلاح الدين الصفدى فيمن وعده ببغل:

طلبت البغل منك فقلت إنى أسيره وما كذب الكلام
نعم أتعبته ركضا ولما أتى الاسطبل سيره الغلام

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى أنشدنى لنفسه المولى جمال الدين محمد بن نباتة

بدمشق المحروسة سنة تسع وعشرين وسبعمائة:

ورد من العرب منسوب ولا قطعت أيدى الحوادث من انشائه شجره
إذا امتطى ظهره رامى السهام مضى والسهم حذوا فلولا سبقه عقره
عجبت كيف يسمى سابحا وله وثب لو البحر أمسى دونه ظفره
كأنه فى هضاب الحسن صاعدة أولا فصاعة فى الحسن منجدره
لما ترفع عن ندى سابقه أضحى يسابق فى ميدانه نظره

قال صلاح الدين وأنشدنى من لفظه لنفسه المولى جمال الدين يوسف بن سليمان بن

أبى الحسن الصوفى بدمشق فى جمادى الاولى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة وهو:

وأدهم اللون فات البرق وانتظره فغارت الريح حتى غيبت اثره
فواضع رجله حيث انتهت يده وواضع يده أتى رمى بصصره
شهم تراه يحاكى السهم منطلقا وما له غرض مستوقف خبره
يعفر الوحش فى البيداء فارسه وينثنى وادعا إذ يستتر غبره

شرف الدين أحمد الحلوى وأجاد:

جساء غلامى وشكا أمر كميئنى وبكى
وقال لى لا شك بر ذونك قد تشكى
قد سقته اليوم فما مشى ولا تحركا
فقلت من غسيظى له مجاويا لما حكى
ابن الحلاوى أنسا فلا تكن مملكا
لو أنه مسير لما غدا مشبكا

ابن نباتة:

وأدهم اللون حندسى فى جريه للورى عجائب
يقصر سعى الرياح عنه فكلها خلفه جنائب

ابن سعيد المغربى فى فرس أغر أصفر:
وعسجدى اللون أعدده
كانه فى رهج شمعة
وله فى أدهم أغر:

لساعة تظلم أنوارها
مصفرة غريبة نارها
ليل بجلباب الصباح ملثما
فصيرها دية إلى الافق سلما

وقد أغتدى والليل قد سل صبحه
وأحسبه خال الثريا لجامه

ولابن خفاجة فى أشقر أغر:

بشعلة من شعل البساس
حبابة تضحك عن كاس

وأشقر يضرم منه الوغى
وتطلع الغرة فى شقرة

النامى:

إلى آذانها بشرى الجلود
قيامها فى صحائف من بنود

ومصغية كأن الحرب تلقى
ترى آذانها ألفات سطر

الارجانى:

لحرف مديم الرفع والجبر والنصب
كأن بأيديها مصابيح للركب

وحرف يجوب القاع والوهيد والربى
نجائب يقدح الحصى كل ليلة

ابن سعد فى فرس لوانيا أغر أكحل الحليلة:

وللفجر فى خصر الظلام وشاح
ظلام وبين الناظرين صباح

وأجرد تبرى أثرت به الثرى
عجبت له وهو الاصيل بعرفه

ابن نباتة السعدى فى فرس محجل بغرة:

فأقتص منه فخاض فى أحشائه

وكأنما لطم الصباح جبينه

الشيء بالشيء يذكر قال ابن الحجاج فى المجون:

ايرى فقلت لها مقالة فاجر
حتى يصدق فيك قول الشاعر

غضبت صباح وقد رأتنى قابضا
بأنه الا ما لظمت جببينه

أشار إلى البيت المتقدم الاديب الفاضل الكامل الرحال إبراهيم الساحلى المنبوذ

بطويجن مولده بعرفة، ووفاته بعد سنة تسع وثلاثين وسبعمائة من قصيدة:

من نسل أعوج أو بنات الابجر
عارى النواحق مستدير المحجر
ولوى بسالفتى غزال أعفر

ذهبوا إلى الهيجا بكل طمرة
من كل مخضوب الشوى عبل القرى
ألوى بقادمى جآجى أفتخ

وأدار جفنا أشوسيا مبصرًا ظل الفوارس فى الظلام المعكر
من أحمر كالورد أو من أصفر كالورس أو من أشهب كالعنبر
وبكل صهوة أجرد منقطب إلا إذ اضحك السنان السمهري

لسان الدين بن الخطيب:

قال جوادى عندهما همزت همزا أعجزه
إلى منى تهممزنى ويل لكل هممهزه

أحمد بن سعيد بن غازى البستى يصف ناقة:

حرف كمثلى الصاد إلا أنها بعد السرى جاءت كحرف النون
كالبدر قدره الإله منازلًا فى الأفق حتى صار كالعرجون

ما أحسن قول الشريف العقيلي وإن لم يكن مما نحن فيه:
وأدهم من خيول الجوفانى فثار من الضباب له غبار
إذا أبدى صهيل الرعد منه لوحش المحل داخله نفار
أشبهه ولمع البرق فيه بحراق تمشت فيه نار

نادرة: ذكرها العلامة شهاب الدين أحمد بن فضل الله فى كتابه مسالك الأمصار فى ترجمة موفق الدين عبد الله المعروف بالوزن الواغظ الكحال المتطبب أنه كان بالقاع والى من أهل الادب يعرف بابن درياس واسمه على وكان ينظم الشعر ويتوالى والوزير بدمشق اذ ذاك بدر الدين جعفر بن الامدى وكان يتوالى أيضا فاتفق أنه ولى عنده بالقاع كاتباً ممن سلم من التسمير من ديوان المطابخ وكان من حديث هؤلاء أنهم سرقوا قندا كثيرا كان قد حمل من غور الكرك ليطبخ بدمشق للسلطان فبلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس فأمر بهم فسمروا وطيف بهم على الجمال الا هذا الكاتب فإنه شفع فيه فأطلق بعد أن قدم له الجمل ليسمر فلما استخدمه ابن الامدى بالقاع ضيق على ابن درياس فأقام يعمل قريحته فيما يكتبه إلى ابن الامدى فلم يأت بشيء فسأل الوزن فى ذلك فكتب:

شكية يا وزير العصر يرفعها ما كان يأمل هذا من ولاك على
لم يبق فى الارض مختار فتبعه الا فنى من بقايا وقعة الجمل

فضحك ابن الامدى وعزله، ومن انشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وينهى وصول ما أنعم به من الخيل التى وجد الخير فى نواصيها واعتد حصنها حصونا يعتصم من الوغى بصياصيها فمن أشهب غطاء النهار بحلته وأوطاه الليل على أهله يتموج أديمه ريا

ويتأرجح رثيا ويقول من استقبله فى حلى لجامه هذا الفجر قد أطلع الثريا إن التفت للمضايق
انساب انسياب الأيم وان انفجرت المسالك مر مرور الغيم كم أبصر فارسه يوما أبيض
بطلعته وكم عاين طرف السنان مقاتل العدا فى ظلام النقع بنور أشعته لا يسير داحس فى
مضماره ولا تطلع الغبراء فى شق غباره ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره تسابق مداه
مراعى طرفه ويدرك شوارد البروق ثانيا عطفه ومن أدهم حالك الأديم حالى الشكيم له مقلة
غانية وسالفة ريم قد ألبسه الليل برده وأطلع بين عينيه سعده يظن من نظر إلى سواد طرته
وبياض حجوله وغرته أنه توهم النهار نهرا فخاضه والقى بين عينيه من رشاش تلك
المخاضة ومن أشقر وشاه البرق بلهيه وغشاه الاصيل بذهبه يتوجس ما لديه برقيقتين
وينفض وفرتيه عن عقيقتين وينزل عذار لجامه من سالفته على شقيقتين له من الراح لونها
ومن الريح لينها إن جرى فبرق خفق وإن أسرج فهلال على شفق ومن كमित نهى كأن راكبه
من مهد عند مى الاهاب شمالي الذهاب يزل الغلام الخف عن صهواته وكان نغم الفريض
ومعبد فى لهواته فسيح قصير المطا إن ركب لصيد قيد الاوابد وأعجل عن الوثوب
الوحوش اللوابد ومن حبشى أصفر يروق العين ويشوق القلب بمشابهة العين كأن الشمس
ألقت عليه من أشعتها جلالا وكأنه نفر من الدجى فاعبق منه عرفا واعتلق حجالا ذو كفل
زين سرجه وذيل يسد اذا يرتد منه فرجه قد أطلعت الرضاة على مراد راكبه وفارسه وأغناه
نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده وتوشيع ملابسه له من البرق خفة وطيه وخطفه ومن
النسيم طروقه ولطفه يطير بالغمز ويدرك بالرياضة مواضع الرمز ويعد كآلف الوصل فى
استغناء مثلها عن الهمز ومن أخضر حكاة من الروض تفويفه ومن الوشى تقسيمه وتأليفه قد
كساه النهار والليل حلتى وقار وسنا واجتمع فيه من البياض والسواد ضدان لما استجمعا
حسنا ومنحه البارى حلية وشيه ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضه وخفة مشيه ومن أبلق
ظهره حرم وجريه ضرر ان قصد غاية فوجود القضاء بينه وبينهما عدم وان طرف فى حرب
فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما يريد الكف والقدم قد طابق الحسن البديع بين ضدى
لونه فى جنسه عن الاوصاف وعدل بالرياح عن مباراته سلوكها من الاعتراف له بجادة
الانصاف وترقى المملوك إلى رتب العز من ظهورها وأعداها لخطبة الحسان اذ الجياد عليها
من أنفاس مهورها وكلف بركوبها فلما أكمله عاد وكلما أمله سره فلو أنه زيد الخيل لما زاد
ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الاصائل وعلم انها ليومى حربيه وسلمه جنة الصائد

وجنة الصائل وقابل احسان مهديها بشائه ودهائه وأعدّها فى الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه والله تعالى يشكر بره الذى أفرده الندى بمذاهبه وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى.

ومن انشاء الشيخ محبى الدين بن عبد الظاهر وسير من الخيول الرهاوين كلما هو على الحسن مشتمل ومع سرعته يمشى الهويّنا كمشى الشارب الثمل من كل أشقر كأنه النجم السريع لا البطى وكل أحمر كالشفق وغرته ما يتخلل الشفق من النور المضى وكل أشهب كالنار وما فى هذا من السواد ما بذلك من أواخر الليل وأوائل العشى وكل أصفر حبشى يحسن أن يكون الركاب المقر خادما وكيف لا وهو الخصى الحبشى ومن البغال كل فارهة الوثبة كارهة ألا تكون دون رتبة الجياد فى حلبة كم قاست بذراعها شقة أرض فعلمت طولها من عرضها وكم لحقت بمشيئها ما تلحقه الجياد بركضها كم حسب راكبها أنه من وطئ ظهرها على فرش مرفوعة وكم بويع لها بالخلافة عن الجرد المطهمة على أنها مخلوعة يشهد بتمام حسننها العقل ويصدق على ذلك منها صحة النقل ما ضررتها هجنة أمها مع أصالة أبيها وأمها هجينة وما شأنها ذلك والله تعالى ساوى بينهما بقوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾^(١) تسبق الطرف والطرف وأمها خالها وما هى حرف.

ومن انشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة وأما الخيل المسيرة فقد وجد المملوك لذة أنسها وأوجب على نفسه فروض خمسها واستنهض لشكر محاسنها براعته فسعت ولكن على رأسها واستنزلت له الآمال من صياصيتها وحلت منه محل الخير المعقود فى نواصيتها وأمدّه بالاسعاف مددها وقبلها عوض أنامله الشريفة لأنها عددها وما هى الا زهرات أنبتتها سحب كفه الكريمة وعقود من طوق بها جيد العبد فسيح بمدايح نعمها العيمة ومنابر قام عليها خطيبا بمحاسنه التى من كتّمها فكأنما كتّم من المسك نظيمه فمن أشهب كأنه طلعة نحج أو قطعة صبح أو غرة فما تغرب بأشعته أبدار جنح قد تزينت منه الأوضاع وانقطعت دون غايته الاطماع واعتذرت له الريح فصبوب أذنيه للسمع وأصبح لصاحبه نعم العون فى يوم السبق والغوث فى يوم القراع وكاد يكون من الملائكة فكّم له من غبار السبق أجنحة مثنى وثلاث ورباع ما خفيت مصلحة الا قبضها ولا ادلهمت سحابة نفع إلا أقام بنفسه وبيضها وما حدث عن حسن إلا رآه ولا امتطاه عازم إلا حمد عند صباح لونه مسراه تقرب

الطلب سفارة عزائمه المسفرة ويختال فى الخيل كالنهار فلا جرم أن آيته مبصرة كم ثنى
عنانه كبرا عن مسابقة الرياح وأعرض وكم تعب عليه عازم حتى فاز منه بالعيش إلا أنه
الابيض يتلوه أشقر كلمعة برق أو غزالة شرق فسيح الليان رقيق مجرى العنان يروق
الابصار ويدنى الاوطان والاطوار ويسمع بوق حوافره صم الاحجار يضعف البصر عن
اقتفاء ماله من السنن ويعجز عن بلوغ غايته السيل إذا هجم والغيث إذا هتن وتقصر عن
شأوه الرياح فعن عذر إذا حثت فى وجهها التراب للحزن فكأنما صعد لأشعة النجوم
فكسبها أو راهن البرق على حلته فلبسها وسلبها قرنت حركاته بحسن الاتفاق وحكته فى
تطلعها الشموس عند الاشراق وامتدت كف الشريا تمسح وجهه من غبار السباق يتبعه
كميت يسر الناظر ويشوق الخاطر كأنه جذوة نار أو كأس عقار أحلى من الضرب له من
نفسه طرب كم خدمه من النصر أعوان وأسكره اسمه فاخترت تحت راكبه كالشوان وزاد
لونه حتى كأنما هو بهرام وأجله عن أن أقول بهرمان أسرع الاشياء شوطه وأضيع ما فى عدته
سوطه يجمع لراكبه ما بين الطرب والجلالة وتحتجب الشمس إذا تصدى لصيد خوفا من
تسميتها بالغزالة كم أرعد صهيله وأبرق وكم لقى منه الموت الاحمر العدو الازرق
قصرت عن معاناته الهمم واسود ذنبه وعرفه فكأنهما لذوب نار جسمه حمم يوسع أهل
الحمى برا ويعقد بخنجر نعله أديم الارض سيرا يقفوه أصفر يسر النظار ويسمو على النظار
ويشوق البصائر وربما شق سعيه على الأبصار ويخفق وراءه حتى قلب البرق إذا ذكرهما
السبق فى مضمار كم أوسع وقعه فى ليل السرى من سمر وكم نقش نعله ظهر جبل فجاء
كما قيل نقش فى حجر يطلع بسماء الطلب أهلة هو عيدها وإذا امتطاه عازم رأى الأرض
تطوى له ويدنو بعبيدها كم حسن خبرا وخبرا وتأثير وأثرا وكم عشا إلى نار سنا بكة طارق
فأجزل له من قصده القرى كأنما خلع عليه الدهر حلة ذهب وهبته صفرة لونها الراح حين
تجلى بالحب لو أمكن أول فجر لما سمى فى زمنه بالسرحان ولو كتب اسمه على مقدمة
طليعة قرنها اليمن واليمان يصحبه أدهم كأنما التحف سبجا أو دخل تحت ذيل الدجى
تخضع عواصى الذرى لعزته وينشق الصباح غيظا من تحجيله وغرته كأنما لطمت يد الفجر
فخاض فى أحشائه وورد نهر المجرة فطارت لجبهته نقطة من مائه فسيح المنتشت متدرع
ملابس حب القلوب والحدق كم غنت شوامخ الجبال لجلاله وقصرت عنه الخيل حتى لم
تسابق الا ظل ادباره واقباله وخاف سطوته الليل فحياه بمثل أنجمه وأنعله بهلاله بسر

الموالى ويسوء المناصب ويأتى من صباح تحجيله وليل تكوينه بالعجائب وتكبو الريح دون
شأوه فكلها من خلفه جنائب ولا برح سيدنا يجيد فى القول ويجود فى العمل ويتطول من
خفى كرمه ومفيد كلمه بما لا تترقى إليه همة أمل إن شاء الله تعالى تم ذلك.

وقال مجير الدين بن تميم مضمنا:

بعثت عندى جوادا لا حراك به
فلا يغررك منه سنه غلظا
ابن النبيه من قصيدة:

فهى مثل القسى شكلا ولكن
تركته الحداة فى الخفض والرف
علاء الدين ابن أبيك من قصيدة:

له خطبة الخيل العتاق كأنها
عرانس أغتها الحبول عن الحلى
فمن يقق كالطرس تحسب أنه
وأبلى أعطى الليل نصف اهابه
وورد تغشى جلده شفق الدجى
وأشقر مج الراح صرف أديمه
وأشهب فضى الانام مدثر
كما خطر الزاهى بمهرق كاتب
تهب على الاعداء منها عواصف
سرى كل طرف كالغزال فتمترى
وقد كان فى البيداء يالف سره
تناوله لفظ الجسواد لأنه

ابن خفاجة:

ولم أر الا غرة فوق شقرة
نادوة: وقف اعرابى على أبى عبيدة فقال له ما يعنى الشاعر بقوله:
ولقد علوت بمشرف يا فوخه
يأتى المجسة ماؤه يتفصد
مزج يسيل من المزاج لعبه
فيكاد جلد اهابه يتقد

حتى علوت به مشق ثنية
 طورا أغور به وطورا أنجد
 فقال يصف فرسا فقال الاعرابى حملك الله عليه.
 برهان الدين القيراطى فى حمارة:

تراه أولا فى الأكل سبقا
 وعند السير يأتى فى الأخير
 وكم وضعوا سكرجة بفيه
 فما منعته عن صحن الشعير
 عرض شريح ناقة لبيعهها فجاء إليه رجل من قريش فقال له يا أبا أمية كيف لبنها فقال
 احلب فى أى اثناء شئت، قال فكيف الوطأ قال افرش ونم، قال فكيف قوتها قال احمل على
 الحائط ما شئت، فاشتراها فلم يحد شيئا مما وصف فرجع إليه فقال له لم أر شيئا مما
 وصفتها به قال ما كذبتك، كتب الصابى عن بختيار إلى أبى تغلب فى وصف فرس أهده له
 أما الفرس الذى سألت ايثارك به فقد تقدمنا نقوده إليك والله يبارك لك فيه ويجعل الخير
 معقودا بناصيته والاقبال غرة وجهه وادراك المطالب تحجيله ونيل الامانى طلق شأوه وفتح
 الفتوح غاية شدة وسلامة العواقب مشى عنانه.
 ابن حمدى الصقلى:

وكانها نون تمط وعينها
 ميم لطول نحولها بالفدند
 كحلت جفون الليل منها بالسمرى
 وتكحلت منه بلون الاثمد
 فلجسمها والصبح يتبع نوره
 من جفن ليلتها انسلال المروء
 يا ليلتها كانت سفينة زاجر
 فتخوض بى مد العباب المزبد
 فأرى ابن حمدان ونور جبينه
 يجلو سناء قذى جفون الارمد
 وله فيهن:

قلاص حباهن الهزال كأنها
 حنيات نبع فى أكف جوادب
 إذا وردت من زرقة الماء أعينا
 وقفن على أرجائها كالحواجب
 ومما جاء فى رقية الدابة عن سحيم بن نوفل قال كنا نعرض المصاحف عند عبد الله
 فجاءت جارية اعرابية إلى رجل من القوم فقالت أطلب راقيا فان فلانا قد لقع فرسك بعينه
 فتركه يدور كأنه فلك، فقال عبد الله لا تطلب راقيا اذهب فانفت فى منخره الايمن أربعا
 وفى الايسر ثلاثا ثم قل: بسم الله لا بأس أذهب البأس رب الناس وأشف أنت الشافى لا
 يذهب الضر إلا أنت قال فذهب الرجل ثم رجع، فقال فعلت الذى أمرتنى فأكل وبال وراث
 وعن ابن عباس رضي الله عنه إذا استعصبت دابة أحدكم أو كانت شموسا فليقرأ هذه الآية فى أذنها

﴿أَنْفِيزِ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ
تَرْجِعُونَ﴾ (١).

نادوة: قال أبو العنبس دخل اعرابى السوق لبيع ناقة له فقال له بعض المجان تبيعها
يا اعرابى باير بغل فقال الاعرابى اعد على عطيتك فإن زادونا وإلا أنت أحق بها.
الاسعد بن ممانى:

أصبح بغلى مشلا يضرب وهو سائر
ناصر الدين بن النقيب:

لى بغلة من ضعفها حزامها يثقلها
كأنها رجلى كما تحملى أحملها
بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى:

ترحلت عن ناديك لا عن ملالة وقد لفعتنى بالهجير البساس
على بغلة أمطيتنيها قصيرة كأنى بلا شك على الأرض جالس
وتحسبنى من فوقها الناس راجلا ولكننى فيما ترى العين فارس
البازهير فى بغلة شهاب الدين القوصى:

لك يا صديقى بغلة ليست تساوى خردة
تمشى فتحسبها العيون على الطريق مشكله
وتخال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطوي لة حين تسرع أنمله
تهتيز وهى مكانها فكأنمها هى زلزله
أشبهتها بل أشبهت لك كأن بينكمما صله
تحكى خصالك فى الثقا لة والمهانة والبله
القيراطى:

لى بغلة قد أتعبت راحنى والرجل من فخذى إلى كعبى
طباعها خارجة كلها وقط لا تمشى على الضرب
الجزار يرثى حمارة:

ما كل حين تنجح الاسفار نفق الحمار وبارت الاشعار

خرجى على كنفى وها أنا دائر
 ماذا على جرى لاجل فراقه
 لم أنس حدة نفسه وكأنه
 وتخاله فى القفر جنا إنما
 وإذا أتى للحوض لم يخلع له
 وتراه يحرس رجله من زلة
 ويلين فى وقت المضيق فيلتوى
 ويسير فى وقت الزحام برأسه
 لم أدر عيبا فيه إلا أنه
 ولقد تحامته الكلاب وأحجمت
 راعت لصاحبه عهدا قد مضت
 بين البيوت كأننى عطار
 وجرت دموع العين وهى غزار
 من أن تسابقه الرياح يغار
 ما كل جن مثله طيار
 فى الماء من قبل الورود عذار
 برشاشها يتنجس الحظار
 فكأنما بيدك منه سوار
 حتى يحيد أمامك الحضار
 مع ذا الذكاء يقال عنه حمار
 عنه وفيه كلما تختار
 لما علمن بأنه جزار

ومن انشاء المقر الفتحي بن الشهيد تغمده الله برحمته من رسالة كتبها عن حضور
 أكديش أدهم وينهى وصول الجواد المنعم به على المملوك فأضافه إلى ما فى يده من
 الصدقات العميمة يقدر قدرها ويضاعف بالخدمة والنصيحة شكرها وفرح المملوك أنه ما
 خص بالفرس إلا وقد ثبت عند سيده أنه غلام وما أجزاها له من ديوان الخاص إلا لتمييز
 قدره على العوام ووصل هذا الجواد أدهم من الخيل كأنما ألبسه الليل حلة سابعة الكم
 والذيل وفهم المملوك من بعثه حالك السواد أن الامر العالى اقتضى أن المملوك يكتم هذا
 الاحسان فى سواد الفؤاد ويستره عن الحساد كما ستر الليل عن الرقاب اجتماع أهل الوداد
 فتسلمه المملوك كما تسلمت الجفون طيف الحبيب وأسر السرور به لما علم أنه من
 صدقة السر التى أخفتها اليد الكريمة ولا يعزب عن الله مثقال ذرة فيها ولا يغيب واتخذ
 المملوك ظهر هذا الجواد حرزا لأنه من الهياكل وتصيد بعنانه غزلان الاعنة فكانت لصيد
 العز حبال وجعله ذخيرة وعزا لأنه أدهم لا يندم صاحبه إن نابت النوائب أو غالت الغوائل،
 ومنها وصل الظهر قد أعوز والسفر قد أحفز وجلت دهمته الغمة وجاءت باليد البيضاء
 فكذبت القائلين لا خير فى الظلمة فرأيت منه العطايا فى سواد المطالب وركبت من سرجه
 المحلى بالذهب فما جزت فى ليل اهابه إلا اهتديت من تلك الحلى بانوار الكواكب وقرت
 به عيني كأنما حل من سوادى واستوطأت ظهره فى السرى فتمت لما طرق كأنه يريد

رقادى، أدب حسن قيل لاعرابى له ابل كثيرة لمن هذه الابل فقال لله فى يدى وقيل لاعرابى أنت راعى هذه الابل فقال الله راعيتها وأنا مراعيها.

فائدة جلية: قال الامير علاء الدين الدوادارى فى بعض مجاميعه بخط القاضى شمس الدين بن خلكان للمغل يكتب على حافر الفرس الايسر بقلم حديد وكل حرف من هذه الكلمات على حدته وهى النيل والفرات ودجلة أودية وقال لى شخص أنه جربه وجدته نافعا والله تعالى أعلم

ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب من قصيدة:

صباحهم غرر الجياد كأنما	عند الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغر محجل	يرمى الجياد به أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية	وإذا تغنى بالصهيل فبلبل
جيد كما التفت الظليم وفوقه	أذن ممشقة وطرف أكحل
وكانما هو صهوة فى هيكل	من لطفه وكانما هو هيكل

ومن كلام سيدى المقر المجدى حسبما اقترحه السادة المخاديم بالقاهرة المحروسة
 البلاغة جعل الله تعالى كف موالينا للمقبل والمؤمل ككرائم الخيل ظهورها عزا وبطونها
 كنزا وآيات كرمه إذا تليت تهز أعطاف كل جواد هذا ويتبعه فى مجاراتها كزات على الهمم
 وتغلى القيم ويحوز صاحبها قصب السبق بالقلم غير أنها تلجته فى اقتراح الاخوان إلى
 ركوب الاهوال وتمطيه فى اتباع أوامرهم صهوة الخطر إذا كان لا خيل عنده يهديها ولا مال
 فإنهم أبقاهم الله تعالى رموا العبد من اقتراحهم بما لا يطاق ودفعوه من أوصاف الخيل إلى
 حلبة سبق إليها جماعة فكيف للمملوك بعدهم باللاحاق نعم كيف له بلحاق تلك الفحول
 وأنى يمكنه مجاراتهم فى هذه الليالى العواطل وقد كانت أيامهم لها غرر معلومة وحجول
 فاستقلت من هذا الامتحان واعتذرت أنى لست فى أمر الخيل من الفرسان، فقالوا بل
 أمطينا الطرف راكبه وأعطينا المال واهبه فإنك ربيب متونها ومهذب شامسها وحرونها
 فجلت فى ميدان الفكر وجذبت أعنة الحفظ والذكر إلى أن أنجلى ما لو أوقفت لسترته
 ولو تركت لتركته فابتدأت بوصف أخضر مليح الشيات كامل الادوات يحمل الراكب
 ويزين المواكب ويرضى الشهم الشديد ويسبق السهم الشديد لا يخرج عن طوع فارسه ولا
 يعدو اختيار ممارسه كأن أديمه تجعد من نور خلاف أو لف من جنات ألفاف وكميت أصم
 اللون مليح الكون بعيد الصفات سريع الالتفات تشنى على همته الركبان وبطنه تحت

العجاجة نار علاها دخان فسيح الخطوة شديد القوة سبط الأديم معظم لدى الكرام ولا عجب إذا عظم الجواد كريم كأنما صيغ بعقار أو ألبس جل نار وقر كلون الحرباء وخيال أزاهر على صفحة الماء ووجنة حب تكالمت بعرق ونهر صاف طفا بوجهه علق وبهجة حباب على كثوس مدامه وأشعة شمس تألفت فى طوق حمامة لا تنثت العين معرفته ولا يوفى البليغ وإن أظن صفتة ولا يدركه الطير إذا طار ولا يلحقه الريح إذا اشتدت غير الغبار لا يمل السباق ولا يزعج راكبه إذا قام على قدم وساق وأبلى كريم الاصل محمود الخصل مجتمع من ظلمة الهجر وضياء الوصل يرى الناظر من لونه بياض العطايا فى سواد المطالب وتحقق للمتعب من تضادهما أن فى الليل والنهار عجائب لا يجليه البصر إذا سار ولا ينجو من راكبه عدو وكيف ينجو من خلفه الليل والنهار تفرد فى جنسه وكاد يدرك المعقولات بضياء حسه عظم خبره وخبره واشتهر بين الانام قدره وعز على من رامه وطال وكيف لا وهو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره وأدهم بهى المنظر جميل المخبر تخاله خلا على وجنة الزمان وتظنه بين جفنى السماء والأرض انسان أسرع من السهم وأنفذ من الوهم يطوى شقة الفلا بيديه ويجتذب سويدات القلوب إلى حبه وشبه الشئ منجذب إليه تنبثك بالظفر مخائله ولا ينشدك لونه الأبلق الا بليل من تواصله وبالجمله فكأنما حلفت على اقتراح الرياضة واختبار الانفس المرتاضة فكلها حسن وكل منها جاء من الصفات الغربية بفن يأتى من المشى بما لم يكن فى حساب ويتلو لسان السرعة على مستعظم أشكالها «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب»^(١) فالله تعالى يبقى المخدم ما انتخبت القرايح وسيرت الخيول بين غاد ورايح ويكفيه ما تسعى من أجله ويجعل بابه جنة لاوليائه اذا زحف عليهم الدهر بخيله ورجله بمحمد وآله.

المولى الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على بن الآمدى:

وكميت يلقي الصخور إذا اشت
مد جريا بأربع من حديد
رق جلدا واحمر حتى حسبنا
أنه اختال فى رداء الخدود
وله فى فرس أدهم أغر محجل:

وأدهم خص بأوضحه
اعلاه بالفرة أو أسفله
كالليل فى أوله آخر الي
يوم وفى آخره أوله
وليه:

بكل جواد سر حتى كأنما
له السيف حد والسنان له أذن

ولبعضهم:

قم بنا نركب طرف اللـ هو سبقا للمدام
وإثن يا صاح عنانى لكمـيت ولجـام

ولآخر:

ويوم كسسته الشمس غرة مهجة كما ذهبته بالعشى تخيلي
ركضت به فى حلبة اللهو سابقا فيا لك من يوم أغرـ محجل

ابن المعتز فى وصف مطلق الواحد محجل الثلاث:

ومحجل غير اليمين كأنه متبختر يمشى بكم مسبل
فخر الدين بن مكانس:

يا عصابة الجود الذى يرضيهم فرسى العتيق ومهرى السباق
أما العتيق فلا نرجو تملكه واليكم هذا الحديث يساق

وضمن هذا فى الغزل شيخنا عز الدين الموصلى:

لحديث بنت العارضين طراوة وطلاوة هامت بها العشاق
فإذا نهانى المراد قلت تمهلوا فاليكم هذا الحديث يساق

قلت وفى مقطوعة الشيخ فخر الدين زيادة حسنة على الشيخ عز الدين وهو قوله يساق
واستعمل الشيخ عز الدين لفظة حديث فى عدة أماكن من مقاطيعه ولعمري أجاد فى
جميعها فمنها قوله:

حديث عذار الحب باد وساقه له أوجه تبدى لقلبي اشتياقه
درى اننا نشتاق لطف حديثه فأبدى لنا ذاك الحديث وساقه

وقوله:

حديث عذار الحب فى خده جرى كمسك على الورد الجنى تسطرا
فقبلته حتى محوت رسومه كأن لم يكن ذاك الحديث ولا جرا

ولغيره وليس مما تقدم لكن ذكرناه لموافقة المعنى:

ولما اجتمعنا والسلو جليسا على اننا نسلو الهوى ونميل
وخيل غرام قد أتتنا مغيرة فلم ندر الا والسلو قتيل

ومنه:

وحياة من أمسـ لدى حياته أشهى لى من اتصال حياتى
ما سافرت لحظات طرفى نحوكم الا على حيل من العبرات

ومنه قول عز الدين الموصلى شعرا:

يستطرد الشوق خيل الدمع سابقة
وما ألطف قول بدر الدين بن الصاحب:

بإله يا بدر زرنى
واكتم محبك واركب

وأنشدنى شيخنا زين الدين بن العجمى لنفسه:

لمظلمسات الليالى
وكيف تفهم معنى
فخر الدين بن مكانس:

لله أشكو ما جرى
ان بهيما كان لى
ولمؤلف الكتاب:

ولرب ليل طال من تذكّارهم
قرح الجفون السهد فى ظلماته
وعلى ذكر البهيم فما أحسن ما أنشدنى لنفسه مجد الدين بن مكانس:

لله عصبه عشق
عذولهم كحمار
وأنشدنى صدر الدين بن الأدمى لنفسه:

قلت وليلى لونه حالك
الصفدى فى أدهم بغرة:

واعجبا للصبح من أشقر
وغيره:

تردى أديم الليل تيهها بنفسه
وأبدى لرائيه بغرة وجهه

وأنشدنى فخر الدين بن مكانس:

لنا فرس نلاقى منه رفقا
ترانا حين نركبه سكارى

كسرفق الوالدين إذا ثملنا
نميل على جوانبه كأننا

حدث أحمد بن أبى خالد قال خرج الفيض بن أبى صالح وأحمد بن الجنيد وجماعة من وجوه الكتاب يوما من دار المأمون منصورين إلى منازلهم وكان يوما مطيرا فتقدم الفيض ابن أبى صالح وتلاه أحمد بن الجنيد فنضخت دابة الفيض على ثياب أحمد بن الجنيد برجلها من ماء المطر فتأفف أحمد بن الجنيد وقال للفيض هذه والله مسaire بغیضة وما أدرى حقاً أوجب لك التقدم علينا فأمسك الفيض حتى صار إلى منزله ثم دعا وكيله فأمر باحضار مائة تخت فى كل تخت قميص وسروال ومبطنة وعمامة وطيلسان ففعل ذلك وقال احمل هذه التخوت على مائة حمال وسر بها إلى دار أحمد بن الجنيد وقل له أوجب لنا التقدم عليك أن لنا مثل هذا نهديه إليك إذا أفسدنا ثيابك فإن أهديت لنا مثلها قدمناك علينا.

قال مؤلف الكتاب رحمه الله تعالى ضمنا مجلس أنس بزرية قيصون بمنزل المرحوم فخر الدين بن مكانس وكان فيه اذا ذاك جماعة من أعيان متأدبى الديار المصرية فأطلقنا عنان المذاكرة وتجار ينافى ميدان المحاضرة إلى أن استطردنا إلى ذكر الخيول وما قيل فيها من منظوم أزهى من المنشور المطلول، فقال المرحوم فخر الدين سدوا عنا المقاطيع واطربونا بالمواصيل اشارة إلى ذكر ما قيل فيها من الرسائل التى أشرت بزهر الخمائل فذكر بعض الحاضرين رسالة القاضى محى الدين بن عبد الظاهر التى أولها وسير من الخيول الرهاوين كلما هو على الحسن مشتمل وذكر المرحوم فخر الدين رسالة الشيخ شهاب الدين محمود التى أولها وينهى وصول ما أنعم به من الخيل التى وجد الخير فى نواصيها وذكر المملوك رسالة الشيخ جمال الدين بن نباتة التى أولها وأما الخيل المسيرة وذكر الشيخ بدر الدين البشتكى رسالة العلامة لسان الدين بن الخطيب التى أولها ...

وذكر القاضى مجد الدين بن مكانس حسب سؤال الجماعة رسالته التى أولها البلاغة جعل الله أكف مولانا ككرائم الخيل ظهورها عزا ويطونها كنزا فما من الجماعة إلا من استحسناها وبالغ فى شكرها، فقال المرحوم فخر الدين ينبغى أن تجمع هذه المقاطيع والرسائل فى كرايس ويسميتها مجرى السوابق. انتهى.

الباب الثالث والأربعون

فى مصائد الملوك وما فيها من نظم السلوك

ولبعضهم فى الفهد:

ما فى الصوارم والعسالة الذبل
فقمصاه بجلباب من المقل
تطلع على وجهه الا على وجل

وأهت الشدق فى فيه وفى يده
تنافس الليل فيه والنهار معا
والشمس مذ لقبوها بالغزالة لم

ابن المعتز فيه:

تحسبه من قبائل الترك
نقطها الغانيات بالمسك

وعابس الوجه لا لقادحة
تخال أثوابه مصندلة

الارجانى فيه:

به الدهر آدم لنا يؤتدم
أديم تعمين لا عن حلم
ه من نار خند له يضطرم
تراصد إن هو بالصيدهم
وبالشمس الوجه منه التأم
تذيق الكرى مقللة لم تنم
فمنم جلبابها اذ سجم
وراء الطريدة لما اقتحم
ه أول ما الخلق منه استتم

وأهت آدم بدت كاسمها
من النمر خيط على جسمه
به علقت شرر لو حثت
ففى كل عضوله أعين
تراه رديفا وراء الغلام
شبيه سبية جيش غدت
جرى الدمع بالكحل من عينها
وقد كاد يخرج من جلده
فقد شمر الجلد خوفا عليه

ابن الاثير الجزرى فى الفهود: فخرجنا والشمس قد نقص مشرقها عن مغربها وأمنت
حمة حرها وإن صارت إلى برج عقربها بكل فهد قد حيك اهابه من ضدين بياض وسواد
وصور على اشكال العيون فتطلعت إلى انتزاع الارواح من الاجساد يبلغ الامد الاقصى فى
أدنى وثباته ويسبق الفريسة ولا يقصها الا عن التفاته.

القول فى طبائعه: زعم ارسطو أنه متولد بين أسد ونمرة أو بين لبوة ونمر وفى طبعه
مشابهة لطبع الكلب فى أدواته وذواته والنوم الذى يعتريه ويقال إن الفهدة إذا حملت وثقل

حملها حتى عليها كل ذكر يراها من الفهود ويواسيها من صيده فإذا أرادت الولادة هربت إلى موضع أعدته حتى إذا علمت أولادها الصيد تركتها وبهذا الحيوان يضرب المثل فى شدة النوم فيقال أنوم من فهد.

قال الشاعر وقد عيره بكثرة النوم:

رقدت مقلتي وقلبي يقظا ن يحس الامور حسا شديدا
يحمد النوم فى الجواد كمالا يمنع الفهد نومه أن يصيدا

وليس شئ فى جرم الفهد من الحيوان الا والفهد أثقل منه وأحزم لظهر الدابة والاناث أصعب أخلاقا وأكثر جراءة وأقداما وفى أخلاقه الحياء وذلك أن الرجل يمر بيده على سائر جسده فيسكن لذلك حتى تصيب يده مكان النفر فيقلق حيثذ ويغضب ومن خلقه الغضب وذلك أنه إذا وثب على طريدة لا يتنفس حتى ينالها فيحمى لذلك وتمتلى رثته من الهوى الذى حبسه وسبيله أن يراح ريشا يخرج النفس وتبرد تلك الغلة ويشق عن قلب الطريدة ويشمم إياه ثم يطعمه منه ويسقى رى ماء ان كان الزمان قيظا ودون الرى إن كان الزمان بردا وان لم يروح لم يفلح بعد ذلك واذا أخطأ صيده رجع مغضبا وربما قتل سائسه، ومن أخلاقه أنه يأنس لمن يحسن إليه ويقال أنه لص من لصوص السباع وهو وان كان وحشيا فإنه يقبل الادب الا أن كبارها أقبل وان تقادمت فى التوحش وإنائها أصيد من ذكورها ومن طبعه أنه يحب الصوت الحسن ويصغى إليه وربما كان سببا لصيده، ومما ركب فيه أن ما عجز عن التكسب منها الهرم يجتمع على فهد يصيد لها فى كل يوم شعبها وقال ارسطو: السباع تستنشق رائحة الفهد وتستدل بها على مكانه تعجب بلحمه أشد التعجب فهو يتغيب عنها لذلك وربما قرب بعضها من بعض فيطمع فى نفسه فإذا أحس السبع منه ذلك وثب عليه فأكله وهو ألطف شما لأرايح السباع القوية من شم السباع لرائحته الشهية ولا يكاد يكون على علاوة الريح أبدا وهو يستخفى فى الشجرة فإذا مر به ايل ففاجأه وثب عليه وانشب مخالبه فى اكتافه ومص دمه حتى يضعف الايل ويسقط فتجتمع عليه الفهود فتأكله فإن اجتاز به أسد نهض وترك الفريسة له تقربا إليه والفهد يعتريه داء يسمى خناقة الفهود وقد ألهم أنه إذا اعتراه ذلك يأكل العذرة فيبرأ وينبغى إذا صيد أن يغط رأسه ويدخل فى جوالق ويجعل فى بيت قد وضع فيه سراج ويلازمه سائسه ليلا ونهارا ولا يدخل عليه غيره فإذا آنس أركبه ظهر دابة ويطعمه على يده وأول من صاد به

كليب بن وائل ويقال همام بن وبرة وكان صاحب لهو وطرب وأول من حملها على الخيل يزيد بن معاوية وأكثر من اشتهر باللعب بها أبو مسلم الخراسانى وأول من استسن الحلقة فى الصيد وأولع بها كثيرا المعتضد والمواضع التى يوجد فيها هذا الحيوان مما يلى بلاد الحجاز إلى اليمن وما يليها إلى بلاد العراق ومما يلى بلاد الهند إلى تبت والله تعالى أعلم.

القول فى طبائع الكلب: قال المتكلمون فى طباع الحيوان الكلب لا سبع تام ولا بهيمة تامة حتى كأنه من الخلق المركب لأنه لو تم له طباع السبعية ما ألف الناس واستوحش من البرارى وجانب القفار ولو تم له معنى البهيمة فى الطبع ما أكل لحم الحيوان وكَلَب على الناس وإنما جعلناه تبعاً للفهد وهذه حالته لمشاركته له فى حرفة الصيد واعتناء الناس بتربيته وتعليمه كما اعتنوا بالفهد فى ذلك وهو نوعان أهلى وسلوقى ومما يختص به الكلب السلوقى من الطباع وسبب نتاج السلوقى كما حكاه أهل الكلام فى الكلبزة أن الكلاب تسفد الذئب فى أرض سلوكة من أرض اليمن فيتولد بينهما السلوقى وقال آخرون الثعالب والكلب السلوقى له نفس مولعة بتناول ما يرسل عليه ويطلبه بالاحضار خلفه حتى يدركه فيأخذه لهم لأن حرصه على الصيد وغضبه ليس من أجل نفسه كما يغضب الفهد لأن الجوارح تعمل لانفسها الا الكلاب فإنها تكتسب لاصحابها وهى اذا كثرت عليها الآثار واختلطت تنكب لذلك وتذهب فى كل جهة حتى تستثبت الاثر وتتخقق جهته وذلك من حرصها على مطاوعة ربها واستعدادها لنكاية أعدائه ومسارعته لتحصيل غرضه الذى ارسلها بسببه ومن أعجب الاحوال فيه أنه اذا عاين الظباء قريبة منه كانت أو بعيدة عرف المقبل منها والمدير وعرف العنز من التيس، وإذا أبصر القطيع لم يقصد غير التيس لعلمه أنه اذا عدا شوطين لم يستطع البول مع شدة الحصر ورفع القوائم فينقص مدى خطاه ويعتريه الهير فيلحقه الكلب والعنز اذا اعتراها البول فى العدو ولم تمسكه وقذفت به لسعة السيل فلاجل ذلك لا يطلبها ومن عجيب أمره أنه يعرف الميت من الممتاوت حتى يقال ان الروم لا تدفن ميتا حتى يعرضونه على الكلاب فتظهر من شمه اياه علامة يستدلون بها على حياته أو موته ويقال ان هذا الحذق لم يوجد الا فى كلب يسمعى القلطى وهو صغير الجرم قصير القوائم جدا ويسمى الصينى وهو مع هذا لا يبلغ رتبة الذئب فى الشم والاسترواح واناث الكلاب السلوقية أسرع تعلمنا من الذكور والفهد بالعكس، وهذا النوع يعيش عشرين سنة على ما زعم ارسطو وربما لم يبلغ الاناث هذا العمر.

دلائل النجابة والفراشة فى الكلاب السلوقية: أما فى الخلقة فطول ما بين الرجلين واليدين وقصر الظهر وصغر الرأس وطول العنق وغضف الاذنين وبعد ما بينهما وسعة العينين وبعد ما بينهما وزرقة العين وتواء الجبهة وعرضها وقصر اليدين، وأما الالوان فيقال السود أقل صبرا على الحر والبرد والبيض أفره إذا كن سود العيون وقد قال قوم إن السود أصبر على البرد وأقوى وكذلك السود من الحيوان.

الفراشة فى الجرو: اذا ولدت الكلبة واحدا كان افره من أبويه وان ولدت ذكرا وانثى كان الذكر أفره وان ولدت ثلاثة فيها أنثى فى شبه الام كانت أفره من أبويه الثلاثة وإن كان فى الثلاثة ذكر واحد فهو أفرها قال ابن خفاجة:

ومورس السريال يخلع قده	عن نجم رجم فى سماء غبار
يستن فى سطر الطريق وقد عفا	قدما فيقرأ أحرف الآثار
عطف الضمور سربه فكأنه	والنقع يحجب به هلال سرار
يفتر عن مثل النصاب وإنما	يمشى على مثل القنا الخطار

الارجاني:

وعصف يسابق عصف الريا	ح فيسبقه خصرها ان تسم
رياح مجشمة للعيو	ن مقلدة فى طلاها رمم
لهن من البيض مصقولة	تسل وتغمد من كل فم
فمن أبيض مثل لون الدمق	س ومن أصفر أملس كالزلم
وآخر ذى لمع فى السوا	د حكى لونها نفخة فى فحم
يقرط مخلبه اذنه	ويسبق ناظره حيث أم

القول فى العقاب: وهذا الصنف يؤنث ولا يذكر ويسمى العنقاء على ما ذهب اليه أهل اللغة وبهذا القول فسر قول أبى العلاء المعرى:

أرى العنقاء تكثر أن تصادا فعماند من تطيق له عنادا

ولا خلاف عند أهل اللغة فى ذلك وهو ينقسم إلى صنفين عقاب ورمح فأما العقاب فمنها فى اللون السود والخوخية والصقع والسقع والبيض والشقر ومنها ما يأوى الجبال ومنها ما يأوى الصحارى ومنها ما يأوى البياض ومنها ما يأوى حول المدن ويقال ان ذكورها من طير آخر لطيف لجرم لا يساوى شيئا والعقاب يبيض فى الغالب ثلاث بيضات ويعضنها ثلاثين يوما وما عداها من الجوارح يبيض بيضتين فى كل سنة ويعضن عشرين يوما وفى

طبع الذكر انه يمتحن انثاه هل هى محافظة له أو موافية لغيره من جنسه بأن يصوب بصر فرخيه إلى شعاع الشمس فإن ثبت عليه تحقق أنهما فرخاه وإن لم يصبر عليه ونبا عنه ضرب الانثى كما يضرب الرجل المرأة الزانية وطردها من وكره ورمى بالفرخين وهى تربي فراخها إلى أن تقوى على الطيران فتخرجها وتنفيها عن جميع مواضعها ومن حقوقها لفراخها أنها لا تحمل على نفسها فى الكسب عليها ومتى كان الذكر والانثى فى مكانين مجتمعين لا يدعان غيرهما من جنسهما يأوى قريبا منه ولا يصيد فيه وهى اذا صادت شيئا لا تحمله على الفور إلى مكانها. بل تنقله من موضع إلى موضع ولا تجلس الا على الاماكن المرتفعة لانها لا تستقل من الارض إلا ببطء وعسر وإذا صادت الارنب تبدأ بصيد الصغار ثم تصيد الكبار وهى أشد جراءة من سائر الجوارح وأقواها حركة إلى الغضب وأسرعها اقداما وأيسها مزاجا ولذلك هى أحدها وهى خفيفة الجناح سريعة الطيران فهى إن شاءت كانت فوق كل شىء وان شاءت كانت بقرب كل شىء تتغذى بالعراق وتتعضى باليمن وريشها الذى عليها فروتها فى الشتاء وحيسها فى الصيف وربما صادت حمر الوحش وذلك أنها اذا نظرت الحمار رمت نفسها فى الماء حتى تبتل جناحها ثم تتمرغ فى التراب ثم تطير حتى تقع على هامة الحمار ثم تصفق على عينيه بأجنحتها فتملاهما ترابا فلا يبصر حيث يذهب فيؤخذ وهى مولعة بصيد الحيات ولوعها بها كولوع الحيات بالفار وفى طبعها قبل ان تدرب ان لا تراوغ صيدا ولا تعنى فى طلبه ولا تزال موفية على شرف عال فإذا رأت سباع الطير قد صادت شيئا انقضت عليه فيتركه له وينجو بنفسه ومتى جاعت لم يمتنع عليها الذئب وهى شديدة الخوف من الانسان تنظر إليه بقرب منها ويقال إنها إذا شاخت وهرمت وثقل جناحها وأظلم بصرها التمسث غديرا فإذا وجدته حلقط طائرة فى الهواء ثم تقع فى ذلك الغدير وتنغمس فيه مرارا فيصح جسمها ويقوى بصرها ويعود ريشها ناشئ إلى حالته الأولى ومتى ثقلت عن النهوض وعميت حملتها القراخ على ظهورها ونقلتها من مكان إلى مكان لطلب الصيد وتعولها إلى ان تموت ومن عجيب ما ألهمته انها إذا اشتكت كبدها من رفع الارانب والثعالب فى الهواء أكلت أكبادها فتبرأ وهى تأكل الحيات إلا رءوسها والطير الا قلوبها ويدل على هذا قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا يابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

ومنقارها الاعلى يعظم ويتعقف حتى يكون سبب هلاكها لانها لا تنال به الطعم حيثئذ

وأول من صاد بها أهل المغرب وإنما رغبهم فيما رأوا من شدة شرها وعظم سلاحها وصفة المحمود منها وثاقة الخلق وثبوت الأركان وحمرة اللون وغثور الحماليق وإن تكون صقعا عجزا وهى التى تكون على علوتها بياض وأجودها ما جلب من سرب وجبال المغرب.

ابن نباتة:

أتيت إليها وهو كالفرخ راقد فبما خجلنى لما دنوت وأقلالى
فقلت امرسيه بالأصابع فالتقى لدى وكرها العناب والحشف البالى

القول فى طبائع البازى: وتنقسم إلى خمسة أصناف البازى والزرق والباشق والعفصى والبيدق والبازى أحرها مزاجا لأنه قليل الصبر على العطش ومأواه مساقط الشجر العادية الملتفة والظل الظليل ومطرده المياه وهو لا يتخذ وكرا إلا فى شجرة لها شوك مختلفة الحجون يطلب بذلك الكن ولا يقع فى شتاء ولا صيف على أغصانها ولا أطرافها وإذا أراد أن يفرخ بنى لنفسه بيتا وسقفه تسقيفا لا يصل إليه منه مطر ولا ثلج اشفاقا على نفسه من البرد والحر ولهذا إذا أخطأ صائده وكان فى برية لا شجر فيها طار ممنا حتى يلج كهفا من جبل أو جدار من الأرض ليسكن فيه ولذلك علق عليه الجرس كيما يدل على موضعه إن خفى وهو لا يطيق البرد ولا الحر لرقه جوانحه فسييله فى البرد أن تقرب منه النار ليدفأ ويجعل تحت كفيه فى الشتاء وير الثعلب واللبود وسبيله فى الحر أن يجعل فى كن كنين من السموم بارد النسيم ويفرش له الريحان والخلاف، وهو خفيف الجناح سريع الطيران يلف طيرانه كالتفاف الفاخنة ويسهل عليه أن يزج نفسه صاعدا وهابطا وينقلب على ظهره حتى يلتقم فريسته وسبيله أن يضرا على صيد الدراج والنبع إن كان طويل المنسر وإذا كان قصير المنسر فسييله أن يضرا على طير الماء والحبرج والانات من هذا الصنف أجرا على عظام الصيد من ذكورها، قال أصحاب البيزرة فى الكلام على الاناث من البزاة إذا كان وقت سفادها وهياجها يغشاها جميع أجناس الحيوان الضواري كلها الزرق والشاهين والصقر وإنما تبيض من كل طير يغشاها ولهذا تجيء مختلفة الاخلاق من الحسن والجرأة والخبث والغدر والذكاء والقوة والضعف والحسن والقيح والشراسة ولهذا البازى لا يترك ما بين العصفور إلى الدراج والكراكى وصفة الفاخر منه أن يكون قليل الريش أحمر العينين حادهما وأن يكونا مقلتين على منسره وجؤجؤهما مطلقا عليهما لا يكون وضعهما فى

جنى رأسه كوضع عين الحمام والاورق دون الأحمر العين والاصفر دونهما وسعة الاشداق دليل على قوة الانفراس.

ومن صفاته المحموده أن يكون طويلا عريض الصدر بعيد ما بين السنكبين شديد الانخراط إلى ذنبه وإن تكون فخذاه طويلتين مسرولين بريش وذراعه قصيرتين غليظتين وأشاجع كفيه عارية وأصابعه متفرقة لا تكون مجتمعة ككف الغراب ومخلبه اسود ومنسره اسود رقيقا وأفخر الالوان البيض ثم الشهب وهما لونان يدلان على الفراهه والكرم وأما الاسود الظهر المنقش الصدر بالسواد والبياض فهو يدل على الشدة والصلابة فإن اتفق أن يكون أحمر العينين وكثيرا ما يتفق كالتنهاية وهذا اللون فى البزاة كالكميت من الخيل لأنه يدل على الشدة والاحمر من هذا الصنف أحسن البزاة لأنه فيها كالسوسى من الخيل بعيد من الصلاح، وأول من صاد بهذا الجارح لزرتق أحد ملوك الروم الأول وذلك أنه رأى بازيا إذا علا كنف وإذا أسفل أخفق وإذا أراد يسمو ذرق فاتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثرة الدغل فأعجبته صورته فقال هذا طائر له سلاح تزين بمثله الملوك فأمر بجمع عدة من البزاة فجمعت وحصلت فى مجلسه فعرض لبعضها اثم فوثب عليه فقتله فقال ملك يغضب كما تغضب الملوك ثم أمر به فنصب على كندرة بين يديه وكان هناك ثعلب فمر به مجتازا فوثب عليه فما أفلت منه الا جريحا فقال هذا جبار يمنع حماه ثم أمر به فضرى على الصيد واتخذته الملوك بعد ذلك.

ابن الاثير فى البزاة: وأطلقت لك البزاة بعد أن ذكر اسم الله على اطلاقها وتعلقت بما فوقها من الطيور حتى كأنما هى أطواق فى أعناقها.

ومن رسالة لأبى اسحاق إبراهيم بن خفاجة يصف بازيا طائرا يستدل بظاهر صفاته على كرم ذاته طورا ينظر نظر الخيلاء فى عطفه كأنما يزهى به جبار وتارة يرمى نحو السماء بطرفه كأنما له هناك اعتبار وأخلق به أن ينقض على قنبصة شهابا ويلوى ذهابا ويحرقه مواعد والتهابا حميد العين والاثر حديد السمع والبصر يكاد يحس ما يجرى ببال ويسرى فى خيال قد جمع بين عزة مليك وطاعة مملوك فهو بما يشتمل عليه من علو الهمة ويرجع إليه بمقتضى الخدمة مؤهل لابرار ما تقتضيه شمائله وإيجاب ما تعديه مخائله وخليق بمحكم تأديبه وجودة تركيبه أن لو مثل له النجم قنصا أو جرى للبرق فقصا لا تختطفه أسرع من لحظه وأطوع من لفظه وانتشبهه أمضى من سهم وأجرى من وهم وقد أقسم بشرف جوهره

وكرم عنصره لا بوجه مسفرا الا وعاد قنيصه معفرا وآب إلى يد من أرسله مظفرا مودد
المخلب والمنقار كأنما اختضب نجبا أو كرع فى عقار.

وصفاته المحموده: أن يكون صغيرا فى المنظر ثقيلًا فى الميزان طويل الساقين قصير
الفخذين عظيم السلاح بالنسبة إلى جسمه.

القول على الصقر: وهو من الجوارح بمنزلة البغال من الدواب لأنه أصبر على الشدة
وأحمل للغليظ الغذاء وأحسن إلقا وأشد اقداما على جملة الطير من الكراكى والجوارح
ومزاجه أبرد من سائر ما تقدم وأرطب وذلك معروف من ركوده وقلة حركته وعدم التفات
ريشه وبهذا السبب يضرأ على الغزال والارنب ولا يضرأ على الطير لانها تفوته وفعله فى
صيده الانقضاض والصرم وهو غير صاف بجناحه ولا خافق به ومتى خفق بجناحه كانت
حركته بطيئة بخلاف البازى وتقول أصحاب البيزرة أنه أهدى نفسا من البازى وأسرع أنسا
بالناس وأكثرها رضا وقناعة وهو يغتدى بلحوم ذوات الاربع ولبرد مزاجه لا يقرب المياه
ويعافها ولو لم يجدها الدهر ما أرادها ولاجل ذلك يوصف بالبخر وتنن القم، وفى طبعه أنه
لا يركب الشجر ولا شوامخ الجبال ولا يأوى الا المقابر والكهوف وصدوع الجبال وفيه
جبن ونفسه دون سدته ولذلك يضرب الغزال والارنب ويهرب منه ولا يكاد يعلق بفريسة
فإذا فارقتها عاد إليها متقضا فيضر بها ويرقى هاربا وكلما تقدم ذكره ينقى بالماء ويغتسل وهو
ينقى بالتمعك فى الرمل.

وصفاته المحموده أن يكون أحمر اللون عظيم الهامة واسع العينين تام المنسر طويل
العنق والجناحين رحب الصدر ممتلئ الزور عريض الوسط جليل الفخذين قصير الساقين
والذنب قريب الفقرة سبط الكف غليظ الاصابع فيروزجها أسود اللسان، وأول من صاد به
وضراه الحارث بن معاوية بن ثور بن كندة فإنه وقف يوما على صياد قد نصب للعصافير
شبكة فانقضص صقر على عصفور قد علق فجعل يأكله والحارث يعجب فأمر فأتى وقد
اندق جناحه فرمى به فى كسر بيت ووكل به من يطعمه قدرته حتى صار اذا أتى إليه باللحم
ودعاه أجاب ثم صار يطعمه على اليد ثم صار يحمله لانه به فينما هو يوما يحمله اذ رأى
حمامة فطار عن يده إليها فأخذها وأكلها، فأمر الحارث باتخاذها والتصيد بها فينما هو يوما
يسير اذ لاحت له أرنب فطار الصقر إليها وأخذها فلما رآه يعاقب بين الطيور وبين الارانب
ازداد الحرث فيه محبة واغباطا واتخذته العرب بعده.

وقال كشاجم فيه:

عدونا وطرف النجم وسان غائر	وقد نزل الاصباح والليل سائر
بأجلد من حمر الصقور مؤدب	وأكرم ما قربت منه الاحامر
جرى على قتل الطباء واننى	ليعجبني أن يكسر الوحش طائر
قصير الذباني والقدامى كأنها	قوادم نسر أو سيوف بواتر
ونقش منه جـؤجـؤ فكأنه	أعارته أعجام الحروف الدفاتر
فما زلت بالاضمار حتى صبغته	وليس يحوز السبق الا ضوامر
وتحملة منا أكف كريمة	كما زهيت بالخاطبين المنابر
وعن لنا من جانب السفح ربرب	على سنن تستن منه الجآذر
فحلى وحلت عقدة السير فانتحى	لأولها اذ أمكنته الاواخر
يحث جناحيه على حر وجهه	كما فصلت فوق الخدود المعاجر
وما تم رجع الطرف حتى رأيتها	مصرعة تهوى اليها الحناجر

القول على الشاهين: تقول أصحاب البيزرة: الشاهين من جنس الصقر الا أنه أبرد منه وأيسر ولاجل ذلك تكون حركته من العلو إلى السفلى شديدة وليس يحلق فى طلب الصيد على خط مستقيم وإنما يحول لثقل جناحه حتى إذا سامت فريسته انقض على فريسته هاويا من علو إلى سفلى فضر بها وطار بها يطلب الصعود وإن سقطت على الأرض أخذها وإن لم تسقط عاد وضر بها لتسقط وذلك دليل على جبنه وفتور نفسه وبرد مزاج قلبه وعلى كل حال فالشاهين أسرعها وأخفها وأشدّها ضراوة على الصيد إلا أنهم عابوه بالاباق وربما يعتربه من الحرص حتى أنه ربما ضرب بنفسه الأرض فمات، ويقولون إن عظامه أصلب من عظام سائر الجوارح ولذلك هو يضرب بصدرة ويعلق بكفه وقال بعض حذاق هذا الفن الشاهين كاسمه يعنى الميزان لأنه يحمل أدنى حال من الشيع ولا أيسر حال من الجوع.

والمحمود من صفاته: أن يكون عظيم الهامة واسع العينين حادهما تام المنسر طويل العنق رحب الصدر متملى الزور عريض الوسط جليل الفخذين قصير الساقين قريب الفقرة من الظهر قليل الريش تام الخوافى رقيق الذنب اذا صلبت عليه جناحاه لم يفضل عنهما شيء منه فإن كان كذلك فهو يقتل الكراكى ولا يفوته صيد كبير وزعم أهل الاسكندر أن السود منها هى المحمودة وأن السواد أصل لونها وإنما قلبته التربة فحال ويكون فيها الملمع، ويقال إن أول من صاد بها قسطنطين ملك عمودية حكى أنه خرج يوما يتصيد بالبراة

حتى انتهى إلى خليج القسطنطينية وهو المسمى بحر ينطش فعبر إلى مرج بين الخليج والبحر فنظر إلى شاهين ينكفى على طير الماء فأعجبه ما رأى من سرعته وضراوته والحاحه على الصيد فأمر له أن ينصب له حتى صيد فأخذه وضراه ثم رىضت له بعد ذلك الشواهين وعلمت أن تحوم على رأسه إذا ركب فتظله من الشمس فكانت تنحدر مرة وترتفع أخرى فإذا نزل وقفت حوله.

الوصف والتشبية قال صلاح الدين الصفدى ملغزا فى بجمع:

مما طائر فى قلبه يلوح للناس عجب
منقاره كبطنه والرأس منه فى الذنب

محيى الدين بن عبد الظاهر:

بى من أمير شكار هو يذيب الجوانح
لما حكى الظبى حسنا حنت إليه الجوارح

نقلت من كتاب المصائد والمطارد لأبى الفتح كشاجم قيل لمن كان مدمنا للصيد من حكماء الملوك إنك قد أدمنت هذا وهو من خير الملاحى وفيه مشغلة عن مهم الأمور ومراعاة الملك فقال إن للملك فى مداومة الصيد حظوظا كثيرة أقلها تنبئه فى أصحابه مواقع العمارة من بلاده فى التقصان والزيادة فإن رأى من ذلك ما يسره بعته الاغتيال به على الزيادة فيه وإن رأى أمرا ينكره جرد عنايته له ووفرها على تلافيه فلم يستر عنه حال ورأس الملك العمارة ولم يخرج ملك للصيد فيرجع بغير فائدة، أما حدائنه خيله فيمرنها ويكف من غرب جماحها، وأما شهوته فينشيه، وأما فضول بدنه فيذيبها، وأما مراودة ومفاضلة فيسلسها، وإما أن يكون قد طويت عنه حال مظلوم فيتمكن من لقائه ويرجع إليه ظلامته فيسلم من مائمه وإما أن ينكفى بصيد يتفاد بالظفر به إلا خلال كثيرة لا يجهل ما فيها من الريح ومنه من فضل العلم بالصيد والعادة ما حكاها لى أبى عن أبى إسحاق إبراهيم بن السدى عن الملك بن صالح الهاشمى عن خالد بن برمك أنه كان نظر وهو مع صالح صاحب المعلى وغيره من رجال الدعوة وهو على سطح قرب نازل مع قحطبة حين قفلوا من خراسان وبينهم وبين عدوهم مسيرة ليل وأيام إلى أقاطيع ظباء مقبلة من البر حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة ناد فى الناس بالاسراج والالجام وخذ الالهة فتشوف قحطبة فلم ير شيئا يروعه، فقال لخالد ما هذا رأى فقال أما ترى هذه الوحوش قد أقبلت إن

وراءها لجمعا يكشفها فما تمالك الناس أن تأهبوا حتى رأوا طليعة ولولا علم خالد بالصيد لكان الجيش قد اصطلم، ووقف بعض الملوك بصومعة حكيم من الرهبان فاستجاب له فقال له ما اللذة قال كباثر اللذات أربع فعن أيهن تسأل قال صفهن لى قال هل تصيدت قط قال لا قال ألك حظ بالسماع والشراب قال لا قال فهل فاخرت ففخرت أو كاثرت فكثرت قط قال لا قال وما بقى من اللذات.

الجوارح أربعة البازى والشاهين والصقر والعقاب وما يضاف إليها فنقتصر على ذكر هذه الأربعة إذا كانت أركان الجوارح ومعتمد الملوك عليها فالمبدأ به منها البازى يقال باز وبزاة مثل قاض وقضاة وبيزان كغاز وغيزان وبازى وبوازى قال لبيد بن ربيعة:

لقيت لنا بوازى صائدات وطيرك فى مكانها لبود
وأول من تهدى إلى الصيد به تقدم ذكره ولا يعرف كحرصه حرصا ولا كجده جدا
وفى أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطبرستان ومعه منديل فيه شىء ملفف فكشف عنه بين يديه فإذا فيه هيئة شلو باز ودراجة محترقين فقال نصر ما هذا فقال الرجل خرجت ومعى هذا البازى وثارت دراجة فاضطرب عليها وأحست به وقد كنت مررت بقصباء أفسدت أرضا لى فأمرت باحراقها فاضطربت فتحاملت الدراجة حتى اقتحمت النار هاربة واشتد قربه إليها فلم تثنه النار عنها واقتحم فى أثرها فأسرعت فيهما فأدركتهما النار واحترقا فأحضرتهما للامير ليرى بهما ثمرة افراط الحرص وافراط الجبن وما أحسن صورة اجتمع فيها ثلاث بزاة على ظهر فرس فى كف رجل واختلف رأى الملوك فيما مثلته فى تيجانها ولباسها، فكانت أمثلة تاج ملك جيلان ولباسه صورة بزاة فقيل له فى ذلك فقال وجدت الانسان يحمله الفرس ووجدت البازى يحمله الانسان لينال عليه لذته وبغيته وطرده ووجدته أيضا ملك نوعه وإذا كنت أحمله جسما فى الحقيقة فلا أعاب به فانا فى تمثيله وحمله مثالا فى لباسى وحلتى أعذر.

ومن فضائله: أن الصيد فيه طبع لأنه يؤخذ فرحا من وكرهه من غير أن يكون حذق ولا تصيد مع أبويه فيصيد ابتداء من غير تضرية ولا استجابة وليس ذلك فى الصقر والصقور بعكسه ومن ملح أخباره وأمثاله أن خالد بن برمك قال بينما أبو أيوب الكاتب جالس فى أمره ونهيه إذ أتاه رسول المنصور فامتقع لونه فلما رجع تعجبنا من حاله، فقال أنا أضرب لكم مثلا زعموا أن البازى قال للديك ما فى الأرض حيوان أقل وفاء منك قال وكيف ذلك

قال أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك فى أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو إليك أحد الا طرت مرة كذا ومرة كذا وصوتت وحذرت، وأنا مسونى من الجبال فعلمونى والقونى فى الهواء فأخذ صيدى فأجىء به إلى صاحبى، فقال له الديك إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم مثل الذى من الديوك لكنت أنفر منى ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم ما تعجبتم من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى وأقول إن هذا المثل يتصل به معنى حسن لكفاءة السلطان وأعوانه وهو أنه ينبغى لتابع السلطان أن يجتهد فى توفير الحظ واجتلاب المنافع إليه حتى يكون كالبازى الذى دفع عن نفسه ما وقع الديك فيه برغبة صاحبه فى كسبه ووده ولم يقنع له بالسلامة حتى أكرمه بالدستيان وأركبه يده وحلاه الجللج وأطعمه من خالص كسبه ومن غير كسبه وعجز الديك عن هذه الفضائل والمكاسب واقتصر على شهوة الفساد والترفة واللفظ فحل به ما حل.

أمارات الجراءة فيه: يمتحن ذلك بأن ينصب فى بيت مضىء ثم يقطع عنه الضوء ويسد ما يدخل اليه من النور فإذا أظلم البيت دنوت من البازى فلمسته مسرعا فإن وثب على يدك وقبضها فهو جرىء بصيد عظام الطير وان تقبض وسكن فليس كذلك، ومن أمارات القوة أن يشد فى زاوية البيت وينظر أين يبلغ بزرقه من الحائط فأرفعها زرقا أشدها قوة وتدل قوته على طيرانه وصيده.

ومن ملح ما ورد فى التعريض باسمه ما قاله بعض التميميين لرجل من نمير ما أحسن صيد البازى فقال له النميرى لا سيما اذا أرسل على القطار اراد التميمى:

أنا البازى المطل على نمير أتيح من السماء لها انصبابا
وأراد النميرى:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
قلت وما أحسن جواب بعض الشعراء وقد حضر بين يدي أمير يمدحه فقال له الامير
ممن الرجل فقال من بنى تميم فقال الذين يقول فيهم القائل:

* تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا *

فقال بتلك الهداية جئتكم فخبجل الامير وسأله كتمانها بعد الاجازة.

الاقوات المحمودة للصيد يوم الغيم الذى لا مطر فيه ويوم المطر للقصف ويوم

الصحو للقاء الناس والملوك تغلس للطرد لأن الطرائد فى ذلك الوقت تكون رابضة فتستثار وفيها أثر النوم وأما يوم الصيد فالسبت، وقد قيل فى ذلك:

لنعم اليوم يوم السبت حقاً لصيد إن أردت بلا امتراء

والاختيار فى باب النجوم فهو اختيار الحرب والوجه أن يكون صاحب السابع فى الطالع فيكون المتبوع مأسوراً ويكون القمر مناظراً لأحد السعدين أو متصلاً به فى برج ذوات أربع قوائم، قال أبو سهل النوبختى وصاحب الطالع فيه الزهرة والمشتري يسعدها بنظره وهذا معدن من معادن علم النجوم.

الشيخ جمال الدين بن نباتة يقرض رسالة بندقية ومن بندقية لها الشرف الرفيع على كل قول والطرف البعيد على كل ذى صوغ من اللفظ وصول وصف فيها الرياض فكأنما وصف كلامه وذكر فيها الواجب فكأنما ذكر بحقوق هذه الصناعة قيامه فما قوس السماء بدا فى مصباغات غلائله ورمى ببندق برده الجذب فى مقاتله بأبهج من وصفه لتلك القسى المذبحة الجافية المتعطفة الجانية الا على الطير الممتنع الصائبة بعيون أوتارها شمله المجتمع قسى قاسية الجوانح لينة الا على الجوارح طالعة أهلتها بفناء السوانح والبوارح ومبتذلة مكرمه صامته الا انها لذوات الجوارح مكملة قادرة على العطاء والعطب باهرة الفضائل التى لولا بدائع الصنع لما نبتت منها فى عصب قد ألفت الرياض فلبست بعض برودها وطلبت شأو السماء فنثرت مثل عقودها تقوم بالواجب وتعين بعين وحاجب وتأخذ على الطير المطار وتذكر قيامها تحته وهى غصن فتطالبه بأوتار كأن كل قوس منها حاجبان وقبضته البلج وكان بيدقها طالب ما فتح باب نجاح وجناح الا ولج ولج ومن غزالية غزلية براعية أسلية تقنص فيها شوارد الحكم وقيد أو ابدأ المعانى بجناح القرطاس ومخلب القلم وتصرف من تقريظ مواطن الصيد فى باب المنايا والمنايح وتلطف فى الاقوال التى لو شاء لعطف عليها الطباء السوانح وأتى بعيون الدرر التى نظمت وفنون الحلل التى رقيمت لا بالجزع الذى لم ينقب من عيون الوحش ولا بمناويل أعراف الجياد التى غيرها المس والمش حتى عرف البلغاء أنها أقوى على دفع الخطب وسجع الخطب وأن أقلامهم إذا شاركت قلمه فى المعانى كان منه الصيد ومنها الخطب وان غزالا وصفه قد سرف على الغزالة وزهى بما حشد من التقريظ وغزاله فلو استطاع الشكر منه كرما لسطر مدحه فكان الخط دواة والقرن قلما على أن عدل قلمه لو شاء لم ترع ظبية فى مداها ولم تخف من مناسر البزاة حد مداها ولم تبلغ يد عنهم من ريم مراما ولكانت عينه بل كل عين فى جسده من أعين الطباء حراما وله فيها:

اسعد بها يا قمرى برزة سعيده الطالع والغارب
صرعت طيرا و سكنت الحشى فما تعديت عن الواجب

وللشيخ جمال الدين بن نباتة من رسالة طردية حاملين قسيا كالأهله لا جرم أنها تقصر
لذوات الجناح عمرا متأبطين حرا وآت يقول الطير عن حواملها هذا الذى تسميه العرب
تأبط شرا.

ومن انشاء القاضى شهاب الدين محمود الحلبي:

وبرزنا وشمس الاصيل تجود بنفسها وتسير من الافق الغربى إلى موضع رمسها،
وتغازل عيون النور بمقلة أرمده وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض، إلى وجوه العود
فكانها كشيبة أمسى من الفراق على فرق، أو عليل تقضى بين صحبة بقايا مدة الرمق، وقد
اخضلت عيون النور لوداعها وهم الروض بخلع حلتها المموهة بذهب شعاعها.

والطل في أعين النوار تحسبه دمعا تحير لم يرقى ولم يكف
كالؤلؤ ظل عطف الغصن متشحا بعقده وتندى منه فى شنف
يضم من سندس الاوراق فى صرر خضر ويجنى من الازهار فى صدف
والشمس فى طفل الامساء تنظر من طرف غدا وهو من خوف الفراق خفى
كعاشق سار عن أحبابه وهفا به الهوى فترآهم على شرف

إلى ان نضا المغرب عن الافق ذهب قلائدها وعوضه عنها من النجوم بخدمها
وولاندها فلبثنا بعد آداء الفرض لبث الأهلة ومنعنا جفوننا أن ترد النوم الانحلة ونهضنا
وبرد الليل موشع وعقده مرصع واكليله مجوهر وأديمه معبر وبدره فى خدر سراه
سستكن وفجره فى حشا مطالعه مستجبن كأن امتزاج لونه بشفق الكواكب خليط مسك
وصندل وكأن ثرياه لامتداده معلقة بامراس كتان الى صم جندل:

ولاحت نجوم الليل زهرا كأنها عقود على خود من الزنج تنظم
محلقة فى الجو تحسب أنها طيور على نهر المجرة حوم
إذا لاح بازى الصبح ولت يؤمها إلى الغرب خوفا منه بسر ومزرم

إلى حدائق ملتفة وجداول محتفة إذا جمش النسيم غصونها اعتنقت عناق الاحباب
واذا فرك من المياہ متونها انسابت فى الجداول انسياب الحباب ورقصت فى المناهل رقص
العباب وان لثم ثغور نورها حيته بأنفاس المعشوق وان أيقظ نواعس ورقها غنته بالحنان
المشوق فنسيمها وان وشميمها بعرف الجنان عنوان ووردها من سهر نرجسها غيران وطلها
فى خدود الورد مهتد وفى طرز الريحان حيران وطاثرها غرد وماؤها مطرد وغصنها تارة

يعطفه النسيم إليه فينعطف وتارة يعتدل تحت ورقائه فيظنها قوم همزة على ألف مع ما فى تلك الرياض من توافق المحاسن وتباين الترتيب اذ كلما اعتل النسيم صبح نشر الروض وكلما خر الماء شمع القضيبي:

وكانما تلك الغصون وقد ثنت
أعطافها رسل الصبا أحباب
فلها اذا افترقت من استعطافها
صلح ومن سجع الحمام عتاب
وكانها حول العيون موايسا
شرب وهاتيك المياها شراب
فغديرها كأس وعذب نطاقها
راح وأضواء النجوم حباب
تحيط بملق ماؤها صاف وظلال دوحها ضاف وحصابؤها بصفاء مائها فى نفس الامرار
كدو فى رأى العين طاف اذا دغدغها النسيم العليل حسبت ماءها بتمایل الظلال فيه يتبرج
ويميل وإذا اطردت عليه أنفاس نسيم الصبا ظننت أفياء تلك الغصون هوى بمثلها فى قلبه
وكان النسيم أيضا كلف بها غار من دنوها إليه فميلها عن قربه والسرو مثل عرائس لفت
عليهن الملاء شمرن فضل الازر عن سوق خلاخلهن ماء والنهر كالمرأة تبصر وجهها فيه
السما والكان صواف الطير المبيضة بتلك الملق خيام أو قباب على الرقمتين قيام وأباريق
فضة رءوسها لها قدام ومناقيرها المحمرة أول ما أنسكب من المدام وكان رقابها رماح
أستها من ذهب أو شموع أسود رءوسها ما انطفى وأحمره ما التهب وكنا كالطير الجليل
عدة وكطراز العمر الأول جدة:

من كل أبلج كالنسيم لطافة
عف الضمير مهذب الاخلاق
مثل البلور ملاحه وكعمرها
عددا ومثل الشمس فى الاشراق
ومعهم قسى كالغصون فى لطافتها ولينها والاهلة فى نحافتها وتكونها والازهار فى
ترافتها وتلونها بطونها مدبجة ومتونها مدرجة كأنها كوكب الشولة فى انعطافها أو أوراق
الظباء فى التضافها لاوتارها عند القوم أوتار ولبنادقها فى الحواصل أو كار إذا انتصبت لطير
ذهب من الحياة نصيبه وإذا انتضت لرمى بدت لها أنه أحق بها أن تصيبه ولعل ذلك
الصوت زجر لبندقها أن ييطى فى سيره أو يخطئ الغرض إلى غيره أو وحشة لمفارقة افلاذ
كبدها وأسف على خروج بنيتها عن يدها على أنها طالما نبذت بنيتها بالعراء وشفعت
لخصمها التحذير بالاغراء:

مثل العقارب أذنايا معقدة
لمن تأملها أو حقق النظرا
إن مدها قمر منهم وعيائه
مسافر الطير فيها وانبرى سفرا
فهو المسىء اختياراً اذ نوى سفرا
وقد رأى طالعا فى العقرب القمر

ومن البنادق كرات متفقة السرد متحدة العكس والطرء كأنما خرطت من المندل
الربط أو عجننت من العنبر والورد تسرى كالشهب فى الظلام وتسبق إلى مقاتل الطير
مسددات السهام:

مثل النجوم إذا ما سرن فى افق عن الأهلة لكن نونها را
من فاتها من نجوم الليل إن رمقت الا ثبات يرى فيها وأضواء
تسرى ولا يشعر الليل البهيم بها كأنها فى جفون الليل اغفاء
ويسمع الطير اذ تهفو قوادمه خوافقا فى الدياجى وهى صماء

تصونها جراؤه كأنها درج درر أو درج غرر أو كمامة ثمر أو كنانة نبل أو غمامة وب
حالكة الاديم كأنما رقت بالشفق حلة ليلها البهيم:

كأنها فى وضعها مشرق تنبت منه فى الدجا الانجم
أو ديمة قد أطلعت قوسها ملونا وانبعثت تسجج

فاتخذ له كل مركزا وتقاضى من الاصابة وعدا منجزا وضمن له السعد أن يصبح
لمراده محرزا:

كأنهم فى يمن أفعالهم فى نظر المنصف والجاحد
قد ولدوا فى طالع واحد وأشرفوا من مطلع واحد

فسرت علينا من الطير عصابة أظللتنا من أجنحتها سحابة من كل طائر ألقع يرتاد مرتعا
فوجدوا الكن مصرعا وآشف ييغى ماء حماما فورد ولكن السم منقعا وحلق فى الفضاء ييغى
ملعبا فبات هو وأشياعه للقسى سجدا ركعا فتبركنا بذلك الوجه الجميل وتداركنا أوائل
ذلك القبيل فاستقبل أولنا ثم بدره وعظم فى نوعه قدره كأنه برق كرع فى غسق أو صبح
عطف على بقية الدجى عطف النسق تحسبه فى أسداف المنى غرة نحج وتخاله تحت أذيال
الدجى طرة صبح عليه من البياض حلة وقار وله كرة من عنبر فوق منقار من قار له عنق
ظليم والتفاتة ريم وسرى غيم يصرفه نسيم:

كلون المشيب وعصر الشبا ب ووقت الوصال ويوم الظفر
كأن الدجى غار من لونه فأمسك منقاره ثم فر

فأرسل إليه عن الهلال نجما فأسقط منه ما كبر بما سقط حجما فاستبشر بنجاحه وكبر
عند صباحه وحصله من وسط الماء بجناحه وتلاه كى نقى اللباس مشتعل شيب الراس كأنه
فى عرائن يشبه لأوائله كبير اناس إن أسف فى طيرانه فغمام، وإن خفق بجناحه قطع له بيد

النسيم زمام ذو عيبة كالجراب ومنقار كالحراب ولون ثغر فى الدجى كالنجم ويخضع فى الضحى كالسراب ظاهر الهرم كأنما يخبر عن عاد ويحدث عن أرم:

ان عام فى زرق الغدير حسبته مبيض غيم فى أديم سماء
أو طار فى أفق السماء ظنته فى الجو شيخا عائما فى ماء
متناقض الاوصاف فيه خفة الج هال تحت رزانة العلماء

فثنى الثانى إليه عنان بندقه وتوخاه فيما بين أصل رأسه وعنقه فخر كمارد انقض عليه .
نجم من أفقه فتلقاه الكبير بالتكبير واختطفه قبل مصافحته من الماء وجه الغدير وقارنته أوزة
حلتها دكنا وحليتها حسنا لها فى الفضاء مجال وعلى طيرانها خفة ذوات التبرج وخفر ربات
الحجال كأنما عبت فى ذهب أو خاضت فى لهب تختال فى مشيتها كالكاعب وتتأنى فى
خطوها كاللاعب وتعطو بجيدها كالطير البهير وتتدافع فى سيرها مشى القطاة إلى الغدير:

إذا قبلت تمشى فخطرة كعاب رداح وان صاحت فصوله خادم
وإن أفلعت قالت لها الريح ليت لى خفا ذى الخوانى أو قوى ذى القوادم
فأنعم بها فى البعد زاد مسافر وأكرم بها فى القرب تحفة قادم

فلوى الثالث جيده إليها وعطف بوجه قوسه عليها فلحت فى ترفعها ممعنة ثم نزلت
على حكمه مذعنة فأعجلها عن استكمالها الهبوط ورفعها قبل استقرارها السقوط واستولى
عليها بعد استمرارها القنوط وحاذتها الغلغة تحكى لون وشيها وتصف حسن مشيها وترى
عليها بغرتها وتنافسها فى المجالس كضرتها كأنها مدامة قطبت بمائها أو غمامة سفت عن
بعض نجوم سمائها:

بغرة بيضاء ميمونة تشرق فى الليل كبدر التمام
وان تبدت فى الضحى خلتها فى الحلة الدكنا برق الغمام

فنهض الرابع لاستقبالها ورمها عن فلك سعده بنجم وبالهها فجدت فى العلو مدة
وطارت أمام بندقه ولولا اطراد الصيد لم تك لذة وانقض عليها من يده شهاب حتفها
وأدركها الاجل لخفة طيرانها من خلفها فوقعت من الافق فى كفه وفرت من ثنايا واصفها
عن صفة وأتت فى اثرها أنيسة أنسة كأنها العذراء العانسة أو الارماء الكانسة وعليها خفر
الابكار وخفة ذوات الاوكار وحلاوة المعانى التى تجلى على الافكار ولها أنس الريب
واذلال الحبيب وتلفت الزائر المريب من خوف الرقيب ذات عنق كالابريق أو الغصن
الوريق قد جمع صفوته النهار إلى حمرة الشفق وصدر بهى الملبوس شهى إلى النفوس

كأنما رقم فيه النهار بالليل أو نقش العاج بالابنوس وجناح ينجيها من العطب يحكى لونه المنديل الرطب لولا أنه حطب مدبجة الصدر تفويقه أصناف إلى الليل ضوء النهار لها عنق خاله له من رآه شقائق قد سيحت بالبهار.

فوثب الخامس منها إلى الغنيمة ونظم فى سلكه تلك الدرة اليتيمة وحصل بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمة وأتى على صياحها حبرج نسبق همته جناحه ويغلب خفق فؤاده صياحه مدبج المطا كأنه خلع حلة منكبيه على القطا ينظر من ذهب ويخطو على عود من لهب:

يزور الرياض ويجفؤ الحياض ويشبه فى اللون كدر القطا
ويهوى الزروع ويلهو بها فلا يرد المماء الا خطا

فبدره السادس قبل ارتفاعه وأعان قويسه بامتداد باغه فخر على آلائه كبسطام بن قيس وانقض عليه راميه فحصله بحذق وحمله بكيس.

وتعذر على السابع مرامه ونبا به عن بلوغ الارب مقامه فصعد هو وترب له إلى جبل وثبت فى موقفه من لم يكن له بمرافقته قبل فعن له نسر بقوادم شداد ومناسر حداد وخوافى مداد كأنه من نسور لقمن بن عاد تحسبه فى السماء ثالث أخويه وتخاله فى الفضاء قبته المنسوبة اليه قد حلق كالفقراء رأسه وجعل مما قصر من الدلوق الدكن لباسه واشتمل من الرياش العسلى ازارا واختار العزلة ولا تجد له الا فى قنن الجبال الشواوق مزارا قد شابت نواصى الليالى وهو لم يشب ومضت الدهور وهو من الحوادث فى معقل أشب:

ملك طيور الارض شرقا ومغربا وفى الفلك الاعلى له أخوان
له خال فتاك وحلية ناسك واسراع أقدام وفترة وان

فدنا من مطاره وتوخى بيندقة عنقه فوقع فى منقاره فكأنما قد هد منه صخرًا توخى أو هدم به بناء مشمخرا ونظر إلى رفيقه مبشرا له بما امتاز به عن فريقه واذا به قد أظلمت عقاب كاسر كأنما قد أظلمت صيدا قد أفلت من المناسر إن حطت فسحاب انكشف وان اقامت فكان قلوب الطير رطبا وباسا لدى وكرها العناب والحشف بعيدة ما بين المناكب اذا أقطعت لجبت فى علو كأنما تحاول ثارا عند بعض الكواكب:

ترى الطير والوحش فى كفها ومنقارها ذا عظام مزاله
فلو أمكن الشمس من خوفها اذا طلعت ما تسمت غزاله

فوثب اليها الثامن وثبة ليث وثق من حر كاتها بنجاحها ورمائها بأول بندقية فما أختنا

قادمة جناحها فأهوت كعود صرع أو طود صدع قد ذهب بأسها وتذهب بدمها لباسها وكذلك القدر تخادع الجو عن عقابه ويستنزل الأعصم من عقابه فحملها بجناحها المهيض ورفعها بعد الترفع فى أوج جوها من الحضيض ونزلا إلى الرفقة جزلين بريح الصفقة فوجد التاسع قد مر به كركى طويل السفار سريع التفار شهى العراق كثير الاغتراب يشنو بمصر ويصيف بالعراق لقواده فى الجو هفيف ولأديمه لون سماء طراً عليها غيم خفيف تحن إلى صوته الجوارح وتعجب من قوته الرياح البوارح له شية حمراء فى رأسه كومض جمر تحت رماد أو بقية جرح تحت ضماد أو فص عقيق سفت عنه بقايا ثماد ذو منقار كسنان وعنق كعنان كأنما بنوس على عود من أبنوس:

إذا بدا فى افق مقلعاً والجو فى الماء تفاويفه
حسبته فى لجة مركباً رجلاه فى الافق محاذيفه

فصبر عليه حتى جازه مخلصاً وعطف عليه مصلياً فخر مضرجاً بدمه وسقط مشرفاً على عدمه ولطالما أنلت لدى الكواسر من أظفار المنون وأصابه القدر بحجة من حماء مسنون فكثير التكبير من أجله وحمله راميه من على وجه الأرض برجله وحاذاه غرنوق حكاة فى زيه وقدره وامتاز عنه بسواد رأسه وصدره له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى حلقة مفقودتان من أذنه إلى مكان سبقه له من الكراكى أوصافه سوى سواد الصدر والرأس إن شال رجلاً وانبرى قائماً أليته هيئة برجاس.

فأصغى العاشر له منصتا ورماء ملتفتا فخر كأنه صريع الأشجان أو نزيف بنت الجان فأهوى إلى رجله بيده وأيده وانقض عليه انقضاض الكاسر على صيده وتبعه فى المطا رضوخ كأنه من النضار مصبوغ تحسبه عاشقاً قد مد صفحته أو بارقا قد بدت لفحته:

طويلة رجلاه مسودة كأنما منقاره خنجرجر
مثل عجوز رأسها اشمط جاءت وفى رقبتهها معجرجر

فاستقبله الحادى عشر ووثب ورماء حين حازاه من كشب فسقط كفارس تقنطر عن جواده أو وامق احتسب حبة فواده فحمله بساقه وعدل به إلى زقاقه واقرن به مرزم له فى السماء سمي معروف ذو منقار كصدع معطوف كأن ريشه فلق اتصل بشفق أو ماء صاف علق بأطرافه علق له جسم من الثلج على رجلين من نار إذا أقلع ليلاً قلت صبح فى الدجى نار.

فانتحاه الثانى عشر ميمماً ورماء مصمماً فأصابه فى زوره وحصله من فوره وحصل له

من السرور ما خرج به عن طوره والتحق به شبيط كأن مدته مسطر ينحط كالسيل ويكر على الكواسر كالخيل ويجمع من لونه بين ضدين يقبل منهما بالنهار ويدبر بالليل يتلوى فى منقاره الايم كتلوى التنين فى الغيم:

تراه فى الجو ممتدا وفى فمه من الافاعى شجاع أرقم ذكر
كأنه قوس رام عنقه يدها ورأسه رأسها والحية الوتر
فصوب الثالث عشر إليه بندقه فقطع الحبة ودق عنقه فوقع كالصرح الممرد أو الطرف
الممدد وأتبعه عنان أصبح فى اللون ضده وفى الشكل نده كأنه ليل ضم الصبح إلى صدره
وانطوى على هالة بدره:

تراه فى الجو عند الصبح حين ندا مسود أجنحة مبيض حيزوم
كأسود حبشى عام فى نهر وضم فى صدره طفلا من الروم
فنهض تمام القوم إلى التمتة وأسفرت عن نهج الجماعة تلك الليلة المدممة وغدا
ذلك الطير الواجب واجبا وكمل العدد به قبل ان تطلع الشمس غيبا أو تبرز حاجبا فيا لها
حصرت بابها الصوادح فى الفضاء المتسع ولقيت فيها الطير ما طارت من قبل على كل
شمل مجتمع وأصبحت أشلاؤها على وجه الارض كفرائد صانها النظام أو مشرب كأن
رقابهم من اللين لم يخلق لهن عظام وأصبحنا مثنين على مقامنا مثنين إلى مستقرنا ومقامنا.

كتب القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى وهو بين يدى السلطان إلى نائب الشام
المحروسة صحبة طيور أرسلها إليه من رأس قلمه ولا زالت مواهبنا تخصه بالمزيد
وتتحفه بما يريد وتجعل له من الجوارح ما تعترف له السهام بأنها بغير جناحيه لا تصيب ولا
تصيد صدرت هذه المكاتبة إلى الجناح العالى بسلام جميل الافتتاح وثناء يطير إليه وكيف
لا يطير قادمه بجناح ونعلمه ان مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما
بقى من رسمه وجرت عادة صدقاتنا الشريفة أن تحسب فى قسمه وقد جهزنا له الآن منها
ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار ولا يوقد للقرى فى غير حماليقها جذوة نار ولا نؤم صيدا الا
وترش الارض بدمه فلا يلحق لها بغبار وهى طائر كم لها من فتك أخذ الطير من منامه
وسلب ما تحلى به من رباش الريش ثم تزيا بأحسنه ومنها شاهين كم قيل له عن عزيز من
الطير فقال شاهين قد أبدعت قوادمه فى رسمها ورسمت فى أجنحتها معانى النصر فبكت
عيون الوحش دماء على رسمها فالجنائب يتسلمها من الواصل بها ويتوصل إلى الطيور

المحلقة فى السماء بسبيها وليشكر نعمنا التى اقرت النعم لديه وبسطت فى الأرض بالتمكين بين يديه ونوعت له من كرمنا من الخير وخولته فيما تقلدناه من الملك عن سليمان حتى تفقد الطير والله تعالى يجدد سعوده فى شطور الصدور تقرا وجوده بها يقرى وعهوده فى البطش تارة تريش سهما وتارة تجرد صقرا أن شاء الله تعالى.

نظر رجل إلى رام قصير اليد فى صنعته فقعد فى مواضع الهدف فقال له ما هذا فقال له لم أر منك مكانا سالما الا هذا.

خرج الحيص بيص الشاعر ليلة من دار الوزير شرف الدين أبى الحسن على بن طراد الزينى فنيح عليه جرو كلب وكان متقلدا سيفا فوكزه بعقب السيف فمات وكان هبة الله بن الفضل القطان بينه وبين الحيص بيص وقائع فكتب رقعة وعلقها فى عنق كلبه لها جرو ورتب معها من طردها وأولادها إلى باب الوزير كالمستغيثة به فأخذت الورقة وقرئت على الوزير فإذا فيها مكتوب:

يا أهل بغداد ان الحيص بيص أتى	بفعلة اكسبته الخزى فى البلد
هو الجبان الذى أبدى تشاجعه	على جرو ضعيف البطش والجلد
وليس فى يده مال يغديه به	ولم يكن لسوء عنه فى القود
فأنشدت جعدة من بعد ما احتس	بت دم الايلق عند الواحد الصمد
تقول للنفس بأسى وتعزية	احدى يدي اصابتنى ولم تكد
كلاهما خلف من بعد صاحبه	هذا أخى حين أدعوه وذأ ولدى

قلت ومن ملح المداعبات ما كتب به الشيخ جمال الدين بن نباتة إلى الشيخ بدر الدين حسن الغزى الشهير بالزغارى صورة اجازة أما بعد حمد الله الذى جعلنا ممن كرم من البشر والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاسئ من فجر وعلى آله وصحبه ما نبج الكلب ضوء القمر فقد قرأ على لازال صائدا للحمد من مكمنه صائلا على القرن من مأمنه نازلا منازل العواء فى أحسن افق وأحصنه هذه الفلذة من شعري قراءة أبغى بها الاحسان أثرا ودل على جودة القراءة وطالما دل على جود القرى ووحدته قد فاق جرو لا خطابا وافتخر على الكلبي وابنه نسبا وآدابا وبلغت مفاخر قومه على زعم القائل فلا عمر ابلغت ولا كلابا وعلا ذروة لو سامها ابن كلاب لما قرعها بل ولو نبجها كوكب الكلب المقدم لما بلغها صوته ولا سمعها والتقى صوت الآداب منه غاد ورايح وامتزج عليها بجوارحه فحبذا ما علم من

الجوارح وسعى على ظفر سعيه السريع المديد ونام على المجارة قرناؤه منام أهل الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد وعلمت أن مكاسب آدابه عظام وأكثر فوائده لباب اذا اختلفت فوائده أهل اليسار والنظام وأن جل ملابسه من حمده وكل عزائمه زائدة عن طوقه وجهده وكل رافع طوع طلبه وكل خير صحبه من عنده لو قارب كلاب بن ربيعة لسلم إليه زمام المكارم ولو حاور جريرا لما قال للاخلطل هجوت كليباً اذا آل دارم ولو دعى الوحش بلفظه لعطف عليه ذوو النفار ولو سابق البرق لما لحق من بديته الغبار ولو فاخر الدرر وحاكمها إلى البحور لأقامته وأقعد بها عن الفخار ولو ميز حال أضداده لكان الكلب خيراً منها عند ذوى البصائر والابصار تكاد الحمائم تقول أين ضعف سجعنا من قوة هذا النطق الضارى والتبر فى غبار معدنه ينادى أين جوار هذه الطرق من جوار غارى فأجزت له رواية هذه الابيات وحمايتها وحفظها ورعايتها اتباعاً لاسارته واعجاباً بما امتاز به على اشباهه من زى النطق واشارته وتمسكاً بوفاء بيته الجليلة انسابه المغشية أنديته حتى ما تهر كلابه عالماً بأنه المفتش على خبايا الفضائل الحامى لمرعى القول حتى ما يذكر الحمى وكليب وائل المتسرع فى تصيد شوارد الآداب الناهض بنصرتها وقد قطع بها الدهر لديه أذنان الكلاب السابق حين يفتر سواه ويلبث المتحمل لآعبائها لا كالثقلين الذى إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وذلك عند سفره الحافز وبكوز عزمه الذى هو عن استيفاء القول حاجز وحركته فى أوقات الشتاء الجامدة ورحلته فى ليلة من جمادى لا ينبج الكلب فيها غير واحد والله تعالى يجمع له بين الغنيمة والاياب ويفيض على القلوب ثياب مودته الثابت فضلها على كثير ممن لبث الثياب.

ذكر أديسم بن إبراهيم صاحب ادريجان قال كنت مجتازاً على قنطرة الرى فى عسكرى فلما صرت فى وسط القنطرة رأيت امرأة تمشى وقد حملت طفلاً لها فى قماطة فصدمها بغل محمد فطرحت نفسها فزعا ووقع الطفل من يدها فى الماء فلما وصل إلى الماء غاض زماناً لبعده ما بين القنطرة والماء ثم طفا وسلم من الحجارة والماء يجرى به وأجراف النهر بعيدة عن الماء وفيها أوكار عقبان فحين طفا الطفل رأته عقاب هناك فانقضت عليه ومسكت بمخالبها فى قماطه وخرجت إلى الصحراء فأمرت جماعة أن يركضوا خلف العقاب ففعلوا ومشيت أنا فاذا بالعقاب قد وصلت إلى الارض واشتغلت بخرق القماط فأدركه القوم وركضوا خلفها حتى شغلوها عن خرق القماط فطارت وتركت الطفل على الأرض فاذا هو سالم ييكى فرددناه إلى أمه.

من انشاء المجيد أبى على بن أبى النحناء العسقلانى رسالة طردية نقلتها من خط
الوداعى من أصبحت نعمه سوارح واستعبدت منته القلوب والجوارح فأصبح لها المجد
مقرا ولغرائب السوود والثناء مقرا مثل حضرة مولاي أطال الله بقاءه تطلبت له الانفس النار
ونغصت له الملاذ و المسار ومما يظرف به العبد مولاه أسنى الله قدره وأعلاه أنه خرج يوما
مع أناس قد وصلوا برهم بايناس كل منهم يهتز للاكرومة ويأوى إلى شرف الارومة على
خيل مسومة مثقفة مقومة من بين جون أدهم أذكى من فارسه وأنهم أغر محجل وعدة
معجل كان اسوداد اهابه اذا ضاهى به ليل رمت البلاد شبهه شبهة العين والارض نهبه اذا
زاغ عن سنان أو تعطف لعنان ظنتته صد عن مواصله وانفصل عن مفاصله واشقر كالطراف
عبل الاطراف نهذ كريم له سالفة ريم كأنما خرط من عقيق أو تردى برداء من شقيق يجرى
كهوج ويعلو كموج وينزل كوابل ان قرعت عرفه سابق طرفه وان أوردته الطراد أوردك
المراد وكميت كالطود ذى وطيف كذراع العود يلطم الأرض بزبر وينزل من السما بخبر
وهملاج أشهب إن زجرته الهب أديمه روضة بهار ينظر من ليل فى نهار ينساب انسياب
الايم ويمر مرور الغيم لا ينه النائم لو عبر به ولا يحرك الهواء فى مسربه أخفى وطأ من
طيف واوطى ظهرا من مهاد ضيف فلم يزل بنا المسير وكل فى طاعة صاحبه أسير إلى أن
صادفنا واديا كان لعيوننا باديا فما قطعناه عرضا حتى أتينا أرضا كأنما فرش قرارها بزبرجد
وصيغت أنوارها من لجين وعسجد قد رقرت فيها السحاب دمعها وأحسن قيعانها جمعها
نسيمها سقيم وظلها مقيم وماؤها جورى وتربها شجرى فهى تهدى للناشق أنفاس المعشوق
إلى العاشق كأن غدرانها فى اخضرار رياضها وجداولها فى اسوداد بياضها وبدور سماء
كملت وبروق فى متون غمام تسلسلت طائرها مكسال وظباؤها ارسال ذات قرون معقفة
كأذئاب العقارب وبطون مبيضة كالنهار السارب مضمخة الاجساد بخليط صندل وجساد قد
اكتست أطيافها فأغربت وتغنت بلغاتها فأطربت كأن الامانى فتحت لها أبوابا والرياض
خلعت عليها أثوابا إذا شنجت للبكاء وأعلنت بالمكاء أبت الطبايع على نغمات الموصلى فى
نثثات البابلى ومجت الاسماع شدو الفريض بمرقق القريض فعند ذلك يممنا ظل شجرة
هنالك ذات جدول متكمر فى مسلك متيسر وكأن أعلاه بطن جان وقرارته مساقط در
ومرجان فلما وردنا عليها وانصفنا إليها حنت علينا أغصانها حنو الوالد والحفتنا أوراقها بظل
خالد وأتحفتنا من ثمارها بطارف وتالد فأصبنا من ثمرها قليلا ونقنعنا بماء جدولها غليلا ثم

نهضنا نطلب الاوابد نستشير كوامنها واللوايد وقد يسرنا مقاود الكلاب وشركنا فى البحث والطلاب كل كلب منها غلوب ولارواح الطرائد سلوب ذو خطم مخطوف ومخلب كصدغ معطوف بقوائم كالذوايل ومتن كالغصن الذابل غائب الخصر حاضر النصر كأنما لملت هامته من فهر وخرط ما دون عينيه بجهر له طاعة تهذيب واخلاص ذيب وتلفت مريب وحذاقة نذريب له من الطرف أوراكه ومن الطرف ادراكه ومن الاسد صوله وعراكه اذا طلب فهو منون واذا انطوى فهو نون واذا استرسل فهو خط على الارض مظنون فسبح لاحدها غزال والمقود عنه مزال فاسترسل عليها وهرب وجد فى طلبه فانسرب فأنبرا فى أسلوب ما بين سالب ومسلوب اذا مرق الاول كالسهم تبعه الثانى كالوهم فللظبى حد على جناح وحل وللكلب انبساط أمل فى سرعة أجل إلى أن جعجعه وبنتفسه فجعده دامى الجروح بادی القروح مستسلما لسلب الروح فعاجلناه بالذكاة وأيقنا بحلول البركات ثم انتحى بعضنا بفهد ذى صدر رحب نهذ كأن قرار ثمرته فى اختلاط بياضه بسمرته ثوب مصمت معتق مطلق قد فرشت فوقه أقراص عنبر صففتها يد صانع خبير فتبهه ففج فجيح ثعبان وأطلقه على ظبية تدب ديب عقران فلما أدركه ناظر الصبيى ومرت مرور عيه فأت أبصارنا بنفرتة وسبق أفكارنا بظفرتة ولطمها عند الادراك من الكتف إلى فرجة الاوراك فشققها شق المزاد ضاقت أفواهاها عن خروج المراد وضرعها يضطرب كأن قوائمها تجترب فبادرنا مهللين وذكيناها محللين ثم ملنا إلى الطيور وجوارحنا مطلقة السيور فقال رجل من أصحابنا أتبعنا عند أصحابنا ذلك الغدير فيه طير يستدير ينظر من خراة ابره ويحتال فى بروز خبره فاستدلنا عليه بالبراهين إلى أن ارتكض قوم من الشواهين أطلقه حامله واقترحت عن شباقة أنامله فمر فى الهواء يتصرف فى الاهواء يذكى جدا واعمالا ويطعن يمينا وشمالا كأنما أضل فريقا أو جهل طريقا حتى إذا دنى أفق السماء مسامتا للماء كأنه يمسح القلك أو يطلب شيئا هلك طرق من خوفه فانهدر وهو يسابق القدر كأنه صخرة منجنيق أو حجر ارسل من رأس يبق له دوى كدوى الرعد نطق عن الغيث بوعد فانتحى احداهن وقد قرن مداهن فقنعها بيسراه وقد أضحت من يسراه وشيعها بيميناه وقد بلغ منها مئاه فدحاها كأنها كره طوحت بها ضربة منكزه فذكيناها تحليللا وأذقناه منها تعليلا ثم ملنا إلى قسى البنادق من كل ناطقة بالوعد الصادق يعطيك المراد لكرم اعراقها ويمنعك الفياذ عن استغراقها ذات بطن كالحاجب المقرون وظهر قد أثرت فيه الجنادب القرون قد تعصفر أعلاها فرحا باستعلامته

وأحد لرداها أسفا على استيلائه ترن عند الرشق رنين مصابها ويتشكى اليم أو صابها بل يسجع للنبض سجع الحمامة وينظر عند النقص نظر زرقاء اليمامة ألوان أوعيتها مختلفة وأكوان تسيرها مؤتلفة كأنها مجارى أنهار بين طرائق أزهار فسرنا صفوفا فوافينا الطيور رفرقا فلما قطعت في عراضنا وصارت منا كما عراضنا قلبت نحوها القسي أبصارا واتخذت من البندق رسلا وأنصارا فرشقناها بمبسملين ولصرع أكثرها مؤملين فجرت تنهافت وأجنحتها تنقبض وتكافت كأنما أسبقت إلى أقواتها واستنزلتها الفراخ بحسن أصواتها فبادرناها مكبرين ولنعم الله عليها مكثرين وواجرناها غصص المنايا بمدى معوجة كالحنايا وأصليناها نارا تلظى تشقى بحميمها وتحظى كأنها عبدة أوثان أو متخذة لها ثان فسبحان من أحل سفك دمائها وأحل للبشر سبك ذمابها والسلام.

السيد الفاضل شمس الدين بن صاحب موفق الدين ابن الأمدى فى القهد:

إذا طلب الغزلان فهو منون وإن دار فى طرس الفلاة فنون
وكيف يضل الوحش عنه وجلده بمسود ذاك النقط فيه عيون
وله فى الصقور:

وكانما فوق الأكف فوارس فى الخافقين يجلن بين خوافس
أكثرن لبس السابغات أما ترى الص بدأ الحديد لهن فوق عوائس

من الكلام الفاضلى أنى رغبى إلى مولانا لا زالت المرغبات إليه مرفوعة وثمراتها كثمرات الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فى الاحسان بشاهين يجعل وكيل مطبخى لكثرة ما يجلب إليه من الخير واستنبيهه عن صاحب صالح فهو قدار الطير لا يعتصم منه بغير فجها ولا تلوذ الحمامة بعوسجها قدر قمت يد القدرة على جؤجؤه ديباج أسطره وعرفت أقلامها نون منسره فكانما عقد ليحسب ما صاد لمرسله ويوفيه حساب عمله وكأنه منجل أرسل على الطير بحصاد أجله تأتى بالرزق رغدا وتتخذ عند كل فم يدا ان عاش فأجنحته للطير كالقيود وان نوى ورث السهام ريشه فهو ولى عهده فى الصيد وما أجدر الطير بأن تقول لا تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدما ومن لا يقنع برزقه فى الأرض حتى يطالب به فى السما، طردية الشيخ جمال الدين بن نباتة التى سماها فرائد السلوك فى مصائد الملوك، وزهر يضحك فى الاكام إن كانت الأرض لها ذخائر فهى لعمرى هذه الازاهر قد بسطتها راحة الغمام بسط الدنانير على الدراهم احسن بوجه الزمن الوسيم تعرف فيه نضرة النعيم

وحبذا وادى حماة الرحب حيث زهى العيش به والعشب أرض السنا والبها والمرح والأمن
واليمن ورايات الفرع ذات النواعير سقات الترب وأمهات عصفه والاب تعلمت نوح
الحمام الهتف أيام كانت ذات فرع أهيف فكلها من الحنين قلب وكيف ولا والماء فيها
صب لله ذاك السفح والوادى الغرد والماء معسول الرضاب مطرد يصبو بها الرائي فكيف
السامع ويحمد العاصى فكيف الطائع اذا نظرت للربى والنهر فار وعن الربيع أو عن جعفر
محاسن تلهى العيون والفكر ربيع روضات وشحرور صفر أمام كل منزل بستان وبين كل
قرية ميدان أما رأيت الورق فى الاوراق جاذبة القلوب بالاطواق فبادر اللذة يا فلان واغنى
متى أمكنك الزمان ولا تعل مشتى ولا مصيف فكل أوقات الهنا شريف كل زمان ينقضى
بالجدل زمان عيش كيف ما دار اعتدل أحسن ما أذكر من أوقاته وخير ما انعت من لذاته
مرورنا بالصيد فيه والقنص وحوزنا من مزه أحلى الفرص وأخذنا الوحش من المسارب
وفعلنا فى الطير فوق الواجب لما دنا زمان رمى البندق سرنا على وجه السرور المشرق فى
عصبة عادلة فى الحكم وغلمة مثل بدور التم من كل مبعوث إلى الاطيار تظلمه غمامة
الغبار وكل معسول الرضاب أغيد منعطف عطف القضيبي الاملد قد حمد القوم به عقبى
السفر عند اقتران القوس منه بالقمر لولا حذار القوس من يديه لغنت الورق على كفيه فى
كفه محيطة الاوصال قاطعة الاعمار كالهلال زهراء خضراء الاهداب معجبة مما نوت بين
الرياض المعشبة فاغرة الافواه للاطيار طالبة لهن بالاولتار كأنها حول المياه نون أو حاجب
بما تشاء مقرون لها بنات بالمنى مغدوقة من طينة واحدة مخلوقه سامعة لما تشير الام مع
أنها مثل الحجار صم كأنها والطير منها هارب خلف الشياطين شهاب ثاقب وأهالها شهب
كرات تخطف شاهدة بالعزم وهى تقذف حتى نزلنا بمكان مؤنق اخوان صدق أحدقوا
بالملىق فى له فى الحسن من محل مراد جد ومراد هزل للطير فى أملاقه مواقع كأنها لمائه
فواقع فلم تزل فى منزل كريم تروى حديث الرمى عن قديم حتى طوى الافق رداء الورس
والتقم المغرب قرص الشمس وابتدر القوم عن المراصد من ساهر ليل التمام شاهد
كالليث يسطو كفه بأرقم والبدر يرمى فى الدجى بألحم بينا الطيور فى مداها سائرة اذا هم
من عينه بالساهرة وأقبلت مواكب الطيور على طروس الجو كالسطور فحبذا السطور فى
المهراق مستقطة الاحرف بالبنادق من كل حق ان يسمى ضياؤه للمشرق بدر التم تخاله من
تحت عنق قد سجا طرة صبح تحت اذيال الدجى وكل تم حسن الوسامة تخاله فى أفقه

غمامه كى يتبعه اوزه دكنا من دونها لغلغة غرا يقدمها انيسة ملونة تابعة من كل وصف أحسنه وربما مر عليها جبرج كأنه على نضار يدرج وانقض من بعض الجبال نسر له بأبراج النجوم وكر مضبر الخلق شديد الايد بينى على الكسر حروف الصيد يحث مسراه عقاب كاسبه خافضه لحظ الطيور ناصبة إذا مضت جملتها المعترضة تواصلت خيوطها المفترضة بكل كركى عجيب السير كأنه طيف خيال الطير يحسن غرنوقا لهى المجتلا مقدما على الغرائيق العلا وأبيض الغيم يسمى مرزما كم بات مثل نوته منسجما يحفه شبيطر قوى معجزه فى الطيرة وسوى كم حاش ثعبانا وحم حواه كأنه فى يده عصاة هذا وكم من طائر ممتاز ينعث فى الواجب بالعناز اسود الالعة فى الصدر كأنه نور الهدى فى الكفر فلم تزل قسنا الضواري تصيبها بأعين الاوتار حتى غدت دامية النحور ساقطة منا على الخبير كأنما وهى لدينا وقع لدى محارب القسى ركع وأصبحت أطيarna قد حصلت ولم تسأل بأى ذنب قتلت مستتبعا وجه العشى وجه السحر وكل وجه منهما وجه أغر يا لك من صيد مقر العين مرضى الصحاب وهو ذو وجهين لم يرض ما وفى من الامان حتى شفعناه بوجه ثان صيد الملوك الصيد بالكواسر والخيول فى وجه الصباح السافر ذاك الذى تصبو له الجوارح فهى إلى طلابه طوامح واثقة بالرزق حيث كان تغدو خماسا وتجىء بطانا سرنا على اسم الله والمباحج نعوم فى الاقطار بالسوايح خيل تحاذى الصيد حيث مالا كأنها أضحت له ظلالا تسعى بها قوائم لا تتبع وكيف لا وهى الرياح الأربع تحفنا من فوقها غلمان كأنهم من فوقها أغصان ترك تريك فى سماء الملبس كواكبا طالعة فى الاطللس منظومة الاوساط بالسلاح من كل شهيم زجل الجناح وكل عضب درب المقاطع يحرف الهام عن المواضع على يد السائر منهم زاده من كل باز قرم فؤاده قد كتبت فى صدره حروف تقرى بما تقرى به الضيوف وكل شاهين شهى المرتمى كبارق طار وصوب قد همى بينا تراه ذاهبا بصيده معتصما بأيده وكيده حتى تراه عائدا من أفقه ملتزما طائره فى عنقه أفلح من كان على يسراه حتى غدت حاسدة يمانه وكل صقر مسبل الجناح مواصل الغدو والرواح ذو مقلة لها ضرام واقد تكاد تشوى ما يصيد الصائد كأنما المخلب منه منجل لحصيد أعمار الطيور مرسل يا حبذا طيور جد ولعب تهوى إلى الأرض وللأفق تشب من سنقر عالى المدا والشان معظم الاخبار والعيان يصعد خاف الرزق ليس يمهله كأنه من السماء يستعجله ومن عقاب بأسها مروع كأنها للطير حين تصرع كم جلبيط لطائر ومن وهن فكهم وكم قد أهلكت من قرن

وحبذا كواسر اللواهى عديمة الانظار والاشباه مخصوصة بالطرد القويم حذباء ظهر الذنب الرقيم ذاك لعمرى جذب للرائى تعدل ملك القلعة الحذباء هذا وقد تجهزت اعداد يجمعها الكلاب والفهاد من كل فهد عنترى الحمله اذراى شخص مهاة عيله مبارك الاقبال والاعراض مستقبل الحال بناب ماض كأنه من حدة اكتسابه قد أخرج الانجم فى اهابه له على مسائل الجفون خط كخط الالفات الجون ما أبصر الباصر خطا مثله وكيف لا والخط لابن مقله وكل منسوب إلى سلوك أهرت وثاب الخطا ممشوق طاوى الفؤاد ناشر الاظافر يا عجبا منه لطاوى ناشر يعض بالبيض ويخطو بالقنا ويسبق لوهم لادراك المنى كالقوس إلا أنه كالسهم والغيم يجلو عن شهاب رجم اذا رأى بقر الوحش اندفع كأنه المريخ فى الثور طلع قاصرة عن يده عيناه مشروطة برجله اذناه يشفعه من كل عور عارى مغالب الصيد على الاوكار وأهالها من أكلب طوارد معربة عن مضمر المصائد قد بالغت من طمع فى كسبها ففتشت عن أنفس لم تحبها حتى اذا تمت بها الامور حفت بنا لصيدها الطيور ما بين روضات صمدنا نحوها وحول آفاق ملكنا جوها واستقبلت أطيافها البزاة معلمة كأنها غزاة فلم تزل تسطو سطا الحجاج على الكراكى إلى الدراج حتى غدت تلك السراة صرعى مجموعة على التراب جمعا على الربى من دمها خلوق كأن كل نبتها شقيق ثم عطفتنا للوحوش السانحة فاستقبلت تلك الضواري الطامحة كلاب صيد بينها سناقر يفعل فى الوحش الفواقر يخشى بها العفر على نفوسها فالطير لا شك على رءوسها وللكلاب حولها مغار يكاد أن يقدح منها النار من نهم لسانه يلوب يقول هذا كوسج مخضوب يعانق الظبى عناق الوامق ما كان أغنى الطير عن معانق والفهد يشتد على الأجال شد وصى السوء فى الآمال لا يهمل القصد ولا يخون كأن كل جسمه عيون وللزغاريات خلف الارنب حقائق تبطل كيد الثعلب كم مرحت بالهارب الممدود وطوحت بصاحب الاخدود وربما مرت ظباء ومهى للنبل أكل فى حشاها مشتى قد تسجت ملاءة من عنبر تخاط من فروتها بالابر فابتدرت أجنحة السهام صائبة الاعراض والمرامى تجرح كل سانح نفور كأنه بعض شهود الزور كأن أقطار الفلاة مجربره أو روضة من الدماء مزهرة كأن صرعى وحشها كفار الموت عقبى أمرها والنار للمرء فيها منظر أحبه يملا من شحم ولحم قلبه الله ذاك المنظر المهنا أى معاد عن ذراه عدنا قد ملئت من ظفر أيدينا وقد شكرنا فضل ما حيينا نسير حول الملك المنصور كالشهب حول القمر المنير.

من كلام القاضى زين الدين بن الوردى رحمه الله وينهى وصول الصقرين فسر العبد بهذين الجزئين اللذين تحن الجوارح اليهما من وجهين ويعز على ابن المعتر ان يذكر لهما فى تشبيهاه شبيهين فوق الصقران من الملوك بموقع يفوق النسر وتأمل نحوهما فإذا هما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصيد على الكسر مثلهما حمر كسيوفه وأجنحتهما مسبلة كغمائم بره على رعاياه وضيوفه مخالفه كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير ومناقيرهما كالأهلة المبشرة له ولأوليائه بكل خير فلسان حال كل منهما يقول لمرسله تفرقوا فبكسى أجمعكم أجمعكم ويخطف لهم الخطفة ويعود بسرعة فينما ينظرون بغيبته قالوا طائر كم معكم فما أحسن ما يعود يرجع كل واحد منهما من أفقه وقد التزم طائره فى عنقه كم لللقى الطير من حرون وكم أهلكنا فى الوحش من قرون فما أحق هذا الخبر بمقابلة الثناء عليه وان تمد المملوك لها بين اليدين كلتا يديه ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابرا بكاسرين فمرحبا برسوله الذى إن قدم رسول بأيمن طائر فقد قدم هو بأيمن طائرين والسلام.

منقول من كتاب الفوائد الجلية فى الفوائد الناصرية وهو ما جمعه الملك الامجد من شعر والده الملك الناصر صلاح الدين داود بن مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدين أبى المظفر عيسى بن السلطان الملك العادل أبى بكر محمد بن الملك الافضل نجم الدين أيوب رحمهم الله تعالى:

وظباء كأمثال العذارى سنج	تأوى إلى حزن اللوى وسهوبه
فأجابها وهنا وهن رواتع	ما بين واديه وبين كشيبه
والروض كهل قد تضوح نبته	فشبابه متلفع بمشيبه
ييكى تداويه الغمائم رحمة	والبرق يضحك رحمة بقشييه
مستسبق صحب الجلالجل أجدل	يرتاح رائيه إلى تقليبيه
تغنى شمائله وحسن صفاته	عن نعت مطربه وعن تجريه
ومخصر الخصر اغتدى فى عدوه	ترفأ مختلف ضيائه بوثويه
عاناه فى تهذيبه ذو فطنة	وبصارة فأجاد فى تهذيبه
فقنصت منها ظبية كانت إلى	قلبي ألد من المدام وطيبه
أو قبلة مسمن ابرنى صده	خالستها منه برغم رقيبته

obeikandi.com

الباب الرابع والأربعون

فى خطائر الوحوش الجليلة المقدار

المتخذة لنزهة الابصار

القول على بقر الوحوش: قال ابن أبى الاشعب فى كتابه الذى وضعه فى طبائع الحيوان البقر والاراوى واليحمير والظباء وجميع هذه الانواع ليس بأرضى خالص وبنفى أن يسمى الحيوان الهوائى الارضى لأنه خفيف الحركة متململ شديد العدو على الارض لان حرارة الهواء ليست فيه ذاتية ولا برودة الارض كذلك إلا ان برودتها غالبية لحر الهواء لأنها فيه اكثر ولما كان كذلك صار بينه وبين الطائر ممازجة ومناسبة وذلك أنه إذا أراد العدو انتصب فى وقفته وطلب مهب الريح ثم استنشقتها استنشاقا حال طيرانه ثم زج نفسه مستقبلا للريح وربما أصابه مخيف وكانت الريح تجيء من جهته فيحمل نفسه على الجهة التى فيها المخيف وأيضا فإنه يؤثر الهواء صيفا وشتاء ولا يستتر منه ميلا إليه ومحبة فيه.

وأما المها فيقال إن من طباعها الشبق والشهوة وإذا حملت الانثى هربت من الذكر خوفا من عينه بها وهى حامل والذكر لفرط شهوته يركب ذكرا آخر وإذا ركب واحدا منهما شم الباقي روايح المائبة فيبنى عليه ولا يمنع من يشب عليه بعد والبقر الوحشية أشبه شئ بالمعز الاملية ولذلك تسمى نعاجا وقرونها صلاب جدا وتمنع بها عن أنفسها وأولادها كلاب الصيد والسباع التى تطيح بها، ويقال أن أول من طرد البقر الوحشية ربعة بن نزار بن معد وأنه لما كدها لجأت منه إلى حالة فاستترت منه بها فرق لها ورجع عنها.

الوصف كاتب أندلسى يصف بقرة وحشية:

عن لنا سرب نعاج يمشين زهوا كمشى العذارى وينشين زهوا تثنى السكارى كأنما تخلجت بالكافور جلودها وضمخت بالمسك قوائمها وخدودها وكأنما لبسن الدمقس سربالا واتخذن السندس سروالا:

من كل مهضمة الحشا وحشية	تحمى مداريها دماء جلودها
وكأنما أقلام خيبر كتبت	بمداد عينيها طروس خدودها

والوصف البديع فى سرعة عدوه قول الطرماع:

يبدو وتضممره البلاد كأنه سيف على شرف يسلم ويغمد

وأما الابل فان أصحاب البحث عن طبائع الحيوان يقولون أن ذكره من عصب لا نجم ولا غطروف ولا عظم وأن قرنه مصمت لا تجويف فيه والانثى تقلق للذكر قلقا شديدا ولهذا لا تثبت لنزوه الا فى الفرط مرة واحدة وإذا حملت لا تضع الا على السبل والطرق لهرب السباع من الجادة المملوكة وإذا أرضعت أكلت الجعدة لاصلاح لبنها وهى تحب الكينونة فى القمر وتأتى بولدها إلى أماكن الماء وتعرفه المواضع التى تهرب اليها إذا احتاجت إلى الهرب وهى صخور فيها صدوع وتجويفات ليس لها مدخل الا من مكان واحد وتقف على ذلك المكان وتقابل بجهدا كل حيوان يطلب ضرر ولدها والابل يسمن جدا فإذا سمن اختفى فى موضع لا يعرف خوفا من أن يصاد لسمنه وهو مولع بالحيات وأكلها يطلبها فى كل موضع فإذا انحجرت منه أخذ فى فمه ماء ثم مجها فى الجحر فتخرج له ذنبها فيأكلها حتى ينتهى إلى رأسها فيتركها خوفا من السم وربما لسعته فتسيل دموعه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه يدخل الاصبع فيهما فتجمد تلك الدموع وتصير كالشمع يتخذ درياقا لسم الحيات وهو البازنهر الحيوانى وإذا لسعه أكل السرطانات فيبرأ وكذلك يأكل التفاح الحامض إن كان زمانه أو ورقه ان لم يكن زمانه فيبرأ ولا ينبت له قرن الا بعد أن ينبت له قرن من عمره وإذا نبت قرناه نبتا مستقيمين كالدراين وفى الثالثة يتشعب ولا تزال الشعب فى زيادة إلى تمام سنة وستين وحينئذ يكونان كالشجرتين على رأسه، ثم بعد ذلك يلقى قرونيه فى كل سنة مرة ثم تنبت وإذا نبتا له تعرض للشمس لتصلب فإذا صارا كالشجرتين منعا الاحصار ولا يكاد يفلت إذا طردته الخيل وهو إذا ألقاهما ادخرهما حتى ينبت خلاهما لانهما آلهة وليس له سلاح غيرهما يدافع بهما عن نفسه كالترس للجبان لأنه لا ينطح بهما إلا إذا صلحا لذلك.

وزعم ارسطو أن هذا النوع يصاد بالصغير والغناء وهو لا ينام ما دام يسمع ذلك والعيادون يشغلونه بالتطريب ويأتون إليه من خلفه وإذا رأوه مسترخية أذناه وثبوا عليه وان لم يكن كذلك فليس لهم عليه سبيل، وإذا اشتد عليه العطش من أكل الحيات أتى غدير الماء فاشتمه وانصرف عنه يفعل ذلك أربعة أيام ثم يشرب الماء فى اليوم الخامس وإنما يمتنع من شربه لخوفه على نفسه من سريان السم فى الجسد مع الماء.

قال الشاعر يصفه بصدده عن الماء بحاجز إليه ويذكر محبوبته:

هجرتك لا قللى منى ولكن رأيت بقاء ودك فى الصدود
كهجر الظاميات الماء لما تيسقت المنايا فى الورود
تذوب نفسها ظمأ وتخشى هلاكها فهى تنظر من بعيد

انتهى من المناهج.

القول فى الحمار الوحشى: ويسمى العير والفراء وهو لا ينزو الا اذا بلغ ثلاثين شهرا ويوصف بشدة الغيرة فهو يحمى غابته الدهر كله ويضرب فيها كضربه لو أصاب انثا من غيرها ويقال ان الانثى إذا ولدت جحشا كره الذكر الاناث تصيبها فالاناث تعمل الحيلة فى الهرب منه حتى تسلم وهكذا حتى لا يكون فى الغابة غيره ذكر.

وحكى الجاحظ أن أبا الاخضر ذكر عن فحل الغابة أنه يستهيم الأنثى ويحملها وان الولد لم يجرى منه عن طلب ولكن النطفة البريئة من الاسقام انتجت وذكر أن نزوه على قدر ما يحضره من الشبق لأنه لا يلتفت إلى دبر من قبل ولا إلى ما يلحق مما ينتج فهو لا يريد الولد ولا يعزل ويقال إن الحمار الوحشى يعمر مائتى سنة وأكثر وكلما بلغ مائتى سنة كانت له مبولة ثانية وشوهد منها ما له ثلاث مبالول وأربع وهو كشكل الحصير المحشو بين المبولة والمبولة حتى كأن بينهما حاجزا مسدودا ومعادنه بلاد النوبة ويوجد منه ما تكون سنه مغمدة ببياض وسواد يستطيلان فيما استطال لمن عصى به ويستديران فيما استدار بأصح قسمة وأحسن ترتيب ومن الحمر الوحشية صنف يقال له الاخدرى وهو أطول الحمير عمرا ويقال إنه نتاج الاخدرى وهو فرس كان لازدشير بن بابك أفلت من خيله فصار وحشيا فحمى عدة غابات فضرب فيها فكان أولاده منها أعظم من سائر الحمير وأحسن وخرجت أعمارها من أعمار الخيل وفى هذه الحكاية نظر لذوى الفكر لأنه لا يتولد من نوعين مختلفين من الحيوان حيوان يشبه أحدهما وإنما يكون ممتزجا كالبغل بين الحمار والفرس والضبع والذئب .

وحكى القولين أبو الحسن على بن رشيقي فى كتاب العمدة.

ومن رسالة كتبها أبو الفرج البغيا يصف فيها أانا مغمدة ببياض وسواد كان لصاحب اليمن كيخار وأما الاتان الناطقة فى كمال الصنعة بأفصح لسان فإن الزمان لاطف مولانا أيد الله منهما بأنفس مدخور وأحسن منظور وأعجب مرأى وأغرب موسى وأفخر مكروب

وأشرف محبوب وأعز موجود وأبهى محدود وكأنما وسمها الكمال بنهايته أو لحظها الفلك بعنايته فصاغها من ليله ونهاره وحلاها بنجومه واضماره ونقشها ببدايع آثاره ورمقها بتواظر سعوده وجعلها أجل حدوده ذات اهاب منير وقرى محير وذنب مشجر وسوى مسور ووجه مزجج ورأس متوج يكتنفه اذنان كأنهما زجان سجية الاتصاف بلورية الاطراف جامعة شيها بالريب بين زمن الشبيبة والمشيب فهى قيد الابصار وأمد الافكار ونهاية الاعتبار غنى عن الحلى عطفها مزرية بالزهر حللها واحدة جنسها وعالم نقشها صنعة المنشئ الحكيم وتقدير العزيز العليم.

القول فى طباع الظباء من المباهج وهى ألوان تختلف بحسب مواضعها فصنف منها يسمى الاروام والوانها بيض ومساكنها الرمل وهى أشد حصرا، وصنف يسمى العفر والوانها حمر، وصنف يسمى الادم وهى تسكن الجبال وفى هذا اللون من أسرار الطبيعة أنه ما رأى ذا روح الا ويعلم ما يريده منه من خير وشر واذا فقد الماء استنشق النسيم فاعتاض به واذا طلب لم يجهد نفسه فى حصره من أول وهلة واذا رأى طالبه وقد قرب منه زاد فى الحصر حتى يفوت الطالب وهو يهشم الحنظل حتى يرى مأوه يسيل من شدقيه ويرد البحر فيشرب من الماء الاجاج كما تغمس الشاة لحييها فى الماء العذب تطلب النوى المنقع فيه وهو لا يدخل كناسه الا مستدبرا يستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وله نومتان فى مكنسين مكنس الضحى ومكنس العشاء واذا أسن الطيى وبقيت لقرونه شعب تنح واذا هزل ابيض وهو شنج النساء لا يسمو بالمشى فإذا أراد العدو فإنما هو الفر والوثب ورفع القوائم معا كما يفعل الغراب فهو أبدا يحجل كما يحجل المقيد وليس له حصر فى الجبال ويصاد بنار توقد له فيذهل لها سيما إذا أضيف إلى ذلك تحريك اجراس فإنه ينخذل ويرقد ويصاد بالعطش الشديد بأن يحولوا بينه وبين الماء فينخذل ولا يبقى به حراك البتة وبين الظباء والحجل الفة ومحبة والحذاق فى الصيد يصيدونها ببعضها البعض، ويوصف بحدة البصر ويسمى باليونانية اسما معناه النظارة والمبصرة ويلحق بهذا النوع غزال المسك وهو أسود ولونه أسود ويشبه ما تقدم فى القد ودقة القوائم وافتراق الاظلاف وانتصاب القرون وانعطافها غير أن لكل واحد منهما نابين خفيفين أبيضين خارجين من فيه فى فكه الاسفل قائمين فى وجهه كنابى الخنزير كل واحد منهما دون الفتر على هيئة ناب الفيل ويكون بالثبنت والهند ويقال إن الغزال يسافر من الثبنت إلى الهند بعد أن يرعى من حشيش الثبنت

وهو غير طيب فيلقى ذلك المسك بالهند فيكون رديثا ثم يرعى حشيش الهند الطيب ويعقد منه مسكا ويأتى بلاد التبت فيلقيه فيكون جيدا والمسك فضل دموى يجتمع من جسدها إلى سررها فى وقت من السنة معروف بمنزلة المواد التى تنصب إلى الاعضاء وهذه السرر جعلها الله معدنا للمسك فهى تثمره بمنزلة الشجرة التى تؤتى أكلها كل حين فإذا حصل هذا الدم فى السرر ورمت وعظمت فتمرص لها الأطباء وتآلم حتى تتكامل فإذا بلغ وتناهى حخته بأظلافها وتمزغت فى التراب فتسقطه فى تلك المفاز والبرارى فيخرج الجلابون ويأخذونه ويقال أن أهل التبت يضربون لها أوتادا فى البر تحنك بها إذا ألمها السرر فتقطع وتسقط فإذا سقطت عن الظبي كان فى ذلك افاقته وصحته فانتشر حيثئذ فى المرعى وورد الماء.

الوصف: قد ينبغي أن يعلم أن هذا قليل جدا لان الشعراء نقلوا محاسن الغزال إلى الغزال وشرحوا بها حال من جد به الحب وهزل والصفة التى يصفون بها الظبي وصفوا بها الجارية والغلام وصرفوا الحقيقة إلى المجاز فيما أراده من الكلام قال بعضهم:

فما مغزل تعطو بجيد كأنه	يمان بأيدى الناظرين صقيل
هضم الحشا مغضوضة الطرف عالها	بذات الاراك مربع ومقيل
إذا نظرت من نحوه أو تفرست	دعاها احم المقلتين كحيل
بأحسن منها حين قالت صرمتنا	وأنت صروم للخيال وصول

وقال آخر:

وصالية بالحسن والجيد عاطل	ومكحولة العينين لم يكتحل قط
على رأسها من قرينها الجعد وفرة	وفى خدها من صدغها شاهد يسط
يخللها من غيرة الجلد وفرة	ويجمعها من بيض آباطها مرط
وقد أدمجت بالشحم حتى كأنما	ملأتها من فرط ما اندمجت قمط

خواص الايل ومنافعه: من المصائد والمطارد فمته ان ذكره من عصب لا لحم فيه وأن دم كل حيوان يجمد الا دمه ولحمه غليظ مائل إلى كموسوة السواد وليس للأنثى قرن واذا بخر بقرنه مع كبريت أحمر ذهب الحيات وكذلك دمه بطحين الكرسنة وقرنه تسخر به الحامل فتيسر ولادتها.

خواص حمار الوحش: الجحش البرى أحمدها لحما ولحم الهرم يولد دما رديثا ومن

داوم على أكله لم يكذباً وسرته أطيب ما فيه وكثير من الناس يأكلون الحمار مسموماً ويستطيون جلده مشوياً ويجدون فيه طعم لحم الدراج وشحمه نافع من الكلف فى الوجه إذا طلى به ومن وجع الظهر والكلية العارضة من البلغم وإذا أحرق حافره وسحق فى الكحل نفع من النشأوة ودفع وجع العين وزيله إذا خلط بمخ وطفى به الجبين قطع الرعاف ويقال إن الخاتم إذا خرط من حافره وعلق على من يعتريه الصرع نفع منه ودماغه يضاف بماء الكرفس والعسل ويغلى ويسقى من به السل فى الحمام بماء حار على الريق فيبرأ.

خواص بقر الوحش: لحمها غليظ يولد دماً رديئاً قريباً من السواد وبطنها أطيب ما فيها ودمها أسرع إلى الجمود من دم سائر الحيوان ويطبخ لحمها بخل فإذا غلى جدد خل آخر واثانها المها والعين والنعاج وأولادها البراعز والواحد برعز والجاذر جمع جؤذر والذرعان جمع ذرع والبهازج جمع بحزج والفرافر جمع فرفر والفرائر جمع فريز وهو ساعة يولد طلاء وأقاطيعها الاجل والرنب والسرب والصوار.

خواص الظبى: والظبى أول ما يولد طلاء ثم خشف ثم شادن إذا طلع قرنه فإذا تمت قوته فهو شصر ثم جذع ثم ثنى ولا يزال كذلك إلى أن يموت لا يزيد على هذا وسأل جعفر ابن محمد النعمان بن ثابت أبا حنيفة فقال له: ما على محرم كسر رباعية ظبى فقال: يا ابن رسول الله ما أعلم ما فيه فقال له: أنت تتداهى ولا تعلم أن الظبى لا يكون له رباعية هو ثنى أبداً ولحمه يولد دماً قريباً إلى السواد وهو أقل ضرراً من لحم البقر وطبخه بالماء والملح أحمد والتقدير منه أكثر ضرراً وأكثر لتحريك السوداء لأنه يزاد يبسا ويوجد فعله ويقوى وأطيب ما يؤكل فيه كبده مشوية وشحوم الظباء تغذى غذاء كثيراً وزعمت الحكماء أن دم التيس منها عن شكل ماعز من السموم وأنه إذا صب حاراً على الحجر الذى يضرب عليه النحاس فسته وإذا خلط مع الزنجفر صبغ الياقوت ويخلط معه وهو يابس قرطاس محرق ويعجن بشيرج ويضمده به البواسير فتتفع ومرارته تنفع من الغشاء فى العين وكبده إذا شويت واكتحل بها وكبد جميع الماعز نفعت وإذا دهن الرجل مذاكيره بشحم خصى التيس مع شئ من عسل عند الجماع وجد له لذة ويعجن بعن التيس بخل ودقيق شعير ويضمده به الطحال فينفع وإذا حرق وسحق بالخل نفع داء الثعلب وإن شرب مع الخل نفع من لدغ الهوام ويخلط دمه يابساً بلاذن ويدهن به الشعر فيغلظه ويظوله.

القول على طبائع الارنب من المباحج: تقول أصحاب الكلام أن قضيب الذكر من هذا

النوع كذكر الثعلب أحد شطريه عظم والآخر عصب وربما ركبت الانثى الذكر حين السفاد لما فيها من الشبق وتسفد وهى حبلى وهى قليلة الدرور على ولدها ويزعمون أنه يكون شهرين ذكرا وشهرين أنثى وكنت استبعد هذا وأقول أنه من الخرافات حتى وقفت عند مطالعتى للكتاب الذى وضعه ابن الاثير فى التاريخ وسماه الكامل على حكاية أوقفتنى على الاعتراف بعد الانكار.

ذكر فى حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمائة فقال وفيها اصطاد صديق لنا أرنا فرآه وله اثنيان وذكر وفرج أنثى ولما شقوا بطنه رأوا فيه حريفين فان كان كما زعموا من أن يكون تارة ذكرا وتارة أنثى فيكون كذلك والا فيكون فى الارانب كالخنثى فى بنى آدم يكون لاحدهما فرج الرجل وفرج الانثى ثم أعقب هذه بما هو أعجب منه فقال كنت بالجزيرة ولنا جار له بنت اسمها صفية فبقيت لذلك نحو خمس عشرة سنة فإذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لها لحية فكان لها فرج امرأة وذكر رجل والارانب تنام مفتوحة العين وربما جاء القناص إليها حتى يأخذها من جهة وجهها وهى لا تبصر وسبب ذلك أن حاجبى عينيها لا يلتقيان فهما مفتوحتان فى النوم واليقظة.

قلت: ما أحسن ما أنشدنى الشيخ بدر الدين البشتكى أحد شعراء العصر بالديار المصرية للشيخ العلامة شهاب الدين بن أبى حجلة مضمنا قول المتنبى:

وقوم بالحشيشة ذاب منهم فؤاد ما يسليه الملام
أرانب غيبر أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

قلت هذا التضمين ما سمع مثله لشاعر فإنه ضمن عجز البيت الأول والبيت الثانى بكماله ولم يكن للشيخ شهاب الدين فيها غير صدر البيت الأول فتأمله، ويقال إن الأرانب اذا رأت البحر ماتت ولذلك لا توجد بالساحل وتزعم العرب أن الجن تهرب منها لموضع حيضها، قالوا وهى كالمرأة وتأكل اللحم وغيره وتجت وتبعر وفى باطن أشداقها شعر وكذلك تحت رجليها وليس شئ قصير اليدين أسرع منها حصرا ولقصيرهما يخف عليها الصعود والرقل وهى تطفأ فى الأرض على زمعانها وهى مؤخر قوائمها مغالطة للطالب حتى لا يعرف أثرها الا أن الكلب الفاره والقناص الحاذق لا يخفى عليهما ذلك لأنها لا تفعل ذلك إلا فى السهل الذى يثبت فيه الاثر وربما مشت فى الثلج فيقتفى أثرها بكثرة الترداد فيه واذا قربت إلى الموضع الذى تريد أن تجتم فيه وثبت إليه.

خواصه من المصائد لحمها أطيب ما يؤكل بنار لأن النار يضعفها هواء الزمان ولحمها من أخف اللحوم وله خاصية فى المالىخولياء والصرع وإن طلى بدمها الكلف أذهبه وإن طبخ أو شوى فى جوف قرن نفع من القرحة فى الامعاء ويحرق رأسها فيكون سنونا جيد للجلاء ويبرها يشد به الثريان إذا انقطع وتعلق الاعراب كعبها على الصبيان للعين وأنفحتها تدفع السم إذا شربت بماء السلق وسداب وإذا أخذتها المرأة حملت ومخها ودماغها يمنع الشعر المتوف من النبات ويعرها يدق بالخل للقوياء ومرارتها تطرح فى الشراب فتتوهم.

الوصف لبعض الاندلسيين من المباهج افراد حران كأنهن أولاد غزلان بين رواع ينعطف انعطاف البره ووثاب يجتمع اجتماع الكره حال العصب ازاره وصاغ التبر طوقه وسواره قد غلل بالعنبر بطنه وحلل بالكافور متنه كأنما نضح بعبير وتلفع فى حرير بنام بعينى ساهر ويفوت بجناحى طائر قصير اليدين طويل الساقين هامان فى الصعود تجده وبابك عند الوثوب تؤيده.

القول فى النعامة: من المباهج وإنما ذكرناه مع ذوات الاربع من الوحوش وإن كان ذا جناح لأنه عند المتكلمين فى طباع الحيوان ليس بطائر وإن كان يقنص وله جناح ورش ويعدون الخفاش طائرا وإن كان يحبل ويلد وله اذنان بارزان وليس له ريش لوجود الطيران فيه ومراعاة لقوله تعالى: ﴿وَأَذْخُلْنَا مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي﴾^(١) وهم يسمون الدجاجة طيرا وإن كانت لا تطير والنعامة تسمى بالفارسية استرموك وتأويل استرجمل وموك طائر فكأنهم قالوا جمل طائر ولما وجد هذا الاسم ظن الناس أنها نتاج ما بين الابل والطير وبهذا أجرى عليها المثل فى قولهم: قيل للظليم أحمل قال أنا طائر قيل فطر فقال أنا جمل، وربما أكد عندهم القول بالتوليد أنهم رأوا فيه من الجمل الميم والوظيف والعنق والكرش والخف والجرامة، ومن الطير الريش والجناح والمنقار والبيضة ويشبه النعام بالابل فتسمى الانثى منها قلوفا وفى طبعها انها تحضن أربعين بيضة وثلاثين ومن أحاجيبها أنها تضع بيضها طولا حتى لومد عليها خيط لما وجد لشيء منها خروج عن الآخر ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحضن اذا كان بدئها لا يشتمل على عدد بيضها وهى تخرج لطلب الطعام فتمر ببيض نعامة أخرى فتحضنه وتنسى بيضها ولعلها تصاد ولا ترجع إليه فتهلك ولهذا توصف بالمرق والحمق ويضرب بها المثل فى ذلك، وعلى هذا ينشد قول ابن هرمة:

فسانى وتركى ندى الا كرميـ من وقدحاً بكفى زند اشجاحا
كناركة بيضها بالعرا ء وتلحقه بيض أخرى جناحا

ويقال إنها تقسم بيضها اثلاثا منه ما تحضنه ومنه ما تجعل صفاره غذاء ومنه ما تفتحه وتركه للهواء حتى يعفن ويتولد من عفنه دواب فتغدى بها فراخها إذا خرجت وهو من الحيوان الذى يزواج ويعاقب الذكر فى الحضن وهو لا يأنس بالابل ولا بالطير مع مشاركته لهما وكل ذى رجلين اذا انكسرت له احدهما استعان بالأخرى ما خلا النعامة فانها تبقى فى مكانها جائمة حتى تهلك جوعا، ويقال إن الحيوان الوحشى ما لم يعرف الانسان لا يفر منه اذا رآه ما خلا النعام فإنه شارد أبدا وبه يضرب المثل فى الشرود وعظامه وإن كانت عظيمة وشديد العدو بها لا مخ فيها ولا مجرى لها وتزعم العرب ان الظليم أصلح وأنه لما كان كذلك عوض عن السمع بالشم فإنه يعرف بأنفه ما لا يحتاج معه إلى السمع فربما كان على بعد فشم رائحة القناص على أكثر من غلوه والعرب تضرب به المثل فى حاسة الشم وفسر بعض المعنيين بتفسير أمثال العرب، قوله أحقق من نعمته، أن من حمقها اذا أدركها القناص أدخلت رأسها فى الرمل تقدر أنها قد استخفت منه، وهو قوى الصبر عن الماء شديد العدو وأشد ما يكون عدوا اذا استقبل الريح وكلما أشد لغضوفها كان أشد حصرا وهو فى عدوه يضع عنقه على ظهره ثم يخرق الريح وهو يتسلع العظم الصلب والحجر والدر والحديد فيمسيه بحر قانصته حتى يصير كالماء ويتسلع الجمر حتى ينقله إلى جوفه فيكون جوفه هو العامل على اطفائه ويكون الجمر هو العامل على احراقه وفى ذلك أعجوبتان احدهما التغذى بما لا يغذو والاخرى الاستمراء والهضم وهذا غير منكر لان السمندل وهو كما زعم بعضهم دابة توجد ببلاد الهند وبلاد السند دون الشعلب خليجية اللون حمراء العين ذات ذنب طويل ينسج من وبرها مناديل اذا اتسخت ألقيت فى النار المتأججة فيزول منها الزهم ولا تحترق وبلاد الترك جرذان تسلخ جلودها ويتخذ من وبرها مناديل اذا اتسخت غسلت بالنار بان تلقى فيها ولا تحترق وزعم آخرون أن السمندل طائر ببلاد الهند يبيض ويفرخ وفيه من الخاصية أنه يدخل النار ويخرج منها ولا يحترق ريشه ويعمل من جلده مناديل الغمر فكما أن خاصية هذا الحيوان فى ظاهره كانت خاصية النعام فى باطنه والباطن فى الحيوان كله أنعم من الظاهر.

وقد حكى أبو عبيد البكرى فى كتاب المسالك والممالك لما ذكر قابس أن بعض

البادية دخل على أميرها بطائر على قدر الحمامة ذكر أصحابه أنهم لم يروه قبل وما عهدوه وكان فيه من كل لون وهو أحمر المنقار فأمر بقص جناحيه وأن يرسل فى قصره فلما كان الليل أوقد بين يدى الأمير مشعل فلما رآه الطائر قصده وأراد الصعود إليه فلم يستطع النهوض فلم يزل يجهد نفسه حتى صعد إليه وجلس فى وسطه وجعل يتفلى فيه كما يتفلى الطائر فى الشمس فلما قضى وطره منه نزل، والنعام تصاد بالنار كما تصاد سائر الوحوش فإنه إذا رآها دهش لها واعتراه فكر فيها فيقف وقوف حيرة فيتمكن منه الصائد.

خواصه من المصائد لم يذكر منها شيئاً.

الوصف أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة:

ولرب طيار خفيف قد جرى	مثلاً يحار خلفه طيار
من كل قاصرة الخطا مختالة	مشى الفتاة تجر فضل ازار
مخضوية المنقار تحسب أنها	كرعت على ظمأ بكأس عقار
لا يستقربها الاداحى خشية	من ليل ويل أو نهـار بوار

قال الزمخشري:

يا سائلى اننى أصبحت فى بلد	لا عطله ترجى لى ولا عمل
ولا غريب ولا لى فيه من أحد	مثل النعام لا طير ولا جمل

الطاووس: قال أصحاب البحث عن طبائع الحيوان أن الطاووس فى الطير كالفرس فى الدواب عزا وحسنا غير أن الناس لا يتبركون به ويكرهون كونه فى دورهم وفى طبعه العفة وحب الزهو بنفسه والخيلاء والاعجاب بريشه وعقده لذنبه كالطاق لا سيما إذا كانت الانثى ناظرة إليه والانثى تبيض بعد أن يمضى لها من العمر ثلاث سنين وكذلك لا يحصل التلوين فى ريش الذكر الا بعد هذه المدة وهى نهاية البلوغ والانثى تبيض مرة واحدة فى السنة اثنتى عشرة بيضة وأقل وأكثر ولا تبيض متابعا ويسفد فى زمن الربيع ويلقى ريشه فى زمن الخريف كما تلقى الشجر ورقها وهى كثيرة العبث بالانثى اذا حضنت وربما كسر البيض ولهذا يحضن بيضه تحت الدجاج والدجاجة لا تقوى على حضن أكثر من بيضتين منها وينبغى أن يتعاهد الدجاجة بجميع ما تحتاج إليه مخافة أن تقوم عنه فيفسده الهواء والفرخ يخرج من البيضة كاسيا كما يخرج الفروخ والطاووس من الطير الذى يبيض ببيض الرياح ويقال: ان عبث الطاووس بأثناه وان حضنها غيره منه أن يخرج من البيض ما يشبهه فى حسن ريشه وبهاء خلقه وزعم ارسطو أن الطاووس يعيش خمسا وعشرين سنة وهذا منه حكم لا يعينه الاستقراء.

الوصف أبو الصلت أمية بن العزيز الاندلسى:

أهلا به لما بدى فى مشيه	يختال فى حلل من الخيلاء
فالروضة الغناء أشرق فوقه	ذنب له كالروضة الغناء
ناديته لو كان يفهم منطقى	أو يستطيع اجابة لندائى
يا رافعا فوق السماء ولا يسا	للحسن روض الحزن غب سماء
أيقنت أنك فى الطيور مملكا	لما رأيتك منه تحت لواء

ولله:

أبدى لنا الطاووس عن منظر	لم تر عيني مثله منظرا
متوج المفرق إن لا يكن	كسرى بن ساسان يكن قيصرا
فى كل عضو ذهب مفرغ	فى سندس من ريشه أخضرا
نزهة من أبصر فى طيها	عبرة من فكر واستبصرا
تبارك الخالق فى كلما	أبدعه منه وما صورا

obeikandi.com

الباب الخامس والاربعون

فى الأسد النبى والزرافة والفيل

وانما بدأنا به أولا لأنه أشرف فى هذا النوع لان منزلته فيه منزلة الملك المهيّب لقوته وشجاعته وقساوته وجهامة خلقه وشراسة خلقه، قال أصحاب الكلام فى طبائع الحيوان إن اللبوة لا تضع الا جرّوا واحد وتضعه بضعة لحم ليس فيها حس ولا حركة فتحرسه من غير حضان ثلاثة أيام ثم يأتى أبوه بعد ذلك فينفخ فى تلك البضعة المرة بعد المرة حتى يتحرك ويتنفس ويتفرج الاعضاء ويتشكل الصورة ثم تأتى أمه فترضعه ولا يفتح عينيه الا بعد سبعة أيام من تخليقه وهى ما دامت ترضع لا يقربها الذكر البتة فإذا مضت على الجرّ ستة أشهر كلف الاكتساب لنفسه بالتعليم والتدريب وطارد الذكر الانثى فإن كانت صارفة أمكته من نفسها وإن لم تكن دفعته ومنعته ونفته مع شبلها بقية الحول وستة أشهر من الثانى وحيتئذ تألف الذكر وتمكنه من نفسها وللأسد من بعد الوثبة واللمصوق بالارض والاسراع فى الحصر اذا هرب والصبر على الجوع وقلة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع وربما سار فى طلب القوت ثلاثين فرسخا ولا يأكل فريسة غيره من السباع وهو إذا شبع من فريسة تركها ولم يعد اليها ولو جهده الجوع ولا يأكلها وإذا أكل يقيم يومين وليتين بلا طعام لكثرة امتلائه ويلقى بعد ذلك شيئا بابسا مثل جعر الكلب واذا بال رفع احدى رجله كالكلب واذا فقد أكله صعب خلقه واذا امتلأ بالطعام فهو ودع وأكل الخفيف أحب إليه من اللحم العريض الغض وهو لا يشب على الانسان للمداوة ولكن للطعم فإنه لو مر به وهو شعبان لم يتعرض له وهو مع ذلك حريص بهم واسع النحر ينهش ولا يمضغ قليل الريق ولهذا يوصف بالنجر ولحم الكلب أحب اللحوم إليه ويقال إنما ذلك لحنقه عليه فإنه اذا أراد الطواف فى جنبات الحى ألح الكلب بالنباح عليه والانداز به فيرجع خائبا لنهوض الناس عليه فإذا أراد ذلك بدأ بالكلب حتى يأمن اندازه ومن شأنه إذا أكثر من حسو الدم وأكل اللحم وحلت نفسه منها طلب الملح ويجعله كالحمضة بعد الحلة فيطلبه ولو كان بينه وبينه خمسون فرسخا وهو يوصف بالجبن والجراءة فمن جبنه أنه يذعر لصوت الديك ومن

نقر الطست وضرب الطنبور والحبل الاسود والديك الابيض والسنور والفأرة وقد تكون النار من أسباب اغتراره واغتياله لأنه يعتره ما يعترى الطباء والوحوش عند رؤية النار من الحيرة والعجب بها وادمان النظر إليها والفكر فيها حتى يشغله عن التحفظ والتيقظ ومن حرارته أنه يقدم على المعتب الكبير والجمع الكثير ويقابل ولا يرجع من الضرب والجراح ولا يذله ما يصيبه من ذلك بل يقابل بعضه حتى يموت وهو إذا كر لا يفر الا فرا خفيفا مخالسا والاسود أكثر جراءة وجهالة ويقال إن الانثى أجراً من الذكر والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول إنما هي أشرف ومن عاداته أنه اذا عاين أحدا لا يفزع ولا ينهزم فلن الجأ إلى ذلك وأحسن بالصيادين تولى وهو يمشى رفيقا وهو مع ذلك يتلفت ويضمّر الخوف ويظهر عدم الاكتراث وان تمكن منه الخوف هرب عجلا حتى يبلغ مكانا يأمن فيه فإذا علم أنه أمن مشى مارا وان كان فى سهل والجأ إلى الهرب جرى جرى شديدا كالكلب وان رماه أحد ولم يصبه شد عليه فإن أخذه لم يضره وإنما يخدشه ثم يخليه كأنه من عليه بعد الظفر به واذا شم رائحة الصيادين أخفى أثره بذنبه وفيه من شدة البطش ما أنه يأبى الجمل الهايج البازل فيضربه بيده فيثنى الجمل عنقه إليه كأنه يريد عضه فيضرب بيساره إلى مشفره فيجذبه جذبة يفصل بها بين ذوات عنقه وإن ألقاه قائما وثب عليه فإذا هو فى ذروة سنامه فعند ذلك يضربه كيف شاء ويتلعب به كيف أحب ومن عجيب أمره أنه لا يألف شيئا من السباع لأنه لا يرى فيها ما هو كفؤ له فيصحبه ولا يطاء على أثره شيء منها ومتى وضع جلده مع سائر جلودها تساقطت شعورها ولا يدنو من المرأة الطامث ومتى مس قوائمه لحا شجر البلوط حذر ولم يتحرك من مكانه واذا غمره الماء جاء الصبى حتى يركب على ظهره ويقبض على أذنه ولا تفارقه الحمى ولذلك الاطباء يسمون الحمى داء الاسد وعظامه عاسية جدا واذا طلب نارا ذلك عظامه بعضها ببعض فيخرج منها كما يخرج من الحجارة ولذلك فى جلده من القوة والصلابة ما لا يعمل فيه السلاح الا من مراق بطنه وقد يطول مشوى الواحد منها مع الناس حتى يهرم وهو فى جميع حالاته صعب شديد الغرام لا يؤمن شروده إذا انفرد من سواسه وابصر غيضة بين يديها صحراء ويبلغ من العمر كثيرا وعلامة ذلك أنه يصاد فيوجد مهتوم الاسنان وليس ذلك الا من الكبير.

خواصه: يقال إن خصيته اذا ملحت بنورق أحمر ومصطكى وجففت وقلبت بزئبق

نفعت من البواسير والزحير ووجع الارحام ويقال إن من يمسح بشحم كليته يؤمن من أكل

السباع ومرارته بعسل تنفع الخنازير ودمه يطلى به السرطان وصيده بأنواع من الحيل فمنها أن تصنع له العرب الزباء وهى حفائر فى نشر من الأرض وتغطى وفى وسطها جرو و كلب فىأتى الاسد ليأخذ الجرو فيسقط فيها، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: بلغ الماء الزباء أى أعظمها.

الوصف والتشبيه: وصفه أبو زيد الطائي فى حكاية حكاها لعثمان بن عفان رضي الله عنه وقد لعنه فقال أقبل بتضالع من بغيه ولصدره نحيط ولبلاغيمه غطيط ولطرفه وميض ولأسارغه نقيض كأنما يخبط هشيماً أو يطأ صريماً ذا هامة كالمجن وخذ كالمن وعينان سحراوان كأنهما سراجان وقصره رمله وهرمه وهله وساعد مجدول وعضد مفتول وكف شبيه البرائن ومخالب كالمحاجن فم أشدق كالغار الاحرق يفتّر عن معاول مصقولة غير مغلولة فهجهجنا به فرفر وبربر ثم زار فجر جر ثم لحظ فخلت البرق يتطاير من جفونه عن شماله ويمينه فأرعشت الأيدى واصطكت الأرجل وجحظت العيون وساءت الظنون ولصقت الظهور بالبطون وأنشد عبوس شמוש مثل جد مكابر جرىء على الاقدام للقرن قاهر:

برائنه شثن وعينهاه فى الدجى كجمر الغضا فى وجهه الشر طائر
يدل باناياب حداد كأنها اذا قلص الاشداق عنها خناجر
وقال أبو الطيب يصفه من أبيات:

ورد اذا ورد البحيرة وارد ورد الفرات زئيره والنيلا
متخضب بدم الفوارس لابس فى غيله من لبديته غيلا
فى وحدة الرهبان الا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
ما قويلت عيناه الا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا
يطأ الثرى مترفعاً من تيهه فكأنه أس يحس عليلا
ويرد عقرتة إلى يافوخه حتى يصير لرأسه اكليلا
ويظنه ممماً يزجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولا
قصرت مخافته الخطى فكأنما ركب الكمي جواده مسلولا

ثم خرج إلى ذكر الممدوح الحسين بن عبد الله بن طغج أمير مصر كان قد خرج متصيداً فرأى أسداً على فريسته فهاجه فوثب الاسد على كفله فرسه فأعجله عن استلال السيف فضربه بالسوط فألقاه عن كفل الفرس، فقال المتنبي القصيدة التى أولها:

فى الخدان عزم الخليط رحيلاً مطر يزيد به الخدود محولاً

وجاء منها:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه
وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلی:
وليث مقيم فى غياض منيعة
يوسد شبليه لحوم فوارس
هزبر له فى فيه نار وشقرة
سراجاه عيناه اذا أظلم اللجى
له جبهة مثل المجن ومغطس
يصلصل رعد من عظيم زئيره
له ذنب مستتب من سوطه
ويضرب جنبه به فكأنما
ويضحك فى التيس فكاه عن مدى
يصول بكف عرض شبرين عرضها
يجرد منها كل ظفر كأنه

لمن ادخرت الصارم المسلولا
أمير على الوحش المقيمة فى القفر
ويقطع كاللص السيل على السفر
فما يستوى لحم القتل على الجمر
فإن بات بسرى باتت الوحش لا تسرى
كأن على أرجائه صيغة الحبر
ويلمع برق من حماليقه الحمر
ترى الأرض منه وهى مضروبة الظهر
له فيهما طبل محيص على الكر
بنوب صلاب ليس يهتم بالفهر
خناجرها أمضى من القضب البتر
هلال بدا للعين فى أول الشهر

وأحسن ما ورد فى قتل الاسد قول بشر بن عوانة الفقعى يصف ملاقاته للاسد وما
اتفق له معه وحكايته أنه تزوج ابنة عمه فخرج يبغى مهرها فلما كان ببعض الطرق عارضه
أسد فكر بمهره عليه فتقاعس ولم يتقدم عليه فنزل عنه وأقبل نحو الاسد مصلتا سيفه فقتله
وقال:

أفاطم لو شهدت بطن خبت
اذا لرأيت ليثا رام ليثا
تمهس اذ تقاعس عنه مهرى
أبل قدمي ظهر الأرض إنى
وقلت له وقد أبدى نصالا
يدل بمخلب ويحد ناب
وفى يمنى ماضى الحدلقى
ألم يبلغك ما فعلت ظباه
وقلبى مثل قلبك لست أخشى

وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
هزبرا أغلبا يبغى هزبرا
محاذرة فقلت عقرت مهرها
وجدت الأرض أثبت منك ظهرا
مذرية ووجهها مكفهرا
وباللحظات تحسبهن جمرا
لمضربه غداة الروع أثرا
بكاظمة غداة لقيت عمرا
محاذرة ولست أخاف ذعرا

وأنت تروم للأشبال قوتا
ففسيم تروم مثلى أن يولى
نصحتك فالتمس يا ليث غيرى
ولما ظن الغش نصحى
دنا و دنوت من أسدين راما
يكفكف غيله لإحدى يديه
هزرت له الحسام فخلت أنى
حساما لو رميت به المنايا
وجسدت له بخافقة رآها
بضربة فيصل تركته شفعما
فخر مضرجا بدم كائى
وقلت له يعسز على أنى
ولكن رمت شيئا لم يرمه
تحاول أن تعلمنى فرارا
فلا تبعد فقد لاقاك حر

وأبغى لابنة الأعمام مهرا
ويترك فى يدك النفس قسرا
طعاما إن لحمى كان مرا
وخالفنى كائى قلت هجرا
مراما كان اذ طلباه ذعرا
وييسط الوثوب على أخرى
هزرت له لدى الظلماء فجرا
لجاءت نحوه تعطيه عذرا
كمن لديه سامنه قدرا
وكان كأنه الجلمود وترا
هدمت به بناء مشمخرا
قتلت مناسى جلدا وقهرا
سواك فلم أطق يا ليث صبرا
لعمري لى لقد حاولت نكرا
يحاذر أن يعاب فمت بحرا

نادوة: قيل تعرض أسد لقافلة وصال على رجل منها فبادروا حتى حالوا بينهما وقالوا
للرجل كيف حالك قال صالحة ولكن الأسد قد خرى فى سراويلي ولمؤلفه رحمه الله:
سألتك يا جميل الستر سترا أغيب به عن الخصم الظلوم
وذاك الستر ستر معنوى يرانى منه كالأسد العظيم .

القول فى طبائع الفيل: زعم بعض الباحثين عن طبائع الحيوان أن الفيلة مائبة الطباع
بالجاموسية والخنزيرية التى فيها وبعضها يسكن الماء وبعضها لا يسكنه وزعم آخرون أن
الفيلة ضربان فيل ورنديفيل وهما كالبخت والغراب، والبقر والجواميس والبراكين والخيول
والفار والجردان والنمل والذر وبعضهم يقول الفيل الذكر والرنديفيل الانثى وهذا النوع لا
يتلاقح إلا فى بلاده ومعادنه ومغارس أعراقه وإن صار أهليا وهى تتوالد بأرض السند والهند
وهى أعظمها خلقا وبجزيرة سرنديب وينتهى فى عظم الخلق إلى أن يبلغ فى الارتفاع عشرة
أذرع وفى ألوانها الاسود والابيض والازرق والابلق وهر إذا غتلم أشبه الجمل فى ترك

الماء والعلف حتى ينضم إبطاه ويتورم رأسه ولم يكن لسواسه غير الهرب منه وربما صار وحشيا وجهل جهلا شديدا والفيل ينزو إذا مضى له من العمر خمس سنين وإذا حملت لا يقربها الذكر ولا يمسه ولا ينزو الذكر عليها إذا وضعت الا بعد ثلاث سنين ولا ينزو الا على فيلة واحدة وله عليها غيرة شديدة وإذا تم حملها وارادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها فى الماء لانها تلد قائمة اذ لا فواصل لقوائمها فتبرك والذكر بعد ذلك يحرسها وولدها من الحيات وذلك لعداوة أصيلية بينهما ووضع ذكر الفيل شبيه بالفرس لكنه صغير عنه جثة وهو فى الفرس العتيق صغير أيضا وأنثيا الفيل داخل ذنبه قريب من كليته ولذلك يسفد سريعا كالطير لان كونهما داخلا قريبا من القلب ينضج المنى بسرعة ويقال ان الفيل يحقد كما يحقد الجمل ويحفظ الشئ الذى يكرهه القيم عليه حتى يقابله عند تمكنه منه وربما قتله وزعم أهل الهند ان لسان الفيل مقلوب ولولا ذلك لتكلم وهو صغير جدا ويجعلون أن قرنيه هما ناباه يخرجان مشتطين حتى يخرقا الحنك وعلم ذلك من تسريجه ويوجد فيه الاعقف والمستقيم.

قال المسعودى: وربما بلغ الناب منه مائة وخمسين منا وأكثر من ذلك والفيل يحمل بهما على الجدار الوثيق البنيان فيقلبه على الأرض وقد فتح به محمود بن سبكتكين مدينة الطاق وهى من أعظم الحصون التى ببلاد سجستان فإنه جعل ناييه تحت بابيها فأقلعه وهو من أسرع الحيوان الوحشى أنسا بالناس وسرعة الانس دليل على حسن الطباع ودماثة الأخلاق وخرطومه من غطروف أنفه وهو يده التى يوصل بها الطعام إلى فيه ويقاتل بها وبها يصيح وليس صياحه على مقدار جشته لأنه كصياح الديك يتنزل منه منزلة عنقه وله فيه من القوة بحيث يقلع به الشجرة من منابتها وفى طبعة أنه اذا سمع صوت الخنزير ارتاع ونفر واعتراه الفرع والجزع واذا ورد الغدران والانهار للشرب وكان الماء صافيا فهو أبدا يشره ويكدره كالخيل لانها ترى صورها على سطح الماء فتتوهم أنه غيرها فتسفر منه وهو قليل الاحتمال للشتاء والبرد ويقوم ويسير فى الماء منغمسا ما عدا خرطومه لأنه منه يتنفس ولا يقدر على السباحة لثقل جشته وفيه من الفهم ما به يقبل التأديب ويفعل ما يأمره سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر فى حالتى السلم والحرب وفيه من الاخلاق أنه يقاتل بعضه بعضا قتالا شديدا والمقهور منها يخضع ويتعبد للقاهر ويخاف سطوته ويقال: إنه يصاد باللهو والطرب واللعب والزينة وريح الطيب والنساء يصيدونه بذلك وربما احتيل

على صيده بأن يترقب حال سكونه وهدوءه وذلك أنه لا ينام الا متعمدا على ساق شجرة اذ لا يمكنه الاضطجاع لكون قوائمه لا فواصل لها لكنها كالاساطين المصمتة والسوارى الوثيقة والصيداؤون يأتون الشجرة التى غالب أوقاته يعتمد عليها فيضعفون أصلها فإذا أتى على عادته اليها ليعتمد عليها انكسرت فسقط وبقي عاجزا لا يقدر لنفسه بشيء فيصيدونه كيف شاءوا، والهند تعظم الفيل وتشرفه لما اجتمع فيه من الخصال المحموده من علو سمكه وعظم صورته وبديع منظره وطول خرطوميه وسعة أذنه وطول عموده وثقل حمله وخفة وطشه، فإنه ربما مر بالانسان وهو لا يشعر به لحسن خطوته واستقامته وللهند طيب يجمعونه من جباه القبيلة ورءوسها فإنه اذا اغتلمت عرقت هذه الاماكن عرقا كأنه المسك ويستعملونه لظهور الشبق فى الرجال والنساء ويزعمون أنه يشجع القلب ويقوى النفس وبيعها على الاقدام والفيل يشب إلى تمام ستين سنة ويعمر مائتى سنة وأكثر وحكى ارسطو أن فيلا ظهر عمره أربعمائة سنة.

وحكى بعض المؤرخين أن فيلا سجد لابرويز ثم سجد للمعتضد وبينهما زمان ذكره ارسطو واعتبر ذلك بالوسم وهذا الحيوان يعتريه من الامراض وجع المفاصل لطول قيامه وثقل جسده لأنه لا يضطجع.

الوصف والتشبيه، قال عبد الكريم البهلى:

وأضخم هندی النجاد تعده	ملوك بنى ساسان إن نابها دهر
يجىء كطود جائل فوق أربع	مصيره يلب كما يلب الصخر
له فخذان كالشئين لبد	وصدر كما أوفى الهضبة الصدر
ووجه به أنف كرا وورق خمرة	ينال به ما يدرك الانمل العشر
وجنبان لا يروى القلب صداهما	ولو أنه بالباع منهرب حفر
وأذن كنصف الرد يسمعه ندا	خفيا وطرف ينقص الغب مزور
ونابان شقا لا يريد سواهما	قيامين سمرأوين لمعهما تبر
له لون ما بين الصباح وليله	اذا نطق العصفور أو صوت الصقر
صلاح الدين الصفدى رحمه الله ملغزا:	

أيما اسم تركيبه من ثلاث	وهو ذو أربع تعسالى إله
حيوان والقلب منه نبات	لم يكن عند جوعه يرعاه
فيك تصحيفه ولكن اذا ما	رمت عكسا يكون فى ثلثاه

قد جعل الله فى طبع الفيل الهرب والوحشة من النصور واذا احتملت المرأة من نجوها مع العسل لم تجبل أبداً وكذلك اذا علق على شجرة لم تحمل تلك السنة.

القول على طبائع الكركدن: وتسميه الهند النوسان ويسمى أيضا الحمار الهندى وهو عدو الزبرقان والفيل ومعادنه ببلاد الهند والنوبة والبجا وهو دون الجاموس ويقال إنه متولد بين الفرس والفيلة وله ظلف واحد غير مشقوق وقرن واحد عظيم على أنفه بارز ولا يستطيع لشقله أن يرفع رأسه وهذا القرن مصمت قوى الاصل حاد الرأس مرهفه يقا تل به الفيل فلا يفيد ه معه ناباه، ويقال: إنه اذا نشز رؤى فى داخله صورة بياض فى سواد صفة انسان ودابة وسمكة وما يشاكل ذلك وأهل الصين يتخذون منه المناطق ويغالون فى ثمنه ويقال: إن حمل الانثى من هذا النوع كأيام حمل الانثى من الفيلة والانثى تأكل ولدها ولا يسلم منها الا القليل والولد يخرج قويا ثابت الاسنان والقرن قوى الحافر وقد زعم أنه إذا كان فى بطن أمه وقارب الوضع يخرج رأسه من فرجها ويرعى من أطراف الاشجار ما بقوته ثم يرجع به، وقد أنكر الجاحظ هذا القول وقد جعله ضربا من الخرافات وتزعم الهند أنه اذا كان فى ناحية من البلاد لا يقربها حيوان أصلا ويكون بينها وبينه من البعد مائة فرسخ من أربع جهاته هية له وهربا منه وليس كذى القرن مشقوق الظلف وهو يجتر كما يجتر البقر والغنم والابل ويأكل الحشيش والهند تأكل لحمه وكذلك فى بلادها من المسلمين لأنه نوع من البقر والجواميس ويقال: إنه شديد العداوة للانسان حتى أنه اذا شم رائحته أو سمع صوته جد فى طلبه فإذا أدركه قتله وان لم يتفجع به لانه لا يأكل اللحم وهذا الحيوان لا يترك ولا ينام اذ ليس له مفصل فى ركبتيه ولا فى يديه بل هو من ظلفه إلى ابطة قطعة واحدة.

القول فى الزرافة: والزرافة فى كلام العرب الجماعة لأنها اجتمع فيها صفات كثيرة من الحيوان وهى عنق الجمل وجلد النمر وقرن الظبى وأسنان البقر ورأس الابل ولهذا زعم بعض المتكلمين فى طبائع الحيوان أنها متولدة من حيوانات وقيل: إن السبب فى ذلك اجتماع الوحوش فى حماوة القيظ على شرائع المياه فتسافد فيلقح منها ما يلقح ويمتنع ما يمتنع فربما سفد الانثى من الحيوان ذكور كثيرة فتختلط مياهها فيجىء خلق مختلف الصور والالوان والاشكال، والفرس تسمى الزرافة استر كاو يليك فتأويل استر بعر وكاو بقرة ويليك الصبغ وهذا كما رأيت موافق لكلام العرب من كونها مركبة الخلق من حيوانات شتى.

والجاحظ لا يعجبة هذا القول ويقول إنه جهل شديد لا يصدر عن من لديه تحصيل لأن الله يخلق ما يشاء وهو نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير ومما يحقق ذلك أنه يلد مثله وقد شوهد وهى طويلة اليدين والعنق جدا حتى يكون فى مجموعها عشرة أذرع وأكثر قصيرة الرجلين جدا وليس لها ركب وإنما الركب ليديها كسائر البهائم وإذا أكلت مما على الأرض تفحجت لقصر عنقها عن بدننها ومن عاداتها أن تقدم عند المشى اليد اليمنى والرجل اليسرى بخلاف ذوات الأربع فإنها كلها تقدم اليد اليمنى والرجل اليمنى وفى طبعها التآلف والتودد والتأنس وهى تجتر وتبعر.

الوصف ابن حمديس:

ونوبية فى الخلق منها خلألق
إذا ما اسمها ألقاه فى السمع زاجر
لها فخذ أكرم وأظلاف قرهب
كان الخطوط البيض والصفير أشبهت
ودائمة الاقعاء فى أصل خلقها
تلفت أحيانا بعين كحيلة
وتنفض رأسا فى الزمام كأنما
وعرف رقيق الشعر تحسب نبته
وتحسبها من نفسها إن تبخترت
فكم منشد قول امرئ القيس عندها

ومن أبيات الفقيه عمارة اليمنى:

وبها زرافات كأن رقابها
نوبية المنشا تريك من المها
جبلت على الاقعاء من اعجابها
فى الطول ألوية تؤم العسكرا
زرقاء ومن بزل المهارى مشفرا
فتخالها للتيه تمشى القهقرا

obeikandi.com

الباب السادس والأربعون

فى الحمام وما فى وصفها منه بديع النظام

قد جرت عادة الكبراء والعظماء باتخاذ الحمام فى منازلهم ولا سيما فى أيام الخلفاء فكثرت ذلك فى أيام الناصر لدين الله أحمد بن الامام المستضىء فإنه اهتم بأمرها وبأمر انشائها وما زالت الخلفاء والملوك يطيطرون الحمام ويسابقون به ولا يختص بذلك بنو العباس قال صاحب روض الازدهان: كان الوزير أبو الفرج يعقوب وزير المعز أجل الخلفاء المصريين وأنفخمهم وكان له حمام يسابق فاتفق أنه سابق بها طيور الخليفة العزيز فسبق حمامه فعظم ذلك على الخليفة ووجد أعداء الوزير الطعن عليه من أن هذا الوزير يختار الجيد لنفسه من كل شىء ويختار للخليفة الأدنى فبلغ ذلك الوزير فكتب إلى الخليفة:

قل لأمير المؤمنين الذى له العلا والكوكب الثاقب
طائرک السابق لكنه جاء وفى خدمته حاجب

فسكن غيظ الخليفة ولما مات هذا الوزير خلف أربعة آلاف مملوك وحارة الوزيرية فى القاهرة وتعرف به وبساتين الوزير بالقرب من بركة الجيش ولما مات نزل الخليفة وألحده فى قبره وبلغ كفته وما يدخل فيه عشرة آلاف دينار.

قال الجاحظ: وقد تباع الحمامة بخمسة دینار ولم يبلغ ذلك شىء من الطير ومن دخل بغداد والبصرة عرف ذلك وتباع البيضة بخمسة دنانير والفرخ بعشرين دینارا روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه اشتكى إلى رسول الله ﷺ الوحشة فقال: «اتخذ حماما تؤنسك وتصيب من فراخها وتوظك للصلاة بتغريدها» وروى عن ابن عباس رضی اللہ عنہما قال قال رسول الله ﷺ: «الحمام فإنها تلهى الجن عن صبيانكم» روى جابر أنه كان رسول الله ﷺ يعجبه النظر إلى الحمام والابراج وكان فى منزله ﷺ حمام أحمر اسمه وردان، وكان إبراهيم بن بشار معجبا بالحمام وكان اذا ذكرها يقول ان الله جمع فيها حسن النظر وكرم المخبر تكفيك مؤنتها فهى للمطارق عدة وللمستوطن لذة تطعم فى الصحراء وتعود اليك فى السراء يأنس الوحيد بحركاتها وتغنيه عن الايتار بنغماتها وغيرها من الطير

يستعجم وهى ناطقة وتنفر عنك وهى داجنة وفى طبعها السكون إلى الناس والاستئناس بهم وهى طير عفيف يبقى الذكر بعد الانثى منفردا والانثى مثل ذلك مع شدة اتفاقهما على المحبة إن طارا طارا معا وإن وقعا وقعا معا لها سرعة طيران لا تكاد سباع الطير تصيدها الا بحيلة ولم تزل العرب تستحسن سجع الحمام وتغريد البلبل والورشان واعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب الطائف أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة اذا صارت الوراش والفواخت إلى ذلك الظلال فيشربون ويأنسون بتغريدهن ويقيمون أصواتهن مقام المزامير والاولتار وفى ذلك يقول بعضهم:

أحن إلى حوائط ذات عرق لتغريد الفواخت والحمام
ألم بها وكل فتى كريم من الفتيان مخنوع الزمام

وقد ألف القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر كتابا أسماه تائم الحمامم وذكر فيه أنسابها وأنواعها وغير ذلك ومنه قول القاضى الفاضل لا زالت أجنحتها تحمل من البطائق أجنحه وتجهز جيوش المقاصد والاقلام أسلحة وتحمل من الاخبار ما تحمله الضمائر وتطوى الارض اذا نشرت الجناح الطائر وكادت تكون ملائكة لأنها رسل اذا نيطت بالرقاع طارت أولى أجنحة مثني وثلاث ورباع وقد باعد الله بين أسفارها وقربها وقرها وجعلها طيف اليقظة الذى صدق العين وما كذبها وقد أخذت عهود اداء الامانة فى رقابها أطواقا وأذنها من أذنانها أوراقا فصارت خوافى وراء الحوافى وغطت سرها بكتمان سحبت عليه ذبول ريشها الصوافى ترغم النوى بتقريب العهود وتكاد العيون تلاحظها تلاحظ أنجم السعود وهى أنبياء الطير لكثرة ما تأتى به من الانباء وخطباؤها لانها تقوم على منابر الاغصان قيام الخطباء وسماها القاضى الفاضل فى مكان آخر ملائكة الملوك فرحمه الله ما كان أقدره على الكلام وما أحسن ما وصف الحمام وتسميته إياها أنبياء الطير، قال الشيخ تاج الدين بن الاثير من فصل: طالما جارتها لرياح فأصبحت مخلقة وراءها تبكى على السحب وصدق من سماها أنبياء الطير لانها مرسل بالكتب وقال الشيخ السديد علم الرؤساء من رسالة فى تقدمته بالبشائر يكون المعنى بقولهم أيمن طائر ولا غرو أن فارق رسل الارض وفاتهم وهو مرسل والعيان عيانه والجو ميدانه والجناح مركبه والرياح موكبه وابتداء الغاية شوطه والتشوق إلى أهله وقال الاسعد بن مماتى من صدر رسالة:

أعوامل بالفلات مما يدلنا عنى أن معنى القلب من عادة القلب
ومن لم يجد شخصا من الانس كاملا يثبت له الشكوى تشاغل باللعب
بلغنى أن الحضرة قد أطاعت سلطان نفسها واسترجعت شيطان أمسها وعزمت على
انفاق كيس الايام بالاشتغال بالحمام.

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة: وفرضنا أعزك الله ان ذلك الواشى فى كلامه
مصيب فالمملوك أولى بالتقاط فوائد مولانا ابن أبى حجلة وللطير فى دار الكرام نصيب.
صلاح الدين الصفدى وكتبها إلى بعض أصحابه:

هذى بطاقسة قـــادم قد جاء يلهج بالمدح
حملها قلبى الذى قد طار نحوك بالفرح

قلت ما ألطف قول الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة:

شكرت افتراحي فى المديح فلمتنى وقلبي أناس كان يشكر ما اقترح
ولو كان من شعري المحجل ريشة لكل بنى الآداب طارت من الفرح
القاضى الفاضل:

لينهك طائر الفتح المبين وما أدى من الخبر اليقين
وأشرق فى الخيام على رياض وخط من الرماح على الغصون
وأطرب بالكتاب وزاد حتى ظنناه يغنى بالالحسون
وسرك باليقين بغير وعد ترجيه الظنون بقدر وسين
بما أسهرت جفن السيف حتى جعلت السيف غمدا للجفون

وله تغمده الله برحمته:

وقد ألف التخليق ريش جناحها فجاءت إلينا فى رداء العرائس
وما خلقت بالزعفران وإنما نضخن دما من أكل قتلى الفوارس
ملائكة الرحمن تزجى كتابها اليهم ببشرهم بقتلى الأبالس

وله رحمه الله:

بشائر يأتى الطير حامل كتبها فيأتى سرور لم يدعه ونفسه
غدوت ولا سيف بقر بغمده وبت ولا طير بقر بعشه

ذكر ابن مسدى فى معجمه: قال سمعت أبا الحسن محمد بن نصر الله بن عنين يقول كنت بخراسان بمجلس الفخر الرازى إذ أقبلت حمامة يتبعها جارح فسقطت فى حجر الفخر الرازى وعادت به على منبره فقامت وأنشدت بديها:

يا بن الكرام المطعمين اذا شتوا	فى كل مسغبة وثلج خاسف
والعاصمين اذا النفوس تطايرت	بين الصوارم والوشيح الراجف
من نبأ الورقاء أن محللكم	حزم وأنت ملجأ للخائف
وافت اليك وقد تدانى حتفها	فجبرتها يقائنها المستأنف
ولو انها تجبى بمال لانثت	من راحتك بنائل متضاعف
جاءت سليمان الزمان حمامة	والموت يلمع من جناحي خاطف

فخلع عليه جبة كانت عليه وكل هذا سببا لاقبال السعود عليه.

من انشاء الشيخ زين الدين بن الوردى: فبينما الباز سكران بما بان من البان واذا بحمامة قد وقعت أمامه وقالت كم تفتخر وأنت عظم نخر أنت من آلة اللعب والصيد وأنا من آلة الجدد والكبد أنا مع الطوق والخضاب من جملة حملة الكتاب ومع خوفى من شرك الشرك وحذى ممن فح الافك حملت الامانة التى أبت الجبال عن حملها وامثلت مرسوم ﴿ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها﴾^(١) فلما أوصلت الحقوق أمنت العقوق وتزينت بالبشائر والخلق ومما أعجب العالمين أننى مخضوية البنان ولى يمين أقول للملك دع الاهتمام ولا تحزن فإننى أنا الحمام مهما حدث عليك من البعد من أخصامك أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك كتمت عن الناس سرى وأبهمت فى الغناء والنوح أمرى:

روى خضابى وطرقى	فاستتكفوا من بكائى
ثم ادعوا أن نوحى	مناسب لغنائى
فقلت كفوا فدمعى	باد بغير اخفاء
الخضب من فيض دمعى	والصبر عقد ولائى

قال القاضى علاء الدين الوداعى: كان القاضى الفاضل يسمى الحمام ملائكة الملوك فسميت انا البريدية شياطين السلاطين.

الباب السابع والأربعون

في الحصون والقصور والآثار

وما قيل فيها من نائق الأشعار

ما أحسن قول القاضي الفاضل ووردنا حصين كوكب وهو نجم في سحاب وعقاب في عقاب وهامة لها الغمامة عمامة وأنملة اذا خضبها الاصيل كان الهلال لنا قلامه، وقال الشيخ شهاب الدين محمود: حصن قد تفرط بالنجوم وتقرط بالغيوم وسما فرعه إلى السماء ورسى أصله إلى التخوم تخال الشمس اذا علت أنها تنتقل في أبراجه ويظن من سها إلى السها أنها ذبالة في سراجة لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر السما وزمامه ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من أنجمه وحوله كل شامخ تهب عقاب الجو قطع عقابه وتقف الريح حسرى اذا توقلت في هضابه تخفق العيون اذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بأنصافها ولا تعرف فيها الاهلة الا بأوصافها.

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من باب محرم الخاطر واذا هي سماء يتعاس الفكر عن محاولة شهبها وحسناء كلما رمت أن تنظر وجهها الحسن فكان قرص الشمس مرآة وجهها تزاحم بروجها السماء بالمناكب وتضيء اضاءة نجومها الثواقب وتلقى اذا عطشت كوكب الدلو بأرشية البروق في قليب السحاب لا تسامى ولا تسام ولا يحصل منها قادم سفر الا على معانقة العوالى ومصافحة السهام، وقال علاء الدين بن غانم: ذات أودية ومحاجر لا تراها العيون لبعدها مرامها الا شزرا ولا ينظر ساكنها العدد الكثير الا نزرا ولا يظن ناظرها الا أنها طالعة بين النجوم مما لها من الابراج ولها من الفرات خندق يحفها كالبحر الا ان هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ولها واد لا يبقى لفحة الرمضاء ولا حر الهواجر وقد توعدت مسالكة فلا يداس فيه الا على المحاجر وتفاوت ما بين مرات العلا وقراره العميق ويقتحم راكبه الهول في هبوطه فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى

به الريح فى مكان سحيق، وقال سيدى الاخ العزيز الفاضل تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى سلمه الله تعالى فى وصف قلعة دمشق عندما حوصرت فى الوقعة المشهورة ونظرت بعد ذلك إلى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حريها حتى قلنا أزفة الآزفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون ليس لهما من دون الله كاشفة واستجلبت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجهزت للحرب ولم نرض بغير الارواح مهر وقد أعقدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الابيض سوار النهر وغازلت بحواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال وأهدت إلى العيون من مكاحل نارها أكلالا كانت السهام لها أميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم فى رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بأن الطارمة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتدرعوا بغير آية الحرص فى الاسحار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم تنم أعينهم عن الاوتار فأعيد رواسيها التى كالجبال الشامخة بمن أسس المحجوج وأحصنها قلعة بالسما ذات البروج.

قلت ويحسن ذكر المنجنيق فى هذا الموطن نقلت من خط القاضى صلاح الدين الصفدى قال نقلت من خط السراج الوراق لنفسه يصف حجارة المنجنيق:

ترقى بمكر المنجنيق إلى السها	وتعود تطلب مركز أرباها
وحمت بها الاسوار ثم تكلمت	لم لا وقد فتحت بها أفواها
وتولت السمر الطوال سواكها	وثغورها لا تنجلي بسواها

وقال ابن النبيه من قصيدة يمدح بها الاشرف ويصف دارا بناها بقلعة أخلاط:

سقى الله من أعلام أخلاط قلعة	يحوم بها نسر السها على وكر
ودار على خير الطوالع أسست	فمن حل فيها فى أمان من الدهر
تجلى مدى الابصار لمع بياضها	فأحسبها قد ألبست بهجة الدر
وقد أثبتت أركانها من نقوشها	تمائيل روض لم يزل يانع الزهر
تكاد تشم المسك من نسماها	ويقطر من أرجائها ورق التبر
تسر وتلهى ساكنيها بحسنها	فإن شئت أغنت عن غناء وعن خمر
إذا فتحت أبواب مستبشر بها	جلت لك نور البحر والوحش فى البر
فإن شئت للآخرى فمحراب ناسك	وان شئت للدنيا فريضة العمر
وان جمعا فالله ما زال جامعها	شتيت العلا للاشرف بن أبى بكر

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى مدرسة القاضى بدر الدين بن الجزولى
بمصر:

تأمل ففضلى سار فى البر والبحر	ولى خبر فى مصر يغنى عن الخبر
يقابلنى المقياس يوم وفائه	بوجه فتاة لاح من خلل الستر
فشباكه يرنو إلى باعين	جلبن الهوا من حيث أدرى وما أدرى
أهيم بها فى مصر حتى كأنها	عيون المها بين الرصافة والجسر
فلا عذرى عندى للنسيم اذا سرى	وكم فى الهوى العذرى للصب من عذر
تداوى بشرب الماء عندى جماعة	كما يتداوى شارب الخمر بالخمير
مما تى من عين الحيوه لانه	من الروض يأتينى على قدم الخضر
ويسطى روضى والقناديل زهرها	وثغر حباب الماء ييسم عن در
فلا تعجبا من زائرى إن توقدت	عليه مصابيح الطلاقة والبشر
تشاهد منى العين فى مصر روضة	ترى زهرها فى الماء كالانجم الزهر
وكم وردة أبدى دهانى حسنهما	يبيت بها قلب الحسود على الجمر

وله فيها:

دار يسان الجار فى أرجائها	ويذل فيها صين الاموال
نسيت بها الاهرام لما إن غدت	بضياتها هولا من الاهوال

الشيخ شمس الدين بن القرية السكندرى فيمن له غلام اسمه ريحان:

ان الامير حباه رب اله	عشرش احسانا ومنه
هو والغلام وداره	روح وريحان وجنه

حكى عن سنمار أنه كان رجلا حاذقا بالبنيان فأمره النعمان بن امرئ القيس بن عمرو ابن امرئ القيس اللخمى ان يبنى له حصنا بظاهر الجزيرة وهو الذى يقال له الخواريق فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه واتقان عمله فقال له لو وفيتمنى أخرى لبنيته بناء يدور مع الشمس كيفما دارت، فقال النعمان أقدرت على أحسن منه ولم تفعل فأمر بقذفه من أعلاه وقيل إنما قتله لأنه لما فرغ من بنائه خلا به وقال له ان هذا البنيان كله مردود إلى هذا الحجر فاحتفظ به فإنه ان نزع سقط البناء كله فقتله لثلا يطلع على ذلك غيره، فضربت به العرب المثل وأكثرت فيه فقالوا: جزاه الله جزاء سنمار.

وقال الشاعر أنشدته ابن مالك:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبير
وحسن فعل كما يجزى سنمار
وقال عبد العزيز بن امرئ القيس:

جزاني جزاه الله شر جزائه جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

قال ابن الشجري يقال رجل سنمار إذا كان حسن الوجه أبيضه، ويقال للقمر سنمار ولما أراد المنصور أن يبنى بغداد في سنة أربعين ومائة سأل راهبا كان في صومعة في مكان بغداد عندما أراد أن يختطها أريد أن أبني هنا مدينة فقال له الراهب إنما يبنيتها ملك يقال له الدواني فضحك المنصور وقال أنا هو وشرع في بنائها سنة أربعين ومائة ونزلها سنة ست وأربعين، وفي سنة ست وأربعين تم بناؤها وهي بغداد القديمة التي بالجانب الغربي على دجلة وهي بين الفرات ودجلة كما جاء في الحديث لا بغداد الثانية وهي الجديدة التي في الجانب الشرقي وفيها دور الخلفاء وبغداد عبارة عن سبع محال لا تفتقر منها محلة إلى غيرها على شاطئ دجلة فالذي في الجانب الشرقي الرصافة، بناها المهدي بن المنصور حين ضاقت بالرعية والجند سنة قلت: إحدى وخمسين وهي مدينة مسورة، والثانية مشهد أبي حنيفة مسورة، والثالثة جامع السلطان غير مسورة، والرابعة مدينة المنصور في الجانب الغربي وتسمى باب البصرة وكان بها ثلاثون ألف مسجد وخمسة آلاف حمام، والخامسة مشهد موسى بن جعفر مسورة، والسادسة الكرخ مسورة، والسابعة دار المقر مسورة، قلت: مكتوب على ظاهر المدرسة التي أنشأها الشيخ الامام العالم أوحده القراء أبو عبد الله شمس الدين محمد بن الجزري تغمدته الله برحمته بعقبة الكتاب عمرها الله ببركته وأظن أنها من نظمه:

يا دار علم للمآثر تقصد	وبصدرها تروى العلوم وتسند
خلعت عليك الكائنات جمالها	فلذاك سعدك دائما يتجدد
أضحيت للراجلين قبلة قاصد	لكمالها تعنو الوجوه وتسجد
نظرتك شمس العلوم منيرة	منها لطلاب الفضائل منجد
يا باذلا للمال غير مذمم	حاشاك من ذم وانت محمد
كم قلد الناس اجتهادك مئة	فحمدت مجتهدا وانت مقلد
طربت بذو المعنى العقول فيا له	من دار قرآن وفيه معبد
بالامس كان على الطريق قمامة	واليوم فهو على الحقيقة مسجد

ما ان تراه مشاهداً لجماله الا وتعجب من سناه فتتشدد
واذا نظرت الى البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد
وقال الشيخ بدر الدين ابن الصاحب فى عمارة السلطان الملك الظاهر برقوق التى بناها
بين القصرين عمرها بحياته عمارة الظاهر قد أصبحت أركانها شاهقة كالعلم وبشرت
أحجارها بالبقاء وأنه يبلغ سن الهرم.

وله فى رباط المعشوق الذى بمصر المحروسة المشرف بالآثار الشريفة:

لنا رباط وبالمعشوق شهرته أثار خير الورى فيه بتحقيق
يصبو فؤادى لمرآة ولا عجب ان هام قلبى فى أثار معشوق
غيره:

أتيت إلى المعشوق من بعد فرقة وهجر وقلبي بالنوى يتضرم
فقابلنى والشعر بالزهر باسم وما أحسن المعشوق للصب يسم
قلت وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ الامام الفاضل اللغوى جلال الدين أبو المعالى
ابن خطيب داريا:

يا عين ان بعد الحبيب وداره ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد حظيت من الزمان لطائل ان لم تربه فهذه آثاره
صلاح الدين الصفدى رحمه الله:

أكرم بآثار النبى محمد من زارها استوفى السعود مزاره
يا عين ويحك فانظرى وتمنعى ان لم تربه فهذه آثاره
وقال الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى موريا به وبغيره من منارة مصر
المحروسة:

وليلة مـمرت بنا حلوة ان رمت تشبيها لها عبتها
لا يبلغ الواصف فى وصفه حداً ولا يلقي لها متهى
بت مع المعشوق فى خلوة ونلت من خرطومه المشتهى

وقرأت فى شرح قصيدة بنى الانطس التى شرحها الكاتب أبو القاسم عبد الملك بن
عبد الله بن بدرون الحضرمى السلمى رحمه الله عند ذكر كسرى هو كسرى أنوشروان بن
ساسان كان ملكه ثمانية وأربعين سنة وقيل سبعا وأربعين سنة وثمانية أشهر وهو الذى بنى

سور الباب والايوان وجعل هذا السور من جوف البحر مقدار ميل وبناء على الزقاق بلىن الحديد والرصاص وكلما ارتفع البناء نزلت إلى أن استقرت فى قرار البحر وارتفع السور على الماء ففاصت الرجال بالخناجر والسكاكين إلى ذلك الزقاق فثقتها وتمكن السور على وجه الأرض فى قاع البحر وذكر المسعودى أن هذا السور كان باقيا سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة ويسمى هذا السور الذى فى البحر القيد وصعد هذا السور فى أكر على جبل الفتح أربعين فرسخا حتى انتهى إلى طبرستان وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور بابا من الحديد وأسكن من داخله أمة من الناس تراعى ذلك الباب وما يليها من السور وذلك لدفع الامم المتصلة بذلك الجبل وهم أنواع من الامم منهم اللان والجرز والترك والبرغز وغيرهم وذكر فى كتابه هذا عند ذكر المأمون ومن تسمى باسمه فمنهم يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة يحكى أنه بنى قصر طليطلة وتأنق فى بناءه وأنفق فيه أموالا كثيرة وصنع فيه بحيرة وبنى فى وسطها قبة وسبق الماء إلى رأس القبة حوالها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة فى غلالة من ماء تسكب ولا تفر والمأمون بن ذى النون قاعد فيها لا يمسه فيها شئ ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل فبينما هو نائم فيها اذ سمع منشدا ينشد:

أتبنى بناء الخالدين وإنمسا بقاؤك فيها لو عقلت قليل

لقد كان فى ظل الاراك كفاية لمن كان يوما يقتضيه رحيل

فما لبث بعد هذا الا يسيرا حتى قضى نجه.

أنشدنى الشيخ شمس الدين الجرائحى من لفظه لنفسه وقد أمره القاضى فتح الدين بن

الشهيد أن ينظم شيئا يكتبه على طراز فى صدر ايوانه:

أيا من يطرز الدر أكمأهم سمت قفوا وانظروا دار الطراز على خصرى

وصدرى لاسرار الممالك حائط من الفضة البيضاء والذهب المصرى

فمن ذا يضاهنى افتخار وقد غدت خزائن اسرار الممالك فى صدرى

نقلت من خط الشيخ بهاء الدين الموصلى والد شيخنا العلامة عز الدين أبى الخير الموصلى من مقامة وسماها بسلوة الغريب وخلوة الحبيب منها فى وصف القصر الابلق بدمشق وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه لنهى عن العاشق والمعشوق قد شام فى غمده مشهور عمدان وأسبل على ايوان كسرى ستر النسيان يبهر الناظر حسن معناه ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه الماء مرفوع فى اقطاره ونواحيه متصف فى فوار

بركه لتميز ناظره يتكسر جمعه على شاذرواناته مجرورا باضافته إلى مجاريه فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر أعين شبائكه إلى ميدانه الأخضر ناظرة قد جمع الصادح والباغم واللاقط والطاغم به الظباء الاوانس والمها الكوانس أقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر فى زمنه الا كليلة أخجلت خمائله الأيك والفصون ولاذ القائف بالسوان عن اقتضاء أثر السلوك فى معانيه التى كلها عيون وقف الابلق حين جرى إلى متهاه وأدركه الاعياء فسكن بأقصاه وشاهد الشقراء تمرح فى ميدان واديها فأراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب فقطعت على الانهار الطريق وضرب بينهما سور له باب.

الايوان: من بعد هدمه بناه كسرى أبرويز فى نيف وعشرين سنة ومائة ذراع فى عرض خمسين فى سمك مائة من الأجر الكبار والجص ونخن الجدار الأزج خمس أجزات وطول الشرف خمسة عشر ذراعا ولما بنى المنصور بغداد حب أن ينقضه ويبنى به فاستشار خالد بن برمك فنهاه وقال هو آية الاسلام ومن علم أن هذا بناؤه لا يزيل أمره الانبى وهو مصلى على بن أبى طالب عليه السلام والمؤنة فى نقضه أكثر من الارتفاق به فقال أتت الأمثلة من العجم فهدمت ثلثة منه فبلغت النفقة عليها مالا كثيرا فأمسك فقال خالد أنا لا أشير بهدمه لئلا يتحدث بعجزك عنه فلم يفعل وعلى ذكر الايوان فما أحسن ما أنشدنى من لفظه لنفسه أجازة شيخنا العلامة عز الدين أبو الخير الموصلى محاجيا:

يا من له الطول فى السعالى وبالمعاني لنا يبصر
أنى كما قلت فى سؤالى ما مثل قولى نعم مقصر
القاضى فتح الدين بن الشهيد على لسان مجلس داره وقد بنى لبعض الاجلاء فى داره
مجلس عال:

يا من ينزه فى حسنى نواظره اسمع صفات بها قد فقت أمثالى
أنى مقام مقصر عز جانبه ودون قدر جناب المجلس العالى
أنشدنى من لفظه لنفسه الاديب الفاضل الكامل شمس الدين أبو عبد الله الجراحى فى مجلس بناه سيدنا ومولانا قاضى القضاة وشيخ الشيوخ خطيب الخطباء أبو الحسن علاء الدين بن أبى البقاء السبكى الشافعى تغمده الله برحمته:

ومجلس قد قال لى منشى ما مثله فى الفضل قاضى القضاء

قد أسس البنيان منى على تقوى من الله وأرضى الاله
فصرت كالكعبة من أجله تسعى إلى نحوى الحفاة العراه
فما سعى نحوى أخو شدة الا ومن ربي لاقى رضاه
فالاسم منى فى الهجا معرب وإنما للمدح تصدأ بناه
خص بخفض العيش من أمنى ورفع يبق بقصد النحاء
قاس قضى بالحق لكنه جار على ما ملكته يده
فما اشتكى الفقر اليه امرئ الا ونادى المال كن فى رضاه

وأنشدنى لنفسه فسح الله فى أجله فى منزل القاضى فتح الدين بن الشهيد:

يا منزلا بالبهاء والحسن ناظر من طرز الملوك طرازي لست من طرزي
والناس دون محل الغير تقصدنى من القبول لان السر فى حرزي
ومن المباني العظيمة المذكورة فى القرآن العظيم ارم ذات العماد قال أصحاب الآثار
ورواة الاخبار لما سمع شداد بن عاد بن أرم وصف الجنة سولت له نفسه أن يبنى مثلها فبنى
مدينة بين حضرموت وصنعاء طولها اثني عشر فرسخا وعرضها مثل ذلك وأحاط بها سورا
ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشى خارجها فضة مموهة بالذهب وبنى داخلها مائة مائة ألف
قصر بعدد رؤساء أهل مملكته بلبن الذهب والفضة وكذلك جذوع سقوفها وأساطينها
وأجرى فى وسطها نهرا صفح أرضه بالذهب وجعل على حافتيه أنواع الجواهر واليواقيت
بدلا من الحصباء وألقى فيه المسك الغبر عوضا عن الحمأة وفرع منه جداول إلى تلك
القصور والمنازل وغرس على شطوطها من الاشجار ما كان لزهرة عرف ورائحته ذكية
وزعموا أنه أقام فى بنائها ثلاثمائة سنة فلما تم بناؤها زاد فى طغيانه ولم يعبأ بربه فبعث الله
هودا عليه السلام يدعوه إلى الله تعالى ويحذره سطوته ويخوفه نقمته فلم يجبه إلى ما دعاه
إليه وخرج من حضرموت إلى ذات العماد ليلغ نفسه منها بسكنائها فلما أشرف عليها جاءته
صيحة من السماء فأهلكته وجنوده وأفاته أمله ومقصوده.

ويروى أن عبد الله بن قلابة خرج فى طلب ابل ندت له فوق عليها فحمل ما قدر
عليه مما تم فبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فقال هى ارم
ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال
وفى عنقه خال يخرج فى طلب ابل ندت له ثم التفت فرأى ابن قلابة فقال هذا والله ذلك

الرجل وزعم الاحباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود ولهذا سميت ذات العماد.

ومن المباني العظيمة سد ذى القرنين الذى بناه على يأجوج ومأجوج وصفته على ما حكاه ابن حردأده أن مكانه جبل أملس مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعا وفى جانبى الوادى عضادتان مبنيان عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا كل ذلك مبنى بلبن الحديد مغيب فى نحاس فى سمك خمسين ذراعا وعلى العضادتين دروند حديد طرفاه فى العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعا وفوق الدروندين بناء بتلك اللبن الحديد المغيبة فى النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر وفوق ذلك شرافات من حديد فى طرف كل شرافة قرنان يبنى كل واحد منهما إلى صاحبه وبين العضادتين باب من حديد بمصراعين وبين كل مصراع خمسون ذراعا فى خمسة أذرع وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غلظ باع فى الاستدارة وارتفاع القفل من الارض خمسة وعشرون ذراعا وعتبة الباب عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ما كان تحت العضادتين ويقال ان آلة البناء التى بنى بها هذا السد موجودة بحصون بناها ذو القرنين ورتب فيها حراسا يحرسون هذا السد وهى مغارف وبقية لبن كل ذلك من حديد وان كان لبنة ذراع ونصف فى مثل ذلك فى سمك شبر قد ألصق الصداء بعضها ببعض.

ومن المباني المشهورة قصر غمدان وكان بصنعاء قال الجاحظ أحببت العرب أن تشارك الفرس فى البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمدان وكعبة بحران وحصين مارد والابلق ويزعم بعض الاحباريين أن بانيه حام بن نوح ويزعم آخرون أن يسوراسف بناه على اسم الزهر وذكر ابن هشام ان الذى أسسه قحطان بن يعرب وأكمله بعده وأصله وائل بن حمير ابن سبأ بن يعرب وخريه عثمان بن عفان رضي الله عنه وكانت صفته على ما نقلته من الكتب المدونة فى العجائب مربعا أحد أركانه مبنى بالرخام الابيض والثانى بالرخام الاصفر والثالث بالرخام الاخضر والرابع بالرخام الاحمر فيه سبع سقوف طباقا ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا وجعل على كل ركن تمثال أسد من النحاس إذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فيه فيسمع له صوت كزميز الاسد وقال ابن الكلبي كان على ركن من أركان غمدان مكتوب بالحميرية اسلم غمدان معاديك مقتول بسيف العدوان، وذكر الجاحظ فى كتاب الامصار أن قصر غمدان كان أربعة عشر غرفة بعضها فوق بعض ويروى

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا يستقيم أمر العيوب ما دام فيها غمدانها وهذا القول الذى حض عثمان على هدمه وأثره باق على تل عال مظل على البلد قريب الجامع.

ومن المباني التى تبلى الزمان ولا تبلى وتندرس معالمه وأخبارها لا تندرس ولا تبلى الأهرام التى بأعمال مصر وهى أهرام كثيرة أعظمها الهرمان اللذان بجزيرة مصر غربى النيل يقال ان بانيها شوندير بن سلهور بن شرناق قبل الطوفان ويقال ان هرمس المثلث بالحكمة وهو الذى تسميه العبرانيون أخنخ وهو ادريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان فأمر ببناء الأهرام وايداعها الاموال وصحائف العلوم وما يخاف عليه من الذهب والدثور وكل هرم منها مربع القاعدة مخروطى الشكل ارتفاع عموده سبعة عشر ذراعا يحيط به أربع سطوح متساويات الاضلاع كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا ويرتفع إلى أن يكون سطحه ستة أذرع فى مثلها ويقال إنه كان على أعلاه حجر شبه المكبة فرمته الرياح والعواصف وهو مع هذا العظم من الصنعة واتقان الهندام وحسن التقدير بحيث لم يتأثر إلى الآن بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل وهذا البناء ليس بين حجارته منابر البلدان المشهورة الكعبة فوق المحراب وسائر الاقاليم يمنة ويسرة وما فى البلدان من الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك وسقفه مقرنس بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة وأنوار الشمع فى أماكن متفرقة قالوا وكان فى محراب الصحابة منه حجر من بلور ويقال حجر من جوهر وهى الدرة وكانت تسمى القليلة وكان اذا طفت القناديل تضىء لمن هنالك بنورها فلما كان زمن الامين بن الرشيد وكان يحب البلور بعث إلى سليمان والى شرطة دمشق أن يبعث بها إليه فسرقتها وسيرها إلى الامين فلما ولى المأمون أرسل بها إلى دمشق ليشنع بذلك على الامين، قال الحافظ ابن عساكر ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج وقد رأيت تلك البرنية ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شىء وكانت الابواب الشارعة من الداخل إلى الصحن ليس عليها أغلاق وإنما عليها الستور مرخاة وكذلك الستور على سائر جدرانها إلى حد الكرمة التى فوقها الفصوص المذهبة ورءوس الاعمدة مطلية بالذهب الكثير وعملوا له شرافات تحيط به وبنى الوليد المنارة الشمالية فى التى يقال لها مأذنة العروس فأما الشرقية والغربية فكانتا قبل ذلك بدهور متطاولة وقد كان فى كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جدا بنتها اليونان للرصد فسقطت وبقيت القبليتان إلى الآن وقد احترق بعض الشرقية بعد

الاربعين وسبعمائة ونقضت وجدد بناؤها من أموال النصارى حيث اتهموا بحريقها فقامت على أحسن الاشكال بيضاء بذاتها والله أعلم، الشرقية التى ينزل عليها عيسى ابن مريم فى آخر الزمان بعد خروج الدجال كما ثبت فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان والمقصود أن الجامع الاموى لما اكمل بناؤه لم يكن على وجه الارض أحسن بناء منه ولا أبهى ولا أجل منه بحيث اذا نظر الناظر فى أى جهة منه أو إلى بقعة أو إلى مكان منه تحير فيما ينظر إليه لحسنه جميعه وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان فلا يدخل هذه البقعة شئ من الحشرات بالكلية لا من الحيات ولا من العقارب ولا الخنافس ولا العناكب ويقال ولا العصفير أيضاً تعيش فيه ولا الحمام ولا شئ مما يتأذى به الناس واكثر هذه طلسمات أو كلها كانت مودعة فى سقف الجامع مما يلى السبع فاحترقت لما وقع فيه الحريق وكان ذلك ليلة النصف من شعبان بعد العصر من سنة احدى وستين وأربعمائة وما زال سليمان بن عبد الملك فى تكميله وزيادته مدة ولايته وجددت له فيه المقصورة رحمه الله فلما ولى عمر بن عبد العزيز عزم على أن يحد ما فيه من الذهب ويقلع السلاسل والرخام والسقوف ويرد ذلك كله إلى بيت المال ويطين ذلك كله فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرفهم إليه وقال خالد بن عبد الله القشيرى أنا أكمله لكم فلما اجتمعوا قال خالد: يا أمير المؤمنين بلغنا أنك تريد أنك تصنع كذا وكذا قال نعم قال خالد ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين قال ولم يا بن الكافرة - وكانت أمه نصرانية رومية - فقال يا أمير المؤمنين ان كانت كافرة فقد ولدت رجلاً مؤمناً قال صدقت واستحى عمر، قال فلم قلت ذلك قال يا أمير المؤمنين لان غالب ما فيه من الرخام إنما حملة المسلمون من أموالهم من سائر الاقاليم وليس هو من بيت المال فأطرق عمر رحمه الله قالوا واتفق فى ذلك الزمان قدوم جماعة من الروم رسلاً من عند ملكهم فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذى تحت النسر فلما رأوا ذلك النور الباهر والزخرفة التى لم يسمع بمثلها صعق كبيرهم مغشياً عليه فحملوه إلى منزلهم فبقى أياماً مدنفاً فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال ما كنت أظن أن تبنى المسلمون مثل هذا البناء وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال وان هذا ليغيظ الكفار دعوه.

والمقصود أن الجامع الاموى كان حين تكامل بناؤه وليس له فى الدنيا نظير فى حسنه وبهجته قال الفرزدق أهل دمشق فى بلدهم قصر من قصور الجنة يعنى به الجامع الاموى.

وقال أحمد بن أبى الحوارى عن الوليد بن أبى مسلم عن أبى ثوبان ما ينبغى أن يكون أحد أشد تشوقا إلى الجنة من أهل دمشق لما يرون من حسن مسجدنا ولما دخل المهدي أمير المؤمنين العباسي دمشق يريد زيارة بيت المقدس فنظر إلى جامع دمشق قال لكاتبه أبى عبد الله الأشعري سبقنا بنو أمية بثلاثة بهذا المسجد لا أعلم على ظهر الأرض مثله وبنيل الموالى ويعمر بن عبد العزيز لا يكون فينا والله مثله أبدا ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة وكان الوليد بن عبد الملك بناها فقال لكاتبه وهذا أربعة أيضا ولما دخل المأمون دمشق نظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم وقاضيه يحيى بن أكرم قال ما أعجب ما فيه فقال أخوه هذا الأدهان التي فيه وقال ابن أكرم الرخام وهذه العقد فقال المأمون إنما أعجب من بنياته على غير مثال متقدم وقال المأمون لقاسم التمار أخبرنى اسما حسنا أسمى به جاريتى هذه فقال سمها مسجد دمشق فإنه أحسن من كل شيء وقال عبد الرحمن بن الحكيم عن الشافعي عجائب الدنيا خمسة أحدها منارتكم هذه يعنى منارة ذى القرنين التي بالاسكندرية والثانية أصحاب الرقيم وهي بالروم اثنا عشر رجلا أو ثلاثة عشر رجلا والثالثة مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها يجلس الرجل تحتها فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ والرابع مسجد دمشق وما يوصف من الاتقان عليه والخامس من الرخام والقيقسا فإنه لا يدري له موضع ويقال إن الرخام معجون والدليل على ذلك أنه مذوب على النار قال الحافظ ابن عساكر وذكر إبراهيم بن أبى الليث الكاتب وكان قدم دمشق سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة فى رسالة قال أمرنا بالانتقال إلى البلد فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ووافق ظاهره باطنه أزقته أرجه وشوارعه فرجه فحيثما مشيت شممت طيبا وأين سعيت رأيت منظرا عجيبا وأمضيت إلى جامعها فشاهدت منه ما ليس فى استطاعة الواصف أن يصفه ولا الرائي أن يعرفه وجملته أنه بكر الدهر ونادرة الوقت وأعجوبة الزمان وغريب الاوقات ولقد أيقنت به ذكرا يدرس وجليت به أمرا لا يخفى ولا يدرس.

ومما قيل فى الساعات قال القاضى عبد الله بن أحمد بن زين إنما سُمى باب الجامع القبلى باب الساعات لأنه كان عمل هناك بلكار الساعات يعلم بها كل ساعة تمضى من النهار عليها عصافير من نحاس وحية من نحاس وغراب فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير وصباح الغراب وسقطت حصاة فى الطست.

قلت هذا الكلام على أحد شيئين إما أن الساعات كانت فى الباب القبلى من الجامع

وهو باب يسمى بباب الزيادة اليوم ولكن قد قيل إنه محدث بعد الجامع وهو لا ينفى أن الساعات كانت عنده فى زمن القاضى ابن زبر وإما أنه قد كان فى الجانب الشرقى من الجامع فى حائطه القبلى فى باب آخر فى محاذاة باب الزيادة وعنده الساعات ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم وهو باب الجامع من الشرق والله أعلم.

وأما القبة التى فى وسط الجامع التى فيها الماء الجارى ويقال لها قبة أبى نواس فكان بناؤها فى سنة تسع وستين وثلاثمائة أرحه الحافظ ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة. وأما القبة الغربية التى فى وسط الجامع التى يقال لها قبة عائشة فسمعت شيخنا أبا عبد الله الذهبى يقول إنها بنيت فى حدود سنة ستين ومائة فى أيام المهدي بن المنصور العباسى وجعلوها لحواصل الجامع وكتب أوقافه.

وأما القبة الشرقية التى على باب مشهد فقال بنيت على زمن الحاكم العبيدى فى حدود سنة أربعمائة.

وأما الفوارة التى تحت درج جيرون عملها الشريف فخر الدولة أبو يعلى حمزة بن الحسين العباسى الحسينى وكأنه كان ناظر الجامع وجر إليها قطعة من حجر كبير من قصر حجاج وأجرى فيها الماء ليلة الجمعة لسبع خلون من ربيع الأول سنة سبعة عشر وأربعمائة وعمل حولها قناطر وعقد عليها قبة ثم سقطت القبة بسبب جمال احتكت فيها وذلك فى صفر من سنة سبع وخمسين وأربعمائة فأعيدت ثم سقطت عمدتها وما عليها فى حريق اللبادين ودار الحجارة فى شوال سنة اثنين وستين وذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر.

قلت وأما القصعة التى كانت فى الفوارة فما زالت فى وسطها وقد أدركتها كذلك ثم رفعت بعد ذلك وكان بطهارة جبزون قصعة أخرى مثلها فلم تزل بها ثم لما انهدمت اللبادين بسبب حريق النصارى فى سنة احدى وأربعين وسبعمائة استوثق بناء الطهارة على أحسن مما كانت وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها أثر وعمل الشاذروان الذى هو شرقى الفوارة بعد الخمسمائة أظنه سنة أربع عشرة وخمسمائة.

فصل: وكان ابتداء عمارته قى أواخر عام سنة ست وثمانين وهدمت الكنيسة فى ذى القعدة منها فلما فرغوا من الهدم شرعوا فى البناء وتكامل فى عشر سنين فكان فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين ووضع العمودان اللذان فى صحن الجامع لاجل التنوير فى ليالى الجمع فى شهر رمضان سنة احدى وأربعين وأربعمائة بأمر قاضى البلد أبى محمد فيما

ذكره بنو عساكر في بعض تواريخهم نقلت هذه الترجمة في بناء جامع دمشق من تاريخ الحافظ عماد الدين بن كثير الذي اسماه البداية والنهاية.

ومن المستحسن مما قيل فيه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى:

يا حسن ترخيم بجامع جلق متناسب التركيب والتقسيم
بزيادة التحسين خالف قول من قد قال ان النقص في الترخيم
غيره:

أرى الحسن مجموعا بجامع جلق. وفي صدره معنى الملاحه مشروح
فإن يتغالى في الزيادة معسر فقل لهم باب الزيادة مفتوح
وقال بعضهم:

دمشق لها منظر رائع وكل إلى حسنهما تائق
وكيف يقاس بها بلدة أوى الله والمسجد الفارق
قلت: أحسن منه قول من قال:

إنى أدل على دمشق وطيبها من حسن وصفى بالدليل القاطع
جمعت جميع محاسن فى غيرها والفرق بينهما بنفس الجامع
وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطى:

دمشق فى الحسن لها منصب عال وقدر فى الورى شائع
فحد من قاس بها غيرها وقل له ذا الجامع المانع

ذكر أبو الفرج الاصفهاني قال حدثنى بذلك جماعة منهم أبو عثمان يحيى بن عمر قال قرأت فى بعض الدواوين أن المتوكل أنفق على أبنيته وقصوره والمسجد الجامع ومنتزهاته فى خلاوته يسر من رأى وأعمالها من الاموال ما لا يعلم أن أحدا أنفق على بناء مثله ومبلغ ذلك من العين مائة ألف وخمسين ألف دينار ومن الدراهم مائتى ألف ألف وثلاثة وتسعون ألف ألف وخمسين ألف درهم من ذلك القلايا مائة ألف وخمسون ألف دينار العروس ثلاثون ألف درهم الشاة عشرون ألف درهم البرج ثلاثون ألف ألف درهم البركة ألف ألف درهم الجوسق الابراهيمى ألفا ألف المختار خمسة آلاف ألف الجعفرى ثلاثة وعشرون ألف ألف البديع عشرة آلاف ألف المليح خمسة آلاف ألف الصبيح خمسة آلاف ألف التل خمسة آلاف ألف الجوسق فى الميدان خمسمائة ألف بركوازاء عشرون ألف ألف المسجد

الجامع خمسة عشر ألف ألف الغراء بدجلة ألف ألف القصر بالمتوكلية خمسة عشر ألف ألف لؤلؤة خمسة آلاف ألف النهر بالمتوكلية خمسون ألف ألف وبنى المعتز بعد ذلك البيت المعروف بالكامل ولم أعرف مبلغ النفقة عليه وبنى المعتمد المعشوق والبيتين المعروفين بالفنح والبهج.

كتب الشيخ جمال الدين ابن نباتة إلى الجناح القطبى بن شيخ السلامية يصف: يقبل الارض ويسأل الله تعالى أن يديم أيام مولانا التى غفرت ذنوب الايام والليالى وعمرت الوجود بما سمع عن أهل العصور الخوالى وينهى أنه سطر هذه الخدمة وقد ترادفت عليه معانى الشكر فلم يدر ما يذكره ولا ما يحصيه ويحضره إلى أن ألقى السلاح وغض الجراح وأنشد:

تعالى عن المداح قدرك رتبة فاقصارهم عن مدحه غاية المدح

هذا على أنه الآن فى نشو سكره وذهول فكره باستجلاء هذه المنازل كل شمال فيها شمول لابل الرياح الارباع على أرجائها قبول فهى الجنة وثناء مولانا مسكها الارج والهالة وأوصافه بدرها المبتلج والدنيا إلا أنها المحسوبة من العيش النضر ومحلة موسى وكل غصن من أغصانها الخضر ما شئت من صدحات مسجوعة وبيوت معمورة وسقف مرفوعة وثمرات كشمراة الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة وعقود على أجياد القضب من الازاهير وسوق أشجار على نهر كأنه صرح ممرد من قوارير وكل دوحة تنحفر كما تنحفر العذراء ومرجة هى نفس اللذة بدليل أن النفس خضراء وجداول تتلوى فى الروض تلوى الارقم فى الصعيد وأبكار وورد كما أشارت شفاه الملاح بالبقل من بعيد راواوين كأنما طارت إلى الافق بأجنحتها وشبابيك كأنما أصابت القلوب من فتكات الهم بحديد أسلحتها وشرافات دلت على همة الأمن بمبانيها وعلت حتى كأن الثريا عقدت على تراقيها وتجرى ماء ترق بمحواتها القلوب الجافية ولا عيب فيها الا النسيم الواشى والعين الصافية قد مرج الله تعالى بهما البحرين يلتقيان وأخرج منهما فى أعطاف الغصون اللؤلؤ والمرجان ولو أخذ المملوك فى وصف المحاسن المبدعة والاصول المتفرعة لكثير غصونها بأقلامه وأزهارها بنثاره ونظامه ولا بلغ معشارها ولا حدث بأخبارها ولكن ليس فيها ما يقال له كملت لو أن ذا كملا فجعلها الله أول منازل نعيم مولانا المستمر وعمر ببقائه أرجاها التى ينعم الامل ويعتمر بمنه وكرمه.

صلاح الدين الصفدى مضمنا:

تقول دمشق اذ تفاخر غيرها
بجامعها الزاهى البديع المشيد
جرى للتهانى حسنه كل جامع
وما قصبات السبق الالمعبد

وضعف الحال وضيقه على الناس ثم لما توفى عليه السلام بعث الصديق الجيوش قبل الشام وإلى العراق كما تقدم فى كتابنا هذا والله الحمد والمنة ففتح الله على المسلمين الشام بكمالها ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها، كتب أمير الجيوش اذ ذاك وهو أبو عبيدة وقيل خالد بن الوليد لهم كتاب أمان وأقرأ أيدى النصارى على أربع عشرة كنيسة كما ذكرنا وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التى كانوا يسمونها كنيسة مرتحيا بحكم ان البلد فتحه خالد من الباب الشرقى بالسيف وأخذت النصارى الامان من أبى عبيدة وهو على باب الجابية بالصلح فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف المسجد صلحا ونصفه الآخر عنوة فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقى فجعله أبو عبيدة مسجدا وكان قد صارت له امرة الشام فكان أول من صلى فى هذا المسجد أبو عبيدة رضي الله عنه ثم الصحابة بعده فى البقعة التى يقال لها محراب الصحابة ولكن لم يكن الجدار مفتوقا بمحراب محنى وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة والظاهر ان الوليد هو الذى فتق المحارب فى الجدار القبلى وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاعلى الذى كان من جهة القبلة مكان المحراب الكبير اليوم فتتصرف النصارى إلى جهة المغرب إلى كنيستهم ويأخذون المسلمون يمينه إلى مسجدهم ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ولا يضربوا بناقوسهم اجلالا للصحابة ومهابة وخوفا وقد بنى معاوية رضي الله عنه فى أيامه على الشام داراً للامارة قبل المسجد الذى كان للصحابة وبنى فيها قبة خضراء فعرفت الدار بكمالها بهاء فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا ثم لم يزل الامر كما ذكرنا من سنة أربع عشرة إلى سنة ست وثمانين فى ذى القعدة منها وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فى شوال منها فعزم على أخذ بقية الكنيسة و اضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها وجعل الجميع مسجدا واحدا وذلك لتأذى بعض المسلمين بسماع قراءة النصارى الانجيل ورفع أصواتهم فى صلواتهم فأحب أن ييعدهم عن المسلمين ويضيف ذلك المكان إلى هذا المسجد الجامع فطلب النصارى وسألهم أن يخرجوا عن هذا المكان ويعوضهم منه اقطاعات كثيرة عرضها عليهم وأن يقر لهم أربع كنائس لم تدخل فى العهدة وهى كنيسة

مريم وكنيسة المصلبة داخل باب شرقى وكنيسة تل الحين وكنيسة حميد بن درة التى بدرب الصقيل فأبوا ذلك أشد الالباء فقال اثتونا بعهدكم الذى بأيديكم فاتوا بعهدهم الذى بأيدهم فى زمن الصحابة ففرئ بحضرة الوليد فإذا كنيسة توما التى خارج باب توما عند النهر لم تدخل فى العهدة وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مرتحيا فقال أنا أهدمها وأجعلها مسجدا فقالوا يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى بأخذ بقية هذه الكنيسة فأقرهم على تلك الكنائس وأخذ بقية هذه الكنيسة ويقال غير ذلك والله أعلم، ثم أمر أمير المؤمنين باحضار الآلات للهدم واجتمع إليه الامراء والكبراء من رؤوس الناس وجاءت أساقفة النصارى وقساقسهم قالوا يا أمير المؤمنين إنا نجد فى كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن فقال أنا أحب أن أجن فى الله والله لا يهدم فيها أحد قبلى ثم صعد المنارة الشرقية ذات الاضالع المعروفة بالساعات وكانت صومعة فإذا راهب فأمره بالنزول منها فاكبر الراهب ذلك قال فأخذ الوليد بقفاه ولم يزل يدفعه حتى أحدره منها ثم صعد الوليد على أعلا مكان فى الكنيسة فوق المذبح الاكبر منها الشاهد وأخذ أذيال قبائه وكان لونه أصفر سمرجليا فغرزها فى المنطقة ثم أخذ فأسا فى يده فضرب فى أعلاه حجرا فألقاه وتبادر الأمراء إلى الهدم وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون وقد اجتمعوا هنالك فأمر الوليد أمير الشرطة وهو أبو نائل رباح الغسانى أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك ففعل ذلك وأمر نائبه على الخراج يزيد بن تميم بن حجر السلمى باحضار اليهود ليساعدوا فى هدم الكنيسة فجاءوا فكانوا كالفعلة ذكره الحافظ ابن عساكر فى ترجمة يزيد بن تميم هذا فهدم المسلمون واليهود والوليد جميع ما جدته النصارى فى تربيع هذا المكان من المذابح والابنية والحنايا حتى بقى صرحه مربعة ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة على الضفة الحسنة الأنيقة التى لم يشهد مثلها قبلها على ما سنذكره ونشير إليه وقد استعمل الوليد فى بناء هذا المسجد خلقا كثيرا من الصناع والمهندسين والفعلة وكان المستحث على عمارته أخوه بعده وولى عهده من بعده سليمان بن عبد الملك ويقال ان الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صنعا فى الرخام وغير ذلك ليعمروا هذا المسجد على ما يريد وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش وليخربن كل كنيسة فى بلاده حتى كنيسة القدس وكنيسة الرها وسائر آثار الروم فبعث الملك صنعا كثيرة جدا وكتب اليه يقول له إن كان أبوه فهم هذا الذى تصنعه وتتركه فإنه لو صمة عليك وإن لم يكن فهمه

وفهمته أنت فإنه لوصمة عليك فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك واجتمع الناس عنده وكان فيهم الفرزدق الشاعر فقال أنا أجيئه يا أمير المؤمنين من كتاب الله قال وما هو ويحك قال قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حَكْمًا وَعِلْمًا﴾ (١) فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جوابا لملك الروم ولما أراد الوليد بناء القبة التى فى وسط الرواقات عن يمينها وشمالها كالاجنحة لها حفروا لاركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه عذبا زلالا ثم انهم وضعوا فيه جرار الكرم وبنوا فوقه بالحجارة فلما ارتفعت الاركان بنوا عليها القبة فسقطت فقال الوليد لبعض المهندسين أمر لك أن تبني لى هذه القبة فقال على أن تعطيني عهد الله وميثاقه أن لا يبنئها أحد غيرى ففعل فبنى الاركان ثم غلقها بالبوارى وغاب سنة كاملة لا يدرى الوليد أين ذهب فلما كان بعد السنة حضر فهم الوليد به فأخذه ومعه رءوس الناس فكشف البوارى عن الاركان فإذا هى قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الارض فقال له من هذا أبيت ثم بناها فانعقدت وقال بعضهم أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن المسجد فقال له المعمار انك لا تقدر على ذلك فضربه خمسين صوتا وقال ويلك أنا أعجز عن ذلك قال نعم قال فبينما ذلك فامر فأحضر من الذهب ما سبك منه لبنة فإذا هى قد دخلها ألوف من الذهب فقال يا أمير المؤمنين أنا أريد من هذا كذا وكذا ألف لبنة فإن كان عندك ما يكفى ذلك عملناه فلما تحقق الوليد صحة قوله أطلق له خمسين دينارا ولما سقف الوليد الجامع جعل لسقفه جملونات وباطنها مسطح مقرنص بالذهب فقال له بعض أهله أتعبت الناس بعدك فى تطيين هذا المسجد كل عام فامر الوليد أن يجمع ما فى بلاده من الرصاص ليجعل عوض الطين ويكون أخف على السقف فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الاقاليم فعاوزوا فإذا عند امرأة منه قناطير مقنطرة فساوموها فيه فأبت أن تبيعه إلا بوزنه فضة فكتبوا إلى أمير المؤمنين بذلك فقال اشتروه منها ولو برزنته فلما بدا لها ذلك قالت أما إذا قلت ذلك فهو صدقة لله تعالى يكون فى سقف هذا المسجد فكتبوا على ألواحها بطابع الله ويقال إنها كانت اسرائيلية وأنه كتب على الألواح التى أخذت منها الذى أعطتهم الاسرائيلية وقال محمد بن عائد سمعت المشايخ يقولون ما تم المسجد بدمشق إلا باداء الامانة لقد كان يفضل عند الرجل من القرمة يعنون الفعلة الفلس ورأس المسمار فيجىء حتى يضعه فى الخزانة وقال بعض المشايخ بدمشق ليس بالجامع من

الرخام شىء الا الرخامتان اللتان فى المقام من عرش بلقيس والباقي مرمر وقال بعضهم اشترى الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين العامودين الاخضرين اللذين تحت النسر من حره بن خالد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار وقال دحيم عن الوليد بن مسلم حدثنا مروان ابن جناح عن أبيه قال كان فى مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم وقال أبو قصى عن دحيم عن الوليد بن مسلم عن عمرو بن مهاجر الانصارى أنهم حسبوا ما أنفق على الكرمة التى فى قبلة المسجد فإذا هو سبعون ألف دينار وقال أبو قصى أنفق فى مسجد دمشق أربعمائة صندوق فى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، قلت وذلك خمسة آلاف ألف دينار وستمائة ألف دينار وفى رواية فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار.

قلت: فعلى هذا يكون المصروف فى عمارة الجامع الاموى أحد عشر ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار، والله أعلم.

قال أبو قصى وأتى الحرس إلى الوليد بن عبد الملك فقالوا يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون أنفق الوليد أموال بيت المال فى غير حقها فنودى فى الناس الصلاة جامعة فصعد المنبر وقال إنه بلغنى عنكم كذا وكذا ثم قال عمرو بن مهاجر قم فأحضر أموال بيت المال فحملت على البغال وبسطت على الانطباع تحت القبة وفرغ عليها المال ذهباً وفضة حتى كان الرجل لا يرى الآخر من الجانب الآخر وجىء بالقبايين وقبنت فإذا هى تكفى الناس ثلاث سنين مستقبلة وفى رواية ستة عشر سنة مستقبلة لو لم يدخل للناس فيه شىء بالكلية ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ثم قال الخليفة يا أهل دمشق انكم تفتخرون على الناس بأربع بهواتكم ومائكم وفاكهتكم وحمائمكم فأحييت أن أزيدكم خامسة وهى هذا الجامع فحمدوا الله وانصرفوا شاكرين وذكروا أن أرضه كانت مفصصة كلها والرخام فى جدرانه إلى قامات وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض قد صور بها ملاط ولا يتخلل بينهما الشعر وطول الحجر منه خمسة أذرع فى سمك ذراعين ويقال إن بانيها جعل لها أبواباً على أزاج مبنية بالحجارة فى الأرض طول كل أزج عشرون ذراعاً كل باب من حجر واحد يدور بلولب إذا طبق لم يعلم أنه باب والأزج الشرقى فى ناحية الجنوب والأزج الغربى فى ناحية المغرب يدخل من كل باب منها إلى سبعة بيوت كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة وكلها مقفلة بأقفال وحذاء كل بيت صنم من ذهب مجوف احدى يديه

على فيه وفى جيبهته كتابة بالقلم المسند اذا قرئت انفتح فوه فيوجد فيه مفتاح ذلك القفل فيفتح به والقبط تزعم أنها والهرم الصغير الملون قبور فالهرم الشرقى فيه سوندير الملك والهرم الغربى فيه أخوه هرجيب والهرم الملون قبر صاب بن هرمس واليه ينسبون على قول من زعم ذلك وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطرابها عند الذبح ما يريدون به من الامور المغيبة ولم تزل همم الملوك قاصرة عن أن تعرف ما هذين الهرمين إلى أن ولى المأمون وورد مصر وأمر بفتح واحد منها ففتح بعد عناء طويل وأنفق بسعاداته المعينة له على تحصيل غرضه إلى أن فتح مكانا يسلك منه إلى الغرض المطلوب وهو زلاقة ضيقة من الحجارة الصوان المانع الذى لا يعمل فيه الحديد بين حاجزين ملتصقين فى الحائط قد نقرا فى الزلاقة لثلا تزلق وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر ويقال إن أسفل البئر ايوانا يدخل منه إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب وانتهى بهم الطريق إلى مواضع مربع فى وسطه حوض من رخام مغطى فلما أزيل عنه غطاؤه لم يوجد فيه الا رمة بالية قد أتت عليه العصور الخالية فأمر المأمون بالكف عما سواه.

رأى بعض الفضلاء هذه الاهرام فقال كل بناء أخاف عليه من الدهر الا هذا البناء فانى أخاف على الدهر منه.

ومما قيل فيه من الشعر قول الفقيه عمارة اليمنى:

خليلى ما تحت السماء أبنية تماثل فى اتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكلما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
وبالقرب من الاهرام صنم على صورة وجه انسان تسميه العامة أبو الهول لعظمه ويقال
ان اسمه بالقبطية بلهونه ويقال بلهيب وتزعم القبط أنه طلسم للرمل لثلا يغلب على أرض
الجزيرة وعنده أحقاف من الرمال كأنها الجبال مما يلى الطين الابليز.

ومن العجائب منارة اسكندرية وهى مبنية بحجارة مهندسة مضيبة بالرصاص على
قناطر من زجاج والقناطر على ظهر سرطان من نحاس فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد
الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها وللبوت طاقات ينظر منها إلى البحر وبين أهل
التاريخ خلاف فيمن بناها فزعم قوم أنها من بناء الاسكندر بن فيلبس المقدونى وزعم
آخرون أنها من بناء دلو كاء ملكة مصر ويقال انه كان على جانبه الشرقى كتابة وأنها نقلت

فوجدت بنت هذه المنطرة قرثباء بنت مرسوس اليونانية لترصد الكواكب ويقال ان طولها كان ألف ذراع وفى أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور معها حيثما دارت ومنها تمثال وجهه إلى البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل تعلم به أهل المدينة طروق العدو ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت صوتا مطربا ويقال انه كان بأعلاها مرآة يرى منها قسطنطينية وبينهما عرض البحر وكلما جهز الروم جيشا روى فيها.

وحكى المسعودى أن هذه المنارة كانت فى وسط الاسكندرية وأنها تعد من بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالمة من ملوك اليونان بعد الاسكندرية لما كان بينهم وبين الروم من الحرب فى البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا وجعلوا فى أعاليها مرآة من الاحجار المشقة فيكشف بها مراكب العدو اذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها فاحتال ملك الروم لما انتفع به المسلمون فى مثل ذلك على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب فى الاسلام وأخرج كنوزا ودفائن كانت فى الشام ما حمّله على أن صدقه أن تحت المنارة أموالا وأسلحة دفنها الاسكندر فجهز معه جماعة إلى الاسكندرية فهدم ثلث المنارة وأزال المرآة ثم فطن الناس أنها مكيدة منه واستشعر ذلك فهرب فى مركب كانت له معدة ثم بنى ما هدم بالجص والآجر ثم قال المسعودى وطول هذه المنارة اليوم فى هذا الوقت الذى وضع فيه هذا الكتاب وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ثلاثون ذراعا وكان طولها قديما نحو من أربعمئة ذراع وبنّاؤها فى عصرنا ثلاثة أشكال فقريب من الثلث مربع مبنى بحجارة بيض ثم بعد ذلك مضمن الشكل مبنى بالآجر والجص نحو نصف وستين ذراعا وأعلاها مدور الشكل وكان أحمد بن طولون قد بنى فى أعلاها قبة من الخشب ثم هدمت وبنى مكانها مسجدا فى أيام الملك الكامل صاحب مصر ثم أن وجهها البحرى تداعى وكاد أن ينتقض فرمم وأصلح وكذلك الرصيف وذلك فى أيام الملك الظاهر بيبرس رحمه الله.

قلت ذكرت هنا ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ومن خطه نقلت المرحوم الوزير فخر الدين ابن مكانس فى صاحبه الشيخ سراج الدين القوصى السكندرى يداعبه:

يا ذا السراج اشترى ايرى فأنت به أولى وذلك للأمر الذى وجبا
سكندرى وتدعى بالسراج وذا مثل المنار إذا ما قام منتصباً

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدنا مولانا المقر المجدى فضل الله ولد المرحوم المشار إليه أولا أدام الله نعمته محاجيا وكتب إلى سيدنا ومولانا أوحى المتكلمين نادرة الدهر المقر الاشرف الامينى كاتب الاسرار الشريفة بدمشق المحروسة أسبغ الله ظلاله:

يا من سمى قدره نحو النجوم علا فأوقع الضد قسراً فى مهالكه
ما بلدة أن تحاجى فى اسمها فطنا مصحفا قلت يشكو مكر مالكة
فكتب إليه الجواب الجناب المشار إليه:

أحجية بديعة أن صحفوا خمسة أجزاء لها على قدر
وعكسوا باقىها وقدموا فإنما هى طفلة كقمر

قلت: هذه الطريقة غريبة جدا ووجه الحل فيها أن يأتى بالمرادف ثم يصحفه فيكون المقصود ومثاله فى قول المقر المجدى يشكو مكر مالكة فإن مرادف يشكو يث و مرادف مكر كيد و مرادف مالكة ربه فيصير مجموع ذلك يث كيد ربه فإذا صحفت هذه الكلمات تجدها سكندرية وهى البلدة المعمرى بها فافهمه وأما الثانية فقله فإنما هى طفلة كقمر فالمراد أن مرادف طفلة بنت و مرادف كقمر كبدر فيحصل من ذلك بنت كبدر ثم تضيف إلى ذلك معكوس هى وهويه فإذا صحفت ذلك جميعه وجدته سكندرية وهذا من المعمرى الغريب ولم يحلها أحد من متأدبى دمشق والقاهرة غير سيدنا ومولانا أفضى القضاة بدر الدين المخزومى المالكى الشهير بابن الدمايينى أعز الله أحكامه وذلك بتاريخ سنة ست وتسعين وسبعمائة وأنا بالقاهرة المحروسة.

رجعنا إلى ما كنا بصده ومما قيل فى المنارة من الشعر قول الوجيه الدورى:

وشامية الأرجاء تهدى أخا السرى ضياء إذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الأنس صافيا فكان بتذكى الاحبة معلما
وقد طلبتنى من ذراها بقية ألاحظ فيها من صحابى أنجما
تخيلت أن البحر تحت غمامة وأنى قد خيمت فى كبد السما

وللقاضى الفاضل لوصفه لبناء بيت المقدس من الرخام الذى يطرد ماؤه ولا ينطرد للأؤه قد لطف الحديد فى تجريعه وتفنن فى توسيعه إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد كالذهب الذى فيه نعيم عتيده فما ترى الا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقاق وعمد كالاشجار لها من التبت أوراق.

وقال أبو عبادة البحرى يصف قصرا بناه المتوكل يسر من رأى وسماه الكامل:
 غرف من ميان فيه دنيا يوجب الله فيه أجر الإمام
 شوقنا إلى الجنان فزدنا فى اجتناب الذنوب والآثام
 وله يصف قصرا آخر بناه المتوكل وسماه الجعفرى:

قد تم حسن الجعفرى ولم يكن ليتم الا بالخليفة جعفر
 ملك تبوأ خير دار أسست فى خير بدو للأمام ومحضر
 فى خير مشرفة حصاها لؤلؤ مبيضة واللبل ليس بمقمر
 رفعت بمنخرق الرياح وجاوزت ظل الغمام الصيب المستعبر

وهذان القصران من جملة قصور بناها المتوكل وهى بركوانا والعروس والبركة والجوسق والمختار والغريب والبديع والصبيح والملح والقصر والبرج والمتوكلية والقلايا.

حكى المؤرخون أنه أنفق فى بنائها مائتى ألف ألف وأربعة وسبعين ألف درهم ومنها ذهب بصرف الوقت مع ما فيه من العين ثلاثة عشر ألف ألف وخمسمائة ألف وخمسة وعشرون ألف دينار وكان البرج من أحسنها وكانت فيه صور عظيمة من الذهب والفضة وبركة عظيمة غشى ظاهرها وباطنها بصفايح الفضة وجعل عليها شجرة ذهب فيها كل طائر يصوت ويصفر سماه طوبى بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف وستمائة ألف دينار.

ومن المباني العظيمة جامع دمشق ذكر الشيخ عماد الدين بن كثير فى تاريخه البداية والنهاية وفى سنة ست وتسعين من الهجرة تكامل بناء الجامع الاموى بدمشق المحروسة على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان جزاه الله عن المسلمين خيرا وكان أصل موضع الجامع قديما معبدا بتة اليونان والكلدانيون الذين كانوا يعمرن دمشق وهم وضعوها أول ما بنيت وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيزة وكانت أبواب دمشق سبعة وهى القمر الذى فى سماء الدنيا وعطارد فى السماء الثانية والزهرة فى الثالثة والشمس فى الرابعة والمريخ فى الخامسة والمشتري فى السادسة وزحل فى السابعة وكانوا قد صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلا للكوكب من هذه الكواكب السبعة وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصدا لذلك وكان لهم عند كل باب عيد فى السنة وهؤلاء هم الذين وضعوا الارصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارناتها وبنوا دمشق

واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد بين هذين الجبلين وصرفوه أنهارا تجري إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة وسلكوا الماء إليها فى أفنية الدور وبنوا هذا المعبد وكانوا يصلون إلى القطب الشمالى فكانت محاربه تجاه الشمال وبابه يفتح إلى جهة القبلة خلف المحراب اليوم كما شاهدنا ذلك عيانا وهو باب حسن من الحجارة المنحوتة وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه وكان غربى المعبد قصر منيف جدا تحمله هذه الأعمدة التى بباب البريد وشرقيه قصر حيزون داران يكونان لمن تملك دمشق قديما ويقال إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة يحيط بالجميع سور واحد وهى دار المطبخ ودار الخيل ودار كانت تكون مكان الخضر التى بناها معاوية.

قال الحافظ ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل أنهم مكثوا يأخذون الطالع لبناء هذه الأماكن ثمانى عشرة سنة وقد حفروا أساس الجدران حتى أتاهم الوقت الذى طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن المسجد لا يخرب أبدا ولا يخلو من العبادة، قال كعب الأحبار وان هذه الدار اذا بنيت لا تخلو من أن تكون دار التملك والسلطنة قال الشيخ أما المعبد فلم يخل من العبادة قال كعب الأحبار ولا يخلو حتى تقوم الساعة والمقصود ان اليونان استمروا على هذه الصفة التى ذكرنا بدمشق مدداً طويلة تزيد على أربعة آلاف سنة حتى انه يقال ان أول من بنى جدران هذا الجامع الاربعة هود عليه السلام وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدة طويلة وقد ورد إبراهيم عليه السلام شمالى دمشق عند برزة وقاتل قوما من أعدائه فظفر بهم وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة وهذا المكان المنسوب اليه بها منصوص عليه فى الكتب المتقدمة وكانت دمشق اذ ذاك عامرة أهلة بمن فيها من اليونان وهم خصماء الخليل وقد ناظرهم الخليل فى غير موضع فى عبادتهم الكواكب كما قررنا ذلك فى التفسير وفى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام والمقصود ان اليونان لم يزوالا يعمرن دمشق ويبنون فيها وفى معاملاتها من حوران وغيرها البنايات الغريبة العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلاثمائة سنة فتنتصرت أهل الشام على يد قنطين بن قسطنطين الذى بنى المدينة المشهورة فى بلاد الروم وهو الذى وضع لهم القرايين ووضعت بتاركة النصارى له ديناً مخترعاً مركباً من أصل دين النصرانية ممزوجاً بشيء من عبدة الاوثان وصلوا إلى المشرق وزادوا فى الصيام وأحلوا الخنزير وعلموا أولادهم الامانة الكبيرة فيما يزعمون وهى فى الحقيقة خيانة كبيرة وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيناه

وبنى لهم هذا الملك الذى تنسب إليه الطائفة الملكية منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى فى زمانه اثنتى عشر ألف كنيسة من ذلك كنيسة بنت نجم ومن ذلك قمامه بنتها أمة هيلانة الفندقانية والمقصود أنهم حولوا بناء هذا المعبد الذى هو بدمشق معظما عند اليونان فجعلوه كنيسة وبنوا له المذابح فى شرقية وسموها كنيسة مرتحبا ومنهم من يقول كنيسة يوحنا وبنوا بدمشق كنائس غيرها مستأنفة واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحو ثلاثمائة سنة حتى بعث الله محمدا ﷺ وكان من شأنه ﷺ ما ذكرنا بعضه فى كتاب السيرة وقد بعث ﷺ إلى ملك الروم فى زمانه وهو قيصر ذلك الوقت واسمه هرقل يدعوه إلى الله عز وجل فكان من مراجعته ومخاطبته لابی سفيان صخر بن حرب ما تقدم ثم بعث ﷺ أمراءه الثلاثة: زيد بن حارثة، جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة إلى البلقاء نحو الشام فبعث الروم اليهم جيشا كبيرا فقتلوا هؤلاء الثلاثة وجماعة ممن معهم فعزم ﷺ على قتال الروم ودخول الشام عام تبوك ثم رجع ﷺ عامه ذلك لشدة الحر.

ابن سناء الملك من قصيدة صلاحية:

كل القلاع تروم السحب فى صعد	الا العواصم تبغى السحب فى صيب
لو رامها النجم لم يظفر بيغيته	ولو رامها بقوس الافق لم يصب
ملقى اذا عطشت والبرق أرسية	كواكب الدلو فى بشر من السحب
جليسة النجم فى أعلا مراتبه	وطالما غاب عنها وهى لم تغب

شهاب الدين ابن حجر:

أهوى الجلوس بمقعد الصدق الذى	فرشت به بسط الزهور وزخرفا
حفت به أيدي السعود وأبصرت	عينى به طير المسرة رفرفا

ذكر أبو عبد الله بكر بن عياش كاتب المنصور أبى يوسف يعقوب قال كان لأبى بكر محمد بن مجير وفادة على المنصور فى كل سنة فصادف المنصور فى إحدى وفاداته فراغه من أحداث المقصورة التى كان أحداثها بجامعه المتصل بقصره فى حضرة مراکش وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتخفص لدخوله وكان جميع من بياب المنصور يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا أشعارا أنشدوها إياه فى ذلك فلم يزيدوا على شكره وتجريته الخير فيما جدد من

معالم الدين وآثاره ولم يكن فيهم من تصدى إلى وصف الحال حتى قام أبو بكر بن مجير
فأنشد قصيدته التى أولها:

أعلمتنى ألقى عصا السيار فى بلدة ليست بدار قرار
واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طورا تكون بمن حوته محيطة فكأنها سوراً من الاسوار
وتكون طوراً عنهم مخبئة فكأنها ستر من الاستار
وكأنما علمت مقادير الورى فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالامام يزورها فى قومسه قامت إلى الزوار
يبدو فنبدو ثم تخفى بعده كتكون الهالات بالاقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها والتفت إلى الجراوى وكان يعلم قلة
تسليمه لأبى بكر وكثرة غضبه منه فقال سلم له الجر ثم أنشده إذا لم تستطع شيئاً فدعه
قال أبو عبد الله بن عياش فخرج أبو بكر بن مجير والشعراء يومئذ يلومونه ان لم تكن أول
منشد لا تخفى أشعارهم وتستر أعوارهم.

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على الأمدى:

وحصن قد أناف برأس هضب منيف ذاهب فى الجو سامى
تنفس فى مرآة الأفق حتى كسا فولادها صدأ الغمام
محيى الدين بن عبد الظاهر يصف الجامع الاموى فى ليلة نصف شعبان وإيقاده حيث
لا تلمع الاعين مصباحا وتود أنها لا ترى لتلك الليالى صباحا اذ تمتطقت أركانه فى اللهب
بمناطق الذهب وبدت أشعتها فى صفائه كما يبدو فى الكأس وحاشاء العجب لا سيما فى
ليلة النصف التى كم رفرف عليها النعيم وكم خدمها الا من النسيم:

كم للناس فيها لاح بدر يروق العين منظره الوسيم
بدا وبدا الوقود فقلت بدر لخدمته ترجلت النجوم

كم أضاء بوجهه ديجور وكم انعكست أشعة تلك الأضواء على وجهه المنير فكانت
نورا على نور:

فى خــــلده للورى ربيع ونصف شعبان فى فؤادى
أو كما قال الآخر:

وحلت مناطق خصره فكأنه شعبان كل حلاوة فى نصفه

من كلام الاخ الحبيب أبى بكر بن حجة وأوميت بعد ذلك إلى الجامع الاموى فإذا هو لأشتات المحاسن جامع وأتيته طالبا لبديع حسنه فظفرت بالاستضاءة والاقتباس من ذلك النور الساطع وتمسكت بأذيال حسنه لما نشقت تلك النفحات الشحرية وتشوقت إلى النظم والنثر لما نظرت تلك الشذور الذهبية وأنست من جانب طوره نارا فرجع إلى ضياء حسى واندهشت لذلك الملك السليمانى وقد زهى بالبساط والكرسى وقلت هذا ملك فاز من وقف فى خدمته خائفا وشقى من لم يدس بساطه ويأتية طائعا ومن الكلام الفاضلى قلعة تحسر العيون أن تنقضها ويتوعر الامل أن يترقاها قد ضربت فوق الجبل جرائها ولبست لقبة النجوم ويحق فإنها ما برحت جيرانها وتطلعت للناظرين سحابة الا أنها عزت أن تكون السماء عنانها.

obeikandi.com

الباب الثامن والأربعون

في الحنين إلى الأوطان وتذكره بهامه القطان

روى أن النبي ﷺ سمع صوتنا فارتاع فقليل له في ذلك فقال ظننت أن ساكننا أزعج من منزله، وجاء أيضاً حب الوطن من الايمان وقال ابن عباس رضي الله عنهما لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى أحد الرزق وكانت العرب إذا سافرت أخذت معها من تربة بلدها تستنشق ريحها وتطرحه في الماء إذا شربته وهكذا كان المتفلسف من البرامكة إذا سافر أخذ معه من تربة مولده في جراب يتداوى به ولما غزا اسفندبار بلاد الحرز اعتل بها فقليل له ما تشتهي قال شربة من دجلة وشميما من تراب اصطخر فأثى بعد أيام بماء وقبضة من تراب وقيل له هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك فشرب واشتم بالوهم فنقه من علته.

القاضي الفاضل:

يا لله قل للنيل عني اننى
وسل الفؤاد فإنه لى شاهد
لم أشف من ماء الفرات غليلا
ان كان طرفى بالبكاء بخيلا

قال الاصمعي:

يا قلب كم خلفت ثم بشنية
وأظن صبرك أن تكون جميلا

دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت أفدنى فقال اذا شئت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده وكرم أخلاقه وطهارة مولده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى اخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه ولما أشرف الاسكندر على الموت أوصى أن يحمل في تابوت ذهب إلى بلد الروم حبا في وطنه ولما أدركت يوسف عليه السلام الوفاة أوصى أن يحمل إلى مقابر آبائه فمنع أهل مصر أولياءه فلما بعث الله موسى عليه السلام وأهلك فرعون حمله إلى مقابرهم فقبره عليه السلام بأرض المقدس وروى أن أبان قدم على رسول الله ﷺ المدينة فقال له يا أبان كيف تركت مكة قال تركتهم وقد جلدوا وتركت الاذخر وقد أغدق وتركت الثمام وقد خاص فاغرو رقت عينا رسول الله ﷺ وقيل لاعرابي أشتاق إلى وطنك قال كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين ركامها ورضيع غمامها:

وكنا ألفناها ولم تك مأنفا
وقد يؤلف الشيء الذى ليس بالحسن
كما تؤلف الارض التى لم يطب بها
هواء ولا مساء ولكنها وطن

آخر:

طيب الهواء ببغداد يؤرقنى شوقا اليها وان عاقت مقادير
فكيف أصبر عنها اليوم اذ جمعت طيب الهواء بين ممدود ومقصور

ذكرت بهذين البيتين ما أنشدنيه من لفظه لنفسه الوزير العلامة فخر الدين بن مكاس
وهو من مخترعاته:

ان الهوايين يا معشوق قد عبثا بالروح والجسم فى سر وفى علن
فالروح تكفيك بالمدود قد تلفت والجسم حوشت بالمقصور فيك فنى
وقال الشيخ بدر الدين الدمامينى:

أقول لمهجتى كم ذا ألقى من البلوى بظبى فيك قاسى
أذكره بأشجانى فينسى فأفديه غزالا فى كناس
أعرابى:

وتشكو إلى الدار فرقة أهلها وبى مثل ما بالدار من فرقة الأهل
سليمان المحاربى:

إذا لم تكن ليلى بنجد تغيرت بشاشة دنيا أهل نجد وطيبها
آخر:

فما أحسن الدنيا وفى الدار خالد وأقبحها لما تجهز غازيا
ذو الرمة:

وقفت على ربيع لمية ناقبى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأستقيه حتى كاد مما أبته تكلمنى أحجاره وملاعبه
بشار:

وقفت بها صحبى تطلب عراضها بدمعى وأنفاسى براح وتمطر
آخر:

منازل لم تنظر بها العين نظرة فتقلع الا عن دموى سواكب
البحترى:

أرى بين ملتف الآراك منازل موائل لو كانت مهاها موائل
فكن مسعدا فيهن ان كنت عاذرا وسر مبعدا عنهن ان كنت عاذلا

الوائلى وهو أحسن ما قيل فيه):

سقيت ربوع الظاعنين فإنه
ولمؤلفه:

غنى لك عن ما العيون الهواطل

نحاول رجسناه لنا ونحاول
لهسا من عبارات الغرام دلائل
تطيب بها أسحارنا والاصائل
فمنها على الحالين هاجت بلايل
مطالع أقمارى بها والمنازل

وقفنا بربع الحب والحب راحل
وألقت دموع العين فيه سائلا
إذا نفحة الاحباب منها تقسمت
تثير غرامى ساجعات غصونها
مراتع الا فى مراتع لذاتى
قال ابن حمديس الصقلی:

يهيج للقلب تذكارها
فإنى أحدث أخبارى
حسبت دموعى أنهارها

ذكرت صقلية والاسى
فإن كنت أخرجت من الجنة
ولولا ملوحة ماء البكا
الكفيك لما فارق بغداد:

كانت من الاسقام لى جنة
آدم لَمَّا فارق الجنة

لهفى على بغداد من بلدة
كأننى عند فراقى لها
القاضى عبد الوهاب المالكى:

وحق لها منى السلام المضاعف
وانى بشرط جانبىها العارف
ولم تكن الاقدار ممن يساعف
وتأتى به أخلاقه فيخالف

سلام على بغداد منى تحية
لعمرك ما فارقتهأ قاليا لها
ولكنها ضاقت على برحبها
فكانت كخل كنت أهوى دنوه

وللعلامة ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب عند فراقه للانجلس فى واقعه
المشهوره:

ولم أرزى به مـال ولا دم
فقسبلى فارق الفردوس آدم

أموطنى الذى أزعجت عنه
لئن أزعجت عنك بغير قصد قصد
وقال ابن الرومى:

ولبست ثوب العيش وهو جديد
وعليه أغصان الشباب تميد

بلد صحبت بها الشبية والصبي
فإذا تمثل فى الضمير رأيت

قال على بن عبد الكريم الصبى تأنى ابن الرومى بقصيدته التى مدح بها سليمان بن عبد الله بن ظاهر وقال انصفنى وقل الحق أيما أحسن قولى فى الوطن:

ولى وطن آليت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فجنوا لذلك
أم قول الاعرابى:

أحب بلاد الله ما بين مدعج إلى وسلمى أن يصوب غمامها
بلاد بها عشق الشباب تمائى وأول أرض مس جلدى ركامها
فقلت بل قولك لأنه ذكر الموطن ومحبه وأنت ذكرت العلة فى ذلك.

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة من رسالة كتبها إلى السيد زين الدين عمر الجعفرى خطيب جامع التوبة بدمشق وينهى بعده الذى أضرم به من شوقه الشهابى تارة وأخلى من زكائه لحجلة مطاره وتركه ملقى فى الصهرريج كأنه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة فلا بد والحالة هذه من آه على دمشق التى هى جنة من تاه وباهى وحيران جيرونها الى اغار داء لسان الحب سماها:

فما قلت ايه بعدها لمسامر من الناس الا قال قلبى آها
غيره:

فيا وطنى ان فاتنى بك سالف من الدهر فلينعلم لساكلك البال
أى والله طالما حن المملوك اليها وأنشد ودمعه كالمطر سلام الله يا مطر عليها:
مطر من العبرات خدى ارضه حتى الصبا ومقلتى سماؤه
وقال الشيخ جلال الدين بن خطيب داريا فسخ الله فى أجله ونقلتهما من خطه:

خليلى ان وافيتما الشام ضحوة وعانيتما الشقراء والغوطة الخضرا
قفا واقراً عنى سلاما كتبتنه بدمعى على مقرى ولا تنسيا مطرا
يكتب أبياتى الرائية:

يا صاحبي إذا الثايبا أشرقت ولمحتما منها ثغور أزاھر
استنشقا ذاك النسيم فإنه مما تحمل من شمائل هاجر

وقال الشيخ شرف الدين بن عنين:

الايّ شمرى هل أيتن ليلة
و هل أرينى بعدما شطت النوى
دمشق فى شوق اليها مبرح
بلاد بها الحصباء در وتربها
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق
وظلك يا مقبرى على ظليل
ولى فى ذرى روض هناك مقيل
وان لج واش أو ألح عذول
عبير وأنفاس الشمال شمول
وصح نسيم الروض وهو جليل

ولما خرج الرشيد إلى أخذ أخته عليه معه فلما صارت بالمرج عملت شعرا وصاغت فيه لحنًا من الرمل وكتبت الايات ليلا على بعض الفساطيط فى طريق الرشيد فلما دخل إلى مضرب الحرم بصر به فقرأه فاذا هو:

ومغترب بالمرج يشكو شجوه
اذا ما أتاه الركب من نحو أرضه
وقد غاب عنه المسعدون على الحب
تنشق تستشفى برائحة القرب

فلما قرأه علم أنه من فعل عليه وإنها قد اشتاقت إلى العراق وإلى أهلها فأمر بردها. الوليد بن زيدون يتشوق إلى مكان يدعى بالزهراء وكان اجتماعه وولادة محبوبته:

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله
والروض عن مائه الفصى مبتسم
لا أسكن الله قلبا عن تذكركم
لو شاء حملى نسيم الريح حين سرى
فالاّن أحمد ما كنا بعد كم
والافق طلق ومرأى الروض قد راقا
كأنه رق لى فاعتل اشفاقا
كما حللت عن اللبات أطواقا
فلم يطرب بجناح الشوق خفاقا
وافاكم بفتى أضناه ما لاقا
سلو تم وبقينا نحن عشاقا

وقال الشيخ مهذب الدين أبو الفرج عبد الله بن أسعد الموصلى الشافعى الدهان رحمه الله يتشوق إلى دمشق المحروسة:

سقى دمشق وأياما مضت فيها
من كل أدهم صهيل له شية
ولا يزال جنين الثبت ترضعه
فما قضى حبه قلبى لسربها
ولا تسليت عن سلسال ربوتها
مواطر السحب ساريها وغاديتها
صفراء يسترها طورا ويديها
حوامل المزن فى أحشاء أرضيها
ولا قضى نحبه ودى لواديتها
ولا نسيت بيتى جار جاريتها

كأن أنهارها ماضى ظبا حشيت
 وأهالها حين حلى الغيث عاطلها
 وحاك فى الارض صوب المزن مخمله
 ديباجة لم تدع حسنا مفوقها
 ترنو اليك بعين النور ضاحكة
 والدوح ربا لها ربا قد اكتملت
 نشوى تغنى لها ورق الحمام على
 صفا لها الشرب فاخضرت أسافلها
 وصفق النهر والاغصان قد رقصت
 كأنما رقصها أوهى قلائدها
 وأعين الماء قد أجرت سواقىها
 وقابل الفصن غصن مثله وشدت
 فللمحاذ وللإسماع ما اقترحت
 اذا العزيمة عن فرط الغرام ثنت
 ريم اذا جلبت حسنا لواحظه
 جناية طرفه المحور جانبها
 تقبل الكأس خجلى كلما شرعت
 اشتاق عيشى بها قدما فتذكرنى
 ونحن فى جنة لا ذاق ساكنها
 سماء دوح ترد الشمس صاغرة
 ترى النجوم بها من كل ناحية
 اذا الغصون هزناها لنيل جنى
 من كل صفراء مثل الماء يانعة
 شهية الطعم تحلو عند أكلها
 يا ليت شعرى على بعداء ذاكرتى
 عندى أحاديث وجد بعد بعدهم
 كم لى بها صاحب عندى له نعم

خناجرا من لجين فى حواشيها
 مكللا واكتسى الاوراق عاريها
 ينيرها بغواديه ويسديها
 الا أنه وما أبقي مواشيها
 اذ بات عين من الوسمى يكيها
 شبابها حين ما شابت نواصيها
 أوراقها ويد الانواء تسقيها
 حتى صفا الظل فايضت أعاليها
 فنقطته بدر من تراقبها
 وخانها النظم فانتالت لآليها
 والاعين النحل قد جارت سواقىها
 أقمارها فأجابتها قمارها
 من وجه شادنها أو صوت شادبها
 قلبا تثنى له غصن فيثبها
 للنفس حتى يخديه فيحببها
 وآس عارضه المخضر آسيها
 فى ماء فيه فقاسته بما فيها
 أيامى السود بيضا فى لياليها
 بؤسا ولا عرفت بأسا مغانيها
 عنا وتبدى نجوما من نواحيها
 ممدودة كنجوم الزهر أيديها
 صارت كواكبها حصبا أراضيها
 كأنها جمر نار فى تلظيها
 بهية اللون تجلى عند رائبها
 عصابة لست طول الدهر ناسيها
 أظل أجحدها والعين ترويهما
 كشيبة وإباد لا أوديها

صباية منه تخفينى وأخفيها
حتى رضيت سلاما فى حواشيها
يسمى على سابقات الخيل هانيها
أخفى الكواكب نورا وهو عاليها
عصاة قصرى عنى مساعيها
بل ذاك عار على الدنيا وما فيها

فارقتة غير مختار فصاحبنى
رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت
ان يعلنى غير ذى فضل فلا عجب
والماء يعلوه ألسداؤها رجل
لو كان جد بحد ما تقدمنى
ما فى خمولى من عار على أدبى

الاديب الفاضل الكامل صفوان بن ادریس المرسى يتشوق إلى مرسية وطنه:

فيشر عنى ماء عبرته نثرا
فأقضيته دمع العين عن نقطة بحرا
يقر بعين القطرات يشرب القطرا
توفيه عيني من مدامعها تبرا
سجبة ماء البحر أن يروى الزهرا
مخافة أن يحمى بزفرتى الحرا
بآية ما يجرى من الجنة الصغرى
ولولا توخى الصدق سميتها الكبرى
فجعت بريش العزم كى ألزم الوكرا
مجرتها نهرا وأنجمها زهرا
وقد فضحت أزهار ساحتها الزهرا
وزهر الربى ولدت آدابى الغرا
تعلم نظام النثر من ههنا شعرا
تعلمت حل الشعر تسكبه نثرا
ولم أر روضا غيره يقرؤ السحرا
فملا فاهها من أزهيره درا
من الجرف الاعلى إلى السكة الغرا
أغير اذا غازلتها أختها الاخرى
وقدت لها أوراقها حلا خضرا

لعل رسول البرق يغنم الاجرا
معامة أربو بها غير مذب
ليسقى من تدمير قطرا محبا
وتقرضه دون اللجين وإنما
وما ذاك تقصير به غير أنه
خليلى قوما فاحبسا طرق الصبا
فإن الصباريح على كريمة
خليلى أعنى أرض مرسية المنى
ووكرى الذى منه درجت فليتنى
وما روضة الخضراء قد مثلت بها
بأبهج منها والخليج مجرة
هنالك بين الغصن والقطر والصبا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطرى
وان نثرت ريح الصبا زهر الربى
فوائد أشجار هناك اقتبستها
كان هزير الريح يمدح روضها
أيا رتعات الحسن هل فيك نظرة
فانظر من هذى لتلك كأننى
هى الكاعب الحسناء تمم حسنهما

إذا خطبت أعطت دراهم زهرها
وقامت بعرس الأنس قينة أيكها
وقل فى خليج بلبس الحوت درعه
إذا ما بدا فيها الهلال رأيت
وان لاح فيها البدر شبعت متنه
وفى جرفى روض هناك تجافيا
بأنهما خلان صفيا معا وقد
وكم بأبيات الحديد عشية
عيانا كأن الدهر عض بحينها
عليهن أجرى خليل دمعى بوجتى
أعهدى بالفرش المنعم دوحه
فكم فيك من يوم أغر محجل
على مذنب كالبحر من فرط حسنه
سقت أدمعى والقطر أيهما انبرى
واخوان صدق لو قصدت حقوقهم
ولو كنت أفضى حق نفسى ولم أكن
وبما اخترت هذا البعد الا ضرورة
قضى الله أن تنأى بى الدار عنهم
ووالله لو نلت المنى ما حمدتها
أيأنس باللذات قلبى ودونهم
فديتهم بانوا وضنو بكتبهم
ولولا علاهماتهم لعنيتهم
ضربت غبار البيد فى مهرق السرى
وحققت ذاك الضرب جمعا وعدة
كان زمانى حاسب متعسف
ولست وان طاشت سهامى يائس

وما عادة الحسناء ان تنقد المهر
أغاريدها تسترفص الغصن النظرا
ولكنه لا يستطيع بها نصرا
كصفحة سيف وسمها نبعة صفرا
بسطر لجين ضم من ذهب عشرا
لنهر تود الأفق لو زاره فجرا
بكيما من رقعة ذلك الهرا
من الانس ما فيه سوى أنه مرا
فاحلت بساط البرق أفراسها الثغرا
إذا ركبت حمرا يادينها الصفرا
سقتك دموى إنها مزنة شكرا
نقضت أمانيه فحليتها ذكرا
تود الثريا أن يكون لها نحرا
بقا الرملة البيضاء فالنهر فالجسرا
لما فارقت عيني وجوههم الزهرا
لما بت استجلى فراقهم المرا
وهل تسجر العين أن تفقد السفرا
أراد بذلك الله أن أعنتب الدهر
وما عادة المشغوف أن يحمد الهجرا
مرام بحد الركب فى طيها شهرا
ولا خبرا منهم لقيت ولا خبرا
ولكن عراب لخيلا لا تحمل الزجرا
بحيث جعلت الليل فى ضربه حجرا
وطرحا وتجميلا فأخرج لى صفرا
يطارحنى كسرا أما يحسن الجبرا
فإن مع العسر الذى لم يبق يسرا

ولمؤلفه عفا الله عنه:

تذكرت أوطانى ويا حبذا الذكرى
وأشجار واديهـا وبهجة جنسكها
وتجعيد ذاك المـا وميل غصونه
وما أحسن الميعاد ممن تحبه
اذ الناس فى هرج ومرج بلهـوهم
ترى كل حزب لاهيا بسروره
إذا أصبحوا هزوا الشمائل بالندا
كـرام إذا ولوا وطار نداهم
فآه على تلك العشايا وطيبها
فيا عاشق المعشوق لا تبـد سلوة
إذا زرع اللوان واخضر أرضه
ويا من يجارى أو يضاهى بغيرها
خليلى أحيـا من ذكرت ومنزلى

لتلك القصور البيضـ والربوة الخضرا
وقد نقرا الشجر ورفى دفه نقرا
فهذا به كسر وهذا به سكرى
بمقسمه الاسنى وليته القمرأ
وقلبى بمن أهواه فى بلدة أخرى
وكل له شغل به قد غدا مغرى
فينظر منه فوق أعطافهم درا
وللبائس المسكين ييغى به الاجرا
وآه على حلو الزمان الذى مرا
عن المزة الفيحاء والجبهة الغرا
فلا تذكروا مصر ولا تذكروا الاهرا
تأمل فذا الميدان دونك والشقرا
بعيشكما قولاً قفا نبك من ذكرى

ولمؤلفه أيضاً يرثى دمشق المظلومة ويصف ما جرى بها من التيار فى سنة ثلاث

وثمانمائة:

أجريت جمر الدمع من أجفانى
وتلاعبت أهدابها بمدامعى
وتوقدت نيران حزننى اذ رأـت
لهفى على تلك البروج وحسنها
لهفى على وادى دمشق ولطفه
نزلوا ظلال الدوح فلا تسل
سقطت غصون البان من قاماتها
وشكا الحريق فؤادها لما رأـت
جئاتها فى الماء منها أضرمـت
كانت معاصم نهرها فضبة
ما ذاك الا تركهم ولجت بها

حزنا على الشقراء والميدان
لعب الكماة بأرؤس الفرسان
تلك الربوع مـواقـد النيران
حفت بهن طوارق الحـداث
وتبدل الغزلان بالشيران
ما حل بالأغصان والكثبان
لما سمعن نواعق الغربان
نور المنازل أبدلت بدخان
فـعجبت للجنات فى النيران
والآن صرن كذائب العقبان
فتخضبت منها بأحمر قان

كرهت جداولها حوافر خيلهم
خافت خدود الارض من أفعالهم
أذكيت نار الصدر يا ورقاؤها
تبكى على غصن وأندب قامة
واحسرتاه على دمشق وقولها
عاداني الدهر الخشون بمغله
فعساك تأخذ ثأرها من مغلهم
لو عاينت عيناك جامع تنكز
وتعطش المرحين من أورادها
لأنت جفونك بالدموع ملونا
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي
أبنى أمية أين عين وليدكم
شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا
لم يرحموا طفلا بكى فقلوبهم
قصوا جناح النسر بعد نهوضه
ألواحہ أجرت دموعى أسطرا
إن أنكروا يوم الحساب فعالمهم
لهفى على كتب العلوم ودرسها
أعرونا لك أسوة بحماتنا
غابت بدور الحسن عن هالاتها
ناحت نواعير الرياض لفقدهم
شتتهم أيدى سبايا دهرنا
حزنى على الشهباء قبل حماتنا
لا تدع الأحزان يا شقراءنا
رتعت كلاب المغل فى غزلانها
لهفى على تلك الشعور وطولها
لهفى عليك محاسنا لهنى عليك

فتسابت هربا كخيل رهان
فتلثمت بعوارض الريحان
وتأثرت بلواعج الأشجان
فجميعنا نبكى على الأغصان
سبحان من بالمغل قد أبلان
والعجم منه وقبلهم غازاني
بالحل ثالث سبعة وثمان
والبركتين بحسنها الفتان
وتهدم المحراب والايوان
دمعا حكى اللؤلؤ على المرجان
فكائنهن قلائد العقبان
والمغل تقتل فى ذرى الاركان
ألقوا عرابدهم على النسوان
فى الفتك صخر لا أبو سفيان
يا ليتته لو فاز بالطيران
كتبت على اللوحين من أجفاني
فشهيدنا عثمان ذو القرآن
صارت معانيها بغير بيان
فى ذا المصاب فأنتما أختان
فاستبدلت من غرها بهوان
فكأنها الافلاك فى الدوران
وتلوت أى الجمع بالفرقان
هو أول وهى المحل الثانى
السبق للشهباء فى الاحزان
وتحكمت فى الحور والولدان
جرت بها الاعناق كالارسان
ك عرائسا لهفى عليك مغاني

لهفى عليك منازلًا ومنازها
 ان قال لحظى قال سيفى ضارب
 أدمشق آهاتى عليك كثيرة
 حسراتها لا تنقضى من خاطرى
 لى أنه لى حرقلة لى لهفة
 أمنازل الاحباب كيف تبدلت
 ان لم أسل ماء العيون مجاريا
 لاته جفن الصب فى جريانه
 العين والانسان قد فقدوا معا
 لم أدر من أبكى وأندب حسرة
 للجبهة الغراء أم خلخالها
 لا يحجر المشتاق عن تذكراها
 شوق بها قلبى أقل لك منشدا
 واذا أتيت بما جرى فى ربعا
 ما كان أهنى العيش فى ساحاتها
 أسفى على أيامها لا تنقضى
 أيام لا ماء السرور مكدر
 ولقد وقفت على ربوع حبايى
 ولقد وقفت على الديار مناديا
 يا دار أين حبايى فأجابتنى
 حكم القضا فيهم ونفذ حكمه
 يا رب لم شتاتهم بمحمد
 ان لم نلذ فى أمرنا بجنابه
 أترى الاله مؤيدا سلطاننا
 يا رب فعل الذنب أصل بلائنا
 واغسل بساء الامن وجه رجائنا
 واجمع على جسمائنا أرواحها

ومقام فردوس وباب جنان
 أو قال طرفى قال حد سنان
 كالدمع فى جفن الكئيب العانى
 هى شغل أفكارى ونصب عياني
 لى حسرة لى لوعة وكفانى
 تلك الربى بمقاتل الفرسان
 ماء الغمام بها فما أجفانى
 دعنى وشأنك يا غمام وشانى
 أبكيك يا عيني ويا انسانى
 للقصر للشرفين للميدان
 للمزة الفيحاء أم للوان
 يا حاجرى بالظلم والعدوان
 لك ان تشوقنى إلى الاوطان
 فعلى أن أبكى بدمع قانى
 والدار دارى والزمان زمانى
 ما كان أهنأها وما أهنأنى
 أرعى نضير العيش بل يرعانى
 فندبتهن نواذب الاحزان
 بلسان مغترب وعبرة عانى
 عنها الحريق باللسن النيران
 فتشتنوا فرقا بكل مكان
 سر الوجود وبهجة الاكوان
 فبمن يلوذ ويستجير الجاني
 حتى أقول وعشت بالسلطان
 فاصفح وجد للذنب بالغفران
 واصرف بفضلك حاضر الطغيان
 يا جامع الارواح بالجسمان

تقى الدين السروجي يقول:

وافى رضيع النبت من ذاك الحمى نعبيا تدور على الربي كاساته
سفع سفحت عليه دمعى فى ثرى كالمسك ضاع من الفتاة فتاته
وفى المثل لولا حب الوطن لخرب بلد السوء الكريم يحن إلى جنبه كما يحن الاسد
إلى غابه، وما أرق قول مزار بن هباش الطائي:

سقى الله أطلالا بالية الحمى وان كن قد أبدين للناس ما بيا
منازل لو مرت بهن جنازتى لقال صداها حاملا أنزلا بيا
لسان الدين بن الخطيب:

يا جنة فارقت من غرفاتها دار القرار بما اقتضته ذنوبى
أسفى على ما ضاع من حظى بها لا تنقضى زفراته ونحبى
إن أشرقت شمس شرقت بعبرتى وتفيض فى وقت الغروب غروب
حتى لقد علمت ساجعة الضحى شجوى وجانحة الاصيل شجونى
وشهادة الاخلاص توجب رجعتى لنعيمها من غير مس لغوب
وله:

سلام على تلك المعاهد انها مراتع الاوفى وعهد صحابى
ويأسنة العهد أنعمى فلطالما سكبت على مثواك ماء شبابى

أنشدنى صاحبنا الاعز الشيخ محمد الاندلسى الخياط رحمه الله تعالى قال أنشدنى
الشيخ شمس الدين أبو عبد الله المشرقى رحمه الله:

اشتاق للغرب وأصبو الى معاهد فيها وعصر الصبا
يا صاحبنى نحواي والليل قد أرخى جلابيب الدجى وأحتبا
لا تعجبا من ناظر ساهد بات يراعى أنجسما غيبا
القلب فى آثارها طائر لما رآها تقصد المغربا

ورد على من سيدى وأخى الجنب الشهابى ابن حجر أعزه الله تعالى كتاب من مكة
المشرقة إلى دمشق المحروسة وفى أثنائه من متجدداته:

أسر غرامى من عزول وحاسد فاعلان صبرى لا يشابه أسرارى
بليت بمن لم يدر مقدار صبوتى فوا لهفى بعد الرحيل على الدارى

نقلت من كتاب فوات الوفيات تأليف صلاح الدين الكتبى فى ترجمة طراد بن على بن عبد العزيز أبى فراس السلمى الدمشقى الكاتب المعروف بالبديع مات متولى مصر سنة أربع وعشرين وخمسائة:

يا نسيم هب مسكا عبقا	هذه أنفاس ريا جلقا
كف عنى والهوى ما زادنى	برد أنفاسك الا حرقا
ليت شعرى نقضوا أحبابنا	يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يا رياح الشوق نحوهم	عارضا من سحب عيني غدقا
وانثرى عقد دموعى طالما	كان منظوما بأيام اللقا

واشتهرت هذه الابيات وغنى بها المغنون، قال بعضهم: مررت يوما بشوارع القاهرة وقد ظهرت جمال كثيرة حملوها تفاح من الشام فعبقت روايح تلك الحمول فاكثر التلفت وكانت أمامى امرأة سائرة فقطنت لماذا داخلنى من الاعجاب الى تلك الرائحة فأومأت إلى وقالت هذه أنفاس ريا جلقا.

ونقلت من مجموع بخط العلامة المؤرخ قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان تغمده الله برحمته قال النبى ﷺ لاصيل الخزعى يا أصيل كيف تركت مكة قال تركتها وقد أحجن ثمامها وأثمر سلمها وأغدق اذخرها فقال النبى ﷺ دع القلوب فى أماكنها.

تفسير ما فيه من الالفاظ الغربية أحجن الثمام اذا خرجت حجته وهى خوصه والثمام نبت ضعيف له خوص وأثمر السلم اذا خرج والسلم شجر من الغضا الواحدة سلمة وأغدق الاذخر اذا ظهرت ثمرته والاذخر نبت، ونقلت من خط الحافظ البيهقورى كانت الامتعة الثمينة والذخائر النفيسة تأتى إلى مصر وتباع ولا ينظر إليها يوسف عليه السلام وإذا جاءت أحمال صوف من كنعان لا تحل الا بين يديه.

مرض عمار بن عباد حين ولى الرقة فما كاد ينجح فيه دواء فقال له طبيبه سبيه الهواء فبعث إلى بغداد فحمل الهواء فى جراب فكان يفتح كل يوم فى وجهه جراب الى أن برئ.

obeikandi.com

الباب التاسع والأربعون

في دار سكنت كثيرة الحشرات قليلة الخير عديمة النبات

وأبلغ ما سمع فيها قول كمال الدين بن الاعمى:

دار سكنت بها أقل صفاتها	أن تكثر الحشرات من حشراتهما
الخير عنها نازح متباعد	والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته	كم أعدم الاجفان طيب سناتها
وبنات تسعدها براغيث متى	غنت لها رقصت على نغماتها
وقص بتنقيط ولكن فاقتنه	قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد ع	بين الشمس ما طربى سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها	فيها وأين الاسد من وثباتها
وبها من الخطاف ما هو معجز	أبصارنا عن حصر كيفياتها
تغشى العيون بمرها ومجيئها	ويصم سمع الخلد من أصواتها
وبها خفافيس تطير نهارها	مع ليلها ليست على عاداتها
شبهتها بقنافذ مطبوخة	نزع الطهارة نصحبها شوكلاتها
شوكلاتها فاقت على سمر القنا	في لونها وتماامها ووثباتها
وبها من الجردان ما قد قصرت	عنه العتاق الجرد في حملاتها
وترى أبا غزوان منها هاربا	وأنا الحصين يروغ عن طرقاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرشت	في أرضها وعلت على شرفاتها
لو شم أهل الحرب متن فسوها	أردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات ورادان واشكال لها	مما يفوت العين كنه ذواتها
متزاحم متراكب متحارب	متراكم في الارض مثل نباتها
وبها قراد لا اندمال لجرحها	لا يفعل المشراط مثل أدتها
أبدا تمص دماءنا فكأنها	حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليمانى ما	قد قل ذر الشمس عن ذراتها
لا يدخلون مساكننا بل يحطمو	ن جلودنا فالعفو من سطواتها

ما راعنى شيء سوى وزغاتها
 سجمت على أوكارها فتظنها
 وبها زنابير تظن عقاريا
 وبها عقارب كالأقارب مرتعا
 فكأنما حيطانها كغرايل
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا
 السم فى نفثاتها والمكر فى
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها
 ولقد رأينا فى الشتاء سماءها
 فضجيجها كالرعد فى جناتها
 واليوم عاكفة على أرجائها
 والنار جزؤ من تلهب حرّا
 قد رمت من قبل أن يلقى لا
 شاهدت مكتوبا على أرجائها
 لا تقربوا منها وخافوها ولا
 أبدا يقول الداخلون فناءها
 قالوا إذا ندب الغراب منازل
 وبدارنا ألفا غراب ناعق
 صبرا لعل الله يعقب راحة
 داربيت الجن تحرس نفسها
 كم بت فيها مفردا والعين شو
 وأقول يا رب السموات العلا
 أسكنتني بجهنم الدنيا ففى
 واجمع بمن أهواه شملى عاجلا
 فنعود بالرحمن من نزغاتها
 ورق الحمام سجمن فى شجراتها
 بالابر للمسموم من لدغاتها
 فينا حمانا الله لدغ حماتها
 أطلعن أرؤسهن من طاقاتها
 ة ولا حياة لمن رأى حياتها
 لقاتها والموت فى لقاتها
 والارض قد نسجت بيزاقاتنا
 والصيف لا ينفك عن صعقاتها
 وترابها كالويل من خشياتها
 والآل يلمع فى ثرى عرصاتها
 وجهنم تعزى إلى لفحاتها
 دم أمنا حواء فى عرفاتها
 ورأيت مسطورا على عتباتها
 تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
 يا رب نج الناس من آفاتنا
 تتفرق السكان من ساحاتها
 كذب الرواة فأين صدق رواتها
 للنفس اذ غلبت على شهواتها
 فيها وتنذر باختلاف لغاتها
 قًا للصباح تسح من عبراتها
 يا رازقا للوحش فى فلواتها
 أخراى هب لى الخلد فى خباتها
 يا جامع الارواح بعد شتاتها

حكى الزمخشري فى ربيع الابرار أن رجلا من أهل الشام اطلع على جرد أخرج من
 جحره دنائير كثيرة فتركها وأخذ يلعب بها ثم أدخلها مكانها فقام الرجل وأخذ الدنانير فأقبل
 الجرد يشب ويضرب بنفسه الارض حتى مات.

وحكى الشريشى فى شرح المقامات عن أبى محمد الحسن بن اسماعيل الضراب قال كنت قاعدا انسخ فى ضوء السراج وبين يدى قدح فيه ماء وظرف فيه كعك وزبيب ولوز فجاءت فأرة وأخذت لوزة ومضت ثم عادت أخرى فبددت الماء الذى فى القدح فعادت الفأرة فسكبت القدح عليها واشتغلت بشغلى ساعة فإذا قد جاءت فأرة أخرى فدارت حول القدح فسفسفت وبقيت ساعة على ذلك والفأرة الأخرى تسفسف من داخل فلم تجد حيلة فى خلاصها فمضت وأتت بدينار فوضعتة ووقفت فلم أرفع القدح ففعلت ذلك إلى أن أتت بسبع دنائير ووقفت ساعة فلم أخل. عن الفأرة فمضت وأتت بقرطاس فارغ فعلمت أنه لم يبق عندها شىء فخلت عنها.

قال الغندجيهى رويت هذه الحكاية عن أشياخ ثقة قيل ان الخصى من كل شىء أضعف من الفحل الا الجرذان فإن الخصى يحدث فيه شجاعة وجراءة ولا بدع فى ذلك فإن الجرذان الكبار لا تدع الهر وبنات عرس الا قتلها فينبغى لمن فى منزله شىء منه أنه يصطاد منه ذكرا يخصه ويتركه فى البيت فإنه يأتى على بقية الجرذان بأسرها، وذكر الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة: قال أخبرنى الشيخ شمس الدين بن خضر الدمشقى أحد كتاب المنسوب بدمشق سنة اثنين وخمسين وسبعمائة قال حللت مثقال ذهب لاجل الكتابة به فاتفق أنى نزلت من البيت وتركته فى الدواة بغير غطاء ثم رجعت إلى البيت ونظرت فلم أر شيئا من الذهب فى الدواة فتعجبت غاية العجب فنظرت فإذا فأر فى جانب البيت وعلى خرطومه أثر الذهب يلمع فعلمت أنه شربه فنصبت المصيدة وخرجت من البيت فما لبث أن وقع فيها فأخذت طاسة وجعلت فيها ماء وأمسكت بذنبه وجعلته يعوم فى الطاسة وكلما أراد الخروج رددته بذنبه إلى أن شرب ماء كثيرا وكاد يموت فقبضت بذنبه ودليت رأسه إلى أسفل فجعل يستقى من حلقه الذهب مختلطا بالماء الذى شربه إلى أن لم يبق منه شىء فغسلت الذهب مرة ثانية ووزنته فلم ينقص غير قيراطين هكذا أخبرنى أو كما قال.

وحكى الكواشى فى تفسيره أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما ألقى فى النار جعل كل حيوان يطفى عنه النار الا الوزغ فإنه كان ينفخ فى النار، وعن النبى ﷺ أنه أمر بقتل الوزغ وقال كان ينفخ على إبراهيم، وذكر الزمخشري عن ابن عباس أنه قال الوزغ يريد الشيطان يرسله ليفسد على الناس ملحهم ومن العجب أن الافعى لا ترد الماء ولا تريده وإذا وجدت الخمر شربت منه حتى تسكر وكنية الافعوان أبو حيان وأبو يحيى لأنه يعيش ألف سنة

وأرض حمص لا تعيش فيها العقارب وإذا طرحت فيها عقرب ماتت لساعتها، سمع غلام رجلاً يقول أنا مثل العقرب أضرب ولا أنفع فقال ما أقل عملك بل لعمري إنها لتتفع إذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة وتجعل فى جوف اناء فخار ويسد رأسه ويطين جانبه ويوضع فى السطور فإذا صار رماداً يشفى به من به الحصاة مقدار نصف دانق فتفتت الحصاة وتوسع الأفعى فيموت.

حكى) أن عقرباً لسعت مفلوجاً فذهب عنه الفالج، وشتم رجل الأرضة فقال له بكر بن عبد الله المزنى مه فهى التى أكلت الصحيفة التى تعاقد المشركون فيها على رسول الله ﷺ وبها تيقنت الجن أن «لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين»^(١) وقيل لها لاى شئ تأكلين كتب المشتغلين فقالت ما أكل الا كتب الذين لا يشتغلون وقال لقمان لابنه لا تكن الذرة أكيس منك تجمع فى صيفها لشتائها النملة تفلق الحب أنصافاً لثلاث تبتت فتفسد والكزبرة تفلقها أرباعاً لأنها من بين الحب ينبت نصفها إذا قربت العقرب من الولادة أكلت أولادها جلدها وخرقوه حتى يخرج وقد ماتت الأم وقال الشاعر فى ذلك:

وحاملة لا يكمل الدهر حملها تموت وينمو حملها حين تعطب
لعاب الجراد سم لا يقع على شئ الا أخرقه خطب المأمون يوماً فوقع الذباب على
عينيه فطرده فعاد مراراً حتى قطع عليه الخطبة فلما صلى الظهر أحضر أبا الهذيل فقال له لم
خلق الله الذباب فقال ليذل به الجبابة فقال صدقت وأجازه بمال، وقال الجاحظ فى منافع
الذباب إنه يحرق ويخلط بالكحل فإذا اكتحلت به المرأة كانت عينها أحسن ما يكون ولذا
ترى المواشط تستعمله وتأمرون به العرائس وما أحسن قول عترة:

وخلى الذباب بها فليس بنازح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعاه بذراعها قدح المكب على الزناد الاجدم

قيل هذا من التشبيهات العقم وقال الجاحظ وجدنا المعانى نقلت ويؤخذ بعضها من بعض الا قول عترة وخلى الذباب البيتتين وزعموا أن رجلاً من ولد حليلة ظئر رسول الله ﷺ كان أصيد خلق الله وأحذقهم بالتدريب وبلغ من حذقه أنه رى ذئباً يصطاد به الأطباء والثعالب وسرق منه فرجع إليه من ثلاثين فرسخاً وضرى أسداً حتى صار أهلياً واصطاد به الحمر والبقر وعظام الوحش وضرى الزنابير حتى اصطاد بها الذباب قال الجاحظ من من

علم البعوضة أن وراء جلد الجاموس دما وأن ذلك الدم غذاؤها وأنها متى طعنت فى ذلك الجلد الغليظ الصلب نفذ خرطومها مع ضعفه على غير معاناة ولو أنك طعنت بمسلة شديدة المتن لانكسرت.

وقال التيفاشى ومما جربه الناس كافة لاجل البق الصابون فإنه اذا طلى به المواضع التى بها البق أى موضع كان من جدار أو سرير قتله ولم يعد اليه ما دام أثر الصابون فيه قال صاحب الفلاحة البنطية اعلم أن القطران من أعظم شىء يكرهه النمل فمتى أردت ألا يقرب النمل شيئاً فخط حول ذلك خطا من القطران مدورا فإن النمل لا يقربه وإن طليت به حول حجرة النمل هربن، صدق الحلزون اذا أحرق حتى يصير كلسا أبيض وذر على بيوت النمل هربن فإن أقام به مات جميعه وقال صاحب الفلاحة البنطية أيضاً حجر المغناطيس الجاذب للحديد اذا وضع على باب أجحرة النمل لم يخرجن ويهرين إلى تخوم الارض قال وأهل بلادنا يجعلون فى وسط الكدس من الحنطة وغيرها من الحبوب من حجر المغناطيس وغيرها لئلا يدنو منه النمل قال وإذا غطيت اناء فيه عسل أو غيره بصوف أبيض من كبش ولكن منقوشا لم يقربه النمل وكذلك إذا أدت الصوف حول الاناء من أسفله لم يقربه النمل، القمح المسوس اذا وضع فى بيت فيه بق فإن السوس يأتى عليه بمجموعه ولا يدع منه بقعة واحدة وهذا صحيح مجرب والبنفسج إذا قطع قطعاً صغاراً وجعل عليه قليل عجين فان الفأر يأكله ولا تستطيع معدته أن تهضمه فيموت عن آخره وهذا مما جرب وصح عند معاشر الناس كافة.

قال الشيخ شهاب الدين بن فضل الله:

وناموس له قرص اليم
ومن عجب تراه العين أنا
نضوج له ومنه لنا نضوج
مع الناموس يرتفع الضجيج

وقال الشيخ إبراهيم المعمار فى البراغيث:

ان البراغيث اللئام
الا الخمور لا ختمرت
قسوا على فقلت مالى
وقرصونى قلت أبالى

ومن العجائب ما ذكره ابن بدرون فى شرح قصيدة بنى الافطس عند ذكر الواثق وجلالته وهيئته فإنه يحكى من هيئتهم له أنه لما ثقل فى علته التى مات فيها خيل اليهم فى بعض الاوقات وقد أغمى عليه أنه قضى فدنا منه تركى يقال له ايتاخ ليعلم هل مات أم لا

فلما دنا منه فتح عينيه ونظر إلى ابتاخ فرجع القهقرى فانتشبت طرف سيفه بالباب فاندق وسقط ابتاخ على قفاه لما نظره هيبة له ورعبا داخله من نظره ليصفن العجائب أنه لم تمر ساعة من نظره إلى ابتاخ الا وقد مات فأخذ وجعل فى بيت فما أقام به الا يسيرا فوجد قد أخرجت الفأرة عينيه فسبحان من لا يزول ملكه المنفرد بالبقاء لا إله الا هو العلى العظيم وعلى ذكر ابن بدرون فما أحسن قول صاحب جمال الدين بن مطروح:

لك يا بدرون وجـنه صار عنوان السعداده
لا تخف نقصا ومحقا أنت بدر وزيراده

وقريب من هذه الواقعة ما ذكره الثعالبي فى لطائف المعارف أنه لما جىء برأس مروان ابن محمد إلى عبد الله بن على أمر بعزله فجاءت هرة قلعت لسانه وجعلت تمضغه فقال عبد الله أو غيره لو لم يرنا الدهر من عجائبه الا لسان مروان فى هذه لكفانا وكان مروان قد عرض بظهر الحيرة سبعين ألف عريى على سبعين ألف عريى ثم قال إذا انقطعت المدة لم تنفع العدة.

نقلت من الطالع السعيد فى فضلاء الصعيد تأليف العلامة المحدث البار كمال الدين جعفر الادفوى فى ترجمة تاج الدين الدسناوى محتد القوصى مولدا وداراً و وفاة محنة الدهر وفريدة العصر فقيه عالم فاضل محدث أديب شاعر كريم الاخلاق طيب الاصول والاعراق فمن نظمه ملغزا فى نملة:

يا من اذا ما قاصد أم له	تم له منه الذى أم له
ومن حوى الفضلين فضل الندى	وفضل علم للهدى حصه
ما اسم رشيق القد حلو الجنى	ذو فطنة ممزوجة بالبله
ألمى دقيق الخصر قد زانه	ردف له يهتز ما أثقله
أو انتمى يعزى لواد غدا	وارده مستعذبا منهله
حل به أسنى ملوك الورى	ومن غدا بالفضل والمعدله
ان قلت صف لى حسنه واقتصد	قلت مجيباً لك ما أجمله
أو قلت صف لى ملكه واقتصر	قلت أجل جل الذى كـمله
أو قلت هل من مسترفد	قلت وللمسكين والارمله
تصحيف ما ألغزته مودع	فى النظم فافتح بالذكاء مقتفله
وعكسه أيضاً بلغت المنى	مستودع فيه فما المسأله

القول فى طبائع الحيات: وإنما سميت حية لأنها تحوت أى اجتمعت ويطلق على الذكر والانثى يقال حية ذكر وحية أنثى وهى أصناف كثيرة لاتحصى كما لا تحصى أصناف السمك.

ذكرت بقوله حية وهو ما أنشدنى لنفسه من لفظه المقر المجدى فضل الله بن مكانس عفا الله عنه.

عاذلتى بعد أن توفيت فى النوم أبصرتها الشقيه
تلسعنى بالملام فيكم كأنها فى الوجود حيه

رجع: وشرها الافاعى ومسكنها الرمال والجبال ويضرب المثل بها بأفاعى سجستان ومن التهويل فى أمرها ما حكاه ابن شرمه أن أفعى منها نهشت غلاما فى رجله فانصدعت جبهته ويحكى أن شبيب بن شبة دخل على المنصور فقال يا شبيب أدخلت سجستان فإنه بلغنى أنها محواة أى كثيرة الحيات قال نعم يا أمير المؤمنين قد دخلتها قال فصف لى أفاعيها فقال هى دقاق الاعناق صغار الأذنان مفلطحة الرؤوس رقت برش كأنما كسين أعلام الحبرات كبارهن حتوف وصغارهن سيوف قال أرسطو وليست الافعى من الحيوان الذى يلد حيوانا مثله وان خرج من بطنها أولاد وإنما ذلك لتكسر البيض فتلويها وتجمعها فى بطنها فيتوهم من رأى ذلك أنها تلد وليس الامر كذلك ومن الافاعى ما يتسافد بأفواها فإذا أعطى الذكر الانثى وقع كالمغشى عليه فتعتمد الانثى إلى موضع مذاكيره فتقطعها نهشا فيموت من ساعته فإذا بلغ بعضها لم يكن له مخرج لضيق مكان الولادة فيبقى فى بطنها حتى يخرج فيشقه ويخرجن وتموت الام من ساعتها فيكون طلبها للولد هلاكها وذكرها يسمى الافعوان يأتيها أيام الصراف فيصوت بها فتأتيه وبعض الحيات مستطيل أكدر اللون وأخضر وأسود وأبيض وأرقط وفى بعضها نمش وتخرج كل بيضة ثعبان على لونها ولم يعرف السبب فى اختلاف ذلك وأما داخله فشىء أسمنخ من الصديد واقذر وهو فى جوفها منضد طولاً على خط واحد وليس للحيات سفاد معروف تنتهى إلى علمه وليس عند الناس فى ذلك الا الذى ترون من ملاقات الحيات والتواكل واحدة منهما على صاحبه حتى كأنهما لواح خيزران مفلوذ والحية مشقوقة اللسان ولذلك يظن بعض الناس أن لها لسانين وهى واسعة النحر ولها خطم وكذلك يفعل نابها ولو كان لرأس الحية عظم لكان أشد لعصها ولكن جلدا يطبق على عظمين مستطيلين وتوصف بالنهم والشره لأنها تبتلع الفراخ من غير

مضع كما يفعل الاسد ومن شأنها انها متى ابتلعت شيئا فيه عظم أتت شجرة أو حجرا شاخصا فتنتوى عليه انطواء شديدا فتحطم ذلك العظم حتى تصيره رفاتا ومن عاداتها إذا نهشت انقلبت فيتوهم أنها فعلت ذلك لتفرغ سمها وليس الامر كذلك وإنما فى نابها عضل فإذا عضت استغرق ادخال الناب كله وهو أحجن يشبه بالبيض فإذا انقلبت كان أسهل لخروجه وألسلس لنزعه وفى طبعها أنها اذا لم تجد طعاما تعيش بالنسيم وتقتات به الزمن الطويل وتبلغ الجهد من الجوع ولا تأكل الشئ الحى وربما بقيت أربعة أشهر فى الشتاء صابرة على الجوع لا تغتدى بشئ البتة وهى اذا هرمت استقرت فى بيتها وأقنعها النسيم ولم تشته الطعام ومن عجيب أمرها أنها لا تطلب الماء ولا تريده لغلبة الارضية عليها ولهذا تصبر عن الغذاء المدة الطويلة لأن حرارتها لا تسرع بتحليل مادتها لقللة الحرارة وغلظ المادة وهى لا تضبط نفسها على الشراب اذا شمتها لما فى طبعها من الشوق إليه فهى اذا وجدته شربت منه حتى تسكر وربما كان السكر سبب حتفها لأنها إذا سكرت خدرت والذكر من الحيات لا يقيم فى الموضع الواحد وربما تقيم الانثى على بيضها بقدر ما تخرج فراخها وتقوى على المكسب ثم تخرج سائرة فتمتى وجدت جحرا دخلته واثقة بأن ذلك الساكن فيه بين أمرين إما أن يقيم فيصير طعاما لها واما أن يهرب فيصير الجحر لها ولهذا يضرب المثل بها فى الظلم فيقال أظلم من الحية وعين الحية لا تدور فى رأسها وكذلك عين الجراد كأنها مسمار مضروب وعينها ما تنطبق وان قلعت عادت وكذلك نابها ان قلع عاد بعد ثلاثة أيام وكذلك ذنبها ان قطع عاد وفى طبعها أنها تهرب من الرجل العريان وتفرح بالنار وتطلبها وتعجب بها وباللبن ومتى ضربت بالقصب الفارسى ماتت وان ضربت بسوط قد مسه عرق الخيل ماتت وهى طويلة الذمء والذمء بطو خروج الروح بعد القتل وذلك أنها تذبح حتى تفرى أوداجها فتبقى أياما لا تموت ويقال أنها لا تموت حتف أنفها الا أن تقتل أو تصاد وتبقى فى جوئن الحوائث تدلكها الايدى وتكره على الطعام فى غير أرضها إلى أن تموت أو تحملها السيول فى الشتاء والزمهرير فتموت اذا ضررت والحية تسليخ فى كل عام قشرا عن جلدها فى أول الربيع والخريف وتبتدى بالسليخ من عيونها ثم من رأسها ويتم سليخها فى يوم وليلة واذا هرمت وعجزت عن سليخه أدخلت نفسها بين عودين أو فى صدغ ضيق حتى يتسليخ تأتى إلى عين ماء فتغمس فيه فيشتد بذلك لحمها ويعود إلى قوته وشدته وليس فى الأرض شئ مثل جسم الحية الا والحية أقوى منه بدنا اضعافا ومن قوتها

أنها اذا دخلت صدرها فى جحر أو صدع لم يستطع أقوى الناس وقد قبض على ذنبها بكلى يديه أن يخرجها لشدة اعتمادها وتعاون أجزائها وليست بذات قوائم لها أظفار ومخالب أو اظلاف تشبث بها وتعتمد عليها وربما انقطعت فى يد الجاذب لها وإنما لشدة فقر ظهرها فان لها ثلاثين ضلعا وذلك مشاهد فى صعودها وسعيها خلف الرجل الشديد الحصر وعند هربها منه وهى برية وتعيش فى البر بعد أن يطول مكثها فى الماء وصارت مائية وأصنافها كثيرة جدا وهذا القدر كاف فى وصفها.

القول على طبائع الفأر: يقولون جميع ما يقع عليه اسم الفأر فأر وهى أنواع: فأر البيت والربات والخلد واليربوع وفأرة البيش وفأرة المسك، فأما فأرة البيت فصنفان: جردان وفأر وهما كالجواميس والبقر والبخت والغراب والفأر من الحيوان الذى جمع حاستى الشم والبصر وليس فى الحيوان أفسد منه، ليس يبقى على شىء جليل ولا حقير الا أهلكه وأتلفه ولا يقصر فعله عما فعلته ربيع عاد و يكفيه ما يحكى عن سد مآرب ومن تدبيره فى الشىء يأكله يحسوه وهو أنه يأتى القارورة الضيقة الرأس فيحتال حتى يدخل طرف ذنبه فى عنقها وكلما ابتل بالدهن أخرجه وامتنعه حتى لا يدع فى القارورة شيئا ولقد حكى أن رجلا كان عنده جرة زيت فغاب عنها مدة ثم افتقدها فوجدتها مملوءة حجارة وليس فيها من الزيت شىء فأدار فكره فى ذلك إلى أن الفيران كشفوها وشربوا منها إلى أن لم يبق أن تصل أفواهها إلى الشراب فدلّت أذنانها حتى لم تصل إلى الزيت فألقوا الحجارة شيئا بعد شىء فكان الحجر اذا وقع فى الحق طفا الزيت حتى فنى ولقد أرانى بعض الاصحاح ظرفا من زجاج كان فيه فستق مقشور قد نقبته وأكلن ما فيه وكل البزور تأكل قلوبها وتترك قشورها وما أعجب من شىء كمجى من نوى الخرنوب التى لا تقدر الاضرار على كسره وهى تنقبه وتاكل قلبه وكذلك تفعل بالقرطم مع ملاسته، وفى طبعه النسيان فربما صيد مرات فيفلت ويعود وبه يضرب المثل فى السرقة والنسيان والحذر ويبلغ الفأر من تحرزه واحتياظه أن يسكن السقوف فربما فاجأه السنور وهو يريد أن يعبر إلى بيته والسنور فى الأرض وهو فى السقف ولو شاء أن يدخل بيته لم يكن للسنور عليه سبيل ويشير إليه السنور فى الأرض بيساره كالقائل له ارجع فإذا رجع أومى إليه يمينه كالقائل له عد فيعود وإنما يطلب بذلك أن يعى أو يزلق ولا يفعل به ذلك ثلاثة مرات الا ليسقط فيشب عليه.

وحكى الجاحظ أن ناسا أنكروا أن يخلق الفأر فى أرحام إناثها من أصلاب ذكورها

ولكن من بعض الارض كطينة الفاطول فإن أهلها يزعمون أنهم رأوا الفأر لم يتم خلقه بعد وان عينيه فصان ثم ينتشان حتى يتم خلقها وتشتد حركتها، ذكر الجاحظ ذلك على طريق الاستبعاد، قال صاحب المنهاج وإنما رأيت ذلك عيانا اتفق أنى سافرت من الفيوم فمررت بقرية تسمى صفط وإذا بفيران قد خرجوا من شقوق الارض كجراد منتشر كل واحد منها نصفه حيوان ونصفه الآخر طين لم تكمل خلقته وكذلك يتولد بمصر اذا انكشف ماء النيل عنها.

القول فى طبائع العقرب: وهذا الحيوان أصناف منه الجرارة والطيارة وما له ذنب كالحرية وماله ذنب معقف وفيها السود والخضر والحمرة والصفرة والكمدة وما له لون الرماد وما لونه لون الذهب وما له حمتان وأصحاب الكلام فى طبائع الحيوان يقولون العقرب مائة الطبائع ومن ذوات الذر وكثرة الولد تشبه السمك والضب وعامة هذا النوع اذا حملت الانثى منه يكون حثفها فى ولادتها لان أولادها إذا استوى خلقها أكلت بطنها وخرجت فتموت والجاحظ لا يعجبه هذا القول ويقول أخبرنى من أثق به أنه رأى العقرب تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها وهى قدر القمل كثير العدو والعقرب شر ما يكون إذا كانت حبلى ولها ثمانية أرجل ولها أظلاف مثل أظلاف الثور عيناها فى ظهرها وهى من الحيوانات التى لا تسبح ومن عجيب أمرها أنها لا تلسع الميت ولا المغشى عليه ولا القائم الا أن يتحرك شىء من بدنه فإنها عند ذلك تضربه وضربها له إنما هو خوفا فهى تدفع بنفسها بضربها وهى تأوى إلى الخنافس وتسالمها وتصادق من الحيات كل أسود سالخ وربما لسعت الافعى فتموت وفيها من يلسع بعضه بعضا فيموت الملسوع ومن شأنها إذا لسعت الانسان فرت فرار مميء يخاف العقاب.

وقال الجاحظ والعقارب تستخرج من موتها بالجراد لأنها حريصة على أكله تمسك الجرادة فى عود ثم تدخل بها فى مكانها فإذا عايتها العقرب تعلقت ومتى أدخل الكراث إليها وأخرج تبعته وما معها من جنسها ونوعها وهى اذا خرجت من بخشها فى طلب المطعم يكون لها نشاط وعزم تضرب كلما لقيته من حيوان أو نبات أو جماد وربما ضربت الطست والقمم فتخرقه وتسيل مادة وربما نشبت فيه ابرتها وهذه الابرة منعوتة فيها السم والعقارب القاتلة تكون فى موضعين بشهر زور وعسكر مكرم وهى جرارات وهذه العقارب تلسع فتقتل وربما يتناثر اللحم من لسعته أو تعفن لحمه واسترخى ولا يدنو منه

أحد الا وهو يمسك أنفه مخافة أعدائه وهى فى غاية الصغر فان أكبر ما يوجد منها يكون قدر زنته دانقا واحداً والذي يوجد منها كبيراً يكون زنته ثلاث حبات وقد وزنت بشعيرة فرجحت الشعيرة عنها ذكر هذا صاحب كتاب النوار ومن ظرائف أمرها أنها مع صغرها وقتلتها ونزارتها تقتل القليل والبعر بلسعها وينصيبين عقارب قتالة يقال ان أصلها من شهر زور وإن بعض الملوك حاصر بها فأتى بالعقارب من شهر زور ورمى بها فى كيزان بالمجانيق إلى البلد فأعطوا القوم بأيديهم وما أظرف قول من قال وقد واعد امرأة ليأتيها فلما خرج من عندها ضربته عقرب فى طريقه فقال:

ولقد سررت مع الظلام لموعد	حصلته من غادر كذاب
فإذا على ظهر الطريق معدة	سوداء قد علمت أوان ذهابي
لا بارك الرحمن فيها عقرباً	دبابة دببت إلى دباب
وسمع خبره صاحب الدار فقال:	
ودار وأيام سكانها	تقيم الحدود بها العقرب
إذا غفل الناس عن ذنبهم	فان عقاربنا تضرب

القول فى طبائع النمل: ذهب ابن أبى الاشعث أنه لا يتزوج ولا يتوالد ولا يتلاقح وإنما يسقط منه شيء حقير فى الأرض فينمو فيصير بيضاً ثم يتكون فيه وهو من الحيوان المحتال يتفرق فى طلب المعاش فإذا وجد شيئاً أنذر الباقيين فيجتنن ويحملن وكل واحد يجتهد فى اصلاح العامة غير مختلس لشيء من الرزق دون صاحبه ويقال إنما يفعل ذلك رؤساؤها ومن تحيله فى الرزق أنه ربما وضع بينه وبين ما يخاف عليه منه ما يحجزه عنه من ماء أو شعر فيتسلق فى الحائط ويمشى على جذع من السقف مسامتا لما حفظ ثم يلقى نفسه عليه وفى طبعه أنه يحتكر زمن الصيف لزمن الشتاء وله فى الاحتكار من الحيل ما أنه ما اذا احتكر ما يخاف نبأته قسمه نصفين ما خلا الكسفرة فإنه يقسمها أربعة لما ألهم أن كل نصف منها ينبت واذا خاف العفن على الحب أخرجه إلى ظاهر الارض ونشره وأكثر ما يفعل ذلك فى القمر ويقال ان حياته ليست من قبل ماكله ولا قوامه وذلك أنه ليس له جوف ينفذ فيه الطعام ولكنه مقطوع نصفين وإنما قوته اذا قطع الحب من استنشاق ريحه لا غير وذلك يغذوه ويكفيه وهو يشم ما ليس له ريح مما لو وضعه الانسان على أنفه لما وجد له ريحاً والكلام عليها طويل وهذا القدر كاف.

لبعض الشعراء فى البراغيث والبق والبعوض:

تومى على ظهر الفراش منغص	والليل فيه زيادة لا تنقص
من عادات كالذئاب تدابت	وسرت على عجل فلا تربص
جعلت دمي خمرا تداوم شربها	مسترخصات منه ما لا يرخص
فترى البعوض مغنيا برابة	والبق يشرب والبراغيث ترقص

أبو عامر بن شهيد يصفه: أسود زنجى وأهلى وحشى ليس بوان ولا رميل وكأنه جن لا يتحرى من ليل وشونيره أو نبتها غرره نقطة مداد أو سويداء قلب قراد شربه غب ومشيه وثب يسرى ليله ويكمن نهاره ولا يمنعه ستر يدرك بطعن مؤلم ويستحل دم كل مسلم مشاور للإساودة يجر ذيله على الجبابرة يتكفن بأرفع الثياب ويهتك ستر كل حجاب ولا يحفل ببواب يرد مناهل العيش العذبة ويصل الاجراح الرطبة ولا يمنع منه أمير وهو أحقر من كل حقير سره ميثوث وعهد منكوث.

نقلت من كتاب الامتناع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي أن نبات عرس إنما تلقح من أفواهها وتلد من آذانها ومن عادة هذا الجنس أنه يسرق ما وجد من حلى الذهب والفضة ويخبئه فى جحر وإن وجد أيضاً فى البيت حبواً خلط بعضها ببعض.

النمل غمولى مواظب فإذا جمع الحب قطعه كيلاً ينبت إذا أصابه الندى والبلبل ويخرجه ويسطه عند فم الجحر حتى إذا ييس أدخله فمن جرب طبائع النمل أدرك علم زمان المطر والصحو ومن أراد أن يهلك النمل فليدق الكبريت والحريق وليذره فى جحره ولا يولد من تزواج لكنه يخرج منه شيء صغير فيقع فى الأرض فيصير بيضاً ثم يتصور من البيض بالهيئة التى ترى .

الخنافس: إذا شمت ريح الورد ماتت وأجنحتها مدمجة لاصقة بها، البق والبعوض لا تناكح لهما وإنما تستحيل من عين الماء ووسخه ونته ومن أخذ غصن العنب ووضع تحت سريره لم يقربه بق ولا بعوض ومن أراد أن لا يتأذى بالبراغيث فليحفر وسط البيت حفرة ويملاها بدم تيس فإن البراغيث تجتمع هناك وإن وضع فى الحفرة ورق دفلى ماتت البراغيث، ثم ما ذكره أبو حيان فى الامتناع ومنه قيل للذئب أنزعك مفلس لا تقدر على قرض ولا جمع ولا خفالة وبيتك عامر بالفأر فقال على بن أبى عتيق الطلاق الثلاث البتة ان كان يمتهم من التحول عنا الا أنهم يسرقون أطعمة الناس ويأكلونها فى بيتي لأمتهم فيه لأنه لا هـ هناك.

وعلى ذكر الفأر فما أحسن قول الشيخ أحمد الموال الشهير بالفأر أنشدنيها المرحوم
الفخرى بن مكائن:

قلبي صبا نحو بطحي رأيت ورق لما رأى القاعد أخلفو عليها دق
ومذ قطعها الصبي شقات قلت الحق يا فار نلت المنى اعبر لهذا الشق

يتأذى بمن ينبذه بهذا القلب فاتفق حضورهما عند الأمير قشتم نائب السلطنة الشريفة
يسلمان عليه حين قدم من سفره فأخضر لهما مشروباً على العادة فمسك فخر الدين الاناء
وقال ذكروا أن شراب الليمون فى الاسفار يسكن الدم إذا فار فاحتد منه الفأر وقال كذبت
عن من نقلت هذا فقال عن الفارابى فكان الشاهد أنكى من الزائد.

نقلت من تذكرة العلامة عز الدين الموصلى شيخنا رحمه الله وفقاً يوضع لفقد الذباب
من البيت الذى يكون فيه وصورته ان يوضع يوم الخميس المعروف بخميس البيض قبل
طلوع الشمس بعد صلاة الفجر ويكون واضعه قد صام أربعة أيام لا يفطر فيها على زفر ولا
زهومة ثم يضعه على هذه الهيئة ويكون الوضع فى ورق لونه رصاصى تربيعاً بالمسطرة
محرراً وهو هذا الوقف المبارك ان شاء الله تعالى:

هلك	الذباب	باذن الملك	القاهر القدير
٨٧ 8	٦٧٢	8٦٢	8٧٣
٦٧١	٨٧٣	٧٢٨	8٧
٨٣٧	8٨	٦٧	٨٧٣

ناصر الدين بن النقيب:

ودار خراب بها قد نزل
فلا فرق بين أنى أكو
فوالله ما نمت فى أرضها
ومفردت بالصفات القبا
تشاورها هفوات النسب
إذا ما قرأت إذا زلزلت
وأخشى بها أن أقيم الصلا
ت ولكن نزلت إلى السابعة
ن بها أو أكون على القارعه
ولا طلعت لى بها طالعه
ح وما هى الا لها جامع
يم فتصغى بلا أذن سامعه
بها خفت أن تقرى الواقعه
ة فتسجد حيطانها الراكعه

قال الشيخ شمس الدين بن الصائغ أنشدنى الشيخ تاج الدين عبد الباقي اليماني قال
حضرت منزل الشيخ جمال الدين بن نباتة فرأيت فيه نملا كثيرا فقلت:

ما لى أرى منزل المولى الاديب به نمل تجتمع فى أرجائه زمرا
فقال لا تعجبين من نمل منزله فالنمل من شأنها أن تتبع الشعرا

وعلى ذكر النمل ذكرت ما نقلته من خط الوداعى ما صورته دب شخص شاهد عدل
يقال له النملة فعمل فيه عز الدين بن رواحة:

عنت على نميلة فى التعدى وجراءته على مسا لا يحل
وقلت مقال انكار عليه تدب على العدول وأنت عدل
فقال لقد عنت على ظلما وهل للنمل غير الدب شغل

من المجربات اذا طهر النمل فى موضع أن يقرؤ عشر مرات فى نفس وأحدهم الغذاء
والعشاء طويل فإنه يرحل بإذن الله.

السيد الفاضل شمس الدين بن الصاحب موفق الدين على الأمدى فى الحية:

وتخاله فى القيظ سوطا باليا ملقى وفى كانون دملج معصم
وقد استدارت مقلته بحمرة فيها تحاكي قطرتين من الدم
وله فيه:

وهو حبل قل اذا ما امتد أو مثل خيط النهر مهما اضطربا
سببا للموت وصلا به وكذلك الحبل يدعى سببا

من كتاب كتبه يحيى محي الدين بن عبد الظاهر إلى القاضي كمال الدين بن العطار
كاتب الدرج السعيد: من منزله خبره اللصوص من كل صلد تزاحمت به مدارج السيول
وغصت به حلوق الوحول وغدا شحيا فى صدور السهول قد جمعت الاقطار وجوه صفاته
وفتحت الأيام والليالى ما لعله من حسن صفاته وأصبح مغائرا فى طرق الزروع كم حصل
منه لها أذى ومحاجر كم أطرفت عيون الأرض منه على قذى كأن أسوده على الأرض كلب
يؤذى الابصار وكم خد به استدار منه له أوحش عذار كم تجمعت فلذة فكانت ظلمات
بعضها فوق بعض وبنيت فى الفضاء فأحسن بها من نهود تبدو فى صدور الأرض تروع
المراعى فى المراعى وتسمع بها قعاقع سهام المنايا فتندوا تراكيش للحيات والافاعى من
كل أفعى تفترس افتراس الضيفم وتملس املاس الجدول وتنكمش انكماش السهم تفرع

رائيها فى المنام وإذا انقبضت صارت عروة وإذا انبسطت فهي حزام كم جنات الترائب فى أنيابها وكم لعبت بالارواح بلعابها ذات ألوان كالدينا بينما تروق اذا هى نزوع ولين معاطف كالايام وكأنما استدار بها اشراك المرقوع قد غدت للخيام أطنابا عوض الاطناب وإذا شاهد الاطباء علاماتها وامتدادها قالوا هذا الذى يقال له الموت من العلامات والاسباب كم قد نضجت العيون منها بأسود سالخ وكم أحرق سمها مهربا فى كوره لاهاجة بار الموت وهو له نافخ ومن عجب أنها تمشى على بطنها ولا تأكل ما تفرس وتوقد فى الليالى المدلهمة عيونها نارا لا يجد عليها هدى طرق المقتبس.

القاضى فتح الدين بن الشهيد:

أقول لنمل العسار التى
حمت غسل الريق ألحاظه
على الخد دبت قفى تحملى
إلى ابن نمل فلا تسلى
بدر الدين يوسف الذهبى:

يا جمال الكتاب بل يا
لى بيت صعب مجارية الفك
حميد الذكر حقا ومن له العليا
ر وما أن تحمله البلغاء
والضرب والقبض فى ذراه سواء
جواز فيه التشعيب والاقواء
زمير وللذاب غناء
ك دليل أن ليس فسيه بناء
عامل لا أراك فسيه وهذا

منقول من الموجز لابن نفيس مما يطرد الهوام من البيت التبخير بأصل الرمان وقضبانه وأصل السوس والقنة والقرون والازلاف والحوافر والشعر والحلثيت وورق الغار وحبه ورماد الصنوبر وخصوصا مع القنة والشونير والمركبات من هذه الحيوانات التى تهرب منها الحشرات إذا جعل فى البيت لغلغ أو طاووس أو قنفذ أو ابن عرس فان الهوام تفرع منها وتهرب وإن ظهرت قتلها وكذلك البيضايات والايائل.

طرد الحيات الكبريت والنوشادر بالخل يهربها والخردل يقتلها وإذا وضع على مسكنها هربت منه.

طرد العقارب الفجل المشدوخ وعصارتة إذا مسكت وورقه والباذروج وثفل الصائم والتبخير بالعقرب يهرب العقارب وكذلك الزرنيج إذا وضع والفجل المقطع إذا وضع على جحرها لم يجسر على الخروج منه.

طرد البراغيث إذا رش البيت بطبيخ الحنظل أو نقوعه تماوتت البراغيث وتهارت وكذلك العليق والخرنوب ودم التيس إذا جعل فى حفرة آوت إليه البراغيث وكذلك يجتمع على خشبة طليت بلحم القنفذ ووسخ الكبريت والدفل يهربها.

وطرد البق والبعض التدخين بنشارة خشب الصنوبر أو القلقندس أو بالشونيز أو بمجموعهما وهو أجود بالأس اليابس أو بالكبريت أو باخشاء البقر أو بالحرملة أو بورق السرو أو جوزة ورش البيت بطبيخ هذه أو بطبيخ الترمس أو الدلب.

طرد ابن عرس يطردها ريح السداب.

طرد الفأر وقتلها: المرتك والحريق والبنج وأصل الفأر وهى تتداوى بالسباحة فى الماء فان لم تجدها ماتت والتراب الهالك وخبث الحديد وإذا سلخت الفأرة الذكر أو قطع ذنبها أو خصى وربط بخيط هرب الفأر الباقي والسلخ أقوى.

طرد النمل دخان النمل نفسه يطرده ويهرب.

طرد الذباب يقتلها الزرنيخ وحده أو باللبن ودخانه ودخان الكندر وطبيخ الحريق

الاسود.

وطرد الزنانير بخار الكبريت والثوم.

طرد الخنافس دخان الدلب وورقه.

طرد الارضه: يطردها الهدد إذا جعل فى البيت والتدخين بأعضائه وريشه.

طرد السوس: الاتشين والقوتنج وقشور الاترج وماء الحنظل الرطب.

طرد سام أبرص: الزعفران إذا جعل منه فى البيت هرب.

الباب الخمسون

في وصف الجنان وما فيها من حور وولدان

عن أبي سعيد الخدري يرفعه أن الله جل ذكره لما حوط حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرس غرسها ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فقال تعالى طوبى لك منزل الملوك وقال زيد بن أرقم قال رجل لرسول الله ﷺ تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون قال نعم والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب قال فان الذى يأكل تكون له الحاجة والجنة طيب لا خبث فيها قال عرق يفيض من أحدهم كرشح المسك فيضمر بطنه، دخل داود عليه السلام غارا من غير أن بيت المقدس فوجد حزقيل يعبد ربه وقد ييس جلده على عظمه فسلم عليه فقال أسمع صوت شعبان ناعم فمن أنت فقال داود قال الذى له كذا وكذا امرأة وكذا وكذا أمة قال نعم وأنت فى هذه الشدة قال ما أنا فى شدة ولا أنت فى نعمة حتى ندخل الجنة، قال مالك بن دينار جنات النعيم بين جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل ومن يسكنها قال الذين هموا بالمعاصى فلما ذكروا عظمة الله راقبوه، وقال بعض العلماء فى السدس الاخير من الليل تفتح أبواب الجنة ألا ترى أن أرواح الرياحين تفوح فى ذلك الوقت، جاء الاسلام ودار الندوة بيد حكيم بن حزام فباعها من معاوية بمائة ألف درهم فقال له عبد الله بن الزبير بعت مكرومة قريش فقال ذهبت المكارم الا من التقوى يا بن أخى اشتريت بها دارا فى الجنة أشهدك أنى جعلتها فى سبيل الله.

ولمؤلفه رحمه الله:

إذا رأيتم قبر خير الورى والمنبر الزاهى واجسلا له
بشراكم الجنة هنيئتم ومن يرى هذا فطوبى له

وأنا أبتهل بلسان التضرع والخضوع وأسأل لحظات الاعتراف والخشوع لمتصفحى كتابى هذا وأبوابه ومتأملى ألفاظه واعرابه الصفح عما يقفوا عليه من عشرات العبارات والمعانى والتجاوز عما وقع فيه من التقصير والتوانى فالمعترف بذنبه كمن لا ذنب له ومن لا يقبل العذر فالذنب له.

من رام أن يقبل البارى معاذره فليقبلن مسرعا ممن له اعتذار

وليقتد بقوله تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ (١) لا سيما مع استغراق زمان أنا بنكدة منوط وليل ونهار أنا فيهما بطلب القوت مربوط واغزا في عجومة ظاهرة في البيان وعجمة غالبية في اللسان تمنع عن ادراك حقائق المرادات والجمع بين دقائق المعاني وحسن العبارات ولكتنى مكره في ذلك لا بطل:

فان لم يكن نظم القصائد شيمتى وليس جدودى يعرب وايا
فقد تسجع الورقاء وهى حمامة وقد تنطق الاوتار وهى جماد

ثم قل أن يخلص مصنف كتاب من الهفوة بل الهفوات وهيئات ثم هيئات أن ينجو الناظر أو المؤلف من العثرة بل العثرات خصوصا مع الممتحنين بل المتعنتين والحاسدين المغتبيين ولكن قال رسول الله ﷺ: «من طلب عشرة أخيه ليهتكه طلب الله عشرته فهتكه».

لا تلتس من مساوى الناس ما ستروا فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وأنا أقسم على جماعة متصفحيه أن يتأملوه وينظروا فيه بعين الرضا ويعبروا عنه بلسان الصفا والوفا فان تجد فيه بعيدا قربه أو خطأ أصلحه وصوبه:

فان زل طرفى أو كبا فهو حلبة يزل بها الطرف المطهم جاريا
فعفوا جميلا عن خطاى فائنى أقول كما قد قال من كان شاكيا
وعين الرضا عن كل عين كليله كما أن عين المنحط تبدى المساويا

وبالله أستعين أولا وآخرها ظاهرا وباطنا والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

فهرسه موهنوعان الجزء الثانى منه كتاب مطالع البدور

الموضوع	الصفحة
الباب السادس والعشرون: فى الحمام وما غزى مغزاه	٣١١
فصل: فى الاستحمام ومنافع الحمام	٣١٢
الباب السابع والعشرون: فى النار والطباخ والقذور	٣٢٧
الباب الثامن والعشرون: فى الاسماك واللحوم والجزور	٣٣٥
فصل: فى اللحوم	٣٣٧
فصل: كتب الوزير فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس... إلخ	٣٣٨
الباب التاسع والعشرون: فيما تحتاج إليه الاطعمة من البقول فى السفرة	٣٤١
فصل: البصل	٣٤٣
الباب الثلاثون: فى الخوان والمائدة وما فيهما من كلام مقبول	٣٤٩
الباب الحادى والثلاثون: فى الوكيرة والاطعمة المشتهاة	٣٥٧
فصل: فى الاطعمة المشهورة ومضارها ومنافعها	٣٦٦
فصل: فيما يشهى المآكل	٣٧٣
فصل: فى الطست والابريق والخلال والمحلب والاشنان والمنشفة وآداب	
غسل اليد وكيفية الاستعمال	٣٧٧
الباب الثانى والثلاثون: فى الماء وما جرى مجراه	٣٨٥
فصل: فى المحمود من المياه	٣٨٨
الباب الثالث والثلاثون: فى المشروب والحلواء	٣٩٣
فصل: فى الاشربة	٤٠١
الباب الرابع والثلاثون: فى بيت الخلاء المطلوب	٤٠٥
الباب الخامس والثلاثون: فى نبلاء الاطباء	٤٠٩
الباب السادس والثلاثون: فى الحساب والوزراء	٤٢٥
فصل: فيما ينبغى للوزير أن يأتبه	٤٢٦
فصل: فى لطائف كلام الوزراء	٤٢٦
فصل: فى لطائف هذا الباب	٤٢٩
الباب السابع والثلاثون: فى كتاب الانشاء	٤٣٣

٤٣٣	الفصل: الأول
٤٤٢	الفصل: الثاني
٤٥١	الباب الثامن والثلاثون: فى الهدايا والتحف النفيسة الاثمان
٤٥٧	الباب التاسع والثلاثون: فى خواص الاحجار وكيانها فى المعادن
٤٧٧	الباب الأربعون: فى خزائن السلاح والكنائن
٤٩١	الباب الحادى والأربعون: فى الكتب وجمعها وفضل اتخاذها ونفعها
٤٩٩	الباب الثانى والأربعون: فى الخيل والدواب ونفعها
٥٠٠	فصل: فى العلامة الجامعة للتجابه فى الفرس
٥٢٧	الباب الثالث والأربعون: فى مصائد الملوك وما فيها من نظم السلوك
	الباب الرابع والأربعون: فى حظائر الوحوش الجليلة المقدار المتخذة لتزهره
٥٥٧	الابصار
٥٦٩	الباب الخامس والأربعون: فى الاسد النبل والزرافة والفيل
٥٧٩	الباب السادس والأربعون: فى الحمام وما فى وصفها من بديع النظام
	الباب السابع والأربعون: فى الحصون والقصور والآثار وما قيل فيها من رائق
٥٨٣	الاشعار
٥٩٥	فصل: ابتداء عمارة مسجد دمشق
٦١١	الباب الثامن والأربعون: فى الحنين إلى الاوطان وتذكر من بها من القطان
	الباب التاسع والأربعون: فى دار سكنت كثيرة الحشرات قليلة الخير عديمة
٦٢٥	النبات
٦٤١	الباب الخمسون: فى وصف الجنان وما فيها من حور وولدان
٦٤٣	فهرس الموضوعات

تمت فهرست الجزء الثانى من مطالع البدور